

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة ابن خلدون تيارت

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي



مخبر التوطين: مخبر الخطاب الحجاجي أصوله ومرجعياته وآفاقه في الجزائر

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه LMD في اللغة والأدب العربي

تخصص: دراسات نقدية

الحجاج البلاغي في الخطاب القرآني سورة هود أنموذجا

إعداد الطالب:

العايشي بختي

أمام لجنة المناقشة:

الرقم	الاسم واللقب	الرتبة	الصفة	مؤسسة الارتباط
01	بن يمينة رشيد	أستاذ التعليم العالي	رئيسا	جامعة ابن خلدون - تيارت
02	معزيز بوبكر	أ. محاضر (أ)	مشرفا ومقرا	جامعة ابن خلدون - تيارت
03	سبع بلمرسلي	أ. محاضر (أ)	مشرفا مساعدا	جامعة ابن خلدون - تيارت
04	مداني علي	أ. محاضر (أ)	مناقشا	جامعة ابن خلدون - تيارت
05	بن مسعود محمد العربي	أ. محاضر (أ)	مناقشا	جامعة زيان عاشور . الجلفة
06	دردار بشير	أ. محاضر (أ)	مناقشا	المركز الجامعي. تيسمسيلت

السنة الجامعية: 2019/2018

"إني لو خيّرته بين ديني وعقلي لأثرتُ بعقلي. لأنني
قد أصبح به متديّناً. لكنني لو فقدته فسأفقد ديني
معه؛ لأنّ الدين أسقط الخطاب عن المجانين".

شكر وامتنان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿رَبِّ أَوْزِرْ عَنِّي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ
وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [سورة النمل، الآية: 19]

وأنا أضع اللمسات الأخيرة لهذا المجهود المتواضع، لا يفوتني أن أتوجه بأسمى عبارات

الشكر والعرفان:

- إلى الأستاذ الدكتور **معز بن بوبكر** الذي تكبدت عناء رعايته البحث إلى آخره.

- إلى الدكتور **مرسلي سبيع** الذي لم يبخل علي من نبع علمه.

- إلى رئيس المشروع الأستاذ الدكتور زروقي عبد القادر لدعمه ونصحه وتوجيهاته.

إلى الأستاذ: **نخام حنجار** اعترافا بأجمل.

إلى هؤلاء تحية شكر وامتنان.

نختي العياشي

الإهداء

إلى أبي وأمي الكريمين.

إلى زوجتي رفيف دربي.

إلى قرة عيني أبنائي: عبد الرؤوف - ملك - أماني - ع الحي - عبد الوهاب.

إلى جميع إخواني وأخواني والأهل والأحباب.

إلى أخي وصديقي الدكتور: إسماعيل سعدي.

إلى هؤلاء جميعاً...

أهدي ثمرة جهدي

لا مشاحة أن القرآن أنزل رحمة ونعمة للبشرية في زمن تاهت فيه الأفكار والقلوب وصار الناس شيعة وأحزابا ومذاهبا، مُجانِبين عن الحق إلى الباطل، جاء القرآن الكريم ليصحح هذه التصورات ويبيصر الناس بالحق، ويدعوهم إلى عبادة الله وحده ونبذ الشرك والوثنية، فاستعمل لذلك حججا متنوعة، بين التبرير العقلي المبني على الحجج اليقينية، وبين حظّ الوجدان الذي يثير في النفس غرائز المتعة والاستمالة.

وكان من دوافع البحث اهتمامنا بالتراث العربي عامّة، والبلاغة العربية على وجه الخصوص لاستنطاق ما فيها من المكامن المتعلقة بالدّرس البلاغي، وشغفنا ببلاغة القرآن وإعجازه، لما فيه من أثر إعجازي حجاجي، فلا يُسمع أو تُتلى آية من آياته إلا كانت سلطاناً قاهراً على القلوب والعقول، ومن هذا المنطلق استقرّ في ذهننا موضوع البحث الموسوم بـ: "الحجاج البلاغي في الخطاب القرآني - سورة هود أنموذجاً-"

لا شكّ أنّ البلاغة رافدٌ مهم للحجاج، وهذا الأخير جاء ليبحث عن المواضع والحجج لإيقاع التصديق بين المتخاطبين، ولا يتأتى ذلك إلا باستعمال اللّغة وما تحمله من طاقة حجاجية، إضافة إلى الصّورة البيانية بكلّ أطيافها من جمالية الأسلوب إلى الاستدلال بالتمثيل، كلّها آليات وأساليب تشتغل عليها نظرية الحجاج التي تدعو إلى إشباع فكر المتلقي واستمالاته والتأثير فيه .

وليس من الصّواب المنهجي أن نقف عند حدّ البلاغة عند الصّورة فحسب، فالبلاغة لها صلة رحم مع النّحو والتفسير وعلم الإعجاز والمنطق وعلم الكلام والتأويل. لهذا عدّ حضور الحجاج البلاغي من الممارسات الخطابية، وأصبح أكثر من ضرورة في البيان، فهو يتّخذ أشكالاً وأنماطاً عديدة، نجده متوغلاً في ميادين حياتنا اليومية، والعائلية والأسرية وفي ميادين السّياسة وبين صنّاع القرار، فهو عنصر وكيان وجودي لا يمكن الاستغناء عنه، باعتباره فناً إبلاغياً تواصلياً يوحى بالإقناع والتأثير.

إنّ الغاية الكبرى التي يسمو إليها هذا البحث هو التّقيب عن مكامن الحجج والأدلة سواء كانت صريحة أم مضمرة، بيانية أم عقلية، وأنّ مناط هذا البحث ومداره هو الكشف عن تجلّيات الحجاج البلاغي في سورة هود. ومن هذا المنطلق يمكن أن نطرح الإشكالية الآتية : كيف يمكن الكشف عن مكامن الحجاج البلاغي في سورة هود؟

وعن هذه الإشكالية تنبثق عدّة تساؤلات منها:

- 1- ما معنى الحجاج البلاغي، وما أثره الإقناعي لدى المتلقي؟
- 2- ما مدى استجابة نظرية أفعال الكلام في الكشف عن مواطن الإقناع والتأثير في الخطاب القرآني؟
- 3- كيف يمكن توظيف آليات الحجاج البلاغي في سورة هود ؟
- 4- هل يمكن أن نقول أنّ الصّورة البلاغية في القرآن الكريم عامل مهم في التأثير والإقناع؟
- 5- هل يستجيب اللون البديعي في القرآن الكريم إلى إقناع المتلقي والتأثير فيه ؟
- 5- كيف ساق القرآن الكريم الاستدلال الحجاجي لإفحام خصومه؟
- 6- أين يتجلّى المكوّن الحجاجي للقصة القرآنية باعتبارها عنصراً فعّالاً في بناء الخطاب التداولي الحجاجي ؟

اعتمدنا في بحثنا هذا على انتقاء بعض النماذج القرآنية، وكان اختيارها حسب درجة قوتها في الخطاب والمقام الذي قيلت فيه، وحاولنا أن نُسقط عليها كلّ ما هو نظري، وهذا حتّى لا يستطيل البحث لغزارة الآليات وتعدّدها من القياس الخطابي إلى الصّورة البيانية إلى الأسلوب والشّاهد والاستشهاد وغيرها، وهذا من أجل ألاّ يَحيد البحث عن مساره الذي رُسم له مُسبقاً.

أما المنهج الذي فرضه البحث هو الوصفي التحليلي الذي يعتمد على المقاربة التداولية بكل تياراتها الحجاجية، والتي تقوم على معاينة الصّور الحجاجية وتحليلها في المدونة،

وعملنا على إسقاط بعض النظريات والمناهج الغربية في تحليل خطاب المدوّنة القرآنية، كالمنهج التولميني، وقواعد جودة الخطاب التي وسمتها "روبين لا كوف" بقواعد الكفاءة التداولية، دون التّغاضي عن استعمال الاستلزام الحوارى لغرايس .

لقد كان للأسرار الإعجازية وقيمها الحجاجية في السرد القرآنى محطة بارزة في البحث، ولما كانت سورة هود تسرد معظم قصص الأنبياء وجدالهم مع أقوامهم وأخذت حيزا كبيرا من مساحة السّورة، فقد اكتفينا بنموذج واحد هو جدال النّبي نوح عليه السلام مع قومه وابنه، وكان سبب اختارنا لهذه القصة تعدّد الأوجه الحجاجية فيها.

اقتضت طبيعة الموضوع أربعة فصول ومدخلا وخاتمة تعرض فيها أهم النتائج. تعرضنا في المدخل إلى أهم المصطلحات المهمّة في هذا البحث، منها الحجاج في السّياق الغربى والعربى، ثم تدرجنا إلى معرفة هوية البلاغة عند الغرب والعرب، كما تكلمنا بإسهاب عن معنى الحجاج البلاغى ودوره في الخطاب القرآنى .

أما الفصل الأوّل فقد كشفنا فيه عن المسار التاريخى لمعالم التّفكير البلاغى في السّياق اليونانى، بدءا بالسفسطائيين إلى معالم بلاغة أرسطو، كما تحدثنا عن البلاغة التّحديثية لبلاغة "بيرلمان وتتيكا" والصّورة البلاغية لـ"ميشال مايبير" والحجاج المنطقى لـ"تولمين" وغيرهم .

وفي الجزء الثانى تطرقنا إلى المسار التاريخى للبلاغة العربية بدءا بقيمة اللّغة العربية وأثرها في بيئة العرب، ودور القرآن الكريم في إثرائها، خاصّة البيان منه والدور الإعجازى الذى طفحت به آيات السّورة، ثم عرّجنا على مساهمة المعتزلة في تطوّر البلاغة وإضافتها النّزعة العقلية، بعدها تتبّعنا دور علماء الإعجاز فى بيان إعجاز القرآن، والوقوف على أهم محطات السّر الإعجازى.

وتأتى المرحلة الثانية من البحث وهى الانتقال من الجانب التّنظيرى إلى الجانب التّطبيقى، بدءا من الفصل الثانى الذى اشتغل على بيان حجّة الإقناع باستخدام الآليات

اللغوية والتداولية، فتناولنا فيه حركة المفردة القرآنية وبعدها الحجاجي، ثم وقفنا على دراسة بعض الظواهر التركيبية، كبلاغة الصمت والإضمار والعدول الكمي وغيرها، وبعد ذلك وقفنا على معرفة القوة الإنجازية للفعل الكلامي وما تسعى إليه من تأثير في نفسية المتلقي، وهذا من خلال ثنائية (الأمر والنهي) و(الاستفهام) و(النداء) وغيرها من الآليات، التي تعمل على تشكيل البنية العميقة التي يؤول إليها الخطاب البلاغي في المدونة وخصّ الفصل الثالث دراسة الصورة البلاغية في سورة هود بكلّ أطيافها، وما أفضت إليه من قيمة حجاجية، وهذا من خلال نماذج بارزة مهيمنة في الخطاب تظهر من خلالها مقاصد الذات الإلهية وأثرها على متلقي الخطاب، وأسهم الجزء الثاني بدراسة المحسنات البديعية وما تفعله في نفسيّة المتلقي بحسن إيقاعها وبلاغة معانيها.

كما تعهد الفصل الأخير الوقوف على الجانب العقلي باعتباره نواة للدراسات البلاغية، فأظهر فيه بعض تطبيقات آليات الاستدلال الحجاجي في القرآن، وما تحمله من طاقة حجاجية، أما الجزء الثاني من الفصل فكشفنا فيه عن حجاجية القصص القرآني الحجاجي الحوارية للقصّة القرآنية، لأنّ المدونة يطغى عليها الجانب القصصي كما ذكرنا سابقاً. وتتلو هذه الفصول خاتمة؛ ذكرنا فيها أهمّ النتائج التي توصل إليها هذا البحث، مرفوقاً بملخص، بعدها ذيلنا بحثنا بملاحق تحمل أهم الآيات التي عنيت بالدراسة في جميع مواقع البحث.

وفي الأخير نقول إنّنا اعتمدنا على منهجية تطبيقية في تحليل المدونة القرآنية، إذ قسمنا بحثنا إلى عدّة مستويات، المستوى اللغوي والتداولي، والمستوى البلاغي والمستوى العقلي المختوم بالتمثيل الأسلوبي والمكوّن الحجاجي للقصص في سورة هود، وهذه المستويات تتداخل مع علوم معرفية عديدة: منها الفلسفية والمنطقية واللسانية والنفسية والاجتماعية، مما ينتج عنه تعدّد الدلالات والمقاصد، فنترتب عنه صعوبة في الإمساك بالغرض الحجاجي، مما يطرح أيضاً صعوبة في التحكم في المنهج.

وقد سيّجنا دراستنا البلاغية الحجاجية بمصادر من أمّهات الكتب سواء كانت بلاغية أم تفسيرية، وهذا لحرصنا الشديد على استنباط الأدلّة والحجج من مصادرها الحقيقية، فكتب التفسير على سبيل التمثيل لا الحصر، كتاب التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، والكشّاف للزمخشري وغيرهما، أما المصادر البلاغية والحجاجية فنجد كتاب البيان والتبين، وكتاب الحجاج في القرآن الكريم لعبد الله صولة، وكتاب في بلاغة الحجاج لمحمد مشبال، وبلاغة الخطاب الإقناعي لحسن المودن، وكتاب الاستدلال البلاغي لشكري المبخوت وغيرهم.

وقد واجهتنا صعوبات في هذا البحث أهمها :

- صعوبة التحكم في المنهج؛ لأنّ البحث يتقاطع مع عدة علوم.

- ندرة الدراسات التطبيقية في ميدان الحجاج البلاغي في القرآن .

وفي الختام نحمد الله ونثني عليه فهو وحده المستحق للحمد والشكر والتعظيم والثناء، كما نوجه شكرنا وامتناننا لأستاذنا الفاضل الدكتور معزیز بوبكر، الذي شجّعنا على المضي في البحث، ولم يبخل علينا من نصائحه القيّمة ودُرره الثمينة، فله أصدق مشاعر عبارات العرفان والتقدير، كما لا ننسى شكرنا الجزيل للدكتور سبع بلمرسلي الذي لم يبخل علينا بنصائحه وتوجيهاته النيرة، كما نتقدم بالشكر الجزيل إلى رئيس المشروع الأستاذ الدكتور عبد القادر زروقي على توجيهاته ونصائحه، فلهم جميعا جزيل الشكر، ولههم منّا أسمى عبارات التقدير والاحترام، دون أن ننسى أساتذتنا المناقشين على تجشّمهم عناء قراءة هذه الأطروحة وتصويب هئاتها فلهم كامل الشكر والعرفان.

وأخيرا أملنا أن يكون هذا البحث بصمة جديدة تُضاف إلى المكتبة الجزائرية فإنّ وفّقنا فمن الله وحده، وهذا مبتغانا فحسبنا أنّنا سعينا وبذلنا وحاولنا، وإن وقع الخطأ والتقصير والإخلال فهو منّا ومن الشيطان، ونلتمس المغفرة من الله وحده ثمّ المعذرة من القارئ، ويبقى النقص من سمات البشر، والله ولي التوفيق.

مدخل

التطور المفهومي لمصطلحي الحجاج والبلاغة

- توطئة

أولاً- في ماهية الحجاج والبلاغة

ثانياً- تعالق الحجاج مع بعض المصطلحات الخطابية

توطئة:

لقد ميّز الله الإنسان عن سائر المخلوقات بالعقل، به يفكر في أسباب وجوده، وهياً له لغة يبني بها أفكاره، ويعبر عما يختلج في نفسه، فهي وسيلة تعبير وتبليغ وإقناع، وقد عبّر عنها ابن جنّي في كتابه الخصائص "حدّ اللّغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم". فهي ذات بعد فيزيولوجي، عصبي، ترتبط مباشرة بالصّوت المنبعث من الجهاز النطقي، أما كلمة قوم فهي تعبر عن رمز حضاري وثقافي لشعب من الشعوب، كما توحى كلمة أغراضهم إلى الوظائف و الأدوار التي يتواصل بها أفراد مجتمع ما، وإنّ لغة المجتمع تمثل أحد جوانب ثقافته...إنّ العلاقة بين اللّغة والثقافة هي علاقة الجزء بالكل⁽¹⁾.

تسعى اللّغة إلى فتح آفاق للعالم، فهي جزء كامل من التفاعل الاجتماعي "أنساقها أمور متواضع عليها، إذ هي لا تنظم ضروب التأثير والتأثر الاجتماعي فحسب، وإنما مقولات تلك الأنساق وقواعدها تنمو وتتطور تحت تأثير بنية التفاعل داخل المجتمع"⁽²⁾، فتعمل على تحقيق التواصل بين الشعوب وتقرب الثقافات وتشر القيم الإنسانية والأفكار والاتجاهات، وتشتغل على تجسيد تاريخ ثقافات الأمم، فهي بمثابة الضمان الأساس للتواصل، يحملها كل خطاب يدعو إلى إثارة العقول واستمالة القلوب، لهذا "لا تعدّ بنية اعتبارية، بل نشاط لأفراد مندمجين في سياقات معينة"⁽³⁾، فهي نظام اجتماعي مشترك بين أفراد المجتمع الإنساني.

(1) - ينظر: د.هدسون: علم اللغة الاجتماعي، تر، محمود عياد، عالم الكتب، القاهرة، ط2، 1990، ص135.

(2) - فان دايك: النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، تر، عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، بيروت، لبنان، (د- ط)، 2000م، ص227.

(3) - دومينيك مانغونو: المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، تر، محمد يحياتن، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 2008م، ص54.

أولاً- في ماهية الحجاج والبلاغة:

1- الحجاج عند الغرب:

إنّ ارتباط الحجاج بالخطاب الطبيعي جعله "يجمع بين الصّورة والمضمون، فهو يحدّد مجموعة من الأقوال التي تستهدف بيان حقيقة ما، أو إقناع المخاطب أو إنشاء معرفة...⁽¹⁾، فهو يشتغل على لغة التّخاطب اليومي، والصورة التي يتضمنها ليست بالضرورة تحمل أدلة صريحة، بل أحيانا تتخللها أدلة مضمرة، تتجه مباشرة إلى مقاصد المتكلم؛ لأنّ الحجاج يستهدف الإقناع والإفحام معاً، وينشد إلى إحراز المنفعة لمتلقي هذا الخطاب، فيُسهّم في تغيير سلوكه أو معتقده مهما كانت الطبقة المتبعة في ذلك⁽²⁾، فالمتكلم لا يتكلم إلا لقصّد بلوغ غاية، مستعملاً كل الوسائل والآليات الحجاجية للوصول إلى إقناع السامع.

وتأتي دلالة مصطلح الحجاج (Argumentation): في الدراسات اللسانية الحديثة على أنّه "جملة من الحجج التي يُوتي بها البرهان على رأيٍ أو إبطاله، أو هو طريقة تقديم الحجج والاستفادة منها"⁽³⁾. أما في القاموس الأجنبي الفرنسي "petit Larousse" فقد ورد الفعل (arguer) بمعنى استنتج، جادل، استدلّ . أما معنى الفعل (Argumenter) جاء بمعنى قدّم حججا، جادل . ومن هذا الفعل اشتق منه مصطلح الحجاج (Argumentation) بمعنى مجموعة من الأدلة لتأكيد الإثباتات لقضية ما، وقد يعني محاجة⁽⁴⁾.

ويقرّب كل من (أندريس Andersen) و(دوفر Dover) مسافة مفهوم الحجاج أكثر ويعتبرانه، "طريقة لاستخدام التحليل العقلي والدعاوى المنطقية، وغرضها حل النزاعات

(1) - حسان الباهي: اللغة والمنطق، دار الأمان، الرباط، ط1، 2000، ص138.

(2) - ينظر: حبيب أعراب: الحجاج والاستدلال الحجاجي، (عناصر استقصاء نظري)، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، المجلد 30، العدد 01، يوليو - سبتمبر، 2001، ص99.

(3) - جميل صليبا: المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، (د- ط)، 1982م، ص446.

(4) - petit Larousse, Dictionnaire encyclopédique pour tous, Librairie Larousse, Paris 1980, p62.

والصراعات، واتخاذ قرارات محكمة، والتأثير في وجهات النظر والسلوك⁽¹⁾. هذه الخطوات يعتمدها المخاطب في تبني موقف ما، فيستجمع طائفة من الأساليب والتقنيات الحجاجية، بُغية إقناع المتلقي .

وتأسيسا على ما سبق فقد حدّد بيرلمان وزميله تتيكا- في مصنفهما الموسوم ب(مصنف الحجاج)- أنّ الغاية التي يشتغل عليها كل حجاج "أن يجعل العقول تدعن لما يطرح عليها، أو يزيد في درجة الإذعان، فأنجح الحجاج ما وفق في جعل حدّة الإذعان تقوى درجتها لدى السامعين بشكل يبعثهم على العمل المطلوب (انجازه أو الإمساك به)، أو هو ما وفق على الأقل في جعل السامعين مهيبين لذلك العمل في اللحظة المناسبة"⁽²⁾. ويرى أيضا (أورليون Oleron, pierre) أنّ الحجاج يجمع بين قوّة العقل والوجدان، فالعقل هو تلك الطاقة الفكرية التي يميّز بها الإنسان عن غيره من الكائنات، بها يفكر ويستتبط ويعلّل، مصحوبا بقوة الوجدان؛ لأنّ نجاح الحجاج يترتب عليه "أن يكون إجراءً عقلياً، وقوّة تأثيرية مع ما يوجد بينهما من تنافر، فالتأثير يقود إلى الانخراط، لأنّه يملك تقنيات التعبئة، ويتموضع داخل علاقات الإغراء المتبادلة، وما تحمله من شحنات عاطفية؛ والاستدلال يُنشئ الروابط بين القضايا، ويعمل على توسيع وتدعيم حقل المعرفة"⁽³⁾، هذا يعني أنّ الحجاج يتحرك على جوانب عدة في الخطاب، فهو سلوك اجتماعي ثقافي ونفسي وحضاري، وبالتالي "فليس الحجاج في النهاية سوى دراسة لطبيعة العقول، ثم اختيار أحسن السبل لمحاورتها، والإصغاء إليها، ثم محاولة حيازة انسجامها الايجابي (L'adhésion positive) والتحامها مع الطرح المقدم. فإذا لم توضع هذه الأمور النفسية

(1) - محمد العبد: النص الحجاجي العربي، مقال ضمن مجلة جذور، ع 21، 01 ديسمبر 2005، السعودية، ص244-245.

(2) - عبد الله صولة: الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال مصنف الحجاج، ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمادي صمود، سلسلة آداب، مجلد39، كلية الآداب، منونة، (د-ت)، ص299.

(3) - محمد طروس: النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2005م، ص9.

والاجتماعية في الحسابان فإنّ الحجاج يكون بلا غاية وبلا تأثير⁽¹⁾. وعليه فإنّ قيمة وقوّة الحجاج تكمن في مدى استجابة المتلقي لسلطة المتكلم والاقتناع بأفكاره .

2- الحجاج(*) عند العرب:

إنّ نظرة الحجاج عند العرب لا تتحرف كثيرا عن الوظيفة الأساسية التي يشتغل عليها الحجاج عند الغرب، وقد أُستعمل في تقويم اللسان وبيان الحق، وقد عدّه أبو الوليد الباجي (ت474هـ) تقنية كلامية تؤدي إلى تحقيق مكاسب، ويُعلن أنه "أرفع العلوم قدرا وأعظمها شأنًا؛ لأنه السبيل إلى معرفة الاستدلال وتمييز الحق من المحال، ولولا تصحيح الوضع في الجدل لما قامت حجةٌ ولا اتّضحت محجةٌ ولا عُلم الصحيح من السّقيم ولا المعوجّ من المستقيم"⁽²⁾.

أما طه عبد الرحمن فيربطه بفكرة التّواصل التّداولي، بقوله: "وحدّ الحجاج أنّه فعالية تداولية جدلية، فهو تداولي؛ لأنّ طابعه الفكري مقامي واجتماعي... وهو أيضا جدلي لأنّ هدفه إقناعي قائم بلوغه على التزام صورّ استدلالية أوسع وأغنى من البنيات

(1) - محمد سالم الطلبة: مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، مقال، ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته، ج2، ص189.

(*) دلالة الحجاج في السياق اللغوي: يعود أصل مادة الحجاج في السياق اللغوي حسب ابن منظور (1311م/711هـ) في اللسان إلى مادة "ح ج ج"، يقال: حاججته، أحاجه، حججا ومُحاجّة حتى حججته أي غلبته بالحجج التي أدليت بها. والمحجّة: الطريق؛ وقيل جادّة الطريق. والحجّة: البرهان؛ وقيل: الحجّة ما دوفع به الخصم. وفي الحديث: (فحجّ آدم موسى)، أي غلبه بالحجة. واحتجّ بالشيء: اتّخذ حجة، قال الأزهري: الحجّة الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة. (ابن منظور، لسان العرب، المجلد الثاني مادة "ح ج ج"، دار صادر، بيروت، ج1، ص228.

أما أبو بكر الرازي في مختار الصحاح، فيرى أنّ مادة (ح ج ج) تحمل عدة معان، منها القصد، والغلبة والحجة فيقول: "الحجّ في الأصل القصد، وفي العرف قصد مكة للنسك،... والحجّة البرهان، وحاجّة فحجّه من باب ردّ، أي: غلبه بالحجة... ورجل محجاج بالكسر، أي: جدل، والتّحاج: التّخاصم والمحجّة بفتحين جادّة الطريق". (زين الدين محمد بن أبي بكر الرازي، مختار الصحاح، تحقيق، يوسف محمد الشيخ، الدار النموذجية، بيروت، صيدا، ط5، ص52، مادة حجج). ويتضح ممّا سبق، أنّ التنوع اللغوي لمادة (ح ج ج) مرهون بالتنوع السياقي الذي استعمل فيه، فالحجاج وفق المعاجم السابقة يحمل عدة معاني منها: القصد، إظهار الدليل والبرهان، الجدل، التّخاصم، الحجّة التي يدافع به الخصم، والمنازعة والمغالبة.

(2) - أبو الوليد الباجي: المنهاج في ترتيب الحجاج، تحقيق: عبد المجيد التركي، دار المغرب الإسلامي، المغرب، ط2،

البرهانية الضيقة... وأن يفهم المتكلم معاني غير ذلك التي نطق بها؛ تعويلا على قدرة المخاطب على استحضارها إثباتا أو إنكارا كلما انتسب إلى مجال تداولي مشترك مع المتكلم⁽¹⁾، ونخلص من هذا القول أن حقيقة كل خطاب حجاجي يستند على اللغة الطبيعية، بعيدا عن اللغة الصناعية، مستخدما كل طرق التفكير التي تحمل المتلقي على تقبل الوضعية الجديدة التي يؤول إليها الخطاب، والمتلقي له حق التأييد أو الاعتراض.

3- هوية البلاغة^(*) عند الغرب والعرب:

3-1 عند الغرب:

تعد إشكالية هوية المصطلح (البلاغي - Rhétorique) من المعضلات التي تعترض طريق الباحث، ولهذا وجب تفكيك ضبابية هذه المصطلحات لأنها "أساس لكل ما نراه من خلل أو انحراف أو ضبط منهجي"⁽²⁾، يغير مجرى المعنى الدلالي والمقصد الحقيقي للخطاب.

ولا شك أن هذا الانشطار في تعدد الترجمات هو السبب في اختلاف دلالاته، فمصطلح البلاغة يحمل دلالة مزدوجة: هو فن القول وأناقة التعبير من جهة، كما أنها الكلام الهادف إلى الإقناع من جهة أخرى، لهذا فإن الذين ترجموا المصطلح بالخطابة إنما نظروا إلى الجانب الخاص بإيجاد الحجج؛ لأن الوظيفة التي حددها أرسطو Rhétorique ليست إصابة المتلقي بالرعشة الناتجة عن المفاجأة (أو خيبة الانتظار)، وإنما هي الإقناع أولا وأخيرا⁽³⁾.

(1) - طه عبد الرحمن: أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 2000، ص65.
(2) لقد مرّ على مصطلح البلاغة عدة مفاهيم ودلالات ورغم الاختلافات حسب مسمياتها الجارية اليوم "البلاغة الحجاجية" "البلاغة الجديدة"، أو الحجاج في الخطاب" أو "فن الحجاج" أو "النقد البلاغي" وغيرها من التسميات، بيد أن في جوهرها ذلك الحقل الذي يهتم ببنية الإقناع وجريانه في الخطابات التواصلية العمومية أو غيرها من الخطابات اللفظية. (للاستزادة أنظر: محمد مشبال، في بلاغة الحجاج، نحو مقارنة حجاجية لتحليل الخطاب، كنوز المعرفة، عمان، ط1، 2017، ص23.

(2) - يوسف وغليسي: إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2009، ص56.

(3) - ينظر: عمر أوكان، اللغة والخطاب، رؤية للنشر، والتوزيع، القاهرة، ط1، 2011، ص165.

لقد وضع أرسطو حدودا بين بلاغة الخطابة (الريطوريقا)، وبلاغة الشعر (البويتيقا) فلكل لون له تقنيته الخاصة؛ فهما متمايزان: فالتقنية الشعرية تتناول فناً للاستحضار التخيلي؛ وذلك بتقعيد تطوّر الأثر من صورة إلى أخرى، أما التقنية الخطابية فتهتم بتطوّر الخطاب من فكرة إلى أخرى، وهذا يحدّد جوهر البلاغة الأرسطية⁽¹⁾، كما يرى أنّ الحجاج هو جوهر الخطابة لما يشكّله من أدلّة على متلقيه، وتختلف هذه العلاقة في وجهين:

- 1- نوع الجمهور: فجمهور الخطابة جماعة تستمع إلى خطيب عيني، بينما جمهور الحجاج يمكن أن يكون حاضراً أو غائباً ويلجّ على المكتوب أكثر من المنطوق.
- 2- نوع الخطاب: الخطابة انحصرت فيما هو شفوي، أما الحجاج فيمكن أن يكون شفويّاً أو مكتوباً⁽²⁾، فأرسطو يرى البلاغة من منظور حجاجي تقوم على تحقيق البعد الإقناعي بعيداً عن كل نقل فيه تشويش أو انحراف أو تزييف للوقائع التي تبعد الخطاب عن وظيفته الأساسية.

أما الحديث عن البلاغة في نظر (بيرلمان Perelman)، فقد أشار إلى الأبعاد والدلالات الاجتماعية التي تسعى إليها البلاغة الجديدة، والتي توافق معنى الحجاج، وقد عبّر "عن هذا التوجّه العام الذي يروم إلى جعل البلاغة علماً مستقبلياً هدفه... تطوير المجتمع وتحليل مختلف الخطابات عن طريق الوقوف على خطتها الحجاجية المتأسّسة عليها، وهي أهداف تحقّق أيضاً آفاق القراء وحججهم من جهة، والتّخلي عن النزعة المعيارية من جهة ثانية"⁽³⁾. فالبلاغة عند بيرلمان جاءت لتعظّم روابط التّواصل بين المتخاطبين، وتحقيق مبدأ المنفعة الكلامية والاهتداء بها إلى الإقناع والتأثير.

(1) - ينظر: رولان بارت، قراءة جديدة للبلاغة القديمة، تر: عمر أوكان، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2011، ص31-32.

(2) - ينظر: عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، دراسات وتطبيقات، مسكيلياني للنشر، تونس، ط1، 2011، ص22.

(3) - محمد سالم محمد الأمين الطلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2008، ص102.

إنّ البلاغة الجديدة لم تُعدّ تهتم "بشكل كبير بالخطاب الذي يدعو إلى التأثير الجمالي المحض وزخرفة القول؛ بل تسعى إلى تثمين كلّ فعل وقول، وتجعله وسيلة للإقناع من خلال جذب ذهن السّامع عبر تقنيات التّمثّل، كما تُعدّ وسيلة للإبداع والابتكار⁽¹⁾، بالإضافة إلى سعيها إلى أهداف جليّة، فقد جاءت من أجلّ بناء فكر حسن ناضج، يعمل على ربط جسر التّواصل بين الأمم وتطويرها، فهي بلاغة تتجزأ أربع غايات أساسية وهي:

❖ الوصول إلى التفكير المنطقي السّديد الذي يؤمّن فيه من الخطأ.

❖ تحريك الذكاء، وتدريبه بالكلمات.

❖ معرفة كيف نستعمل الكلمات للتفكير التوجيهي.

❖ معرفة كيف نستعمل الكلمات للتّحريك الاجتماعي⁽²⁾.

أما "بول ريكور" فيعتبرها عملاً وظيفياً في الفعل الكلامي؛ لأنّها فنّ للخطاب الفعّال والمؤثّر، الذي يُعدّ القول بمثابة فعل (acte)، فالخطيب يسعى إلى الحصول على رضا مستمعيه ودفعهم -إن اقتضى الحال- إلى التّصرّف في الاتجاه المرغوب فيه. وبهذا تكون البلاغة إنجازية وتأثيرية في وقت واحد⁽³⁾. وتكون بذلك قد فتحت آفاقاً جديدة في الدّرس الحجاجي لتحقيق وظيفة الإقناع والتأثير.

3-2 عند العرب:

أما بطاقة هويتها في المفهوم العربي فتعني قوّة الحجّة، التي تدعّن المتلقي، فتغيّر في نمط سلوكه، يذكرها الجاحظ بقوله: "جماع البلاغة البصر بالحجّة والمعرفة بمواضع الفرصة"⁽⁴⁾؛ وهذا يعني أنها لا تكفي بالإمتاع الجمالي في إثارة المتلقي فحسب؛ بل يتعدّى

(1) - ينظر: صابر حياشة، التداولية والحجاج مداخل ونصوص، صفحات للدراسات والنشر، دمشق، الإصدار الأول، 2008، ص16.

(2) - ينظر: سلامة موسى، البلاغة العصرية واللغة العربية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، القاهرة، (د- ط)، ص90.

(3) - ينظر: بول ريكور: البلاغة والشعرية والهرمينوطيقا، تر، مصطفى النحال، ضمن، مجلة الفكر ونقد، عدد16 فبراير، الرباط، ص108.

(4) - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق، ع السلام محمد هارون، القاهرة، 1948، ج1، ص88.

عملها حسب قول الجاحظ إلى وظيفة الإقناع والافتناع والتأثير. ويعتبرها أبو الهلال العسكري (ت395هـ) بمثابة العمل السحري من خلال الأثر النفسي الذي تتركه في قلب السامع قائلاً: "البلاغة كل ما تُبلِّغ به المعنى قلب السامع، فتمكّنه في نفسه مع صورة مقبولة ومعرض حسن"⁽¹⁾ لبهجة قضية ما وتنميقها، وتقديمها إلى المتلقي في أحسن صورة.

في المقابل نجد ابن المقفع يُدرجها ضمن لغة السفسطائيين، ويرأها تزييفاً للحقائق بصورة مغلوطة، لا تُعين إلى بيان أهل الحق بقوله: "البلاغة ما أُغْمض من الحق، وتصوير الحق في صورة الباطل"⁽²⁾؛ لكن الجرجاني (471هـ)، لم يحصرها في تزيين الكلام وتنميجه والبحث عن جماليته فحسب، بل يراها سلوكاً يسعى به المتكلم إلى إقناع الطرف الآخر، والتأثير فيه؛ أي "لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه، ولا يكون لفظه أسبق إلى سمعك من معناه في قلبك"⁽³⁾، فالبلاغة لها فضل كبير في بيان أساليب العرب، وبيان أسرار الإعجاز الإلهي للقرآن الكريم لقوله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾⁽⁴⁾.

أما السكاكي فيُصنّفها في علم الاستدلال، ويرى أن لا وجوه للإقناع ولا نجاعة للكلام في ظلّ البلاغة إلا حين "تخضع للعقل وقوانين المنطق، والذي يراعي فيه صحّة الفكرة وسلامتها، وتسلسلها بحيث يؤدي التعبير عنها ما هو مطلوب من إبراز تلك الصحّة العقلية في تعبير مُماثل، يُسلم إلى نتيجة منطقية تُلزم القارئ والسامع؛ لأنها افتعلت عقله وفكره وسيؤدّي في الافتناع بما تُفضي إليه المقدمات من النتائج"⁽⁵⁾، ويبدو أنّ السكاكي قد قدّم الجانب الاستدلالي على الجانب الجمالي.

(1) - أبو الهلال العسكري: كتاب الصناعتين، تحقيق: علي محمد الجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، مصر، ط1، 1952، ص10.

(2) - أبو الهلال العسكري: كتاب الصناعتين، ص38.

(3) - ينظر: عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تح: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط5، 2004، ص267.

(4) - سورة النحل: جزء من الآية 44.

(5) - بدوي طبانة: البيان العربي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط2، 1958، ص202.

ومن جهة أخرى نجد محمد العمري يرى: أنها لا تطرح إشكالا لكونها تهتم بأطر الخطاب الشعري التخيلي، والخطاب الحجاجي التداولي، وهذا نتيجة الدمج الذي مارسه، في المرحلة الثانية من تاريخها، كل من (عبد القاهر الجرجاني ت471هـ) (ابن سنان الخفاجي ت466هـ) ثم (السكاكي ت626هـ) و(حازم القرطاجني ت684هـ)⁽¹⁾، ومعنى هذا أن هناك بلاغتين: فالأولى تهتم بالوظيفة الجمالية، التي تصدر من الجانب التخيلي، بينما البلاغة الثانية تركز على الجانب التواصلي الإقناعي من خلال الفعل التداولي.

وقد أشار العمري أيضا أن البلاغيين العرب لم يصرحوا صراحة بضرورة الاهتمام بالحالة النفسية للمتكلم والمتلقي، لكنهم بصورة غير مباشرة أدرجوا ذلك تحت مسمى (لكلّ مقام مقال)، وهذا يعني أن فكرة المقام هي الشق الذي تركز عليه عملية التخاطب، وهي ضرورة لا غنى عنها في استعمال اللغة؛ أي أن فكرة مراعاة المقام والحال في البلاغة العربية بوصفها عنواناً مهماً بين علاقة الخطيب بالمتلقين⁽²⁾، كما يعمل على تحليل مادة الخطاب والكشف عن أفعه المعرفي والحجاجي.

من خلال الأقوال السابقة عند الغرب والعرب عن ماهية البلاغة، نخلص إلى أن "البلاغي في أي خطاب، هو ما يجعله مقنعاً باتّحاد الموضوع والشكل. أقصد بالمضمون المحتوى الإخباري، والبنية المنطقية للخطاب، وبالشكل كلّ ما ينبع من الوجدان (الإثارة والتّهييج) كما أقصد البناء (التّظيم، disposition) والأسلوب ثم الأداء في آخر المطاف"⁽³⁾.

ويستخلص من الأقوال السابقة أن البلاغة لا تخرج عن الملامح الأساسية التالية:

- 1- الإقناع، أي إيداء الاتفاق. 2- الإعجاب، الإغراء، أو التّلاعب والتّبرير (تبرير وتلاعب بالأفكار قصد تمريرها مهما كان الثمن). 3- تمرير الرّأي أو ما هو رأي محتمل بحجج متينة. 4- اقتراح الضمّني من خلال الصّريح. 5- تأسيس المعنى المجازي على

(1) ينظر: محمد العمري، البلاغة الجديدة، بين التخيل والتداول، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط2، 2012، ص11.

(2) ينظر: جميل عبد المجيد: البلاغة والاتصال، دار غريب، القاهرة، (د-ط)، 2000، ص16-17.

(3) محمد العمري: البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول، ص218.

المعنى الظاهري. 6- استعمال اللغة المجازية والأسلوبية والأدبية. 7- اكتشاف نوايا المتكلم أو الكاتب ومنحها حجمها اللائق بها⁽¹⁾. كما أجمع اللسانيون وظائف البلاغة في خمس وظائف:⁽²⁾

- 1- الوظيفة الإقناعية: وهي تُعد الوظيفة الأساسية للبلاغة، والإقناع هنا درجات، أولها الإقناع العقلي، وآخرها الإقناع الترهيبى الذي يعتمد على العنف اللغوي وغيره.
- 2- الوظيفة المعجمية: وما تحويه من صور مجازية، وتشبيهات، وألعاب صوتية وأسلوبية ومعنوية، وهي إغناء للغة العادية، وسدّ لثغرات نقصها وتجاوز لهناتها.
- 3- الوظيفة التربوية: ويُقصد بها تلك التقابلات الصوتية أو التوترات اللفظية والإيقاعية فقد يخلو منها الاستعمال العادي للغة، فالخطاب الجميل ليس غاية في حدّ ذاته بقدر ما هو أداة استدراج للإقناع، وللحثّ على العمل كما هو الشأن -بالخصوص- في الأناشيد والشعارات.

4- ما معنى الحجاج البلاغي؟

لقد سعى الدكتور وحيد عبد المجيد إلى الكشف عن أهم التقاطعات بين البلاغة العربية والغربية في مجال الاستدلال الحجاجي، قائلاً: "البلاغة هي الإبلاغ المفهم المؤثر إلهاماً وتأثيراً من شأنهما تحقيق الإقناع والاستمالة، وهو تصور يتسق -أكثر ما يتسق- بفنّ الخطابة، وما دام الدرس البلاغي قد اتخذ الاستمالة والإقناع هدفاً لفنّ البلاغة، فإنه يتفق من هذه الزاوية مع الدرس الغربي الذي اتخذ الاستمالة والإقناع -أيضاً- هدفاً لفنّ الخطابة قديماً وحديثاً⁽³⁾، فالبلاغة توظف لغرض حجاجي، وتُستثمر في خدمة التواصل والاتصال والتأثير والتأثر؛ لأنّ "وراء كلّ حجاج بلاغة، والعكس صحيح؛ لأنّ مدار ذلك هو الإغراء والاستغواء قصد الإمتاع والإقناع"⁽⁴⁾، وهو مقصدية المتكلم من كلّ الخطاب.

(1) - عز الدين خطابي، إدريس كثير، بلاغة السؤال، مقال، مجلة علامات في النقد، يونيو، 1998، ص354.

(2) - ينظر: محمد سبيلا الأيدولوجيا والبلاغة، مقال، ضمن مجلة المناظرة، العدد رقم4، 1991، المغرب، ص73.

(3) - جميل عبد المجيد: البلاغة والاتصال، ص129-130.

(4) - حبيب أعراب: الحجاج والاستدلال الحجاجي، (عناصر استقصاء نظري)، ص110.

وعليه يمكن القول أنّ الخطاب البلاغي لا يخرج من تصوّرات يبيدها المتكلم من قريحته الذهنية أو العاطفية، بمعنى أننا "حين نصف خطابا ما بأنه خطاب حجاجي، فذلك معناه أنّ هذا الخطاب يحتوي ملفوظين اثنين على الأقل: م1، وم2، حيث يقوم أحدهما بتعزيز وإسناد الآخر، فيُسمّى الأوّل حجة، والثاني نتيجة"⁽¹⁾، كما يحمل في تصوّره ما يروم إلى "وظيفة تمثيلية تنطوي على طاقة إيحائية مؤثرة، وأنّ قوّته التّأثيرية تتولّد من أسلوبه التخيلي وليس من محتواه الدلالي؛ لأنّ كثيرا من العبارات تتساوى من ناحية الدلالة على المعنى، إلا أنّها تتفاوت من ناحيتي دقّة الإيحاء به، ودرجة ترسيخه في النفس ومستوى إقناعها به"⁽²⁾، وإثبات قيمته الحجاجية للمتلقّي.

إنّ المتكلم يمارس صلاحياته السّلطوية على المتلقّي من خلال اختيار العبارات التي تعبّر عن أغراضه، وتعمل على تحقيق هدفه الخطابي مستعينا بعامل التّأثير والإقناع عن طريق الحجاج باللّغة أو بالصّورة البيانية أو الجمالية، و"الصّور البيانية وحدها لا تحقّق الغرض المنشود والتّصديق والتّدليل ما لم تستند على أدوات ترجيح الرّأي وتسويغها عقلياً؛ لأنّ الصّورة البلاغية بكلّ أطيافها، وما تحملها من معانٍ ودلالات، لا ينظر إليها كفنّ جمالي خاص، بل ينظر إليها كطاقة متجدّدة ذات وظيفة إقناعية، لذا لا تستطيع أن تصمد أمام آلة العقل النّفّاذ، ما لم تكن مدعومة عضويّاً بالحجج العقلية التي تخضع هي بدورها لمعيار الضّعف والقوّة"⁽³⁾، وبالتالي يمكن تقدير قيمتها حجاجيا من خلال الأثر الذي تتركه في المتلقّي.

ومن هنا نرى -مع محمد مشبال- أنّ النّص المتداول في الكلام ليس سوى "مجموعة من التّقنيات الحجاجية والوجوه البلاغية، والعلاقات الحجاجية اللغوية التي يمكن

(1) - رشيد الراضي: المظاهر اللغوية للحجاج، مدخل إلى الحجاجيات اللسانية، المركز الثقافي العربي، الدر البيضاء، المغرب، ط1، 2014، ص77.

(2) - حسن المودن: بلاغة الخطاب الإقناعي، نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب، دار كنوز المعرفة، العلمية للنشر والتوزيع، الأردن، عمان، ط1، 2014، ص29.

(3) - حبيب أعراب: الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص110.

رصدها وتحليلها، لكنه أيضاً مجموعة من الآراء والأفكار والمعتقدات والمواضع المشتركة التي ينبغي استخلاصها للوقوف على حاجيته بشكل أوفى⁽¹⁾، ويضيف محمد مشبال شيئاً يراه أساسياً في بناء البعد الإقناعي، يتمثل في الفضائل والمزايا والرتبة الثقافية والاجتماعية التي يتميز بها المتكلم⁽²⁾.

وعليه يمكن القول: أن الحجاج البلاغي "هو حجاج موجه للقلب والعقل معاً؛ إذ يجمع بين المضمون العقلي للحجة وصورها البيانية، أو بين التبرير العقلي والمحسّنات البيانية"⁽³⁾، ولا يتوقّف عند هذا الحدّ، بل يشمل كل أشكال التّواصل تحت غطاء اللّغة الطبيعية، وأضحى ضرورة من ضروريات الحياة اليومية، ونُدعم رأينا بقول (ميشال مايير M.eyer): "إنّ كل شيء قد أضحى "تواصلًا" من الصداقة إلى الحبّ إلى الاقتصاد. حيث نجد العلاقات تقام وتفسخ بناءً على فشل أو نجاح البلاغة"⁽⁴⁾، وهذا ما يبرّر لنا أنّ الحجاج البلاغي رافد مهم في تغذية العلاقات التواصلية بين المتخاطبين. ومن بين السمات التي يُبنى عليها الحجاج البلاغي مايلي:

- ❖ التأثير في المتلقي وجعله يتقاسم مع المخاطب اعتقاده واقتناعه الخاص.
- ❖ خضوع حججه للتراتبية والتنظيم: القوّة، الضعف، البدء، الإبطال، الإثبات... إلخ
- ❖ عدم قابليته للقولبة والصياغة المنطقية الشكلية والرمزية...
- ❖ اشتماله على البعد الاستدلالي والبعد الإمتاعى أو الجمع بين البيان والبديع.
- ❖ اشتراطه لرغبتين: إرادة المتكلم (المؤثر والمقنع)، وإرادة المتلقي (المتأثر والمقتنع)⁽⁵⁾.

(1) - محمد مشبال: بلاغة النصّ التراثي، مقاربات بلاغية حجاجية، دار العين للنشر، الإسكندرية، 2013، ص09.

(2) - ينظر: نفسه، ص09.

(3) - حبيب أعراب: الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص110.

(4) - نفسه.

(5) - نفسه.

ثانياً- تعالق الحجاج مع بعض المصطلحات الإقناعية:

1- الحجاج والحوار:

يُعد الحوار من الأساليب البلاغية التي يُعتد بها في الكشف عن القضايا المختلف فيها بين المتخاطبين، فهو "يساهم في تبريد الأجواء النفسية لدى المتحاورين، عندما تتحول الساحة الداخلية عندهم إلى موقع من مواقع اللقاء على المفاهيم المشتركة أو المعاني المتقاربة، مما يخلق من مشاعره حالة حميمية تجاه الطرف الآخر"⁽¹⁾، لهذا يعمل المحاور على تطويع ملكته اللسانية والنفسية واستحضار فكره الذهني، حتى يتسنى له من إلقاء الحجة في حُسن المتلقي، لعلها ترتقي بفكره وتغير سلوكه .

ويشرح لنا محمد العمري مزيداً عن هذا الأسلوب بوصفه لونا من ألوان التواصل الإنساني، فيعرفه بقوله: الحوار خطاب (أو تخاطب) من أجل الإقناع بقضية أو فعل.

وبعبارة أدق: الحوار هو كل خطاب يتوخى تجاوب متلقٍ معين، ويأخذ رده بعين الاعتبار من أجل تكوين موقف في نقطة غير معينة سلفاً بين المتحاورين؛ قريبة من هذا الطرف أو ذلك، أو في منتصف الطريق بينهما. صورته المثلى مناقشة بين طرفين أو أكثر، وقد يكون تعقيباً بعد حين على صفحات الجرائد أو غيرها من وسائط الاتصال التي تتيح فرصةً للتعليق على رأي الآخرين، وقد يكون في أي صيغة أخرى"⁽²⁾.

فالحوار أفق أو فضاء مفتوح بين متفاعلين أو أكثر، يتعارضان في نمطية التفكير، ويتناقضان في وجهات النظر في الأفكار أو القضايا المطروحة للنقاش، فيأتي الحوار ليفك شفرة هذا التباين، ويحاول أن ينتزع التعارض بينهما، ويقرب النقاشات ويرفع الاختلاف ليحصل الإقناع .

(1) - حسن فضل الله: الحوار في القرآن الكريم، قواعده، أساليبه، معطياته، دار الملاك، بيروت، لبنان، ط5، 1996، ص17.

(2) - محمد العمري: دائرة الحوار ومزالق العنف، كشف أساليب الإغاث والمغالطة، مساهمة في تخليق الخطاب، مكتبة الأدب المغربي، إفريقيا الشرق، المغرب، (د- ط)، 2002، ص09.

أما الدكتور طه عبد الرحمن فقد خصّص حيزاً هاماً لمصطلح الاختلاف في كتابه (الحق العربي في الاختلاف الفلسفي)، والذي يرى أنّ "الأصل في الحوار هو الاختلاف: إننا لا ندخل في الحوار، إلا ونحن مختلفان، بل إننا لا نتحاور إلا ونحن ضدّان، لأنّ الضدّين هما المختلفان المتقابلان، والحوار لا يكون إلا بين مختلفين متقابلين، أحدهما يُطلق عليه "المدّعي" وهو الذي يقول برأي مخصوص ويعتقده، والثاني يطلق عليه اسم "المعترض"، وهو الذي لا يقول بهذا الرأي ولا يعتقده"⁽¹⁾، فكلّ طرف يسعى إلى إيضاح الفكرة وقبول الحجّة.

2- الحجاج والأسلوب:

لقد عبّر (سبيتز) عن الأسلوب بأنّه نظام شمسي تعبيرى وجداني، يلمس مشاعر المتلقي ويؤثر في كيانه إذ قال: "إننا نفترض هنا أنّ الكاتب عبارة عن نظام شمسي يحتوي في مداره على أشياء منوّعة: اللّغة، والحافز، والعقدة. وهذه ليست سوى كواكب تابعة لجوهر أسطوري"⁽²⁾، لذا على المرء أن يجتهد في تعلّم فنّياته، فهو مصدر بيان، وأولاهها بالتّحفظ إذ بها يُعرف إعجاز القرآن الكريم، ومعرفة معجزة الرسول ﷺ ودلالة صدقه فيما يبلغ عن ربه، ومن أغفل عنه وأخلّ بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصّه الله من حسن التّأليف، وبراعة التركيب⁽³⁾.

ويرى أوليفي روبول أنّ لا مجال لفصل بلاغة الحجاج عن بلاغة الأسلوب؛ لأنّ كلاّ منهما مكملّ للآخر، "إنّه ينبغي لنا أن نرفض الاختيار الذي يفصل بين بلاغة الحجاج وبلاغة الأسلوب، لأنّه لا يمكن أن توجد الواحدة دون الأخرى، ولأنّ البلاغة تتألف منهما معاً"⁽⁴⁾. فالأسلوب هو طريقة فنّية يختار فيها المبدع الألفاظ والعبارات فينظمها في قالب نظمي محكم لتؤثر في نفس القارئ أو السامع فيغيّر في طريقة تفكيره.

(1) - طه عبد الرحمن: الحق العربي في الاختلاف الفلسفي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط2، 2008 ص28.

(2) - منذر عياشي: الأسلوبية وتحليل الخطاب، مركز الإنماء الحضاري، حلب، سوريا، ط1، 2002، ص146.

(3) - ينظر: أبو الهلال العسكري، الصناعتين، ص01.

(4) - حسن المودن: بلاغة الخطاب الإقناعي، ص9.

جاءت ألفاظ القرآن الكريم محمولة على سليقة العرب، لكن ما تحدثه هذه الألفاظ من براعة التأليف وسهولة المخرج، وشجيرة الأسلوب يبقى الواحد منا حائراً من قوة بيانه وبلاغة آياته، فلا يمكن لبشر أن يأتي بمثله؛ لأن أسلوبه إعجازي ودليل حجاجي مقنع للذين أنكروا الذات الإلهية، وأنكروا كتاب الله ورسوله، فبلاغة أسلوبه لا تقف عند الرؤية الإبداعية والجمالية فحسب؛ بل يتعدى صنيعها إلى القلوب والعقول باعتبارها آلية حجاجية إقناعية، وتتجلى في آلية البديع والقصص القرآني التي تساق لنا في جو عام.

3- الحجاج والبرهان:

قد يقع التباس بين مصطلحي الحجاج والبرهان عند بعض الدارسين من رواد البلاغة والحجاج، وهذا ما يسعنا في فكّ هذا الخلط بين المفهومين، والشيء الذي يمكن تأكّده في هذا السياق، أنّ البرهان والحجاج ينتميان إلى مجالين مختلفين؛ إذ ينتمي البرهان إلى مجال الاستدلالات المنطقية بالمعنى الخاص للعبارة، بينما ينتمي الحجاج إلى مجال الخطاب. إنّ الأصل في البرهان أن يكون منفصلاً عن اللغة الطبيعية التي لا سبيل في عباراتها إلى تقادي الالتباس والغموض والتواطؤ*⁽¹⁾. كما يتميز البرهان بخاصية تجعله ينفرد بها عن الحجاج، بأنه "أؤكد الأدلة، وهو الذي يقتضي الصدق أبداً لا محالة"⁽²⁾.

أما ما يقصد بالبرهنة الصورية فقد تكون إما صحيحة وإما فاسدة، وليس هناك حالة وسطى، فهي تتعلق بالصدق أو الكذب وهذا كلّه من أجل إثبات قضية ما أو دحضها، فالبرهنة شيء لا يتأثر بالأشخاص ولا الزمان⁽³⁾. بمعنى أنّ مجال استعماله محدود، بينما الحجاج "في الخطابة يُلجأ إليه لأهداف عدة منها تحقيق الإقناع العقلي والعاطفي معا في

(1) - رشيد الراضي: المظاهر اللغوية للحجاج، مدخل إلى الحجاجيات اللسانية، ص 79.

(2) - الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق، صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، 4، 2009، ص 45.

(3) - ينظر: روبر بلانشي، الاستدلال، تر، محمود يعقوبي، دار الكتاب الحديث، ط 1، 2009، ص 299.

استمالة الآخر ودفعه إلى الفعل والتغيير أحيانا⁽¹⁾، وهذا ما يجعله يتقرّد عن البرهان، لأنه يجعل الأمور الاجتماعية والنفسية للمتلقّي في غاية اهتماماته الخطابية، وإلا خرج عن غرضه التأثيري الإقناعي.

لكنّ ثمة شيء مشترك بين البرهان Démonstration والحجاج Argumentation هو البحث عن حصول الإقناع والافتناع، وقد ميّز أوليفي روبول (Olivier Rebou)، الحجج عن البرهان بخمس سمات بعدما طُلب منه الجواب عن سؤال: هل يمكن أن يوجد حجج غير بلاغي؟ فكان تحقيقه للجواب عن ذلك "نعود إلى تحديد مفهوم الحجج لنتبيّن ما يميّزه عن البرهان. سأقول مستلهما بحريّة (بيرلمان وتيتيكا): يتميّز الحجج بخمس ملامح رئيسيّة:

- ❖ يتوجه إلى مستمع.
- ❖ يعبر عنه بلغة طبيعية.
- ❖ مسلماته لا تعدو أن تكون احتمالية.
- ❖ لا يفتقر تقدّمه إلى ضرورة منطقية بمعنى الكلمة.
- ❖ ليست نتائجه ملزمة. بناء عليه أتساءل: أليست هذه الملامح التي تميّز الحجج عن البرهان هي نفسها ما يجعله بلاغيًا بالضرورة⁽²⁾.

4- الحجج والجدل:

4-1 الجدل في منطق الفكر الغربي:

يراد بمصطلح الجدل أو الديالكتيك (Dialectique) هو تبادل وجهات النظر بين المتكلم والمتلقّي للوصول إلى الحقيقة، من خلال استعراض الحجج والأفكار المتناقضة والمتبادلة بينهما قصد دفاع كل طرف عن وجهة نظر معينة، ويكون غالبًا تحت لواء المنطق، فهو قياس مقدماته ظنيّة مثل قولنا: الأكسجين عنصر أساسي للحياة ومن

(1) - محمد سالم محمد الأمين الطلبة: الحجج في البلاغة المعاصرة، ص43.

(2) - محمد العمري: البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص220.

المحتمل أن يكون القمر محاطا بطبقة من الأكسجين، فإذن من المحتمل أن توجد الحياة في القمر⁽¹⁾، فالجدل فطرة إنسانية جُبل عليها الناس منذ الاجتماع الأول، فيستعمل المجادل نوعا من الإلزام والضغط على المتلقي للتسليم بالفكرة المعروضة.

إن مصطلح الجدل يُفصي لأهل المنطق الأرسطي، أنه يخضع إلى قضايا تستوجب نتيجة انطلاقا من: "مقدمات القياس التي سيأتي بها الشخص لإقامة الحجّة على أي مطلب كان، حقّ أو باطل، لإلزام الخصم، وتتألف من مقدمات ومن المشهورات وهي القضايا التي اتفقت عليها آراء الجميع أو آراء طائفة خاصة، ومن المسلّمات وهي القضايا التي يسلم بها الخصم ويقبلها وإن لم تكن صحيحة عند المستدل"⁽²⁾.

إن ثمة علاقة بين الجدل والحجاج فالجدل ماهو إلا طريقة في المناقشة والاستدلال بالحجّة، من أجل المنازعة أو المغالبة، موظفا الوسائل اللغوية والبلاغية وكل ما ينتزع به الحجّة، لذا يُعد الجدل عند أرسطو "تمط حجاجي يدور على اختيار الأقاويل، الخلافية بالخصوص، وباختيار يقصد الجدلي إلى البحث في القول عما قد يسوغ نفيه، وهو نفيٌ تختلف درجة صعوبته باختلاف أنواع القضايا موضوع الدرس⁽³⁾، ويعني هذا أن الجدل هو البراعة في فنون القول بحيث يستطيع المجادل أن يقنع خصمه، أو يفحمه بالدليل؛ إلا أنّ مساحته ضيقة، عكس الحجاج " فكل جدل حجاج وليس كل حجاج جدل"⁽⁴⁾، لأنّ الحجاج يشتغل على أكبر فسحة تخاطبية، مشروط بمواصفات معينة، يلجأ إليها المتكلم لإقناع الطرف الآخر وفق مقامات خاصة. ومن السمات التي يحملها الخطاب الجدلي ما يأتي⁽⁵⁾:

(1) - أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد: كتاب فصل المقال، وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال، قدم له وعلق عليه: ألبير نصري نادر، دار المشرق، بيروت، لبنان، ط2، (د-ت)، ص29.

(2) - عبد الله صولة: الحجاج في القرآن، من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفرابي، بيروت، لبنان، ط2، 2007، ص13.

(3) - هشام الريفي، الحجاج عند أرسطو، ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمادي صمود، سلسلة آداب، مجلد 39، كلية الآداب، منونة، (د-ت)، ص202.

(4) - عبد الله صولة: الحجاج في القرآن الكريم، ص17.

(5) - Mariana Tutescu, L'argumentation: Introduction à l'étude de discours, Université de Bucarest, Romain, 1998, p 256.

- ينطوي على خلاف بين المتحاورين.
 - تحقيق المصلحة الذاتية بشتى الطرق الممكنة.
 - يعمل على دحض حجج الغير بكلّ الأساليب.
- وما نلفت الانتباه إليه هو ثمة علاقة بين الحجاج والخطابة والجدل، ويمكن الاختلاف في الأدلة والمرتكزات، فالاستدلال في الجدل مجاله فكري خالص، فلا يخاطب المحتجّ لقضية أو موقف أو رأي في متلقيه سوى الاستدلال بالعقل، ولا يعقد بحسب نمط اجتماعي ثقافي، وإنما يوجه إلى سامع كوني⁽¹⁾، في حين نجد الحجاج الخطابي مقامياً ذات بعد اجتماعي وثقافي، يعمل على توجيه الفعل وتثبيت الاعتقاد، مستغلاً كلّ الجوانب منها التأثير العاطفي الذي يصل إلى حدّ الإثارة والتحريض⁽²⁾،

4-2 الجدل وأنواعه في المنطوق القرآني:

نشأ الجدل في البيئة العربية على يد علماء الكلام، من خلال مناظراتهم الجدالية بين المذاهب وأهل المنطق، فقد عرّفه ابن خلدون قائلاً: "هو معرفة آداب المناظرة... فإنه لما كان باب المناظرة في الردّ والقبول متسعاً، وكلّ واحد من المتناظرين في الاستدلال والجواب يرسل عنانه في الاحتجاج، ومنه ما يكون صواباً ومنه ما يكون خطأ فاحتاج الأئمة إلى أن يضعوا آداباً وأحكاماً يقف المتناظران عند حدودها في الردّ والقبول، وكيف يكون حال المستدل والمجيب"⁽³⁾.

أما لفظة الحجاج في القرآن فقد وردت تسعة عشر مرّة، في مقامات مختلفة، بحسب ما تقتضيه المحاورات والمناسبات الكلامية، لهذا يُعدّ الحجاج وسيلة ضرورية في

(1) - ينظر: هشام الرفي، الحجاج عند أرسطو، ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص129.

(2) - ينظر: سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي، بنيته وأساليبه، عالم الكتب الحديث، الأردن، عمان، ط2، 2007، ص18.

(3) - ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت808هـ)، المقدمة، دار ابن الجوزي، جمهورية مصر العربية، القاهرة، ط1، 2009، ج3، ص21.

الخطاب؛ لأنه يراد منه الإقناع والتأثير في النفوس، ويُرجى به إقامة الحجّة على أهل الضلال في بيان عقيدة التوحيد، ومقاومة الأفكار الباطلة والعقائد الفاسدة، وهذا ما يتجلى لنا في سياقات وأنساق الخطابات التي دارت بين الرسل وأقوامهم.

وإذا كان ظاهر لفظ الحجاج عند المفسرين يحمل مرادفا للجدل، وهذا ما أشار إليه الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ﴿الْمُتَرَىٰ إِلَىٰ الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾⁽¹⁾؛ أي أنه "حاجّ وقت أن أتاه الله الملك... وكان الاعتراض عنيدا ولكن إبراهيم لما سمع جوابه الأحق لم يحاجّه فيه، ولكن انتقل إلى ما لا يقدر فيه على نحو ذلك الجواب لبيته أول شيء. وهذا دليل على جواز الانتقال للمجادل من حجّة إلى حجّة"⁽²⁾.

ومما لا شك فيه أنّ جدل الفلاسفة يختلف عن جدل القرآن الكريم، لأنه "منهج من النظر والبحث يؤدي إلى معرفة الحق وتمييزه عن الباطل، ودعوة القرآن الكريم إلى هذا النوع من الجدل هي دعوة إلى اكتشاف الحق عبر منهج يقف جنبا إلى جنب مع الحكمة ومع الموعدة الحسنة... وهو منهج متميز بشيء غير قليل من أدب الحوار وأخلاقيات بصورة لا نجدها في مناهج الاستدلال الأخرى"⁽³⁾، بينما جدل الفلاسفة هو حوار، لا يُبنى على وجه إفادة الخصم أو تعليمه والتأثير فيه، بل يعمل على رد رأي الخصم ومضايقته بالأدلة والبراهين والحجج المفحمة.

وقد أعطى أبو حامد الغزالي -رحمه الله- وجه المقارنة بين جدل القرآن الكريم وأدلة الفلاسفة والمتكلمين فقال: "أدلة القرآن الكريم مثل الغذاء ينتفع به كل إنسان، وأدلة المتكلمين والفلاسفة المعتمدة على البرهان وأشكاله، والمنطق وقيوده، مثل الدواء ينتفع به آحاد الناس فقط، بل أدلة القرآن كالماء ينتفع به الصبي الرضيع، والرجل القوي، وسائر

(1) - سورة البقرة: جزء من الآية 258.

(2) - أبو القاسم الزمخشري: الكشاف، عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، علق عليه، خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط3، ج3، 2009، ص147.

(3) - عائشة يوسف المناعي: الجدل في القرآن عند نجم الدين الطوفي، جامعة قطر، (د-ط)، (د-ت) ص28.

الأدلة كالأطعمة التي ينتفع بها الأقوياء مرة، ويمرضون بها أخرى، ولا ينتفع بها الصبيان أصلاً"⁽¹⁾.

فالأسلوب الجدلي الذي يتميز به القرآن الكريم أسلوب تبليغي دعوي مرن، يهدف إلى تثبيت عقيدة التوحيد، وإظهار الباطل وإزالة أدران الشرك، إلا أنه مشتمل على معاني التوجيه والإرشاد في الحق والصواب، وهذا ما يتجلى لنا في جدال الملائكة وجدال خولة بنت ثعلبة التي أخبرنا الله بقصتها في سورة المجادلة.

وقد حثّ القرآن الكريم المسلمين على مجادلة من هم على غير دينهم بالتّي هي أحسن، بحسب أفهامهم وعقولهم لغرض إعطاء الحجّة البيّنة، وهي مجادلة لا يمكن أن تتمخض إلا عن كل ما ينفع الإسلام وأهله، بينما تحرص السنّة النبوية على صرفهم عن التّجادل، الذي يولّد التعصب والانتصار لرأي دون الآخر، إذ لا يحتمل أن ينجرّ عنه إلا ما يفرّق صفوفهم، خاصة إذا كان له مساس بقضايا العقيدة والمتعلقة بالأرواح أو الآخرة أو حتى بمجرد مسائل تأويل بعض الآيات القرآنية التي اختلف المسلمون في فهمها"⁽²⁾، وهذا النوع من الجدال أشار إليه (بيرلمان) ويصنّفه من المجالات الدوغماتية والعلمية؛ "حيث يفقد الجدل والبلاغة قيمتها الإقناعية، ويصبحان مجرد تقنيات بيداغوجية أو سيكولوجية أو أدبية لتدعيم الانخراط في حقائق أنشئت بأدوات أخرى.

ففي المجال الديني -حيث لا يعترض المؤمنون على الحقائق- لا تستخدم هذه التقنيات في بناء الحقائق، بل في ترسيخها في الأذهان، وطبعها في القلوب، وجعلها حاضرة في الوعي ومجسدة في السلوك"⁽³⁾. وعليه لا ينفصل الحجاج عن الجدل، ف "الدفاع عن أطروحة أو نتيجة، يقابله دفاع عن أطروحات أو نتائج أخرى لأنّ الدخول في الجدل

(1) - أبو حامد محمد بن محمد الغزالي: إجماع العوام عن علم الكلام، تحقيق، مشهد العلاف، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د- ط)، (د- ت)، ص 59.

(2) - أبو الوليد الباجي: كتاب المنهاج في ترتيب الحجاج، ص 4.

(3) - محمد طروس: النظرية الحجاجية، من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، ص 46-47.

لا يعني عدم الاتفاق فقط، وإنما يعني أيضا أن المجادل يملك حججا مضادة⁽¹⁾؛ بمعنى أنه مشروط بحسب مواصفات المتلقي وبمقام الخطاب.

إن بعض المصطلحات لها نفس المعنى الذي يأخذه مصطلح الجدل، إلا أن هناك فروقا طفيفة بينها، ونذكر من بينها مصطلح المراء، والمناظرة، وغيرها .

أ- المراء والممارة: لقد تقدم ذكر هذا المصطلح في القرآن الكريم في عدة مواضع نذكر منها قوله تعالى: ﴿قُلْ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾⁽²⁾، وجاء تفسير "فلا تجادل أهل الكتاب في شأن أصحاب الكهف إلا جدالا ظاهرا غير متعمق فيه، وهو أن تقصّ عليهم ما أوحى الله إليك فحسب، ولا تزيدن من غير تجهيل لهم ولا تعنيف بهم في الردّ عليهم"⁽³⁾.

أما الغزالي (450-505هـ)، فيرى أن حدّ المراء: "هو كل اعتراض على كلام الغير بإظهار خلل فيه؛ إما في اللفظ وإما في المعنى وإما في قصد المتكلم. وترك المراء بترك الإنكار والاعتراض. فكل كلام سمعته فإن كان حقا فصدق به، وإن كان باطلا أو كذبا ولم يكن متعلقا بأمور الدين فاسكت عنه"⁽⁴⁾. ويفهم من ذلك أن المراء والجدال المذموم هو باب من أبواب الشرّ والفتنة على المؤمن أن يتجنبه قدر المستطاع، لأنه أهلك للقلب.

ب- السلطان: تدلّ مادته الأولية على القوّة والقهر، وهذا ما ذهب إليه الزجاج (ت311هـ) بقوله: "والسلطان إنما سمي سلطانا؛ لأنه حجة الله في أرضه، واشتقاق السلطان من السليط، والسليط ما يضاء به، ومن هذا قيل للزيت سليط"⁽⁵⁾، يقول الله تعالى في محكم

(1) - محمد طروس: النظرية الحجاجية، من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، ص108.

(2) - سورة الكهف: جزء من الآية 22.

(3) - أبو القاسم الزمخشري: الكشاف، عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج15، ص617.

(4) - أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 2005، ص1006.

(5) - أبو إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، تحقيق: عبد الجليل عبه شلبي، عالم الكتب، بيروت،

ج3، ط1، 1988، ص76.

تنزيله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾⁽¹⁾، لكنّ المنتبِع لألفاظ القرآن يجد لفظة السلطان توحى إلى دالتين :

- بمعنى الحجّة والبرهان في قوله تعالى: ﴿...أَتَجِدُونِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاءُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾⁽²⁾.

- وتأتي بمعنى الملك والقوّة، ومثاله قوله تعالى حكاية عن إبليس: ﴿...وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾⁽³⁾.

ج- الخصومة: وهي من مظاهر الجدال، فإذا كان المرء لا يكون إلا باعتراض على كلام سبق، فإنّ "الخصومة لجاج في الكلام ليستوفى به مال أو حقّ مقصود، وذلك تارة يكون ابتداء وتارة يكون اعتراضاً⁽⁴⁾. وهو ما يوافق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من جادل في خصومة بغير علم لم يزل في سخط الله حتى ينزع"⁽⁵⁾.

د- البيّنة: يعرفها طه عبد الرحمن، بقوله: "البيّنة ما كان من الأدلّة ظاهراً للقلب أو واضحاً للذهن، وهذا الظهور أو الوضوح يجعل البيّنة قريبة الإدراك، بحيث تتسارع إلى فهم كل ما صح عقله واعتدل تمييزه"⁽⁶⁾، ومثاله قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ...﴾⁽⁷⁾. وتتشرط في البيّنة أن تتضمّن وضوح الحقّ أمام الباطل، وترتبط غالباً بالجانب الحسيّ.

(1) - سورة هود: الآية 96.

(2) - سورة الأعراف: جزء من الآية 71.

(3) - سورة إبراهيم: الآية 22 .

(4) - أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين الغزالي، ص1007.

(5) - نفسه.

(6) - طه عبد الرحمن: اللسان والميزان، أو النكوش العقلية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1998، ص135.

(7) - سورة هود: جزء من الآية 17.

و- المناظرة : تُعد المناظرة فضاء تعبيريا توصليا مباشرا، يندرج تحته طرفان فاعلان، فيستحضر كل طرف ما يراه مناسباً لبروز فكرته أو رأيه أو الدفاع عن توجهات اعتقاديته أو مذهبية أو حزبية، فهي بمثابة "ترداد الكلام بين شخصين يقصد كل واحد منهما تصحيح قوله، وإبطال قول صاحبه، مع رغبة كل منهما في ظهور الحق"⁽¹⁾، بالأدلة والحجج المناسبة .

(1) - طه عبد الله محمد السبعراوي: أساليب الإقناع في المنظور الإسلامي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د-ط)، (د-ت)، ص 207.

الفصل الأول

مظاهر الحجاج البلاغي بين الإمتاع والإقناع

توطئة

أولاً - معالم التفكير البلاغي الكلاسيكي في السياق اليوناني

ثانياً - الميلاد الجديد للبلاغة عند منظري الغرب

ثالثاً - نظرية أفعال الكلام

رابعاً - المسار التاريخي في تشكّل الدرس البلاغي عند العرب

خامساً - التمثيل الحجاجي للقصر القرآني بين الترغيب والترهيب

أولاً- معالم التفكير البلاغي في السياق اليوناني:

1- البلاغة السفسطائية بين هباء التأويل وحبّ الذات:

إنّ ظهور التيار السفسطائي^(*) في مطلع القرن الخامس قبل الميلاد، جاء منبهاً إلى ميلاد نظرية جديدة تُعرف بسلطة القول وقوّته، وكان أوّل ظهور له في مدينة "صقلية" في زمن انتشر فيه الإلحاد والتشكيك في الآلهة والسخرية من عبادتها، وتمجيد الإبداع والميل إلى كلّ ما هو جديد، فقد تحرّر الشعب من القيود التي تُعيق مجادلاتهم ومناظراتهم، وأسفر عن ذلك اهتمامهم بالطرائق الجدلية وبصناعة الفرد ليمتلك سلطّة القول، وبراعة البيان، وحذق اللسان ليبسط نفوذه في الخطاب ويهيمن على فضاء القول، حتى يستثير الخصم ويغيّر أهواءه وأفكاره وحتى معتقداته⁽¹⁾، وهذا ما ساعد في ظهور مؤسسات جديدة تمثل العدالة المبنية على إقامة الحجّة والبيّنة، "وكانت المرافعات من نوع جديد، وينبغي عليها إقناع المحلّفين الذين جنّدتهم العدالة من بين الشخصيات الشعبية المهمّة.

ولكي يكون الإقناع يجب أن يكون المرء فصيحاً؛ هذه الفصاحة التي تشترك في الديمقراطيّة والديماغوجية، وما هو قضائي وما هو سياسي؛ تحوّلت لتصبح موضوعاً للتعلّم⁽²⁾، وهذا نتيجة الحراك السياسي الذي احتدم في تاريخ اليونان من أجل الدّفاع عن الديمقراطيّة الناشئة، ونبذ الممارسات الأرستقراطية (Aristocratie) الموروثة، فاهتمّوا بسلطة القول التي تحقّق الإقناع والتأثير، فاتّخذوها حرفة يتلقّى من خلالها معلّم البلاغة مقابلاً مادياً، جرّاء تلقينه صناعة حُسن تصرف الكلام وتدريب أبناء الأعيان، وكلّ من يرغب في استعمال الكلام في المجالس السياسية (البرلمان) والقضائية (المحاكم)، كما

(*) السوفسطائية: هي تيار فكري ظهر في العالم الإغريقي بأثينا في القرن الخامس قبل الميلاد والصفة (سوفيستاس)

sophistes تعني في معناها الاشتقاقي (الحكيم والرجل ذا الكفاءة المتميزة في كلّ شيء، الحكيم الحاذق).

(1) - ينظر: أحمد يوسف، البلاغة السفسطائية وفتاحة الحجاج، (مقال) ضمن، الحجاج مفهومه ومجالاته، ج2، ص7-8.

(2) - فيليب بروتون، جيل جوتييه: تاريخ نظريات الحجاج، تر، محمد صالح ناحي الغامدي، مركز النشر العلمي، المملكة

العربية السعودية، ط1، 2011، ص20.

بُسط نفوذهم في تكوينهم للخطباء في ميدان فنّ الجدل والحوار ليسهموا في إعداد القادة وتربية النشء على قيادة أثينا إلى برّ الأمان⁽¹⁾.

وقد خلّص "كوراكس" بفكره الثاقب إلى تبني عناصر مهمّة في ترتيب الخطاب البلاغي، بهدف السيطرة على لحظة الخطاب ونوجزها في النقاط الآتية:⁽²⁾

- استرعاء انتباه المتلقي والذي يعرف بالاستهلال.

- عرض القضية .

- تقديم الحجج الداعمة للقضية.

فالأجزاء التي صنّفها "كوراكس" هي بمثابة رؤية مستشرفة مضاءة في عالم تتعدّى فيه القراءات الخطابية، وهي ضرورية في تصميم الخطاب البلاغي سواء كان قضائياً أو مدرسياً تعليمياً. فالحركة النقدية الجديدة التي آثرها السقسطائيون والتي أثر حاسم في تحريك الفكر حول العديد من المعضلات الفلسفية جعلها تُعدّ نموذجاً حياً يُقتدى به في فنّ القول، فضلا عن الإثارة المنتجة لأبوي الفلسفة الغربية أفلاطون، وأرسطو، وليس أدلّ على ذلك من أنّ نسقيّ هذين الأخيرين قد انشغلا -ضمن مساحة هامة فيهما- بالإجابة على أسئلة السقسطائيين واستشكالاتهم ومجادلاتهم⁽³⁾.

لقد واجهت البلاغة اليونانية انزلاقين في تسييرها للخطاب: فتارة يتّجه نحو لغة تضليل المتلقي فتمارس عليه سلطة الإغراء والغواية والاحتيال، فتؤثر فيه بقوة الكلام فتجعله مشدوداً لمقاصد المتكلم، وثانيهما انزلاق يتّجه نحو اختزالية مُغلقة في برهانية جدلية منظمة تنظيمياً إيديولوجياً نابعاً من رؤية اجتماعية وسياسية تستهدف السيطرة على الخطاب المنتج للاعتراضات والصراعات⁽⁴⁾. ورغم هذه الانتقادات التي وُجّهت لها تبقى حاملة لواء سلطة القول وبلاغته .

(1) - ينظر: أحمد يوسف، البلاغة السقسطائية وفتاحة الحجاج، ص 07-08 .

(2) - ينظر: نفسه، ص 23-24 .

(3) - ينظر: عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، دار الأمان، الرباط، ط1، 2013، ص 29.

(4) - ينظر: عمارة ناصر، الفلسفة والبلاغة، مقارنة حجائية للخطاب الفلسفي، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1،

2009، ص 23.

2- الخطابة عند أفلاطون:

لقد عمل أفلاطون على رفض مبدأ السفسطائيين الذي يقوم على ظنيّة النتائج، وتزييف الحقائق، وأن لا مناص لهم في استعمال الألاعيب الخطابية من أجل غرض واحد وهو تحقيق المصلحة الذاتية، وهذا ما أنكره خصومهم وألصقوا لهم تهم الخداع والمراوغة وحبّ الذات والمغالطة.

تصدّى فلاسفة اليونان للفكر السفسطائي وجعلوه محلّ انتقاد، ومنها ميّز أفلاطون بين بلاغتين: بلاغة مبنية على فلسفة الحقيقة التي تدعو إلى إثبات الحق ومناصرته، والتي تدخل في تكوين الأرواح بواسطة الكلام، وبلاغة تنتظر إلى الحق على أنه باطل، وهي نشاط يتعلّق بكتابة أي خطاب وموضوعها هو الاحتمال والإيهام⁽¹⁾.

وقد احتكم أفلاطون لنفسه فلسفة خاصة، تقوم على ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقية)، وأسّس مدينته الفاضلة التي تسود فيها القيم الأخلاقية وكرّس فيها روح الإيمان بالحقيقة، عكس ما تدّعيه السفسطة، وسماها عالم المثل، وهذا ما أشار إليه ريكور بقوله: "...إنّ الحجاج السفسطائي يزيّف -حسب أفلاطون- استعمال القول، بما هو قول الأشياء في الوجود... ويجعل بسلطة القول الأشياء الكبيرة تبدو صغيرة والأشياء الصغيرة تبدو كبيرة"⁽²⁾. وهذا النوع من الخطاب ليس للبحث عن الحقيقة في الوجود، بل هو خطاب يدعو إلى الإقناع بالحيلة والحقائق الزائفة.

3- معالم الدرس البلاغي الأرسطي:

دافع أرسطو عن الفلسفة والنظر العقلي؛ لأنه يرى أنّ "السعادة البشرية تقوم على فاعلية العقل، وأنّ التفلسف هو غاية الحياة الإنسانية بحكم الطبيعة نفسها، وأنّ هذه الحياة التي يهبها صاحبها للعقل هي أسمى لذّة وأنقى فرح ممكن؛ لأنّ فاعلية العقل هي الخير الوحيد الذي لا يتوقّف على غيره ولا يتطلب أي شروط خارجية"⁽³⁾، ويتابع أرسطو

(1) - ينظر: رولان بارت، قراءة جديدة للبلاغة القديمة، ص28.

(2) - سالم محمد الطلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص30.

(3) - أرسطو: دعوة إلى الفلسفة، كتاب مفعود لأرسطو، علّق عليه وشرحه، عبد الغفار مكاوي، دار التنوير، بيروت، ص14.

طريقته في الحجاج مدافعاً عن المنطق الذي به يُفسّر معنى الحياة، وبه يثبت الوجود في هذا العالم قائلاً: "ولمّا كانت الغاية الطبيعية للإنسان هي ممارسة العقل، فإنّ الحياة العقلية المكرّسة للتأمّل والنّظر هي مهمته الحقيقية وواجبه الأوّل، وبها يبلغ كماله ويجد سعادته"⁽¹⁾، ويفهم من هذا المعنى أنّ العقل هو القوّة المدركة التي به يُحدّد مسار الحقّ واليقين، ويتجنب الغلط والتّضليل، وهذا باستعمال الحجّة المنطقية التي يضبط بها الأفكار والتّصورات الذهنية من الشّروء، ويرى أنّ نظرية الحجاج تقوم على دعامتين رئيسيتين هما: الأولى يختزلها في مفهوم الاستدلال Raisonnement، والثانية تقوم على البحث اللغوي الوجودي⁽²⁾.

لقد تعرّض أرسطو للخطابة لما لها من موقف تأثيري سواء كان ذهنياً، أو وجدانياً بعيداً عن مبادئ السفسطائيين، ويرى أنّ موضوع الخطابة يقوم على مبدأ "الدفاع عن الرأي، وتتنوير الرأي العام في أي أمر من الأمور، والحضّ على الاقتناع بمبدأ من المبادئ والتحرّيز على اكتساب الفضائل والكمالات واجتناب الرذائل والسيئات، وإثارة شعور العامة وإيقاظ الوجدان والضمير فيهم"⁽³⁾.

كما حصر أرسطو مفهوم الحجاج في ثلاثة وجوه أساسية أخبر عنها وهي: اللوغوس، الباتوس، الإيتوس بقوله: "الحجج الكامنة في الخطاب ثلاثة أضرب منها ما يقوم في خلق الخطيب، والضرب الآخر في أهواء المستمع، بينما يقوم الضرب الأخير في الخطاب نفسه، عندما يكون استدلالياً، أو يبدو كذلك"⁽⁴⁾، وأما (بول ريكور) فيرى البلاغة الأرسطية تغطي ثلاثة حقول رئيسية في الخطاب: "نظرية الحجاج التي تشكّل المحور الأساسي، ونظرية الأسلوب أو العبارة ونظرية بناء الخطاب أو الترتيب"⁽⁵⁾.

(1) - أرسطو: دعوة إلى الفلسفة، كتاب مفقود لأرسطو، ص14.

(2) - ينظر: محمد سالم الأمين الطلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص36.

(3) - محمد رضا المظفر: المنطق، دار التعارف للمطبوعات، لبنان، بيروت، ط3، 2006م، ص368.

(4) - محمد مشبال: بلاغة الخطاب الديني، دار الأمان، الرباط، ط1، 2015م، ص185.

(5) - ينظر: فرانسوا مولاو، البلاغة المدخل لدراسة الصور البيانية، تر، محمد العمري، جريب عائشة، إفريقيا الشرق، المغرب، ط2، 2003م، ص12.

4- شهادة وفاة البلاغة الكلاسيكية:

يعود تراجع البلاغة حسب ريكور إلى تقييدها في الدراسة الشعرية واعتنائها بالأساليب البيانية وبالجمال الأسلوبي، واستغنائها عن تقنية الإقناع، كما يرجع موت البلاغة حين استغنائها عن المعنى الفلسفي والجدلي الذي يبعث الحياة، واستغناء كل من الخطابة الاستشارية والقضائية والاحتفائية عن دورها الريادي في توجيه الإمبراطورية، لأن "موت المؤسسات الجمهورية... قد أدّى إلى غياب الخطابة الاستشارية والخطابة الاحتفائية الملازمة للمناسبات المدينة الكبرى... واختل التوازن بين الأجزاء وهي الإيجاد والترتيب والأسلوب والعبارة"⁽¹⁾.

ولاشك أن انحسار البلاغة في ميدان الأسلوبية Stylistique عجل من استخراج شهادة وفاتها داخل الحقل المعرفي والحجاجي بصفة خاصة، وهذا ما لاحظته برتيون أن "البلاغة اختفت، كمادة تعليمية وجزء من المعرفة، منذ نهاية القرن التاسع عشر، في كل المناهج الدراسية والجامعية... واختفى اسم البلاغة رسمياً سنة 1902؛ حيث تغير "قسم البلاغة" إلى قسم تاريخ الأدب"⁽²⁾؛ لكن سرعان ما تعود هذه المرة بقوة، ولا مناص من العودة إليها؛ لأنها فضاء معرفي مهم في بناء الفرد، ووجودها ضروري في بناء المجتمع، وهذا ما يؤكد أوليفي ريبول (Olivier Reboul) بقوله: "البلاغة ضرورة لا غنى عنها، لذلك فإننا لا نجتث بلاغة إلا لإنشاء بلاغة أخرى. وهذا ما يشهده التاريخ، فبعد أن سقطت في النسيان بطبعة الاحتقار إلى نهاية القرن التاسع عشر، عادت إلى قوتها خلال الستينيات من القرن العشرين فانتبهنا إلى أننا نستعين بها في الإشهار والسياسة والتعليم..."⁽³⁾، وبهذا تشتعل شمعة من جديد تسمى البلاغة الجديدة.

(1) - فرانسو مولاو: البلاغة المدخل لدراسة الصور البيانية، ص 13.

(2) - عمارة ناصر: الفلسفة والبلاغة، مقارنة حجاجية للخطاب الفلسفي، ص 50.

(3) - أمال يوسف المغماسي: الحجاج في الحديث النبوي، دراسة تداولية، الدار المتوسطة للنشر، تونس، ط1، 2016،

ثانياً- الميلاد الجديد للبلاغة عند منظري الغرب:

ارتبط مفهوم الحجاج في الدراسات الكلاسيكية بفنّ الخطابة للمعلم الأول أرسطو، وتناوله من زاويتين متقابلتين، فقد "ينظر إليه من الزاوية البلاغية فيربطه بالجوانب المتعلقة بالإقناع؛ ويتناوله من زاوية جدلية، فيعتبره عملية تفكير تتم في بنية حوارية، وتتطلب من مقدّمات لتصل إلى نتائج ترتبط بها بالضرورة بالمحاورة⁽¹⁾، ويستخلص من هذا أنّ الجانب الأول يُعنى بالأسلوب الجميل البليغ المؤدي إلى الإقناع؛ لأنه "عملية خطابية يتوخى بها الخطيب تسخير المخاطب لفعل أو ترك بتوجيهه إلى اعتقاد قول يعتبره كل منهما (أو يعتبره المخاطب) شرطاً كافياً ومقبولاً للفعل أو الترك"⁽²⁾، وأما الجانب الثاني أنّ الحجاج لا يخرج عن دائرة الجدل ولا يفصل عنه؛ لأنه يشتغل على "الدفاع عن أطروحة أو نتيجة، يقابله دفاع عن أطروحات أو نتائج أخرى؛ ولأنّ الدخول في الجدل لا يعني عدم الاتفاق فقط؛ بل يعني أيضاً أن المجادل يملك حججاً مضادة . هذه الخاصية الجدلية المتمثلة في القابلية للدحض من أهم الخصائص الجوهرية التي يميّز بها الحجاج من البرهنة أو من الاستنباط، اللذين يقَدّمان في نسق معطى بكونهما غير قابلين للدحض⁽³⁾.

1- الآفاق التحديثية للبلاغة عند "بيرلمان":

إنّ فكرة اهتمام أرسطو بعناصر العملية التواصلية المكوّنة من "الأيّتوس والباتوس" ما هو إلا دليل على قدم النظرية التواصلية التي تركز على الوظيفة الحجاجية للخطاب؛ لهذا أضحت فكرة الإقناع في عقول النّاس، وتناقلتها الثقافات عبر العصور، وأصبحت الملجأ الوحيد لفكّ الخصومات والنزاعات بين النّاس.

(1) - محمد طروس: النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، ص 15.

(2) - عبد الجليل العشاوي: آليات الحجاج القرآني، دراسة في نصوص الترغيب والترهيب، عالم الكتب الحديث، الأردن ط 1، 2016، ص 37.

(3) - محمد طروس: النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، ص 108.

وقد انطلقت فكرة توسيع هذه النظرية على يد بيرلمان (Perelman Chaim) وتيتيكا (Lucie Olbrechts _ Tyteca) في كتاب (مصنّف في الحجاج)، بنظرة جديدة توحى بميلاد جديد للبلاغة، وتغيّرت نظرتها بعد ما كانت تُعنى بالأسلوب الجميل، فأضحى لها قواعد وأسس تُبنى عليها من أجل إقناع الآخرين، بعدما كانت تتميقا وتزيبنا زائدا فهي الآن "خاصية لغوية تشكل دافعية حقيقية للفعل الإنساني بمستوياته السياسية، والاجتماعية، الأخلاقية، الدينية...، حيث تظهر الحقيقة من خلالها محض اتفاق أساسه اجتماع القناعات على رأي ما تُعاد صياغته نظريا في شكل قوانين، أنظمة قواعد، ومعايير"⁽¹⁾.

لقد تنبّه الباحثان بيرلمان وزميله تيتيكا، على إخراج الحجاج من دائرة السفسطة والخطابة عامّة والجدل خاصّة، بعد ما لزم المنطق منذ زمن طويل حتى عدّ رديفًا له، فعلا على "تخليص الحجاج من التهمة اللائطة بأصل نسبه وهو الخطابة، وهذه التهمة هي تهمة المغالطة والمناورة والتلاعب بعواطف الجمهور وبعقله أيضا، ودفعه دفعا إلى القبول باعتبارية الأحكام ولا معقوليتها... وتخليص الحجاج من صرامة الاستدلال، الذي يجعل المخاطب به في وضع خضوع واستلاب"⁽²⁾، بمعنى لا مجال لفرض سلطة القول على رأي الغير.

والشيء الذي يُحسب لبيرلمان أنه نجح في ترسيخ مبادئ جديدة في نظريته من خلال "إعطاء مضمون ايجابي للرؤيا الخاصّة بالإنسان، واللغة، والعقل، والقانون، والأخلاق"⁽³⁾، والتي جعلها أهم القواعد في بناء نظريته الفلسفية، ومن هنا نخطئ "حين نعتبر البلاغة جمالية اللغة، وإنما هي أيضا فلسفة التفكير، ثقافة مجتمع، إيديولوجية الطبقات، أسلوبية الحوار، ومثال العقل البشري عموما"⁽⁴⁾، ونخلص من هذا القول أنّ البلاغة في السياق

(1) - عمارة ناصر: الفلسفة والبلاغة، ص17.

(2) - عبد الله صولة : نظرية الحجاج، ص11-12.

(3) - الحسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شايبم بيرلمان، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2014، ص28.

(4) - رولان بارت: قراءة جديدة للبلاغة القديمة، ص09.

الغربي معنيان: "المعنى الحجاجي الإقناعي الذي يصبّ في التداولية الحديثة، والمعنى الشعري الذي يصبّ في الأسلوبية"⁽¹⁾.

كما سعى كلّ من بيرلمان وتيتيكا إلى إبعاد الأبنية الاستدلالية المجردة المبنية على المنطق الصّوري، واستخدامه في مجالات اللغة الطبيعية لأن، "موضوع الحجاج هو درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات أو تزيد من درجة ذلك التسليم"⁽²⁾، فقد أصبح ضرورة ملحة وملزمة؛ لأنّه لا تواصل باللسان من غير حجاج، ولا حجاج بغير تواصل باللسان"⁽³⁾، وهذا نتيجة التطور الاجتماعي الكبير الذي شهده العالم، فولد تفاعلا فعّالا ومهما في بنية الخطابات.

1-1 الحجاج جوهر العملية التخاطبية:

لقد عرّف كل من بيرلمان وتيتيكا - ch. Perelman, I. O. Tyteca الحجاج بقولهما "إذعان العقول بالتصديق لما يطرحه المرسل أو العمل على زيادة الإذعان"⁽⁴⁾، فالحجاج ما هو إلا مهارة إنسانية يتفاعل فيها خطاب المتكلم مع السياق بُغية التأثير في المتلقي من أجل تغيير رأيه أو سلوكه أو تبني موقف معين. ويتحقّق هدف الحجاج بمدى الأثر الذي يحدثه الخطاب في نفسية المخاطب، ومدى تجسيد الأدلّة في ذهنه؛ لأنّ دور الحجاج هو بناء خطاب تواصلية تفاعلية، يتم بموجبه أن يحصل الفهم والإفهام.

ويحدّد أورليون مهام الحجاج ووظائفه بأن يكون إجراء عقليا، يروم إلى التأثير فيحصل الإذعان لدعوى ما، هذه القوة التأثيرية تقودنا إلى تغيير في موقف وسلوك المتلقي وهذا بفضل علاقات الإغراء المتبادلة وما تحمله من شحنات عاطفية؛ أما الاستدلال

(1) - محمد العمري: البلاغة العامة والبلاغات المعجمة، مجلة فكر ونقد، المغرب، العدد (25)، يناير، 2004م.
https://www.aljabriabed.net/n24_05omari.htm.

(2) - عبد الله صولة: الحجاج وأطره ومنطقاته من خلال مصنف الحجاج، ص 29-307.

(3) - طه عبد الرحمن: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 254.

(4) - ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب (مقارنة لغوية تداولية)، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2004م، ص 456-457.

فينشئ الروابط بين القضايا، ويعمل على توسيع وتدعيم حقل المعرفة⁽¹⁾، ويسعى جاهداً إلى الإقناع أو الاقتناع، لأنّ "الإقناع هو العملية الكلامية التي تستهدف التأثير العقلي والعاطفي في المتلقي أو الجمهور، قصد تفاعله إيجاباً مع الفكرة المعروضة عليه باعتماد الحجج والبراهين الإثباتية، بينما الاقتناع هو فعل الأثر الناجم عن عملية الإقناع لدى المتلقي متى توافرت الظروف، فيحدث الانسجام بين الرغبة الذاتية والإمكانات المتاحة والهدف المقصود"⁽²⁾، ويستخلص من هذا القول أنّ مصطلحي الحجاج والإقناع هما كوجهي الورقة الواحدة في بلاغة الخطاب.

أما في تصوّر (روث أموسي) بأنّ الحجاج هو "كل ملفوظ يروم التأثير في مخاطبه وفي الآخر، كما يروم تغيير نسق تفكيره، وكلّ ملفوظ يُرغم أو يحثُّ الآخر على الاعتقاد والرؤية والعمل بشكل مختلف"⁽³⁾، يفهم من ذلك أنّ الحجاج مجال استعماله واسع فهو ينشد الإذعان والتأثير في المتلقي .

كما نجد "فيليب بروتوم" يربط الحجاج بالعامل النفسي والمنطقي بقوله "الحجاج عملية تواصلية إتصالية، يهدف إلى تحقيق الإقناع، باستعمال شتى الطرق، والوسائل لاستنهاض الملكة الذهنية والوجدان للمتلقي"⁽⁴⁾.

1-2 تصنيفات الحجاج في منظور (بيرلمان):

تختلف وظائف الحجاج من حيث الاستعمال إلى ضربين: "ضرب أنت فيه لا تبرح حدود المنطق فهو ضيق المجال ومرادف للبرهنة والاستدلال... وضرب هو واسع المجال لانعقاد الأمر فيه على دراسة مجمل التقنيات البيانية الباعثة على إذعان السامع أو

(1) - ينظر: محمد طروس: النظرية الحجاجية من خلال التّراصات البلاغية والمنطقية واللسانية، ص9.

(2) - ينظر: أمينة رقيق: بلاغة الخطاب المكتوب، دراسة تقنيات الحرف واللون والصورة في خطاب الدعاية التجارية، أطروحة دكتوراه، علوم، إشراف محمد خان، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، 2013 - 2014، ص107.

(3) - محمد مشبال: في بلاغة الحجاج، ص58.

(4) - Philippe Bretom: L'argumentation dans la communication, 3^{ème} édition, La découverte, Paris, 2003, P 16-17.

القارئ⁽¹⁾، وأما الحجّة التي يشتغل عليها الحجاج ويراعي فيها المخاطب قوّة البيّنة التي تعمل على تغيير ذهنية الغير والتأثير في سلوكه، أو يمس تغيير الذات بسبب تأثير المتلقي فيه، وذلك من خلال اتباع طرق استدلالية مقنعة.

إنّ درجة قوّة الخطاب تختلف من متلقي إلى آخر، حسب النضج العقلي والثقافي ونوع الأدلّة المطروحة؛ لأنّ هناك من لا يصدق إلا بالأدلّة المحسوسة المرئية، وهناك من يقتنع إلا بصيغة الجدل والمحاورة المبنية على الاستدلال الخطابي أو الجدلي، وهناك من تكون العاطفة أبلغ بيانا؛ لأنّ طباع نفوس الناس متفاوتة في التّجاوب والتّصديق، فمنهم من يصدّق بالبرهان، ومنهم ما يصدّق بالأقوال الجدلية، ومنهم من يصدّق بالأقوال الخطابية⁽²⁾.

كما ترتبط نظرية الحجج بجوانب أخرى مختلفة، لا تتعلّق باللّغة والبلاغة فحسب؛ بل ترتبط بالجانب النفسي والاجتماعي والثقافي الذي يسهم في إنتاج الخطاب الحجاجي بكلّ أنواعه، وتتنوع حصر الحجج إلى "حجج شبه منطقية التي تستمد طاقتها الإقناعية من مشابهتها للطرائق الشكّلية والمنطقية والرياضية في البرهنة، والحجج المؤسسة على بنية الواقع من قبيل الربط السببي وحجّة السّلطة، والحجج المؤسسة لبنية الواقع شأن المثل والشاهد والتمثيل والاستعارة⁽³⁾، وسنتعرض في ثنايا البحث عن مفهوم كل صنف من الحجج حسب استعمالاته في المدونة القرآنية.

2- فلسفة السّؤال عند (ميشال مايير - Michel Meyer):

إنّ نشأة نظرية المسألة تعود أساسا إلى الفلسفة اليونانية، وقد ارتبط السّؤال بسبب الوجود؛ لكن في العصر الحديث أعيد قراءته قراءة جديدة انطلاقا من فلسفته القديمة، وأما فلسفة (ميشال مايير - M.Meyer) الحجاجية فأدرجت تحت مسمّى فلسفة السّؤال والجواب

(1) - عبد الله صولة: الحجج في القرآن، ص 8.

(2) - أبو الوليد بن أحمد بن رشد: كتاب فصل المقال، ص 28.

(3) - عبد الله صولة: الحجج في القرآن، ص، 30.

التي تُعرف بـ(بنظرية المساءلة) (Questionnement)، ويرى ميشال مايير أنّ البلاغة تنطلق من فرضية المساءلة ويصوغها على شكلين⁽¹⁾:

1- البلاغة هي ذلك الحوار حول المسافة بين الذات.

2- أو هي ذلك الحوار حول المسافة بين أناس بصدد مسألة أو مشكل ما.

ويتوقف نجاحها عبر مرورها على أربعة أقسام: "فالقسم الأول يتعلّق بمعالجة السؤال (Invention) والثاني بعرضه (Disposition) ثم الثالث بسطه وعرضه عبر الكلام والحديث (élocution) وأخيرا الفعل أو الحركات وتتمفصل هذه الأقسام على طرح السؤال، سرده بناء حججه ومطابقتها مع السؤال"⁽²⁾. فالخطاب الحجاجي يراه مايير مجموعة من التساؤلات تستوجب إجابات مقنعة، والحجاج عنده يأخذ شكلا "محايتا لاستعمال الكلام؛ لأنّ الكلام يتضمّن بالقوّة سؤالا يستمدّ منه دلالاته؛ والحجاج لا يتّصل بضرب من الخطابات مخصوص، بل يشمل كلّ ضروب الخطاب الشّفوي والمكتوب الأدبي وغيره"⁽³⁾، فهو يحمل صورا بلاغية تستوجب دليلا يستخلص من خلال التفاعل بين المتخاطبين ليفسح المجال لإثارة السؤال والوصول إلى الإقناع؛ لأنّ "الحجّة عنده إلا جواب أو وجهة نظر يُجاب بها عن سؤال مقدر بنتيجة المتلقي ضمنيا من ذلك الجواب ويكون ذلك بطبيعة الحال في ضوء المقام وبوحي منه"⁽⁴⁾.

إنّ اهتمام مايير بإثارة السؤال، لأنّه يرى أنّ الحجّة أو الدليل تستثار إلا بالمساءلة لهذا يعمل المتكلم على إثارة الأسئلة التي لها دور فعال وأساسي في بناء الخطاب الحجاجي "وأنّ طرح الأسئلة يمكن أن يضحّم الاختلاف حول موضوع ما إذا كان المخاطب لا يشاطر المتكلم الإقرار بجواب ما، كما يمكن أن يلطّف السؤال بين الطرفين

(1) - عز الدين خطابي، إدريس كثير: بلاغة السؤال وسؤال البلاغة، مجلة علامات في النقد، السعودية، العدد 28، يونيو، 1998، ص354.

(2) - نفسه.

(3) - محمد علي القارصي: البلاغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة، ضمن، (أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم)، كلية الآداب منوبة، تونس، ص394.

(4) - عبد الله صولة: الحجاج في القرآن الكريم، ص39.

من اختلاف إذا كان المخاطب يميل إلى الإقرار بجواب غير جواب المتكلم، وبإمكان المتكلم كذلك تعميق نقاط الاتفاق مع المخاطب إذا ما كان مقراً بما يطرحه عليه من أجوبة⁽¹⁾.

يوظف مفهوميّن في بناء العملية الحجاجية هما: المصريح به الذي يستخرج من ظاهر السؤال، أما المفهوم الضمني فيقصد به تلك الإمكانيات المختلفة التي تستخلص للإجابة عن السؤال الواحد. والسؤال عنده كلّ ما يتعلق باستفهام على مشكل يعترضه؛ لأنّ كلّ سؤال هو حاجز أو صعوبة أو ضرورة اختيار فهو بالتالي نداء إلى اتخاذ قرار وإن كلّ جواب -حتى وإن علم السؤال الذي هو مصدره- يثير السؤال effet (problématique)⁽²⁾.

لقد أولى ميشال ماير عناية كبيرة بالصّور المجازية من خلال نظريته المساءلة، التي تعتمد على التّقيب في القول سواء كان صريحاً أو ضمناً للوصول إلى هدف وهو كيف يقنع ويؤثر؟ فالمجاز في نظره جاء لتجسيد المعاني وفق صور مرئية مشاهدة، والتي تعبّر عن الأهواء والانفعالات والمشاعر التي هي صور من الإنسان، وجعلها أكثر حضوراً وأشدّ عمقاً وتأثيراً على ذهن السّامع، مثلما تكون الاستعارة صورة من الأسلوب للتأثير والإقناع⁽³⁾.

في السّياق نفسه يريد ماير التّحليق بعيداً عن الاستعمال اللّغوي العادي المبسوط بين ثنايا الواقع ويعمل على إدراج خطابه الحجاجي الضمني المدعوم بالصورة البلاغية، وهذا يعني أنّ سؤالاً طرح فيه -والسؤال يستدعي بالضرورة جواباً إشكالياً يستفهم السّامع ويدعوه إلى الإجابة عن السؤال المطروح. وتأتي الإجابة بتجاوز ظاهر اللّفظ، فالجواب سؤال في حدّ ذاته لأنّه يحدّد وجهاً واحداً من الجواب، وتبقى بقية الوجوه متعلّقةً

(1) - محمد علي القارصي: البلاغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة، ص 399.

(2) - نفسه، ص 393-394.

(3) - ينظر: عبد السلام عشير: عندما نتواصل غير (مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج)، أفريقيا الشرق،

الدار البيضاء، (د-ط)، 2006، ص 121.

بأسئلة جديدة تطرح⁽¹⁾، والحجاج عنده قائم بين ظاهر الكلام وضمانيه؛ لأنّ ظاهر الكلام هو الجواب وضمانيه هو السؤال. ومثلما يكن الضمني في صميم الظاهر يكشف عنه المقام ويكمن السؤال في صميم الجواب⁽²⁾، للوصول خواطر المتلقي وذلك عن طريق استدراجه بالأسئلة.

3- نظرة الحجاج عند تولمين (stephen Toulimin):

جاء الباحث الأمريكي (ستيفان تولمين) بتصوّر جديد لبعض القضايا التي أغفل عنها المنطق الصوري في كتابه (les usage de l'argumentation) المنشور عام 1958م، والذي أخضع المنطق وأعطى له سمّة الحجاج المتلبس بسمّة عقلانية. لكنه ليس المنطق الصوري كالرياضيات، بل سعى إلى "إقامة نظرية حجاجية تهدف إلى إصلاح المنطق وإعادة تجديده، وجعله أكثر ارتباطاً بالمحادثات والنقاشات اليومية"⁽³⁾، فقد أثار قضية جوهرية هامة في الحقل المنطقي بين كونه علماً سوريا له قواعده ومسلماته، وبين كونه تقويماً نقدياً للحجج الواقعية؛ لهذا أدرج أربعة أبعاد⁽⁴⁾:

- ❖ البعد السيكلوجي، على أنّ علم النفس يُعدّ النموذج العلمي الضمني للمنطق؛ لأنّ المنطق يهتم بقوانين الفكر، وبعملياته الذهنية.
- ❖ البعد السوسولوجي، وهذا؛ لأنّ المنطق امتداد للسوسولوجيا، وهذا الأخير يهتم بالعادات والممارسات التي تنمو بتطور المجتمع، والتي تتناقلها الأجيال.
- ❖ البعد الفني، ويرى فيه أن المنطق تقنية، لأنّ المنطقي يهدف إلى وضع قواعد ضابطة للتفكير.

❖ البعد الرياضي يعتبره علماً موضوعياً يدرس العلاقات المنطقية، ويصوغ نسقا من

(1) - محمد علي القارصي: البلاغة والحجاج من خلال نظرية المسألة، ص 396.

(2) - عبد الله صولة: الحجاج في القرآن، ص 39.

(3) - الزماني كمال: حجاجية الأسلوب في الخطابة السياسية لدى الإمام علي رضي الله عنه، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2016، ص 93.

(4) - محمد طروس: النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، ص 58.

الحقائق التي تسيّر هذه العلاقات.

يرى تولمين أيضا أنّ الحجج تتنوع بتنوع الغايات إلا أنه أولى اهتمامه إلى "الحجج التعليلية الموجهة إلى دعم الإثباتات، أي إلى البنيات التي تقدمها، والقيمة التي تدعيها، والطرق التي تمكن من تصنيفها وتقويمها وانتقادها، وقد أرجع ذلك للوظيفة الأساسية للحجج والمتمثلة في التعليل"⁽¹⁾، لأنّ التعليل وظيفة أساسية في تدعيم الحجّة وإعطائها نوعا من المصدقية والإثبات لهذا فإنّ "النتائج المرتقبة والإثباتات المصوغة تتغير بحسب القضية المعروضة، فيطلب المزيد من الشرح، وكذا المعطيات والوقائع، أو أسباب أخرى كافية لتعليل الإثبات الأولي؛ وأن نوع الوقائع التي نحيل عليها، ونوع الاستدلالات التي تستخدمها يخضعان لنوع القضية المعالجة؛ وأنّ مراحل الحجج التي نقدمها مختلفة، يتنوع مسارها تبعا لمنطق التعديلات، والنتائج المستخرجة منه"⁽²⁾.

كما أدخل تولمين^(*) مصطلحا تقنيا أسماه (حقل الحجاج) ويحدّد مفهومه بقوله: "نعتبر الحجتين منتميتين إلى نفس الحقل حين تكون المعطيات والنتائج المكونة لكل واحدة منهما، من نفس النوع المنطقي؛ ونعتبرهما منتميتين إلى حقلين مختلفين، حين لا تكون الأسس والنتائج من نفس النوع المنطقي"⁽³⁾.

جاءت نظرية الحجاج عند تولمين معارضة لبعض أساليب المنطق الصوري وجعلها قابلة للتطبيق في الخطاب اليومي مستخدما طرق الاستدلال للوصول إلى النتيجة وتقوم نظريته "على رسوم حجاجية، أولها المعطى (م) والنتيجة (ن) والضمان (ض) أو ما يسمى قانون المرور، بالإضافة إلى عنصر الموجّه (Le qualificateur modal) ونصطلح

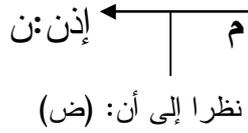
(1) - محمد طروس: النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، ص 62.

(2) - نفسه، ص 62.

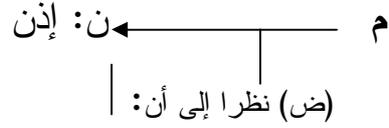
(*) ويمكن أن نلخص مشروع تولمين الحجاجي في عدة نقاط، أن نظريته حوار وليس مناخاة، كما أهمل مكانة الجمهور، وعدم مراعاته للمقام أو ليس له وجود في تحليل الخطاب، ويستند أكثر على القوانين القضائية (ينظر: عبد الله صولة: الحجاج في القرآن، ص 26).

(3) - محمد طروس: النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، ص 63.

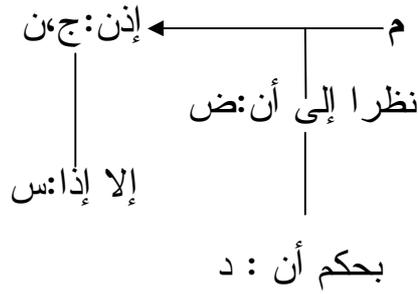
عليه ب(ج) وعنصر الاستثناء(س)ويمكن تمثيل شروط رفض القضية بالشكل الآتي:



(1)



(2)



(3)

4- الحجج عند أرفالد ديكرود (Oswald Ducrot):

4-1 السلم الحججي (Echelle argumentative):

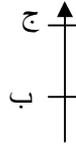
يقدم (ديكرود Ducrot) تعريفاً أكثر تفصيلاً للحجاج وهو "أن يقدم المتكلم قولاً ق1 (أو مجموعة من الأقوال) موجّهة إلى جعل المخاطب يقبل قولاً آخر ق2 (أو مجموعة أقوال أخرى) سواء أكان ق2 صريحاً أو ضمناً وهذا الحمل على قبول ق2 على أنه نتيجة للحجة ق1 يسمّى محاكاة"⁽¹⁾. كما أظهر في كتابه السلم الحججي الذي نشره سنة 1980، أنّ هناك سمّة أساسية تميز الحجج عن الأدلّة ذات الأساس البرهاني، لأنّ الحجج لا تقطع في إثبات النتيجة التي تساندها كما هو الحال في البرهان، بل الغاية التي تصبو لها أنّها ترفع لمصلحة النتيجة⁽²⁾، بمعنى أن تكون جدار سند؛ لهذا اقترح ديكرود تحليلاً لظاهرة السلميات في الخطاب الحججي، والذي يهدف إلى تحديد مراتبها باعتبار وجهتها

(1) - شكري المبخوت: نظرية الحجج في اللغة، ضمن أهم نظريات الحجج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم،

إشراف حمادي صمود، سلسلة آداب مجلد 39، كلية الآداب، منوبة، تونس، (د-ت)، ص360.

(2) - نظر: رشيد الراضي، المظاهر اللغوية للحجاج، ص108.

وقوتها الحجاجية، فالسّم الحجاجي هو علاقة ترتيبية للحجج يمكن أن نرّمز لها بالشكل التالي:



ن : النتيجة.

"ب" و"ج" : قوتان أو حجتان

ويتسم السّم الحجاجي بالسّميتين الآتيتين:

أ- كل قول يرد في درجة ما من درجات السّم يكون القول الذي يعلوه دليلاً أقوى منه بالنسبة لـ (ن).

ب- إذا كان القول (ب) يؤدي إلى النتيجة (ن)، فهذا يستلزم أن (ج) الذي يعلوه درجة إليها، والعكس غير صحيح⁽¹⁾.

فالنظرية التي أسسها العالم اللغوي الفرنسي أرفالد ديكر و تصبّ كل اهتماماتها على دراسة اللغة الطبيعية التي تتحرك وفق فكرة شائعة أننا نتكلم عادة بقصد التأثير وتتطلب من أسس ومبادئ وهي:

1- إنّ الوظيفة الأساسية للغة هي الإقناع والتأثير، باستعمال الروابط والعوامل الحجاجية وغيرها من الآليات.

2- المكون الحجاجي في المعنى أساسي، والمكون الإخباري ثانوي.

3- عدم فصل بين الدلالات والتداوليات والدعوة إلى فرضية التداوليات المدمجة⁽²⁾. وأما أهم قوانين هذا السّم فهي ثلاثة:

- قانون الخفض: إذا صدق القول في مراتب معينة من السّم فإنّ نقيضه يصدق في المراتب التي تقع تحتها.

(1) أبو بكر العزاوي: نحو مقارنة حجاجية للاستعارة، بحث منشور في مجلة المناظرة، العدد (4)، لسنة 1991، ص79.

(2) - نفسه.

- قانون تبديل السلم: إذا كان القول دليلاً على مدلول معين فإنّ نقيض هذا القول دليل على نقيض مدلوله.

- قانون القلب: إذا كان أحد القولين أقوى من الآخر في التّديل على مدلول معين، فإنّ نقيض الثاني أقوى من نقيض الأول في التّديل على نقيض المدلول⁽¹⁾.

4-2 دور الروابط والعوامل في بناء الأسلوب الحجاجي:

ظهرت الملامح الأولى لوظيفة الروابط والعوامل في استعمال اللغوي الحجاجي على يد المؤلفين ديكر و أنسكومبر، وهذه العوامل أو الروابط لم تأت اعتبارياً جمالياً، بل جاءت لتقول لا معنى ولا حجاجاً حقيقياً إلا بالمرور عليهما، لهذا يُعدّ الخطاب خليطاً من العناصر اللغوية "تتنظمها غاية واحدة وهي تحقيق الخطاب للإقناع في عملية التواصل"⁽²⁾، فقد صنّف ديكر و هذه العناصر إلى مكونين هما:

أ- الروابط الحجاجية:

ويقصد بها كل ما يربط ويتحكم في بنية الجملة، لأنّ هذه الأخيرة ماهي إلا كلام مفيد مستقل يقود إلى فائدة، ويرتبط بين معاني أجزائها روابط تجعلها بنية كاملة المعنى، فكلمة "الرابطه تستعمل للربط والتوجيه، وهي تبين المعلومات والحجج التي يحويها نص ما، وتجعل المعلومة المحتواة في النصّ في خدمة المقصد الحجاجي"⁽³⁾، وبالتالي فالرابط يُعدّ عنصراً حجاجياً مسانداً للنتيجة، وقد قسمت هذه الروابط حسب وظيفتها المقامية، وقوة حجيتها إلى عدة تقسيمات⁽⁴⁾ وهي:

(1) - طه ع الرحمن: أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، ص 105-106.

(2) - عايد جدوع حنون: العوامل الحجاجية في آيات الأحكام، جامعة المثلى، كلية التربية للعلوم الإنسانية، مجلة أورو، المجلد التاسع، العدد الرابع، 2016، ص 12.

(3) - بن أعراب زهرة: دور الأساليب والروابط اللغوية في العملية الحجاجية، مجلة الخطاب، تيزي وزو، العدد 06، يناير 2010، ص 185.

(4) - أبو بكر العزاوي: اللّغة والحجاج، العمدة في الطبع، الدار البيضاء، ط1، 2006، ص 31.

1- روابط مدرجة للحجج (حتى، بل، لكن، مع، ذلك، لأن...) وروابط مدرجة للنتائج (إذن، لهذا، وبالتالي...)

2- روابط تدرج حججا قوية (حتى، بل، لكن، لا سيما...) وروابط تدرج حججا ضعيفة.

3- روابط التعارض الحجج (بل، لكن، مع ذلك...) وروابط التساوق الحجج (حتى، لا سيما...).

لا يخفى على أحد أنّ الأقوال كي تؤدي وظيفتها التواصلية تقتضي وجود روابط وعوامل تحكم هذا التركيب، لذا ارتبطت فكرة الحجج والسلام الحججية باسم ديكرو، وقد صرح هذا الأخير أنّ دراسته للسلام الحججية "أفادت كثيرا من هذه الدراسات المبكرة التي كانت قاعدة هيأت لإنجاز هذا التأويل الحجج للظاهرة السليمة، غير أنّ أنسكومبر وديكرو عملا على صياغتها وإدراجها بصورة نسقية ضمن نظريتهما الحججية اللسانية"⁽¹⁾.

4-3 مظاهر القيم والمواضع في الخطاب الحجج:

يرى اللغوي أرفالد ديكرو أنّ "وجود الروابط والعوامل الحججية لا يكفي لضمان سلامة العملية الحججية، ولا يكفي أيضا لقيام العلاقة الحججية"⁽²⁾، بمعنى أنّ بنية الأقوال الحججية تزيد درجة الإقناع فيها بوجود السند أو الضامن سواء كان رابطا أو عاملا الذي يربط بين الحجّة والنتيجة، ولتعزيز الحجج أكثر يستدعي المتكلم القيم التي تعمل على "حمل المتلقي على الاضطلاع باختيارات معينة دون أخرى، وخاصة لتبريرها بحيث يجعل الآخر يقبلها ويصدق عليها"⁽³⁾، فقد تكون قيما دينية أو أخلاقية متواضع عليها، وهذه المواضع التي تُعني عند البلاغيين القدامى أبوابا تصنف فيها الحجج، فهي حسب

(1) - رشيد الراضي: المظاهر اللغوية للحجاج، ص 107.

(2) - أبو بكر العزاوي: اللّغة والحجاج، ص 31.

(3) - محمد مشبال، خطاب الأخلاق والهوية في رسائل الجاحظ، مقارنة بلاغية حججية، دار كنوز المعرفة، عمان،

تعبير بيرلمان بأنّها مسلّّات ذات طبيعة عامّة تكون مضمرّة في الغالب تسمح بتأسيس القيم ومراتبها⁽¹⁾. وقد أخذت نصيبا وافرا في مدونتنا القرآنية .

(1) - محمد مشبال، خطاب الأخلاق والهوية في رسائل الجاحظ، مقارنة بلاغية حجاجية، ص 68.

ثالثاً- التحليل التداولي للخطاب البلاغي:

1- التداولية^(*): نظرات في المفهوم.

مرت الدراسات اللغوية عند الغرب منذ نشأتها بمرحلتين أساسيتين من خلال تصوّرها لوظيفة اللغات: فريق انصب اهتمامه على الدراسة الشكلية للغة بشقيها البنيوي والتوليدي؛ أي دراسة النصّ على أنه بنية مغلقة، والفريق الآخر جاء ليحرّر النصّ من سجن عبودية البنية، بمعنى أنها أضحت نشاطا اجتماعيا هاما في بنية المجتمع، وهذا ما وقف عليه "فتغنشتاين" في بيان وظيفة اللغة والتي يراها، أنها "تدخل بصورة فاعلة في حياتنا، فنكثف سلوكياتنا وتفاعلنا مع الآخرين، إننا نستعملها كي نأمر، وكيف نستفهم ونسأل، وكي نشكر بعضنا البعض، وكي نتجاذب ونتنافس... أخ". كما يجب ألا ننظر إلى اللغة باعتبارها عمليات مجردة، وإنما باعتبارها أداة. وما يحدد العبارة اللغوية هو الكيفية التي تُستعمل بها والأغراض التي توظّف لها⁽¹⁾.

لقد شغل الدرس التداولي مكانة خاصة في تشكيل الفكر الغربي والعربي، بل جاءت بمشروع جدّ هام وهو محاولتها الإجابة عن تساؤلات جوهرية يفرضها البحث اللساني الحديث الذي يهتم بنظام اللغة في ظل النشاط الاجتماعي، فهي تريد أن تعرف "ماذا نفعل حين نتكلم؟ ماذا نقول بالضبط؟ ولماذا نطلب من جارنا على المائدة ما إذا كان في استطاعته أن يناولنا الملح... من يتكلم إذن ولمن؟ ومع من؟ ولأجل ماذا؟ من تظنني أكون حتى تكلمني هكذا؟ ما الذي يجب معرفته لرفع الإبهام؟ ماهو الوعد؟ كيف يمكننا قول شيء آخر غير ما كنا نريد قوله؟ هل يمكن أن نقصر على المعنى الحرفي لقضية

(*)- علينا التمييز بين التداولية Pragmatique ومصطلح الذرائعية أو النفعية Pragmatisme، فالنفعية مذهب فلسفي أسسه وليم جيمس وجون ديوي، يريا في المنفعة معيارا للحقيقة، أما مصطلح التداولية فهي نتاج لفلسفة اللغة أسس له شارل موريس Morris، فتغنشتاين وأوستن...، حيث التداولية مجل يُعنى بالعلاقات بين العلامات ومستخدميها.

(1)- عبد المجيد جحفة: مدخل إلى علم الدلالة الحديثة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2000،

ما؟ ماهي استعمالات اللغة؟ إلى أي حد يكون الواقع اللساني محدداً بكفايته اللغوية؟⁽¹⁾، فهذه الأسئلة تستوجب جواباً يكون شافياً عن المقصد الحقيقي من ممارسة الخطاب التواصلي والكشف عن كل ما يخدم غرض المتكلم.

ولدت التداولية من رحم الفلسفة وهي تحمل مجموعة من النظريات، ثم تطورت فأضحت نشاطاً لغوياً يمارس في ظل سياق اجتماعي، لذا جاء تعريفها في معجم اللسانيات وعلوم اللغة بأنها "جانب من جوانب اللغة تهتم بملامح استعمالها (نفسية المتكلمين، رد فعل المستمعين، الطابع الاجتماعي للخطاب، موضوع الخطاب... بمقابل الجانب التركيبي (الميزات الشكلية للأبنية اللغوية) والدلالي (العلاقة بين الوحدات اللسانية والعالم)، لكن بدراسة أوسنتن للأفعال الكلامية والإنشائية، اتسع مجال التداولية ليشمل أحكام الإثبات، والتلفظ، والخطاب، ليحمل قوانين الصدق والتحليل الحوارية"⁽²⁾.

أما جاك موشلار (J.Moeschler) فيعرفها بقوله: "علم جديد للتواصل يسمح بوصف وتحليل وبناء إستراتيجيات التخاطب اليومي والمتخصص بين المتكلمين في ظروف مختلفة"⁽³⁾، بمعنى أنها تسعى على الوقوف على كفاءات مستعملي الخطاب والظروف التي نشأ فيها الخطاب.

إنّ ظهور التداولية لم يأت صدفة، بل جاءت بعد تراكمات معرفية وفلسفية مرّت بها اللغة، فتمخض عنها هذا المولود الجديد الذي ارتبط اسمه بثقافة مستعمليها دون تجاهل السياق الذي يُعدّ خاصية ضرورية وملزمة في استعمال اللغة الطبيعية، ذلك "أنه يوجد على الأقل في كل موقف تواصلي، شخصان أحدهما فاعل حقيقي، والآخر على جهة الإمكان، أي المتكلم أو المخاطب على التوالي، وكلاهما على الأقل ينتميان إلى جماعة

(1) - عبد السلام إسماعيلي علوي: ما التداوليات؟، مقال، ضمن التداوليات علم استعمال اللغة، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط2، 2014، ص17.

(2) - عمر بلخير: مقالات في التداولية والخطاب: الأمل للطباعة والنشر، المدينة الجديدة، تيزي وزو، الجزائر، ص162.

(3) - نعمان بوقرة: لسانيات الخطاب، مباحث في التأسيس والإجراء، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2012، ص73.

لسانية، أي طائفة من الأشخاص لها نفس اللغة، وترابط ضروب الاتفاق والتواطؤ للقيام بالفعل المشترك الانجاز⁽¹⁾. تحت ضغط مقام الخطاب.

تهتم التداولية بوظيفة اللغة، وتشغل على عدة مفاهيم، وأبرزها أفعال الكلام les actes de langages، ومتضمنات القول les implicites، والاستلزام الحواري conversationnelle، والإشارات Deicies⁽²⁾.

لقد استعمل بلغاء العرب في خطاباتهم اليومية سواء كانت في السلم أو الحرب ثنائية الخبر والإنشاء تحت معياري الصدق والكذب مع مراعاة مطابقة الكلام لمقتضى الحال. وقد تنفرعت الأفعال الكلامية المباشرة عندهم حسب أحمد متوكل إلى اتجاهين: - الاتجاه النحوي الذي ينظر في عبارات الاستفهام والأمر وغيرها على أنها أشكال، وهم بالتالي يفصلونها عن وظائفها التداولية. ويمثل هذا الاتجاه "الصوري" - على حد تعبير - النحاة.

- الاتجاه التداولي الذي تتجلى معالمه في كتب البلاغة والأصول. والأفعال الكلامية عند هؤلاء هي أفعال حقيقية تحققها الذات المخاطبة في مقامات بارزة⁽³⁾.

2- نظرية أفعال الكلام:

1-2 الفعل الكلامي عند أوستين:

ولدت نظرية أفعال الكلام من رحم فلسفة اللغة على يد مجموعة من الباحثين في الفلسفة، وخاصة تيار فلاسفة أكسفورد وعلى رأسهم أوستين (Austin) (1911-1960)، وتلميذه سورل (Searle) (ولد 1932)، وهذا ما ذهب إليه بعض الدارسين بقولهم: "من الملاحظ أن دراسة المعنى من خلال تحليل الأفعال الكلامية نشأت أصلاً على يد فلاسفة

(1) - فان دايك: النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، ص 258.

(2) - ينظر: مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، دار الطليعة، ط1، بيروت، 2005، ص 40.

(3) - عمر بلخير: مقالات في التداولية والخطاب، ص 116.

من أمثال أوستن وسيرل، لا على يد اللغويين أنفسهم⁽¹⁾. فالانطلاقة الأولى كانت على يد أوستن الذي يُعدّ أبا للتداولية، ثم يأتي تلميذه "سيرل" الذي عمل على تعميق هذه النظرية بالإضافة إلى جرايس GriAse، الذي انصب اهتمامه على الاستلزام الحواري، لقد اهتموا بحركية اللغة ومجال استعمالها ؛ أي بعدها الديناميكي؛ لأنّ اللغة ماهي إلا أقوال تصاحبها أفعال لها بصمة فاعلة في الواقع. لهذا يعدّ الفعل اللغوي Acte de langage أو فعل الخطاب Acte de discours من المفاهيم التي تشتغل عليها اللسانيات (التداولية)^(*).

وتهتم فكرة التداولية بالفعل الكلامي الذي أضحي نواة مركزية في الكثير من الأعمال التداولية، وفحواه أنّ كل فعل كلامي ينهض على نظام شكلي دلالي انجازي، ويُعدّ فضلا على ذلك نشاطا ماديا ونحويا يستهدف تحقيق أفعال قولية (Actes locutoire) وأهداف إنجازية (illocutoires) (كالطلب والأمر والوعد والوعيد...أخ) وغايات تأثيرية (Perlocutoire) تخص ردود فعل المتلقي (كالرفض والقبول)⁽²⁾.

أما سيرل فينظر إلى الفعل الإنجازي، أنه نصّ تواصلية صغير يؤديه المتكلم لغرض معين، بقوله "إنّ الفعل الإنجازي هو الوحدة الصغرى للاتصال اللغوي، وأنّ للقوة الإنجازية دليلا يسمى دليل القوة الإنجازية يبين نوع الفعل الإنجازي الذي يؤديه المتكلم"⁽³⁾، فالتصور الحقيقي للتداولية لدى هؤلاء الفلاسفة يرفضون أن تكون اللغة مجرد وسيلة لتمثيل الواقع، إنها جهاز يمكن من إنجاز أفعال من نمط معين: الأمر، الوعد،

(1) - مسعود صحراوي: التداولية عند العرب، ص 41 .

(*) - جاء المفهوم اللغوي للتداولية في المعنى المعجمي في لسان العرب مشتق من الجذر اللغوي (دَوَّلَ)، فيقال: "الدَّوَّلَةُ والدَّوْلَةُ: العُقْبَةُ في المال والحَرْبِ سَوَاءٌ، وقيل: الدَّوْلَةُ، بالضم، في المال، والدَّوْلَةُ بالفتح، في الحرب... وقال أبو عبيدة: الدَّوْلَةُ، بالضم، اسم لشيء الذي يتداول به بعينه، والدَّوْلَةُ، بالفتح، الفعل... وقال الزجاج: الدَّوْلَةُ اسم الشيء الذي يُتداول، والدَّوْلَةُ الفعل والانتقال من حال إلى حال... ودالت الأيام أي: دارت والله يداولها بين الناس، وتداولته الأيدي أي: أخذته هذه مرة وهذه مرة، ودال الثوب يدول أي: بلى... وقولهم دوايك أي: تداول بعد تداول (ابن منظور، لسان العرب، ج 11، ص 252، مادة (دَوَّلَ)).

(2) - مسعود صحراوي: تداولية الخطاب القرآني عند الأصوليين، مجلة الخطاب، العدد 08، أبريل، 2011، ص 47.

(3) - الصرّاف علي محمود حجي: في البراجماتية، الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة، دراسة دلالية ومعجم سياقي، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط 1، 2010، ص 51.

النهي، الاستفهام، الشكر، التهئة، الإنذار، الوعد، الوعيد، التطبيق، التعميد، التعجب، التهديد وغيرها من الأفعال الكلامية العديدة والمتنوعة⁽¹⁾، والشيء الذي تميزت به في نظر أوستين وتلميذه سيرل، هو انتقال وظيفة الجملة من قيمة الصدق والكذب إلى مجال الاستعمال والفعالية والتأثير في المتلقي وهذا ما رآه "روبير مارتان"، بقوله: "إنّ المجال المتميز بالنسبة إلى التداولية هو مجال اللفظ (L'énoncé)، أما الجملة التي هي النتيجة المجردة لقواعد اللسان وتعاملية الدلالية التي يحتويها اللسان، فيتمّ وصفها بواسطة مكونات لسانية بحتة مستقلة عن وضع الخطاب، وتشكل المعطى الأولي الذي تشتغل عليه المركبة التداولية"⁽²⁾.

إنّ اللغة كمنشأ اجتماعي تواصلية ذات نظام محكم في أبنيتها التركيبية، "لا تحمل دلالة ومعنى فحسب، بل هي فعل كلامي ينجزه المتكلم ليؤدي أغراضا ومقاصد مضبوطة بقواعد دقيقة، وهذا ما أدلت بدلوه "كترين كبرارت" -أو" ريكوني" بأنّ الكلام هو عملية تبادل الأخبار لتغيير حال المخاطب وتحويل نظام معتقداته أو موافقه السلوكية، وبالمقابل فهم الكلام وإدراك مضمونه الإخباري وتحديد قيمته الإنجازية⁽³⁾، فالتداولية هي مكون أساسي من مكونات اللغة تسمح بمعالجة العديد من القضايا أو الموضوعات في مقدمتها الأفعال الإنجازية والاستلزام الحوارية وكل ما يخدم العملية الاتصالية، وكان فضل اتساع خدمة اللغة يعود لعلماء الفلسفة التحليلية منها فتغنشتاين وأوستن وسيرل، لكن بدراسة أوستين للأفعال الكلامية والإنشائية، اتسع مجال التداولية ليشمل أحكام الإثبات، والتلفظ والخطاب، ليجعل قوانين الصدق والتحليل الحوارية"⁽⁴⁾.

ويرى أوستين أنّ الفعل اللغوي ينطلق من ثلاث زوايا: "التلفظ والنطق والخطابة، إذ يختص فعل التلفظ بمخارج الحروف المادية، ويتعلق فعل النطق بمقاصد العبارة، أما

(1) - أو بكر العزاوي: اللغة والحجاج، ص 116.

(2) - عمارة ناصر: الفلسفة والبلاغة، مقارنة حجاجية للخطاب الفلسفي، ص 68.

(3) - ينظر: خولة طالب الإبراهيمي، مبادئ في اللسانيات، دار القصة للنشر، حيدرة، الجزائر، ط2، 2006، ص 162.

(4) - عمر بلخير: مقالات في التداولية والخطاب، الأمل للنشر والتوزيع، المدينة الجديدة، تيزي وزو، الجزائر، ص 162.

فعل الخطاب فيهتم بمقاصد المتكلم الخارجة عن العبارة والمفهومة من السياق... وعلى ذلك فأوستين يرجع أفعال الكلام إلى ثلاث أنواع: فعل الكلام، وقوة فعل الكلام، ولازم فعل الكلام⁽¹⁾. وقد ميّز أوستين الأفعال الكلامية في بداية تجربته إلى نوعين:

- أفعال إخبارية تقريرية وصفية، ترسم الواقع الخارجي، يمكن أن نحكم عليها بالصدق أو الكذب (Constative).

- أفعال أدائية إنجازية (Performative)، والتي لا توصف بصدق أو كذب، بل يمكن أن تكون موفقة أو غير موفقة⁽²⁾.

كما بين أنّ الجمل الإنشائية تنفرد عن الوصفية بعدد معين من الخصائص، "أنها تُسند إلى ضمير المتكلم في زمن الحال وتتضمن فعلا من قبيل "أمر" و"وعد" و"أقسم" و"عمد" ويفيد معناها على وجه الدقة إنجاز عمل. وتسمى هذه الأفعال كما أشرنا سابقا أفعالا إنشائية إنجازية؛ لكن هذا التصنيف السابق ينتهي إلى نتيجة، وهو عجزه عن التمييز بين الأفعال الإخبارية والأدائية، لأن بعض الأفعال الإخبارية تتضمن أداء، وبعض الأفعال التي تنطبق عليها شروط الأفعال الأدائية ليست أدائية⁽³⁾. وقد تنبه أوستين إلى أن المقابلة بين الجمل الوصفية والجمل الإنشائية ليست بالبساطة التي ظنّها في البداية، (فبعض الجمل الإنشائية على سبيل المثال ليست مسندة إلى ضمير المتكلم في زمن الحال أو لا تتضمن فعلا إنشائيا، فقد قادته هذه الملاحظة إلى تمييز جديد مهم ومقبول إلى يومنا هذا، بأن كل جملة تامة مستعملة تقابل إنجاز عمل لغوي واحد على الأقل⁽⁴⁾.

(1) - أوستين: نظرية أفعال الكلام العامة (كيف ننجز الأشياء بالكلام، ترجمة عبد القادر قنيني، دار أفريقيا الشرق، المغرب، 1991، ص 07.

(2) - ينظر: نعمان بوقرة: لسانيات الخطاب، ص 97.

(3) - ينظر: محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، (د-ط)، 2002، ص 45.

(4) - ينظر: آن ربول، جاك موشلار: التداولية اليوم علم جديد في التواصل، تر، سيف الدين دغفوس، محمد الشيباني، دار الطليعة للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط 1، 2008، ص 31.

وبهذا الطرح يبني الجزء الثاني من نظريته ويعطي اهتمامه كيف ننجز فعلا، حين نتكلم ويميز بين هذه الأفعال كما يلي :

2-1-1 الفعل اللفظي Locutionary act

ويعني به الأصوات اللغوية التي تنتظم وفق تركيب نحوي سليم ذات دلالة ينتج عنه معنى محدد، لأن الجملة غير مستقيمة نحويا لا يمكن أن توفر المعنى الحرفي السليم أو الأصلي المفهوم من التركيب.

2-1-2 الفعل الإنجازي illocutionary act

ويقصد به ما يؤديه الفعل اللفظي من وظيفة في الاستعمال كالوعد، والتحذير، والأمر، والنصح...إلخ.

2-1-3 الفعل التأثيري Perlocutionary act

ويقصد به الأثر الذي يحدثه الفعل الإنجازي في السامع أو المخاطب سواء أكان تأثيرا جسديا أم فكريا أم شعوريا⁽¹⁾. ويمكن أن نسوق مثلا يتضح فيه ما تقدم في هذا القول: إذا دخل عليك شخص وقال لك: "خلف هذا الباب أفعى".

❖ الفعل اللفظي ← خلف هذا الباب أفعى

❖ الفعل الإنجازي ← التحذير من الأفعى

❖ الفعل التأثيري ← الخوف، الرهبة، الفرع، الهرب من المكان، أو النهوض لقتلها...

كما يشترط أوستين أن تحقيق الفعل الإنشائي يتوقف على عامل القصد، والمقصود بذلك "هو أن الفعل الإنشائي الذي يصدر عن شخص، يرفض في قرارة نفسه دلالاته الموجبة، فيعتبر فعلا غير متحقق، فإذا قال شخص معزيا شخصا آخر: "إنا لله وإنا إليه راجعون"، وهو لا يشعر في كيانه بأي أسف أو تأثر نحو ذلك الشخص، فلا يمكن أن نقول أن فعل التعزية قد تحقق، لأن المتكلم قد يقصد أغراضا أخرى وراء تلفظه بصيغة

(1) - ينظر: محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 68.

التعزية، كوجود منفعة أو مصلحة شخصية عند أهل الميت⁽¹⁾، ولهذا يشترط في الفعل الإنجازي، حسن النية والأداء، حتى نقول أنه فعل تواصل ناجح، لهذا أكد أوستين (Austin) على أنّ غياب الانضباط والاستقامة في القول والفعل قد يفضيان بنا إلى تناقضات تجعل الحوار يفقد سلامته ومصداقيته⁽²⁾. وقد نتج عن دراسته اللغوية للأفعال الإنجازية إلى تقسيمها إلى أصناف وإن لم يرض عنه مبدئياً⁽³⁾:

أ- الأفعال الدالة على الحكم: Actes Verdictifs

وهي الأفعال التي تبث في بعض القضايا التي تتمركز في سلطة معترف بها رسمياً أو سلطة أخلاقية، ولا يشترط أن تكون إلزامية من أمثلتها: التبرئة، الحكم، التقدير، التحليل، إصدار مرسوم...

ب- أفعال الممارسة: Actes Exercitifs، وهي تقوم على استعمال الحق أو القوة مثل: عيّن، سمّي، استقال، أعلن، صوت، صرح، أمر، نهى.

3- أفعال الوعد: Actes Promessifs، وهي نوايا المتكلم والتزاماته مثل: أقسم، نذر، رهن عزم، نوى.

ج- أفعال السلوك: Actes Comportatifs، والتي ترتبط بالحالة النفسية والسلوك الاجتماعية للمتلقى مثل: أعتذر، شكر، هنا، عزّي، انتقد، مدح، وبّخ، ودّع، بارك، اعترض.

د- أفعال العرض: actes expositifs، ونجدها تظهر علاقة أقوالنا بالمحادثة أو المحاجة.

2-2 الفعل الكلامي عند "سيرل":

جاء عمل سيرل (Searle) مكملاً لعمل أستاذه أوستين، حيث انطلق عمله من فكرة جد هامة، أنّ كل جملة يتحقق فيها عمل لغويّ وفق سياق محدد. ويرى أنّ فكرة العمل

(1) - ينظر: عمر بلخير، مقالات في التداولية والخطاب، ص 168-169.

(2) - حسان الباهي: الحوار ومنهجية التفكير، ص 124.

(3) - ينظر: عمر بلخير، مقالات في التداولية والخطاب، ص 169-170.

التداولي تقوم على القصد والقواعد، "أما القصد فهو الذي يجعل إنتاج سلسلة صوتية ما، ذات معنى وإحالة معبراً عن دلالة قصدية ومحققاً لعمل لغويّ قابل للفهم. أمّا القواعد فهي التي تسيّر هذه الأعمال اللغوية وتنشئها باعتبارها شكلاً من أشكال السلوك"⁽¹⁾، بمعنى أنّ فكرة القصد ضرورية في بنية الخطاب فغيابه يخل بالتوازن التواصلّي بين المتكلم والمتلقي.

كما أولى عناية بالأعمال المتضمنة للقول، ويقصد بها الأفعال الانجازية غير المباشرة التي يُعنى المتلقي بتأويلها وذلك بحضور اللغة المشتركة؛ لأنّ "الفرق بين ما يريد المتكلم قوله بتلفظه الكلمة، الجملة أو العبارة، وبين ما تدل عليه الكلمة، الجملة، أو العبارة، ويسمى الأول معنى تلفظ المتكلم، والثاني معنى الكلمة أو الجملة"⁽²⁾، بمعنى أنّ "سيرل يؤسس صيغته لنظرية الأعمال اللغوية على مقولة تعتبر أنّ لقائل جملة ما مقصداً مزدوجاً يتمثل في إيلاغ محتوى جملته، والإعلام بهذا المقصد الأول بموجب قواعد تواضعية تتحكم في تأويل هذه الجملة في اللغة المشتركة، أما الرؤية الجديدة التي آثراها جون سيرل ضمن الأفعال الكلامية هو تقييده لهذه الأعمال بقيدين هما فكرة القصد والقواعد، وقد أدرج سيرل تصنيفاً جديداً مغايراً لتصنيفات أستاذه، وحصرها في خمسة أنماط هي:⁽³⁾

أ- الإخباريات أو التقريريات: وهي الأفعال التي يلتزم المتكلم بصدق القضية المعبر عنها وجعله مسؤولاً عن وجوده ووضعها للأشياء، ومنها: أفعال التقرير، الوصف والاستنتاج.
ب- الأمرات Les directifs وغرضها الإنجازي توجيه المتلقي للقيام بعمل ما من أمثلتها: الطلب، السؤال، والأمر والنهي.

(1) - شكري المبخوت: دائرة الأعمال اللغوية مراجعات ومقترحات، دار الكتاب الجديد، ط1، 2010، ص46.

(2) - عمارة ناصر: الفلسفة والبلاغة، مقاربة حجاجية للخطاب الفلسفي، ص72.

(3) - ينظر: قدور عمران: البعد التداولي والحجاجي في الخطاب القرآني الموجه إلى بني إسرائيل، عالم الكتب الحديث،

إربد، الأردن، 2012م، ص61.

ج- الالتزامات: Les Promissifs وتسمى أفعال الوعد وغرضها أن تلزم المتكلم بفعل شيء في المستقبل ومن أمثلتها: أفعال الوعد، والوعد.

د- التعبيرات: Les expressifs : وهي أفعال تعبر عن موقف نفسي للمتكلم، وغالبا يكون ممزوج بطقوس اجتماعية، منها: الشكر، التهنة، الاعتذار والترحيب.

هـ- الإعلانيات: Les Déclaratifs: والغرض منها إحداث تغييرات في نمط الأحداث العرفية، التي غالبا ما تعتمد طقوس اجتماعية مثل: الأفعال إعلان الحرب، والطلاق والطرء.

أما شروط الملاءمة التي صاغها أستاذه أوستين فجعلها سيرل (Searle) في أربعة شروط هي: (1)

1- المحتوى القضوي: ويعني بذلك أن يكون للكلام معنى قضوي يقوم على مرجع ومتحدث به (خبر) والمحتوى القضوي هو المعنى الحرفي الأصلي للجملة.

2- الشرط التمهيدي: ويقصد به أن يكون المتكلم قادرا على إنجاز الفعل.

3- شرط الإخلاص: أن يكون المتكلم مخلصا وقادرا على الإنجاز.

4- الشرط الأساسي: ويتحقق هذا الشرط عند إنجاز المتكلم فعل التأثير في السامع.

لكن ما نستنتجه من نظرية الأفعال الكلامية الإنجازية التي مهدّ طريقها فلاسفة اكسفور خاصة أوستين، الذي أرسى أسسها في ميدان اللغة الطبيعية، ثم يأتي بعده تلميذه سيرل الذي أوصلها إلى مرحلة النضج والارتواء، فطور في مفاهيمها ونظم أفكارها، وتعمق في بناء المعنى والدلالة، ويرى أنّ القيمة التواصلية هو ما تنتجه الخطابات من أفعال إنجازية، وكل فعل جاء ليبرر مواقف اجتماعية أو فردية سواء كانت ترغيبا أم ترهيبا، وبهذا تخرج اللغة من سجنها البنيوي إلى فضاء أكثر تواسلا وتأثيرا وإقناعا .

(1)- ينظر : نعمان بوقرة: لسانيات الخطاب، ص99.

رابعاً- المسار التاريخي في تشكّل الدرس البلاغي عند العرب:

اهتم العرب منذ الجاهلية بفصاحة الكلام وحسن البيان، ويظهر جلياً في صناعة الشعر الذي يُعدّ الصوّت البشري الوحيد المعبر عن مآثر القبيلة وحجاجيتها في السلم والحرب، وهذا "الشعر الذي كان حين أنزل الله القرآن على نبيّه صلى الله عليه وسلم نورا يضيء ظلمات الجاهلية ويعكف أهله لبيانه، عكوف الوثنيّ للصنم، ويسجدون لآياته سجدة خاشعة لم يسجدوا مثلها لأوثانهم قطّ، فقد كانوا عبدةَ البيان، قبل أن يكونوا عبدة الأوثان! وقد سمعنا بمن استخفّ منهم بأوثانهم، ولم نسمع قطّ بأحد منهم استخفّ ببيانهم"⁽¹⁾، ويُظهر لنا هذا شرف اللّغة العربية وعلوّ همّتها وقدر جلالها بين الأمم.

1- موقف التحدي في بلاغة القرآن وإعجازه:

اتّسع الاهتمام ببلاغة القول وذلك بعد ظهور القرآن الكريم، فكان حجّة بلاغية ترك أثراً في نفوس العرب قاطبة آنذاك، وذلك بسموّ بيانه ورفعة معانيه، فقد حوى طاقة بيانية أعجز كلّ لسان ناطق، وعطفت قلوبهم لذكره وعملوا على بيان كل آية وأعطوها كثيراً من الاهتمام والتدبر والإعجاب، مما أجمعوا "أن يكون في الخطب يوم الحفل، وفي الكلام يوم الجمع أي من القرآن. فإنّ ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار والرقّة وسلس الموقع"⁽²⁾، فالتحدي واضح في نظمه وتراكيب أساليبه بأجود ما قالته العرب، فأعجزهم جميعاً على أن يأتوا بسورة من مثله، واجتمع أمراء البلاغة وجهابذة العرب، وعملوا على تحديه ومعارضته لكنهم وقفوا عاجزين أمام سلطان آياته، وما بقي أمامهم سوى الاستسلام والانقياد لأوامره.

إنّ القرآن أوصافه جليلة وعظيمة، إنه كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، هو "دعوة الله إلى الإنسانية كافة وقف أمام نزاعات مختلفة حاولوا بالباطل إنكار حقائقه ومجادلة أصوله، فألجم خصومتهم بالحسّ والعيان، وعارضهم بأسلوب مقنع، واستدلال ملزم، وجدل محكم"⁽³⁾.

(1) - مالك بن نبي : الظاهرة القرآنية، ترجمة، عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، 4، 1987، ص48.

(2) - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: البيان والتبيين، ج1، ص 118.

(3) - مناع القطان: مباحث في القرآن، مكتبة وهبة، القاهرة، (د-ط)، (د-ت)، ص293.

ولا شك أنّ العرب تدرك الفصيح من العي، ولم تكن فصاحتهم صمتاً، ولا جدالهم سكوتاً، ولا خصومتهم فراراً، ولا عنادهم انهزاماً، ولكنهم بالفعل قابلوا القول بالقول والسيف بالسيف نحو ثلث قرن إلى أن انتصر الإسلام ولم يبق من آثار خصومه غير ذكريات الجدل والحرب⁽¹⁾.

ذكر الله عزّ وجلّ لنبيّه عليه السلام حالهم في بلاغة المنطق، ورجاحة الأحلام، وصحة العقول، وذكر العرب وما فيها من الذهاء والنكراء والمكر، ومن بلاغة الألسنة، واللدّد عند الخصومة⁽²⁾، قال تعالى: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ﴾⁽³⁾، وتتجلى مواطن التحدي في ثلاث مواضع: فالأولى: التحدي بأن يجتمع إنسهم وجنهم على أن يأتوا بمثل هذا القرآن الكريم كاملاً قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ﴾⁽⁴⁾.

الثانية: وتحداهم بعشر سور تضاويه في قوة البيان، قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ﴾⁽⁵⁾.

الثالثة: بل تحدّاهم وأثبت عجزهم، بأن يأتوا بسورة واحدة في نظمه وبيان أسلوبه، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾⁽⁶⁾.

لقد قامت عليهم الحجّة مرة أخرى وأخبر الله تعالى، بأنهم لن يستطيعوا "أن يأتوا سورة بمثله ويشمل هذا التحدي قصار السور كما يشمل طولها فهو تحدّاهم بسورة الكوثر والإخلاص والمعوذتين والنصر وسورة قريش أو أية من سورة يختارونها، ومن المعلوم

(1) - ينظر: فتحي عبد القادر فريد، فنون البلاغة بين القرآن وكلام العرب، دار اللواء، الرياض، ص12.

(2) - الجاحظ: البيان والتبيين، ج1، ص8.

(3) - سورة الأحزاب: جزء من الآية 19.

(4) - سورة الإسراء: الآية 88.

(5) - سورة هود: جزء من الآية 13 .

(6) - سورة يونس: جزء من الآية 38.

أنّ العرب لم يحاولوا أن يفعلوا ذلك فقد كانوا يعلمون عجزهم عنه، ورأوا أنّ سبيل الحرب والدماء وتجميع الأحزاب أيسر عليهم من مقابلة تحدي القرآن⁽¹⁾، لأنّه دحض دعواهم رغم عدم وجود ما يمنعهم من معارضته سواء من الجانب اللفظي الذي نزل بلسانهم، وهم أهل البيان، أو الجانب المعنوي أنّهم ذوو راحة عقل وشفاء في القريحة، وكذلك من الجانب الزماني، أنّه نزل منجماً حتى لا يحتجوا بأنّ زمنهم لا يتسع للمعارضة⁽²⁾.

وقد ذكر لنا الجاحظ أنّ وجه الإعجاز والتّحدي في القرآن يكمن في نظمه وحسن تأليف، بقوله: "في كتابنا المنزل الذي يدلّ على أنّه صدق نظمه البديع، الذي لا يقدر على مثله العباد، مع ما سوى ذلك من الدلائل التي جاء بها من جاء به"⁽³⁾، لقد أجهد طاقة البشر في تحديّه، وبلغ أعلى درجات التّأثير في النفوس والعقول، ما يجعل ذهن البشر يستسلم لمنافسته.

2- دور المعتزلة في نهضة البلاغة وتطورها:

لا شك أنّ اتّساع الرقعة الجغرافية للأمة الإسلامية بسبب الفتوحات التي لعبت دوراً مهماً في اختلاط المسلمين العرب بالأُمم الأخرى، كالفرس واليونان والرومان والهنود وغيرهم، جعلتهم يتعاملوا مع هذه الحضارات بعلاقة التّأثير والتّأثر، فامتزجت الثقافات وتلاقحت الآراء والأفكار، وتغيّر نمط حياتهم الاجتماعية والشّعورية والعقلية، واستفاد العرب من روافد المعرفة والعلم في جميع المجالات، مما أدّى إلى ظهور مذاهب وفلسفات في قلب الرّجل العربي.

أما حركة التّرجمة فنتج عنها ما يسمّى بعلم الكلام ذي التّوجه العقلي؛ لأنّ من "خصائص هذا النّشاط العقلي أنّه أضعف الخيال وقوى ملكة النّقد والفهم، وترك الأُمَّة

(1) - فاضل صالح السّامرائي: التعبير القرآني، دار عمار، عمان، الأردن، ط 4، 2006، ص 09.

(2) - ينظر: عبد الوهاب خالّف، علم أصول الفقه، مكتبة الدعوة الإسلامية شباب الأزهر، مصر، ط 8، (د-ت)، ص 26.

(3) - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: الحيوان، تحقيق، عبد السلام محمد هارون، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط 2، 1965، ج 4، ص 09.

الإسلامية كأنها قد فارقت طفولتها وشبابها؛ فهي على التفكير والتروي أقدر منها على عمل الشعر⁽¹⁾.

هذه الحركة العلمية والعقلية نتج عنها نشاط حركة الشعر وبداية التدوين، وظهر أساليب جديدة في بناء هيكل القصيدة "وبدأت أفانين العلم عند العرب تتفرع وتتمايز وإن تشابكت داخل منظومة معرفية نزعت منزع الاستقرار منذ أواخر القرن الرابع الهجري لتكتمل وتتغلق في القرن الخامس هجرياً"⁽²⁾.

والواقع أنّ البلاغة العربية تنهل قيمها المعرفية من كلّ العلوم، فهي امتداد أصيل وجذور متعمقة مع الحقول المعرفية الأخرى، ويكتمل كيانها المعرفي بمدى احتكاكها بهذه العلوم لأننا "عادة نتكلم عن البلاغة وكأنها شيء واضح المعالم، معروض أمامنا ببساطة، وما علينا إلا أن نقطف ثماره. هذا تصور ينبغي تصحيحه. ذلك أن ما يسمّى بالبلاغة مغروس في غابة من المعارف والعلوم، وليس من الصواب منهجياً دراسة أحد هذه العلوم بمعزل عن العلوم الأخرى، البلاغة لها ارتباطات بالنحو، والتفسير، وعلم الإعجاز وعلم الكلام"⁽³⁾.

ولعلّ من الأسباب الذي أدّت إلى ازدهار الدرس البلاغي والفهم البياني للقرآن الكريم هو ظهور الفرق المعتزلة، وهذه شهادة أقرّ بها الجاحظ بقوله: "لولا المتكلمون لهلكت العوام واختطفت واسترقت، ولولا المعتزلة لهلك المتكلمون"⁽⁴⁾، ويعتبر البيان الذي أوغل فيه الفلاسفة اليونانيون، مصدراً للبيان العربي ونقده، وهذا ما أشار إليه طه حسين متحدّثاً عن الأثر البياني من الجاحظ إلى عبد القاهر الجرجاني إذ يقول: "لقد أثرت الهيلينية في الأدب العربي البحت عن طريق غير مباشر لتأثيرها أولاً، في متكلمي المعتزلة الذين كانوا جهابذة الفصاحة العربية غير مدافعين، والذين كانوا بتضلعهم في

(1) - طه حسين: من حديث الشعر والنثر، دار المعارف، مصر، ط1، (د-ت)، ص54.

(2) - بشرى موسى صالح: نظرية التلقي أصول وتطبيقات، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2001، ص63.

(3) - ينظر: فريد أمغضشو: البلاغة، مجلة البلاغة والنقد الأدبي، العدد واحد، يوليو، 2014م، ص231.

(4) - الجاحظ: الحيوان، ج3، ص289.

الفلسفة مؤسسي البيان العربي حقا، نعم لا نستطيع أن نقطع بأنهم كانوا مطلعين على البيان اليوناني لعهدهم، ولكن لا شك أن تفكيرهم الفلسفي قد أعدم لأن يتصدروا صناعة البيان، كما كان يتصدرها اليونانيون من بعض الوجوه⁽¹⁾.

إن العلوم التي تأثرت بها المعتزلة سواء كان فلسفية أو منطقية، تصب مباشرة في خدمة اللغة والبلاغة خاصة النثري منها، وما زادهم بسطة في علم البلاغة تشبّعهم بعلوم القرآن بصفة خاصة، والشاهد على ذلك أن "المعتزلة حين طلبوا معرفة آراء الأمم الأجنبية في البيان والبلاغة لم يكونوا يقصدون إلى تمثيلها واعتناقها، وإنما كانوا يريدون أن يوازنوا بين آراء الأجانب وآراء العرب في بلاغة الكلام، محاولين أن يضعوا للبلاغة العربية قواعدها وقوانينها الذاتية.

ومعروف أنهم كانوا يدافعون عن الإسلام في مقارعة الخصوم بالحجج الدامغة والبراهين المنطقية، فطبيعي أن يلقوا بعقولهم وأنفسهم في أحضان بلاغات أجنبية، وأن يحتاطوا أشد الاحتياط فيما يأخذونه من هذه البلاغات، وأن لا يأخذوا منها شيئا إلا بعد درسه وفحصه وتبيين ملامته للعربية⁽²⁾، وللبلاغة دور في "تنظيم عقولهم تنظيمًا دقيقًا وأن جعلتهم يحسنون استنباط الآراء وخصائص الأشياء كما جعلتهم يقتدرون على إيراد الحجج والبراهين وتشعيب المعني وتفريعها..."⁽³⁾.

كما عملوا على تطوير شروط الخطيب، وهذا بفضل الدروس العلمية والحلق التي كانت تقام في المساجد والمنابر العلمية، "وكان منهم من يحسن الخطابة والمناظرة والجدل، ومنهم لا يوفيها جميعا حقوقها، فكثرت الحديث في قوة الحجج وفي وضوح العبارة ودقتها وفي جهازة الصوت، وفي ملامح المتكلم وفي ملامته بين كلامه والمستمعين"⁽⁴⁾، وهذا من أجل مقارعة الخصوم في الدفاع عن القرآن الكريم، ومعرفة أسرارهم ومكامن الإعجاز فيه .

(1) - الجاحظ: البخلاء، تحقيق، طه الحاجري، دار المعارف، القاهرة، ط5، (د-ت)، ص25.

(2) - شوقي ضيف: البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، القاهرة، ط7، (د-ت)، ص39.

(3) - نفسه، ص34.

(4) - نفسه.

ونجني من كلّ هذا أنّ ثمرة الفكر المعتزلي بكلّ مؤشراتهِ التفاعلية، كان سبباً مباشراً في نهضة الأدب وعلوم البلاغة، وجعلها تتماشى مع متطلبات الحياة الجديدة.

3- اتجاهات الدارسين في بيان إعجاز القرآن:

لقد ألقى القرآن الكريم شأن العرب فهذبّ كلامهم وحسّن بيانهم، فاستولى على عقولهم وقلوبهم، فانجذبوا إليه طوعاً أو كراهية، ووقف عليه العلماء في جلاء وإكبار، وتعطشوا للتقريب عن أسرار إعجازه، والبحث عن لطائف عجائبه، فاختلّفوا في بيان إعجازه مذاهب واتجاهات، والذي يهمننا في هذا القسم هو كيف نظر علماء الإعجاز في بيان القرآن؟

يُعدّ علم البلاغة من العلوم الفاعلة في معرفة بيان القرآن وإعجازه، "والإنسان إذا أغفل علم البلاغة وأخلّ بمعرفة الفصاحة، لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصّه الله به من حسن التّأليف وبراعة التّركيب وما شحنه به من الإيجاز البديع، والاختصار اللّطيف، وضمنه من الحلاوة، وجلله من رونق الطلاوة، مع سهولة كلمه وجزالتها، وعذوبتها وسلاستها إلى غير ذلك"⁽¹⁾. لهذا عدّ علماء الإعجاز أنّ علوم البلاغة هي جوهر العلوم العربية.

3-1 عند أبي الحسن بن عيسى الرماني: (296هـ - 386هـ)

يرى عيسى الرماني أنّ مظاهر الإعجاز تكمن في سبعة مبادئ "ترك المعارضة، مع توفير الدواعي وشدة الحاجة؛ والتحدّي للكافة؛ والصّرفة، والبلاغة؛ والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة؛ ونقض العادة؛ وقياسه بكلّ معجزة"⁽²⁾، وتابع الحديث في كتابه (النكت في إعجاز القرآن) أنّ بلاغة القرآن ونظمه هي أساس الإعجاز، فقسم بلاغة الكلام إلى ثلاث طبقات، "منها ما هو في أعلى طبقة، ومنها ما هو في أدنى طبقة، ومنها ما هو

(1) - أبو الهلال العسكري: الصناعتين، ص 1.

(2) - الرماني النكت في إعجاز القرآن، (ضمن ثلاث رسائل) في إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله، ومحمد زغلول، دار المعارف، مصر، ص 75.

في الوسائط بين أعلى طبقة، وأدنى طبقة. فما كان في أعلاها فهو معجز، وهو بلاغة القرآن. وما كان منها دون ذلك فهو ممكن كبلاغة البلغاء من الناس⁽¹⁾، فالطبقة الأولى التي حضي بها القرآن هي الطبقة العليا من بلاغة الكلام والسرّ في ذلك، أنه معجز بحسن كماله، وانسجام نظمه وجمالية ألفاظه، وبلاغة معانيه، وما تحمله من اللذة والمتعة والتأثير تفوق بقية الكلام الذي تعارف عليه الناس. وأما الطبقة الثانية فتمثل في بلاغة البيان البشري، وهذا ما نجده عند الشعراء المفلّحين، ومن حكماء القول، أما الطبقة الثالثة فهم عامة الناس.

كما نبّه الرماني عن الإذعان الذي تتركه بلاغة القرآن في قلب السامع؛ لأنّ البلاغة عنده "يصل المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ"⁽²⁾، ويريد من وراء ذلك تثبيت حقيقة لا عدول عنها هي مؤانسة المعنى للفظ حتّى يحصل التبليغ في أوفى شروطه، مراعيًا المقام ونفسية السامع، كما شدّد أن حقل البلاغة ليس "بتحقيق اللفظ على المعنى، لأنّه قد يتحقق اللفظ على المعنى وهو غثّ مستكره، ونافر متكلّف"⁽³⁾، ويبدو أنّ الكلام البليغ عند الرماني لا يتحقّق بفصاحة الألفاظ فحسب، بل بانسجامها مع المعاني، والابتعاد عن الكلام الركيك والألفاظ المسترذلة والقييحة .

وحدّ البيان -عند الرماني- أربعة أقسام: "كلام، وحال، وإشارة، وعلامة. أما الكلام فعنده على وجهين: كلام يظهر به تميّز الشيء من غيره فهو بيان، وكلام لا يظهر به تميّز الشيء فليس ببيان كالكلام المخلط والمحال الذي لا يفهم به معنى"⁽⁴⁾. وأوضح من هذا القول أنّ الرّماني رتب أنظمة العلامات التواصلية إلى لغوية وغير لغوية، وأنها تشكّل خاصية جوهرية في الممارسة الاجتماعية، والمقام يُعد ضروريا في تشكيل الفضاء الخطابي، وأدرج شروطا لبلاغة البيان، ويرى أن الكلام لا يؤدي وظيفة التبليغية إلا

(1)-الرماني النكت في إعجاز القرآن، ص76.

(2) - نفسه، ص75.

(3) - نفسه.

(4) - نفسه، ص106.

بوعي قلب السامع ؛ لأنّ الكلام المستكره يقف في مستوى العيِّ. والبلاغة عكس ذلك فهي "إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ"⁽¹⁾، فمتى يكون أثر المعنى شديدا متآلفا في قلب السامع، يكون أبلغ وأحكم للحجة

لقد تضمن تعريف البلاغة عند الرماني لفظ "القلب" بدل "العقل" وهذه إشارة واضحة إلى تأثير ألفاظ القرآن الكريم في نفسيته، ويتجلى ذلك استنباطه لفظة القلب بدل العقل، وحضور هذا النوع البلاغي والإعجازي في القرآن الكريم بصورة ملفتة للنظر، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾⁽²⁾.

وقال أيضا: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٦٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٦٤﴾﴾⁽³⁾، وقال كذلك: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾⁽⁴⁾.

وقد أطلقت لفظة القلوب مجاورة للعقول وهي على وجه المجاز كما يراها محمد الطاهر بن عاشور، لأنّ القلب هو مفيض الدّم -وهو مادة الحياة- على الأعضاء الرئيسية وأهمها الدماغ الذي هو عضو العقل، ولذلك قال "يَعْقِلُونَ بِهَا" وإنما آلة العقل هي الدماغ ولكن الكلام جرى أوله على متعارف أهل اللّغة ثمّ أجري عقب ذلك على الحقيقة العلميّة فقال "يَعْقِلُونَ بِهَا" فأشار إلى أنّ القلب هو العقل⁽⁵⁾.

(1) - الرماني: النكت في إعجاز القرآن، ص 75-76 .

(2) - سورة الأعراف: الآية 179 .

(3) - الشعراء: الآية 193-194.

(4) - الحج: الآية 46.

(5) - الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984، ج17، ص288.

3-2 الإعجاز البلاغي عند الخطابي (ت388هـ):

لقد أظهر أبو سليمان الخطابي الأسباب الجليّة التي جعلته يعرض كتابه (بيان إعجاز القرآن) والذي كان جواباً عن أسئلة تداولها الناس يريدون إجابة عنها إذ يقول: "قد أكثر الناس الكلام في هذا الباب قديماً وحديثاً، وذهبوا فيه كل مذهب من القول، وما وجدناهم بعد صدورهم، وذلك لتعذر معرفة وجه الإعجاز في القرآن الكريم، ومعرفة الأمر في الوقوف على كلفيته"⁽¹⁾.

أما جهة مظاهر الإعجاز فيراها تكمن في ثلاثة مبادئ وهي القول بالصرّفة، والإخبار عن الكوامن عن مستقبل الزمان، والإيجاز البلاغي. واستدرك في آخر رسالته وجهاً رابعاً من اقتراحه، وهو تأثير القرآن في القلوب والنفوس⁽²⁾، بمعنى أن القرآن هو جوهر هذه البلاغة وقائد تفكيرها .

لقد أشاد الخطابي بوجوه الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم في النظم والتأليف الجيد للألفاظ بقوله: "وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أوضح، ولا أجزل، ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً، وأشدّ تلاؤماً، وتشاكلاً من نظمه"⁽³⁾، وهذا لدليل قوي على ارتقاء بلاغة القرآن وعلو ملكة الذوق الجمالي التي لها وقع خاص في النفوس، فهو يتفاوت إدراكه عند الناس بتفاوت ثقافتهم وعاداتهم وأخلاقهم.

جاء القرآن الكريم مكتمل الوفرة البلاغية، فلا موازنة ولا مقارنة بينه وبين بلاغة العرب والأحاديث النبوية، فهو متفوق في النظم وحسن التركيب وجزالة ألفاظه، وقوة بيانه، وما يحمله من الصّور البليغة والبديعة سوى إبداع إلهي يفوق صناعة البشر. وهذا ما يؤكد عيسى الرماني بقوله: "إنّ ذلك من العادة حيث إنّ العادة كانت جارية بضروب

(1) - الخطابي: بيان إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص21.

(2) - محمد العمري: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، أفريقيا الشرق، المغرب، (د-ط)، 1999، ص162.

(3) - الخطابي: بيان إعجاز القرآن، ص 27.

من أنواع الكلام معروفة منها: الشعر ومنها السجع ومنها الخطب ومنها الرسائل ومنها المنثور الذي يدور بين الناس في الحديث فأتى القرآن بطريقة منفردة خارجة عن العادة لها منزلة في الحُسن تفوق بكلّ طريقة⁽¹⁾.

وهذا يقودنا أنه لا يستطيع أحد أن ينكر أن جمالية النصّ القرآني تكمن في بلاغة ألفاظه وقوّة معانيه وفي تركيب نظمه البديع، وهو كلّه يقين لأنّه كلام من العليم القدير، الذي أحاط بكلّ شيء علمًا، وأحصى كلّ شيء عددًا "وأعلم أنّ القرآن إنّما صار معجزاً؛ لأنّه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التّأليف مضمّنًا أصحّ المعاني"⁽²⁾.

ومن هنا يبدو أنّ عود البلاغة عند الخطابي لها مميّزات وصفات تخصّ الألفاظ والمعاني "وهذه الصفات هي وضع كلّ نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخصّ الأشكل به، الذي إذا أُبدل مكانه غيره جاء منه: إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإما زهاب الرّونق الذي معه سقوط البلاغة، ذلك أنّ في الكلام ألفاظاً متقاربة في المعاني"⁽³⁾، وهذا تنبيه من الخطابي أنّ العلماء وأصحاب البيان والفقهاء وبعض المفسرين لم يكونوا على وعي تامّ بالفروق الدقيقة بين الألفاظ، لأنّ هذه الأخيرة تتباين وتتفاضل فيما بينها، مما يؤدي إلى فساد المعنى الحقيقي، وبالتالي تختلف مقصدية الخطاب .

لقد شكّل الخطابي أرضية صلبة لمن بعده، في وجوه البيان على أنّ اللّغة العربية شرفها القرآن بقدسيته وبسموّ ألفاظه ومعانيه، وقد جمع كثيرا من المعاني تفوق طاقة البشر.

(1) - الرمانى: النكت في إعجاز القرآن، ص 102.

(2) - الخطابي: بيان إعجاز القرآن، ص 27.

(3) - نفسه، ص 29.

3-3 الإعجاز البلاغي عند أبي بكر الباقلائي (338هـ-402هـ):

يعتبر كتاب (إعجاز القرآن) للباقلاني من أنضج الكتب التي ألفت حول الإعجاز، ومحاميا عن الدين من الملاحدة والمشركين، قائلا: "فمن كانت بصيرته أقوى ومعرفته أبلغ كان إلى القبول أسبق، ومن اشتبه عليه وجه الإعجاز واشتبه عليه بعض شروط المعجزات وأدلة النبوات، كان أبطأ إلى القبول حتى تكاملت أسبابه واجتمعت له بصيرته وترادفت عليه مواده"⁽¹⁾.

لقد أسهم كتابه بشكل كبير في تحديد وجوه الإعجاز دون الابتعاد عن الإعجاز النفسي الذي له وقع خاص في القلوب، وما يتجرعه المتلقي من اللذة والحلاوة فنتشرح له النفوس قبل العقول. وكانت إجابته عن سؤال، قائلا: "فبلاغة القرآن التي أدهشتهم لم تقم على اللفظ والسبك والموسيقى فقط، فهذا جانب يسير منها. والجانب الأكبر هو تلك الغاية الإصلاحية التي يغذيها تفكير ناضج عميق شامل بعيد النظر، وتغذيها عاطفة متأججة وخيال خصب وروح سام يتوخى تحقيق هدف هو مثل أعلى للحياة البشرية لا يتيسر تحقيقه"⁽²⁾.

تحدث الباقلائي عن سمة فذة تتجلى في أسلوب القرآن، تستهوي النفوس وتتلذذ له الأسماع، إنه "أعلى منازل البيان، وأعلى مراتبه ما جمع وجوه الحسن وأسبابه، وطرقه وأبوابه من تعديل النظم وسلامته، وحسنه وبهجته، وحسن موقعه في السمع، وسهولته على اللسان، ووقوعه في النفس موقع القبول، وتصوره تصور المشاهد، وتشكله على جهته حتى يحل محل البرهان ودلالة التأليف، مما لا ينحصر حسنا وبهجةً وسناءً ورفعاً"⁽³⁾.

(1) - أبو بكر محمد بن الطيب الباقلائي: إعجاز القرآن، المطبعة السلفية ومكبتها، القاهرة، 1349هـ، ص 28.

(2) - نفسه، ص 32 .

(3) - نفسه، ص 277.

وهذا كله يحيل بنا إلى أنّ القرآن الكريم بإعجازه البلاغي وتحديده لكلام المخلوقين، صادر من العليّ القدير وذلك "بحسب ما يترتب في نظمه، ويتنزّل في موقعه، ويجرى على سمتٍ مطلعته ومقطعه - يكون عجيبٌ تأثيراته، وبديع مقتضياته. وكذلك على حسب مصادره، يتصوّرُ وجوه موارده. وقد ينبئُ الكلام عن محل صاحبه، ويدل على مكان متكلمه، ويُنَبِّه عن عظيم شأن أهله، وعلى علوِّ محله"⁽¹⁾.

كما أبدى رأياً صائباً أنّ القرآن انتهج منهاجاً عقلياً، من أجل إقامة الدليل والإدلاء بالحجّة ويؤكد ذلك بقوله: "والذي نرومه الآن ما بيناه من اتفاقهما في المعنى الذي وصفنا، وهو: أنّه عليه السلام يعلم أنّ ما يسمعه كلام الله من جهة الاستدلال، وكذلك نحن نعلم ما نقرؤه من هذا على جهة الاستدلال"⁽²⁾، وأنّ طلب الدليل تتفاوت درجة الاستيعاب فيه جميع الناس لأنّ "الأعجمي لا يعلم أنه معجز إلا بأن يعلم عجز العرب عنه، وهو يحتاج في معرفة ذلك إلى أمور لا يحتاج إليها من كان أهل صنعة الفصاحة، فإذا عرف عجز أهل الصنعة حلّ محلّهم وجرى مجراهم في توجه الحجّة"⁽³⁾، ويبقى القرآن الكريم منفرداً عن بقية الكتب، بقيمته البيانية والحجاجية وصوره الإعجازية.

4- شعرية البيان ودورها الإقناعي عند البلاغيين:

4-1 موقع الجاحظ في الدرس البلاغي والإقناعي:

ميّز الجاحظ العرب عن باقي الأمم بالفصاحة وحسن البيان، وأعطى التفكير لليونان، والحكمة للهند فنظرة العرب إلى البيان هي كشف عن بنية المجاز من خلال أعمال ملكة العقل ومدى تأثيرها في المتلقي، وعبر عنه سهل بن هارون الكاتب: "العقل رائد الروح، والعلم رائد العقل، والبيان ترجمان العقل"⁽⁴⁾، فالهدف الأسمى في طريقة فهم الخطابات وتأويلها، يرجع دائماً إلى ملكة العقل، لهذا يرى هيثم سرحان أن خطابات

(1) - أبو بكر محمد بن الطيب الباقلائي: إعجاز القرآن، ص 277.

(2) - نفسه، ص 134.

(3) - نفسه، ص 201.

(4) - ابن سنان الخفاجي: سرّ الفصاحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1982، ص 61.

الجاحظ تتحكم فيها النزعة العقلية والسبب "يعود إلى علم الكلام القائم على البرهنة العقلية في المسائل المتعلقة بالألّهيات والعقائد؛ إذ يتوجب على المتكلم أن يؤسس مواقف الكلامية على براهين حاضرة وحجج دامغة لذا طغت النزعة الكلامية على أسلوبه وحججه"⁽¹⁾.

كرّس الجاحظ جهوده الفكرية، في البحث عن المعاني المستورة، فرفع الأستار عن الحقائق والجواهر واللّطائف لأساليب العرب، ويرى أن لا مناص للمرء في معرفة علوم البلاغة وإعجاز القرآن حتى يكون ملماً باللّغة العربية فصاحة وبلاغة؛ لأنّ " للعرب أمثال واشتقاقات وأبنية وموضع كلام يدلّ عندهم على معانيهم وإرادتهم، ولتلك الألفاظ مواضع أخر، ولها حينئذ دلالات أخرى، فمن لم يعرفها جهل تأويل الكتاب والسنة والشاهد والمثل"⁽²⁾، وهذه الأدوات والتقنيات تُعد من أساسيات بناء فكر حجاجي بلاغي ناجح.

ويرى أيضاً أنّ الخطابة اقتصرّت "إلا للعرب والفرس، فأما الهند فإنّما لهم معانٍ مدونة وكتب مخلّدة، لا تضاف إلى رجل معروف... وللليونانيين فلسفة وصناعة منطق، وكان صاحب المنطق نفسه بكّي اللسان غير موصوف بالبيان، مع علمه بتميّز الكلام وتفصيله ومعانيه وخصائصه، وهم يزعمون أن (جالينوس) كان أنطق النّاس، ولم يذكره بالخطابة ولا بهذا الجنس من البلاغة"⁽³⁾، فنحكة البيان وُلدت من رحم بلاغة العرب لا يضاهيها أحد من اللّغات.

وعلى هذا الأساس يبقى جمال البيان منسوباً إلى العرب، لأنّه يحاكي مظاهره كل عصر في تحقيق ما يسمّى بالذوق الفنّي والجمالي للقول، ومن هنا يمكن أن نقول أنّ مهمّة البيان، تُعدّ أعلى شأنًا، وأنقل صناعة يلتجئ إليها البلاغي ليمسك بأقدار المعاني، فيستوعبها فهمًا وإفهامًا.

(1) - نور الدين بوزناشة: الحجاج بين الدرس البلاغي العربي والدرس اللساني الغربي، دراسة تقابلية مقارنة، أطروحة دكتوراه علوم، إشراف خليفة بوجادي، كلية الآداب واللغات، جامعة سطيف، 2015-2016.

(2) - الجاحظ، الحيوان، ج1، ص153.

(3) - الجاحظ : البيان والتبيين، ج3، ص 28.

ومما يستحق الوقوف عنده أنّ الجاحظ متأثر كثيرا بآراء الفلاسفة، وأنّه أعلم بكتبهم وصناعة كلامهم، وأنّ العرب تتميز عن غيرها من الأمم بقريحة خطابية وبيانية متميزة، سواء كان شعرا أو نثرا أو رواية، ومن القدماء الذين أشادوا بتراث الجاحظ وشهدوا له بالإجادة في تأسيس علم البلاغة أبو الهلال العسكري، قائلا: "قلما رأيت تخليط هؤلاء الأعلام فيما راموه من اختيار الكلام، ووقفت على موقع هذا العلم من الفضل، ومكانة الشرف والنبيل، ووجدت الحاجة إليه ماسة والكتب المصنفة فيه قليلة وكان أكبرها وأشهرها "البيان والتبيين" لأبي عمرو الجاحظ وهو لعمرى كثير الفوائد، جمّ المنافع لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة، والفقر اللطيفة، والخطب الرائعة، والأخبار البارعة، وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء وما نبّه عليه من مقاديرهم في البلاغة والخطابة... إلا أنّ الإبانة عن حدود البلاغة، وأقسام البيان والفصاحة مبنوثة في تضاعيفه ومنتشرة في أثنائه"⁽¹⁾. فهذا إقرار واعتراف من أبي هلال العسكري بجهد الجاحظ خاصة كتابه البيان والتبيين لتناوله مباحث البلاغة والبيان، وكشفه لنفيس المعاني اللطيفة لحصول الفائدة بعد النظر العقلي، لذا تحتاج مؤلفاته إلى وقفة علمية تأملية تتطلب منا الكثير من التمعّن والتعمق .

وجاء موقفه من مسألة الإعجاز أنّ العرب على قدر راحة عقولهم وقمة بلاغتهم وفصاحة لسانهم "عجزوا عن معارضة القرآن أيام صاحب الرسالة، وذلك في كلام طويل يشرح فيه كيف قامت المشادة بين النبي والعرب بعد أن تحدّاهم الرسول - صلى الله عليه وسلم- أن يأتوا بمثل القرآن، ويذكر له ما يدل على أن إدراك العرب لبلاغة القرآن المعجزة وقصورهم عنها كان بالذوق والشعور النفسي الداخلي، وأنّ هذا القصور دليل على الإعجاز"⁽²⁾، ولا سلطة حجاجية في تحدّي هذا الكتاب.

(1) - أبو الهلال العسكري: الصناعتين، ص 05.

(2) - نعيمة الحمصي: فكرة الإعجاز القرآن من البعثة النبوية إلى عصرنا الحاضر، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط2، 1980، ص 55.

وأشار في سياق كلامه أنّ الخطاب لا يخرج عن محاور ثلاثة: محور ديني ويتجلى في خطب النبي صلى الله عليه وسلم، ومحور سياسي ونجده في خطب الحجاج وزياد وخصوصهما أما المحور الثالث فهو جدلي مذهبي نتيجة الصراع الفكري والمذهبي بين الفرق المعتزلة، وأنّ نزعته البلاغية والحجاجية جاءت للدفاع عن مذهبه الاعتزالي أمام خصومه، لأنّ "السكوت عن قول الحقّ في معنى النطق بالباطل"⁽¹⁾، لهذا كان موقفه صارم في الدفاع عن عقيدته أمام أعدائه.

ويرى الجاحظ أنّ ذهاب رونق الكلام وفصاحته تأتي لعدم حرص المتكلم على انتقاء الألفاظ حسب مقام السامعين، وهذا يحيل بنا أنّ المتكلم البليغ هو الذي يعرف كيف ينتقي الألفاظ التي تتوفر على شروط الفصاحة والبيان، ويستعملها في موضعها الأصلي حتى تؤدي وظيفتها التداولية والإقناعية، وأنّ السرّ في عدم كشف الخفي المكنون في أسرار الإعجاز القرآني هو جهل الكثير من عامة الناس هذه الخاصية، فدقة ألفاظ القرآن وحسن تركيبها وبلاغة دلالتها، وسهولة مخارج حروفها، تحيل بنا إلى السرّ الإعجازي للقرآن .

ويظهر لنا في مقام آخر أنّ الخطيب عليه أن يحرص على اختيار الألفاظ والمعاني لما لها من دور في التأثير والإقناع، "فلا يكفي إذن أن يعرف المرء ما ينبغي أن يقال، بل يجب أن يقوله كما ينبغي"⁽²⁾، ويكون متوافقا مع مقولة "لكل مقام مقال" والمعنى ليس بشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك يتضح بأن يكون من معاني العامة، وإنّما مدار الشرف على الصواب، وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام مقال"⁽³⁾، وعليه فإنّ ثقب وفجوات الخطاب تخضع لاعتبارات المقام، وهذا من أجل تواصل ناجح.

(1) - محمد العمري: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، أفريقيا الشرق، المغرب، (د-ط)، 1999. ص209.

(2) - محمد العمري: في بلاغة الخطاب الإقناعي، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، أفريقيا الشرق، بيروت، لبنان، ط2، 2002، ص98.

(3) - الجاحظ: البيان والتبيين ج1، ص136.

لقد حوى هذا القول قضايا هامة نجنيها من تعلّم البلاغة، هي تأدية المعنى الجميل الواضح المؤدي إلى الإقناع من خلال الأثر الساحر الذي يتركه في نفسية المتلقي، لأنّ المعنى العفيف واللفظ السليم يكون أوقع للقلب قبل العقل. ومعلوم أنّ الجاحظ محسوب مع بيئة المتكلمين وكان اعتمادهم في تحصيل علوم الدين والمعرفة عن طريق التأمل والتدبر وإعمال القياس والبرهان والاستدلال لمعرفة الله وعظمته، فالنزعة العقلية هي القوة الفاعلة الوحيدة التي تميّز بين الصواب والخطأ وإصدار الأحكام، فيقول: "إنّ الحواس لتكذب، وما الحكم القاطع إلا للذهن، وما الاستبانة الصحيحة إلا للعقل"⁽¹⁾.

وأما مناظراته مع خصومه في كتابه البيان والتبيين باعتباره احتجاجا بلاغيا فتمثّل "... موقفا حضاريا هو محاولة إرساء مجتمع عقلاني تربط بين أفراده علاقات الإقناع بالمنطق او الاستمالة بشتى صور الدلالة والتعبير الاجتماعي، اعتمادا على رصيد منتخب من مآثور الأقوال الخطيبية... وبذلك تكون نظرية البيان والبلاغة باعتبارها موقفا وسطا بين العنف الأناني من جهة ومن جهة الصمّت المتخاذل من جهة ثانية. فكان من الطّبيعي أن يلامس الحديث التقني البلاغي المفاهيم والمواقف الاجتماعية"⁽²⁾؛ لأنها من السمات التي يبنى عليها بناء فكر أخلاقي مُميّز.

ولا يفوتنا في هذا الصدد معرفة موقفه من البيان الذي يتطلب حسب رأيه شروطا؛ ف"البيان يحتاج إلى تمييز وسياسة، وإلى ترتيب ورياضة، وإلى تمام الآلة وإحكام الصنعة، وإلى سهولة المخرج وجّهارة المنطق، وتكميل الحروف وإقامة الوزن، وأنّ حاجة النطق إلى الحلاوة، كحاجته إلى الجزالة والفخامة، وأنّ ذلك من أكثر ما تستمال به القلوب، وتُثنى به الأعناق، وتزيّن به المعاني"⁽³⁾، فعلم البيان يتطلب الحكمة والحلم في تأليف الكلام من خلال نظم المعاني ما يتوافق مع الالفاظ، والسلامة من العي، ولعلّ أبرز

(1) - الجاحظ: رسائل الجاحظ، تحقيق، عبد السلام محمّد هارون، دار الجيل، بيروت، ط1، 1991، ج3، ص58.

(2) - محمد العمري: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص210.

(3) - الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص15.

تعريف وضعه لحدّ البيان أنه "اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع الى حقيقته ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان من أي جنس كان الدليل، لأنّ مدار الامر والغاية التي يجري القائل والسامع إنّما الفهم والافهام، فبأي شيء بلغت الافهام واوضحت المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع"⁽¹⁾، فالبيان هو فنّ بلاغي تتشكّل وظيفته الإقناعية بمدى قدرته على استنهاض همة المتلقي، واستمالة قلبه بفك الرموز والمعاني الغامضة التي هي عنصر أساسي في التّواصل.

وقد أضاف شروطا لملاءمة الكلام لتتناسب مع مقامات المستمعين، كما كشف النقاب عن الآليات البلاغية الإجرائية التي تعمل على تحسين الكلام، وأطال النظر في مواطن الإيجاز والإطناب وبين كيف تتصافر إمكانات الصّوت والكلام في التعبير عن جمال الألفاظ ورشاققتها، مع تعرّضه إلى السّجع والازدواج والاقْتباس والتّقسيم واللغز والأسلوب الحكيم والاحتراس والهزل يراد به الجدّ والاعتراض والتّعريض والكناية والاستعارة وغيرها من المحسنات البلاغية، وبذلك يُعدّ الجاحظ بحق المؤسس الفعلي للبلاغة العربية"⁽²⁾، وهذا بحكم عبقريته الفذة لما أبدعه من نشاط فكري وأدبي متميّز في الحضارة الإسلامية.

4-2 الجرجاني ونظراته البلاغية:

لقد نوّه الجرجاني(ت471هـ) عن المكانة الهامة التي تتميّز بها الصورة المجازية باعتبارها قطبًا هامًا في الدّرس البلاغي، فالكناية والاستعارة والتّمثيل والمجاز والإيجاز وغيرها، تغلغل الفكر وتشحذ الذهن وتستولي على هوى النّفس، وتنال الحظّ الأوفر من ميل القلوب، وتكسب المعاني نبلا وفضلا، وتوجب لها شرف المنزلة، وأنّ تفخّمها في نفوس السّامعين، وترفع أقدارها عند المتخاطبين وهذه الأقطاب تدور البلاغة عليها، وقد

(1) - الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص76.

(2) - ينظر: شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص369.

نوّه بذكرها البلغاء، ورفع من أقدارها العلماء، وصنفوا فيها الكتب، وصرفوا إليها الخواطر⁽¹⁾، لعلها تجدّ طريقاً محكماً تمنح فيه البيان والاستدلال للمتلقي .

من اللافت في الأمر أنّ الجرجاني ربط البلاغة بالمعنى واللفظ، وأنّ المعنى يتعلّق بالقلب كما يتعلّق بالعقل من خلال الصّورة الذهنية التي يرسمها كل من المتكلم والسامع، يقول في هذا الصدد: " المعاني هي الصوّر الذهنية من حيث إنّها وضع بإزائها الألفاظ والصوّر الحاصلة في العقل، فمن حيث إنّها تقصد باللفظ سميت معنى، ومن حيث إنّها تحصل من اللفظ سميت معنى، ومن حيث إنّها تحصل من اللفظ في العقل سميت مفهوماً، ومن حيث إنّها مقول في جواب ما هو سُميت ماهية، ومن حيث ثبوته في الخارج سميت حقيقة، ومن حيث امتيازها عن الأغيار سُميت هوية"⁽²⁾، فالمعنى بوصفه مصطلحاً تتعدد دلالاته من حيث الاستعمال، فيأخذ أشكالاً متعددة يمكن أن يسمّى معنى ومفهوماً، وماهية، وحقيقة وهوية.

لقد خاض الجرجاني معترك الصورة البلاغية (الاستعارة والكناية والتمثيل)، ويرى أنّ المشقّة الكبرى ليس في الألفاظ المنطوقة، بل في إدراك المعاني وكيفية تحصيلها في العقل، لأنك "تعلم على كل حال أنّ هذا الضرب من المعاني كالجوهر في الصدف لا يبرز لك إلا أن تشقّه عنه، وكالعزير المحتجب لا يريك وجهه حتى تستأذن عليه، ثمّ ما كلّ فكر يهندي إلى وجه الكشف عما اشتمل عليه، ولا كلّ خاطر يؤذن له في الوصول إليه، فما كلّ أحد يفلح في شقّ الصدف، ويكون في ذلك من أهل المعرفة، كما ليس كلّ من دنا أبواب الملوك فتحت له"⁽³⁾، فالجرجاني ركز على المعاني، وقضية (معنى المعنى)، مبرزاً دورها الخفي في البيان خاصة (المجاز والكناية)، وأنّ تراكيب الكلام عنده تقوم على ضربين: "ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، وذلك إذا قصدت أن

(1) - ينظر: الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص72.

(2) - أبو الحسن علي بن محمد الجرجاني: معجم التعريفات، باب الميم، ص185.

(3) - عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، تحقيق، محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط1، 1991، ص143.

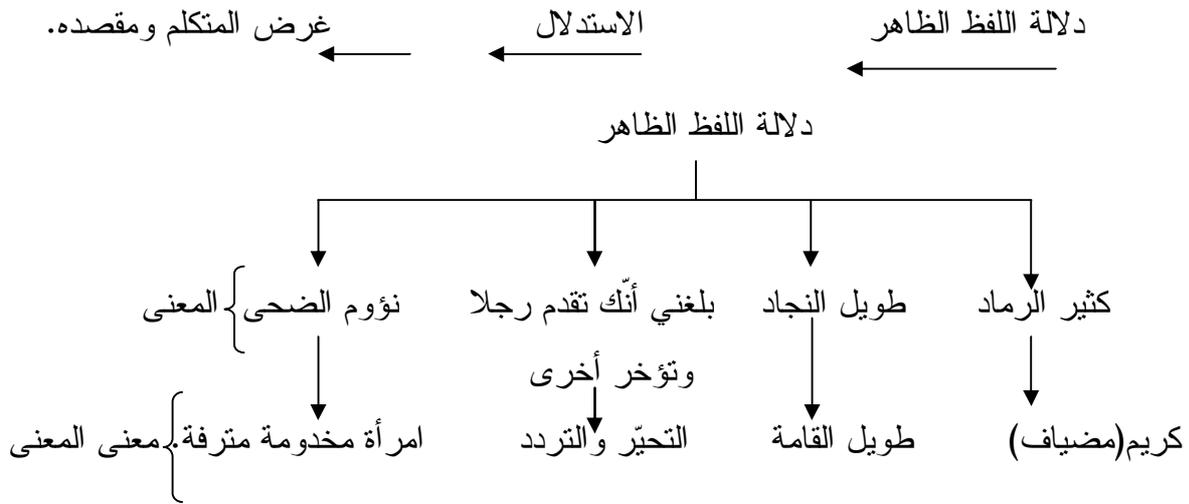
تخبر عن (زيد) مثلا بالخروج على الحقيقة فقلت: (خرج زيد)... وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض ومدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة والتمثيل⁽¹⁾، وبالتالي فالجرجاني طرح أفقا جديدا في البلاغة العربية من خلال إحدائه صورة المعنى ومعنى المعنى، وهذا كله من أجل أن يستقيم الكلام في ذهن السامع، ويعالج بعض الظواهر البيانية، كالاستعارة والكناية والتعريض والتمثيل، "وأن الاستدلال الذي يهتم به البلاغي إنما هو الاستدلال الذي تقتضيه الملازمات بين المعاني الأولى والمعاني الثواني بحيث يتخذ معنى اللفظ دليلا على معنى آخر يمثل الغرض"⁽²⁾، وهذا لا يتم إلا بتشغيل آلة الاستدلال، وللوصول إلى (معنى المعنى) يتطلب إعمال آلة الذهن من خلال توظيف المعنى الأول الظاهر من اللفظ للوصول إلى غرض المتكلم وقد أجمل الجرجاني بقوله: "وإذا عرفت هذه الجملة، فههنا عبارة مختصرة وهي أن تقول (المعنى) و(معنى المعنى)، تعني بـ(المعنى) المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة و(معنى المعنى) أن تعقل من اللفظ معنى، ثم يفضي بك المعنى إلى معنى آخر"⁽³⁾، وهناك فروق جوهرية بين دلالة المعنى الذي يستخرج من الشكل الخارجي للفظ ودلالة معنى المعنى، التي لا يتوصل إليها السامع إلا بإعمال العقل، ومنه إلى تعدد دلالة اللفظ، وهذا ما يفتح لنا بابا إلى التأويل .

لقد شرح الجرجاني وساق أمثلة متنوعة يبين فيها كيفية انتقال الدال إلى المدلول في مباحث البيان، وتحديد الكناية والتعريض والاستعارة كما هو موضح في الشكل:

(1) - عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 262.

(2) - شكري المبخوت: الاستدلال البلاغي، دار الكتاب الجديدة، بيروت، لبنان، ط 2، 2010، ص 55.

(3) - عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 263.



وملخص القول أنّ الجرجاني غير دفة النقاش الدائر حول اللفظ والمعنى، وتبنى مصطلح جديد في البلاغة وهو مصطلح (النظم)، الذي منحه المزيّة الكبرى ويعتبره عمدة الكلام، كما أشار أنّ الاستدلال الطبيعي نوع من الممارسة الحجاجية في أساليب البيان، وأنّ الصورة بصفة خاصة تحمل دلالات متعددة، لا يتوصل إليها المتلقي إلا عن طريق آلة العقل كما يقول الجابري: "إنّ الأساليب البيانية العربية، والأساليب الاستدلالية المنطقية تلتقي عند نهاية التحليل عند آلة منطقية واحدة هي اللزوم"⁽¹⁾، وهذه إشارة على أنّ الاستدلال الطبيعي يستند على مقدّمات ليست ضامنة النتائج، ف "الفرق واضح بين استدلال وظيفته أن يوصل إلى إثبات الخبر واستدلال يرجي منه توكيد الإثبات"⁽²⁾، كما أشاد حمادي صمود بما توصل إليه الجرجاني حين قال "وما لم يتوفر لهؤلاء - السابقين - توفر لعبد القاهر الجرجاني الذي استطاع أن يبني طريقة في تحليل الكلام على رسم عقلي مسبق بموقف نظري قائم على أسس معرفية واضحة... وبذلك استطاع أن يطوّر فكرة النظم ويعتمدها منهاجاً فذاً في تحليل أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز معاً، واستعاض عن الثنائية التي كانت قائمة في مؤلفات أسلافه بوحدة التّصور والمنهج"⁽³⁾.

(1) - محمد عابد الجابري: بنية العقل العربي دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، ص 101.

(2) - نفسه، ص 16 .

(3) - حمّادي صمود: التفكير البلاغي عند العرب، أسسه تطوّره إلى القرن السادس، منشورات الجامعة التونسية،

1981، ص 489.

لقد عالج الصورة وما تحمله من قضايا هامة، وبذلك فتح آفاقاً جديدة في مصطلح البيان، وهو إقحام المركزية الفكرية (العقل) الذي هو مصدر الحقيقة في بيان الحجّة المنطقية واللغوية، وكلامه عن المجاز يطول.

أما مصطلح الاستدلال فقد عُني به السكاكي في كتابه (مفتاح العلوم) الذي خصّ له باباً موضوعه (علم الأدب) وغرضه "الاحتراز عن الخطأ في العربية، وسلوك الصواب فيها"⁽¹⁾.

4-3 الاستدلال البياني عند السكاكي:

لقد كانت للتأثيرات الأجنبية عاملاً قوياً في تطوير الدرس البلاغي العربي، فقد فتحت آفاقاً جديدة لا سيما في الحقول المعرفية والنقدية والمنطقية، لذا تعدّت نظرة البلاغة من مجرد معرض تترزين به الفتاة، إلى مبحث جديد يعطي القدر الكافي للمتلقّي في إثراء الخطاب، وتعمل اليوم على "بروز بلاغة جديدة عمادها البيان والحوار والحجاج والإصغاء، وذلك في وقت كان فيه صليل السيوف يعلو على صوت العقل"⁽²⁾، الذي يُعدّ ممارسة فعلية تتحرك فيها البلاغة وفق ما يقتضيه المقام.

لقد أخضع السكاكي صيغة جديدة لعلوم البلاغة، ما يعرف بمصطلح علم الاستدلال؛ لأنه يراها "تخضع للعقل وقوانين المنطق، وتلزم القارئ والسّامع على الاقتناع بما تقضي إليه المقدّمات من النتائج"⁽³⁾، بعيداً عن التذوق الفطري الناتج عن التجارب والمهارات التي يكتسبها الفرد من واقعه المعيش المبني على الحُسن والمزايا الجميلة، إلى بيان تتعايش فيه الألفاظ والمعاني الحاصلة في العقل لتؤدي وظيفتها الإقناعية.

(1) - أبو يعقوب السكاكي: مفتاح العلوم، تح، عبد الحميد هندراوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2000م، ص557.

(2) - ينظر: بدوي طبانة، البيان العربي، دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية، مطبعة الرسالة، القاهرة، ط2، 1958، ص202.

(3) - ينظر: نفسه.

لقد تناول السكاكي مصطلح الاستدلال بصورة لافتة في كتابه مفتاح العلوم، يحتاج إلى التمعن والتدقيق في فرز معانيه، حيث خصّ له فصلا كاملا في كتابه مفتاح العلوم وإقراره بتقاطعه مع البلاغة خاصة (بعلمي المعاني والبيان) مع النحو من جهة، والمنطق (الحدّ والاستدلال) من جهة ثانية⁽¹⁾، وبيّن أنّ استخدام الاستدلال والقياس في علمي المعاني والبيان فتح أفقا جديدا في معرفة تراكيب الكلام؛ لأنّ العقل عنصر أساسي في بيان الحجة والدليل، وهذا ما ذهب إليه محمد الجابري حين قال: أنّ السكاكي "بانتهابه إلى الطبيعة الاستدلالية للأساليب البلاغية العربية، وبمعنى آخر بربطه خواص تراكيب الكلام في الإفادة، وصياغات المعاني، وبيّن تراكيب الكلام الاستدلالي ربطا عضويا ذهب بالإشكالية: إشكالية اللفظ والمعنى في الفكر العربي، إلى أقصى مداها، أي إلى النقطة التي لم يعد بعدها مجال لتغطيتها والتّمويه عليها⁽²⁾؛ أي تحدّث عن خصائص وجوه المعاني بطريقة علمية.

ويرى أنّ البيان كلّهُ مبنيٌّ على العملية العقلية، لأنّ الخطابات ما هي إلا استدلالات بلاغية حجاجية حيث "اعتبر الاستدلال في البلاغة العربية حجّة ودلالة عقلية بيانية"⁽³⁾، ومن مميزات اللّغة الطبيعية أنها لغة التخاطب اليومي، والصورة التي يتضمنها هذا الخطاب ليس بالضرورة يحمل أدلّة صريحة، بل أحيانا تتخلّله أدلة مضمرة، تتجه مباشرة إلى قصدية المتكلم، وهذا ما يحيلنا إلى تعدّد مستويات الخطاب الطبيعي التي نحددها في:⁽⁴⁾

- 1- المنطوق: ويتعلق بما يصرح به المتكلم بواسطة الدلالة الحقيقية للكلمات.
- 2- المقتضى: ويهتم مجموع المعلومات المتعارف عليها بين المتخاطبين والتي لا تحتاج إلى تذكير أو توضيح أكثر.

(1) - ينظر: عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع والمناظرة، ص75.

(2) - محمد الجابري: بنية العقل العربي، ص102.

(3) - رضوان الرقي: الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، ص76.

(4) - ينظر: حسان الباهي: اللّغة والمنطق، دار الأمان، الرباط، ط1، 2000م، ص138.

3- المفهوم: ويرتبط بما يستنتجه المخاطب خارج الدلالة الحقيقية للكلمات.

ويكشف أن المزيّة الكبرى والعامّة للاستدلال هو كيفية حصول المطلوب في أساليب البيان عارضا فيه مقامات الكلام الاستدلالي قائلا: "وإذاً قد تحققت أن علمي المعاني والبيان هو معرفة خواص تراكيب الكلام، ومعرفة صياغات المعاني ليتوصل بهما إلى توفية مقامات الكلام حقها، بحسب ما يعني به قوة ذكائك، وعندك علم أن مقام الاستدلال بالنسبة إلى سائر مقامات الكلام جزء واحد من جملتها وشعبة فريدة من دوحتها، علمت أن تتبع الكلام الاستدلالي، ومعرفة خواصها مما يلزم صاحب المعاني والبيان"⁽¹⁾.

أما الأمر الجديد الذي توصل إليه السكاكي هو إخضاع علمي المعاني والبيان إلى الاستدلال الطبيعي مؤكداً أن أساليب البيان تُبنى على العمليات الحاصلة في العقل: "أنه لولا إكمال الحاجة إلى هذا الجزء من علم المعاني وعظم الانتفاع به لما اقتضانا الرأى نُرخي عنان القلم فيه، علماً منا بأنّ من أتقن أصلاً واحداً من علم البيان كأصل التشبيه أو الكناية أو الاستعارة، ووقف على كيفية مساقه لتحصيل المطلوب به أطلعته، ذلك على كيفية نظم الدليل"⁽²⁾.

لقد بنى السكاكي وجوه البيان على الاستدلال واللزوم، وبذلك نزع عن البيان شرنقة الزخرف والتفنّن ليربطه بالبعد الإقناعي⁽³⁾، ولكن الجديد حقا، على مستوى الإصلاحات والمفاهيم والمداخل، التجاؤه إلى تقسيم الدلالة إلى وضعية وعقلية، وتقريع الدلالة العقلية إلى مايلي:⁽⁴⁾

❖ ما يكون داخلا في مفهوم اللفظ كدلالة البيت على السقف الذي هو جزء من مفهوم اللفظ.

(1) - أبو يعقوب السكاكي: مفتاح العلوم، ص 505-506.

(2) - نفسه، ص 435.

(3) - عبد اللطيف عادل: بلاغة الإقناع والمناظرة، ص 78.

(4) - شكري المبخوت: الاستدلال البلاغي، ص 60.

❖ ما يكون خارجاً عنه كدلالة لفظ السقف على الحائط.

❖ دلالات الألفاظ على المعاني التي هي موضوعة بإزالتها كدلالة الحجر والجدار والسماء والأرض على مسمياتها.

لقد انحصر علم البيان باعتبار الملازمات بين المعاني؛ لأنَّ "إيراد المعنى الواحد على صور مختلفة لا يتأتى إلا في الدلالات العقلية، وهي: الانتقال من معنى إلى معنى بسبب علاقة بينهما، كلزوم أحدهما الآخر بوجه من الوجوه"⁽¹⁾، ومن ناحية أخرى نجد أن علم المعاني والبيان يشتركان في أنَّهما "يعالجان الدلالات الاستدلالية غير الوضعية، ولكن هذه الدلالة الاستدلالية تقوم على علم المعاني على البحث في دلالة الكلام من حيث خصائصه التركيبية في علاقتها بالخصائص التخاطبية المقامية في حين أنَّ الدلالة الاستدلالية في علم البيان تقوم في البحث في تعامل منطوق القول وضمنياته التي يقصد إليها المتكلم في مقام من المقامات"⁽²⁾، وتقتضي الملازمات في علم البيان "الانتقال من ملزوم إلى لازم، وجهة الانتقال من لازم إلى ملزوم. ولا يُربك بظاهرة الانتقال من أحد لازمي الشيء إلى الآخر..."⁽³⁾

فالدلالة الالتزامية عند السكاكي قائمة على صورتين في الانتقال هما:

❖ لازم ← ملزوم، ملزوم ← لازم

❖ 1- من جهة المجاز: رعيانا غيثا — المراد لازمه النبت

❖ ملزوم ← لازم

❖ 2- من جهة الكناية: فلان طويل النجاد (لازم) ← طويل القامة (ملزوم)

من هنا يكشف لنا أنَّ هناك علاقة متينة بين علم البلاغة وعلم الاستدلال، وأنَّ هذا الأخير هو أهم المشارب التي ارتوت منها جميع العلوم، كما ارتكز في بناء مشروعه البلاغي على النقاط الآتية:⁽⁴⁾

(1) - السكاكي: مفتاح العلوم، ص330.

(2) - شكري المبخوت: الاستدلال البلاغي، ص80.

(3) - السكاكي: مفتاح العلوم، ص330.

(4) - شكري المبخوت: الاستدلال البلاغي، ص71-72.

- ❖ التسوية بين عمل البلاغي وعمل صاحب الاستدلال، وذلك بجعل الاستعارة والكناية وغيرهما من ضروب القياس المنطقي ومن الأساليب المعتمدة في إقناع المخاطبين.
- ❖ تقسيم فنون البلاغة إلى معان وبيان وبديع، بالإضافة إلى التعرض إلى أنواع الدلالة (دلالة تضمن، وضعية، دلالة التزام)
- ❖ تعليل الظواهر تعليلا منطقيًا.

❖ إدخال بعض المصطلحات المنطقية والفلسفية في البلاغة من قبيل التصور والتصديق والصدق والكذب والعلّة والمعلول، لهذا يصنّف التّشبيه من قبل البلاغيين على أنه ضرب من ضروب القياس، فهو شبيه بقياس الفقهاء والأصوليين؛ لأنّ كليهما "يتألف من طرفين وجامع، وأصل وفرع، وعلّة أو شاهد، وغائب ودليل من جهة، ومشبه به ووجه الشّبه من جهة أخرى"⁽¹⁾.

4-4 البلاغة بين التخييل والإقناع عند حازم القرطاجني (684هـ):

ويرى حازم أنّ أرسطو لو اطلع على الخصائص البلاغية للشعر العربي لاكتملت لديه الأغراض ولزاد من القوانين الشعريّة قائلاً: "لو وجد هذا الحكيم أرسطو في شعر اليونانيين ما يوجد في شعر العرب من كثرة الحكم والأمثال، والاستدلالات، واختلاف ضروب الإبداع في فنون الكلام لفظاً ومعنى، وتبحّرهم في أصناف المعاني وحسن تصرفهم في وضعها ووضع الألفاظ بإزائها، وفي إحكام مبانيها واقتتراناتها، ولطف التفاتاتهم وتميماتهم واستطراداتهم، وحسن مأخذهم ومنازعهم، وتلاعبهم بالأقويل المخيلة كيف شاءوا، لزيد على ما وضع من القوانين الشعريّة"⁽²⁾، وهذا دليل أنّ بلاغة الغرب تفقد بعض مآثر البيان العربي، فحازم يجمع في تصوراته النقدية ثقافتين العربية واليونانية محاولاً وضع قواعد بلاغية تخدم الشعر "وأنت لا تجد شاعراً مجيداً منهم إلا وقد لزم

(1) - محمد الجابري: بنية العقل العربي، ص75.

(2) - أبو الحسن حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق، محمد الحبيب بن الخوجة، دار المغرب الإسلامي، (د-ط)، ص96.

شاعرا آخر المدة الطويلة وتعلّم منه قوانين الشعر واستفاد عنه الدربة في أنحاء التصاريف البلاغية⁽¹⁾، بمعنى أنّ هناك قواعد وأسس تكتسب بالمجالسة والممارسة .

– أثر التخيل في إذعان المتلقي :

لعلّ أول من أشار إلى مصطلح التّخيل الفيلسوف العربي الكندي (ت 252 هـ) المتأثر بالأصول المعرفية اليونانية، الذي عمل على تعريب هذا المصطلح اليوناني المدعو بـ((فنتاسيا Phantasia)) وترجمه إلى اللغة العربية بكلمة ((التّوهم)) تارة، وكلمة ((التّخيل)) تارة أخرى، مما استلزم علاقة ترادفية بين التّوهم والتّخيل، ويراه ملكة نفسية للإدراك الذهني لقوله: "التّوهم: هو الفنتاسيا، قوّة نفسانية ومدركة للصور الحسيّة مع غيبة طينتها، ويقال الفنتاسيا، هو التّخيل، وهو حضور صور الأشياء المحسوسة مع غيبة طينتها⁽²⁾. ويبدو لنا أنّ مصطلحات التّوهم، أو التّخيل أو التّخيل أو المصطلح اليوناني الفنتاسيا كلها تصبّ في معنى واحد هو الخيال.

ويُعدُّ التّخيل عنصراً ضرورياً ومهماً في الدراسات البلاغية خاصة الشعر، الذي يُعد محاكاة "من شأنه يحبّب إلى النفس ما قصد تحبيبه إليها، ويكره إليها ما قصد تكريهه، لتحمل بذلك على طلبه أو الهرب منه، بما يتضمّن من حسن تخيل له، ومحاكاة مستقلة بنفسها أو متصورة بحسن هيئة تأليف الكلام، أو قوّة صدقه أو شهرته، أو بمجموع ذلك. وكل ذلك يتأكد بما يقترن به من إغراب فإن الاستغراب والتّعجب حركة للنفس إذا اقترنت بحركتها الخيالية قوى انفعالها وتأثيرها"⁽³⁾، فتحظى بالقبول والإقناع.

وتتجلى البلاغة عند حازم باعتناؤه بصناعاتي الشعر والخطابة، ويرى أنّهما "يشتركان في المعاني ويفترقان بصورتَي التّخيل والإقناع... وكان القصد من التّخيل

(1) – أبو الحسن حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 57.

(2) – ينظر: يوسف إدريس: التّخيل والشعر، حفريات في الفلسفة العربية الإسلامية، دار الأمان، الرباط، ط1، 2012م، ص 82.

(3) – أبو الحسن حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 71.

والإقناع هو حمل النفوس على فعل شيء أو اعتقاده أو التخلّي عن فعله⁽¹⁾، ويبدو لنا من هذا القول أنّ حازم يولي أهمية كبيرة لفكرة التّخييل، ويربطه بالصياغة الشعرية؛ لأنّ الشاعر يبني ملكته الشعرية وفق ما تملّيه مخيلته ويجعلها صناعة جديدة للواقع.

كما يربط حازم مصطلح التّخييل بقوة الإدراك وهي صورة شعرية تحكمها قوة التّصوير والانفعال النفسي، فيعرفه بقوله: "والتّخييل أن تتمثّل للسامع من لفظ الشاعر المخيل أو معانيه أو أسلوبه ونظامه، وتقوم في خياله صورة أو صور ينفعل لتخيّلها وتصورها، أو تصوّر شيء آخر بها، انفعالا من غير رويّة إلى جهة من الانبساط والانقباض"⁽²⁾، فالتأثير النفسي حاضر بقوة في مخيلة الشاعر لبناء صورة أساسها الواقع. يُدرك حازم جيّدًا أنّ المعاني الحاصلة في الذهن هي المسؤولة عن الإفهام، لأنّ "الصوّر الحاصلة في الأذهان عن الأشياء الموجودة في الأعيان فكل شيء له وجود خارج الذهن، فإنّه إذا أدرك حصلت له صورة في الذهن تطابق لما أدرك منه، فإذا عبر عن تلك الصورة الذهنية الحاصلة عن الإدراك أقام اللفظ المعبر به هيئة تلك الصورة الذهنية في إفهام السامعين وأذهانهم، فصار للمعنى وجود آخر من جهة دلالة اللفظ"⁽³⁾، فتغدو هذه الصورة المتخيّلة أن تجد صدى إذعانها في نفسية المتلقي، لأنّ "الأقويل الشعريّة ربّما كان التّحرّك لما يُخيّل من محاكاتها أشدّ من التحريك لمشاهدة الشيء الذي حوكي، وابتهاج النفس بما تتخيّله من ذلك فوق ابتهاجه بمشاهدة المخيل"⁽⁴⁾. لهذا نجد خصوبة الخطاب الشعري التّخييلي عند حازم لا يتحقق غرضه التّأثيري إلا إذا أربكت مشاعر المتلقي، وجعلته يذعن لما يلقي إليه من صور متخيّلة.

كما نبّه حازم الشاعر أن يوقظ ملكة التّخييل عند المتلقي، حتى يخترق كل الحجب، ويفتح مجاري الكلام، ويفتن ويروّج على تصديق كل الادعاءات المتخيّلة، فينبري المتلقي

(1) - أبو الحسن حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 19.

(2) - نفسه، ص 89.

(3) - نفسه، ص 18-19.

(4) - نفسه، ص 126-127.

في الكشف عن هذا الواقع المتخيل، بفك أسرار الصورة وكلّ ضروب الافتتان فيها، لأنّ عمل منشئ الخطاب أضحي ضرورة أدبية واجتماعية؛ فهو الشاهد الأوّل والأخير على إبداع النصّ واختراعه، وجعل المتلقي مشاركا فعلا وأساسيا في فك رموز التّخيل⁽¹⁾، حتى تكتمل الصورة وتعطي دلالة جمالية وإقناعية.

5- آلية الحجة وملامح توظيفها في الخطاب البلاغي:

يُعدّ الخطاب البلاغي شاملا لكل تقنيات الحجّة وأساليبها، لأنّ الوظيفة الأولى التي تسعى إليها البلاغة هي أن "تعتدّ بالعقل في إدراك الحقّ، وبالشّعور في إدراك الخير، وبالذوق في إدراك الجمال، وهي وحدها التي تنفذ إلى القلب سلطان غير ملحوظ، وتذهب في تصوير الواقع وتقرير الحقّ مذهب الوحي الإلهي الخالد"⁽²⁾، وتتنوع استخدامات الحجّة فيها بحسب مقامات التّخاطب، وثقافة المتلقي وعاداته، وهذا لبلوغ غاية الإقناع والتأثير. ومن هنا يمكن أن نتعرف على آليات الحجّة وصورها في الخطاب البلاغي.

5-1 القياس الخطابي: وهو قياس عقلي خطابي (بلاغي)، وندعم رأينا بموقف ابن تيمية المعروف بوقوع علم المنطق في القرآن، والذي يرى أنّ الشواهد الدّالة على ذلك كثيرة بقوله: "وبهذا يظهر لك خطأ قوم من البيانين الجهّال من المنطقيين الضّلال، حيث قال بعض أولئك الطّرق الكلامية البرهانية في أساليب البيان ليست في القرآن إلا قليلا، وقال الثاني: أنه ليس في القرآن برهان تامّ، فهؤلاء من أجهل الخلق باللفظ والمعنى، فإنه ليس في القرآن إلا الطريقة البرهانية السليمة لمن عقل وتدبّر"⁽³⁾. وهذا يعني لنا أن لا مناص من الحجّة العقلية في الممارسة الخطابية.

(1) - ينظر: حسين العوري، الخطاب الشعري ووظائف التّخيل عند حازم القرطاجني، مقال، ضمن حوليات الجامعة التونسية، كلية الآداب منوبة، تونس، العدد 57، 2012م، ص 225-226.

(2) - أحمد حسن الزيات: دفاع عن البلاغة، عالم الكتب، القاهرة، ط2، 1967، ص38.

(3) - إبراهيم بن منصور التركي: البحث البلاغي عند ابن تيمية دراسة وتقويما، دار كنوز اشبيليا للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط 2، 2018، ص330.

5-2 الاستعارة: تُعد الاستعارة جزءاً مهماً في الخطاب البياني، الذي يتكئ عليه كل من الفلاسفة والشعراء والأدباء والمناطقة والبلاغيين والنقاد وغيرهم، نظراً للمكانة التي ترقى إليها عن باقي أطراف الصّور البلاغية، فهي تحظى بروية في التفكير وإلى دقة الإدراك وقوة التخيل، وهذا ما يتجلى لنا في الممارسات الخطابية اليومية لعامة الناس، وتفقد رونقها ولذة الاستمتاع والتأثير إذا لم ترتدي لباس الغرابة والندرة. ومن ثمّ أضحت الاستعارة "ضرورة لغوية وليست فائضاً، ومن ثمّ صميم اللّغة الطبيعية"⁽¹⁾، لهذا نجدها قد سايرت هذا العصر في المحافل الخطابية، لما لها من قوة البيان وسلامة الإقناع.

ويعتبر أرسطو الغرابة والوضوح من أهم مزايا الأسلوب، لأنّ ما هو غريب يثير الإعجاب وما يثير الإعجاب يحقق السرور والمتعة، ويتحقق أكثر في الخطاب الشعري، لأنّه يشمل عناصر تخيلية خارجة عن المألوف، أما المكوّن الثاني وهو الإقناع ويظهر في الخطابة لكن بمظهر التكلّف، والتكلّف يدعو إلى الريبة والحذر، أما الوضوح فهو طبيعة جوهرية في الاستعارة، لأن غيابها يفقد الخطاب في تأدية عمله الوظيفي، وبالتالي يفقد خاصية الإمتاع والإقناع، وبناء عليه فقاعدة الاستعارة لدى أرسطو هي أن تكون واضحة دون أن تكون مبتذلة، وأن تكون غريبة دون أن تكون غير مفهومة⁽²⁾.

إنّ الخاصية التي تتميز بها الاستعارة هي الغموض والإبهام، وعمق الفكر، وهذه من السمات الأساسية في اللغة الطبيعية، لأنها أصل لكل غموض دلالي، ومجال انزياح لساني، وعليه سيكون الأمر معقداً وعسير الفهم في العملية التواصلية الحجاجية، أو قلّ أنّ الحجاج أصل لكلّ التباس، وعلى الرّغم من التقيّد بالآليات والتقنيات التي يعتمدها الحجاج في شكل القول، فإنّ المجال يبقى مفتوحاً أمام المتكلم في إظهار كفاءته الإبداعية وفق تصوّره العقلاني بحيث يستطيع تحكّمه في سلوك الخطاب حتى يصل إلى إفهام المتلقي

(1) - عمارة ناصر: الفلسفة والبلاغة مقارنة حجاجية للخطاب الفلسفي، ص 155.

(2) - ينظر: عمر أوكان، اللّغة والخطاب، ص 20-222.

وتقريبه من الصورة التي تتسرب إلى ذهنه ووجدانه وعقله قصد إقناعه والتأثير في سلوكه⁽¹⁾.

كما تتبنى الاستعارة بعد الإقناع بالحكم الذي تريد إبلاغه للمتكلم إلى البحث عن دخولها عوالم النفس، لإثارها وإقناعها بالخطاب معبرة عن مفهوم الصورة الحجاجية وعليه فهي تقدم " تجسيدا ملموسا لانطباع يستعصي على التعبير، وتحيل على كيان نفسي مختلف عنها وعلى العكس من ذلك فإن الصورة، بوصفها نتاج الخيال المطلق، يقوم كل كيانها على الخيال"⁽²⁾، وشعرية البيان والوضوح.

لقد وظف القدماء الاستعارة كوظيفة جمالية في دراستهم لبلاغة القرآن الكريم، وقد تعدت إلى وظيفة جديدة تهتم بالسلوك الخطابى، بل أصبحت تُعدُّ "فناً لغوياً تداولياً يعطي للقول قوته الدلالية وإصابته النفسية تأثيراً وانفعالا واستحساناً"⁽³⁾، كما عُدت قياساً، لأنها تشغل على التصور التخيلي والعقلاني فهي "ضرب من التشبيه، ونمط من التمثيل، والتشبيه قياس، والقياس يجري فيما تعيه القلوب، وتدركه العقول، وتستفتي فيه الإفهام والأذهان، لا الأسماع والآذان"⁽⁴⁾، لذا نجد أهم آلية بلاغية يستعين بها الحجاج في تحقيق مآربه وأغراضه الإقناعية هي الاستعارة، وهي "أدلُّ ضروب المجاز على ماهية الحجاج"⁽⁵⁾، وترتكز حجتها على قوة المعاني التي تُذاب في المفردات، لأنَّ "قوة الحجاج في المفردات تبدو في الاستعمالات الاستعارية أقوى مما نحسّه عند استخدامنا لنفس المفردة بالمعنى الحقيقي"⁽⁶⁾؛ لأنَّ اللَّفظة المتزنة والتمكنة والمؤثرة في الخطاب غير المستكرهة الثقيلة على اللسان والنفس.

(1) - ينظر: عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغيّر، ص131.

(2) - فرانسو مورو: مدخل إلى المحسنات البيانية، ص15.

(3) - عبد السلام عشير: عندما نتواصل نغيّر، ص113.

(4) - الجرجاني: أسرار البلاغة، ص20.

(5) - طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص233.

(6) - عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص485.

أما ارتباطها بالمعنى الحقيقي يقوم على علاقة التشابه فهي بمثابة "إدعاء" (*) معنى الاسم للشيء، لا نقل الاسم عن الشيء⁽¹⁾، ويشير طه عبد الرحمن أن أول من استخدم هذا المصطلح هو عبد القاهر الجرجاني في وصف الآليات الحجاجية للاستعارة، وأدخل مفهوم الإدعاء بمقتضياته التداولية الثلاثة (التقرير) و(التحقيق) و(التدليل)⁽²⁾.

وعليه يمكن أن نقول أن بنية الصّور البلاغية لها أثر خاص ومتمكن في نفسية المتلقي؛ لأنها تعمل على تحريك الخيال، وانتباه السامع لذا يُعد "التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن فهو يعبر بالصورة المحسّنة المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني، والطبيعة البشرية. ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها، فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجددة"⁽³⁾، فالقرآن الكريم متفرد في قوة معانيه متعالٍ عن الخطاب البشري، بتميزه الفذ في أسلوبه المعجز الذي أعجز الثقلين عن الإتيان بمثله، لذا لا يمكن الغور إلى معانيه إلا بالفهم الصحيح للغة، وحضور المنطق، لأن اللّغوي لا يستطيع أن يحتاج في مجال الإقناع حول المسائل الدينية ما لم يستعن بعلم الكلام، وعلم الكلام هو علم الحجاج العقلي في المجال الديني، وهو مركز التّأويل القادر على ردم الهوة بين مستويات الخطاب في الحقيقة والمجاز⁽⁴⁾، لهذا فإنّ الإمساك بالمعنى الحقيقي للنص يرجع إلى التفسير أو التّأويل.

(*) وأما المبادئ التي يقوم عليها الادعاء فيراها الجرجاني في النقاط الآتية: 1- مبدأ ترجيح المطابقة " ومقتضاها أن الاستعارة ليست في المشابهة بقدر ماهي في المطابقة، فينبني عليه أن المستعير يبلغ من بالتشابه من المستعار منه والمستعار له درجة ينتقي معها الاختلاف والتفاوت بينهما حتى يصيرا عنده شيئاً واحداً. 2- مبدأ ترجيح المعنى مقتضاه أن الاستعارة لبست في اللفظ بقدر ما في المعنى. 3- مبدأ ترجيح النظم : مقتضاه، ليست في الكلمة بقدر ماهي في التركيب. (ينظر: طه عبد الرحمن، الاستعارة بين حساب المنطق ونظرية الحجاج، مجلة المناظرة، العدد 04، 2 ماي 1991، ص69)

(1) - الجرجاني: دلائل الاعجاز، ص434.

(2) - طه عبد الرحمن: الاستعارة بين حساب المنطق ونظرية الحجاج، ص70.

(3) - سيد قطب: مشاهد القيامة في القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط 6، 2006م، ص7.

(4) - محمد العمري: البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص29.

3-5 التمثيل: (L'analogie)

جاء مصطلح التمثيل في معجم التعريفات "إثبات حُكْم واحد في جزئي لثبوته في جزئي آخر لمعنى مشترك بينهما، والفقهاء يسمونه قياساً، والجزئي الأول فرعا، والثاني أصلاً، والمشارك علةً وجامعاً"⁽¹⁾، فالتمثيل أحد الوجوه البلاغية -بعد الاستعارة- ويستعمل كوسيلة هامة في التعبير عن العلاقات بين الأشياء، ويُعدّ من وسائل الحجاج؛ لأنه يعمل على تقريب الصورة للمتلقى، ويجعله يذعن لما يتلقاه من الحجج .

والتمثيل ما هو إلا "أن يقيس المستدلّ الأمر الذي يدعيه على أمر معروف عند من يخاطبه أو على أمر بديهي لا تنكره العقول"⁽²⁾، فهو يدّ به تمّدد الفكر وتحرك العقول والنفوس، يقول الجرجاني: "واعلم أنّ مما اتفق عليه العقلاء أنّ التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني أو أبرزت هي باختصار في معرضه، ونُقلت عن صورها الأصلية إلى صورته، كساها أبهة، وكسبها منقبة، ورفع من أقدارها، وشبّ من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها... وإذا كان حجاجاً كان برهانه أنور وسلطانه أقهـر، وبيانه أبهر... وإن كان وعظاً كان أشفى للصدر، وأدعى إلى الفكر، وأبلغ في التنبيه والزجر، وأجدر أن يُجلى الغياية، ويبصر الغاية، ويبرئ العليل، ويشفي الغليل"⁽³⁾، فالمقصود أنّ صورة التمثيل تستهوي المتلقي وتُضفي له جانب جمالي إيداعي تتعطّش له النفوس، وجانب حجاجي إقناعي يدرك فيه الغرض المقصود، فهو صورة عقلية مركبة من العلاقات التشبيهية، لا ينتزعها المتلقي إلا عن طريق الاستدلال والتأويل.

أما بيرلمان فيربطه بالمسار الحجاجي ويرى أنّه؛ "طريقة حجاجية تعلق قيمتها على مفهوم المشابهة، حيث لا يرتبط التمثيل بعلاقة المشابهة دائماً، إنّما يرتبط بتشابه العلاقة بين الأشياء ما كان لها أن تكون مترابطة"⁽⁴⁾، فقوة الاستدلال التمثيلي تكمن في مدى إقناع

(1) - علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني: معجم التعريفات، ص 59.

(2) - أبو حامد الغزالي: منطق تهافت الفلاسفة (معيـار العلم)، تح، سليمان دنيا، دار المعارف، مصر، 1961، ص 404.

(3) - عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، ص 115-116.

(4) - عبد السلام عـشير: عندما نتواصل نغيّر، ص 97.

الخصم ببيان الدليل عن طريق علاقة المشابهة؛ لأنها "تعبير عن مخزون التجارب الإنسانية، وهو نوع من الاستدلال يقوم بنقله نوعية من خلال الجمع بين الاستقراء والمشابهة عن طريق الحدس، حيث يستعمل بوصفه قيمة رمزية، أو بمثابة مسلمات قيمية تستجيب للقضايا المطروحة، بهدف التذليل على قضية ما أو المساهمة في تأسيس قاعدة خاصة تكون بمثابة حالة مجردة تجعل المستمع يستند خلالها إلى أطروحة معينة"⁽¹⁾، فالتمثيل في الخطاب البلاغي يشتغل تحت سلطة الاستدلال والتأويل.

4-5 جمال الأسلوب:

لا يختلف اثنان أنّ البلاغة من العلوم القديمة التي اهتمت بجمالية الأسلوب الذي هيمن على المشهد الثقافي العربي والغربي آنذاك، فقد "كان تصوّر الأسلوب جزءاً مهماً من بلاغة الخطاب عند اليونان"⁽²⁾؛ لأنه عنصر فعال في بناء الخطاب البلاغي الذي يدعو إلى استحواد قلوب السامعين وجلب المتعة واللذة الفنيّة للخطاب، "فبدونه لا يكون خطاباً؛ لأنه طرف الخطاب الأول الذي يتجه به إلى الطرف الثاني ليكمل العملية التخاطبيّة، بقصد إفهامه مقاصده أو التأثير فيه"⁽³⁾.

إنّ بلاغة الأسلوب باعتباره وسيلة من وسائل الإقناع به تتحرّك تحت أشجان المتلقي، فيصيبه على مستوى العقل والتفكير، ويكون أكثر تأثيراً على مستوى الشعور والقلب، فتعطف النفوس لبلاغته وتلين وتضعف لقوة بيانه وحجّيته، وهذا ما يتجلّى لنا في أسلوب القرآن الذي حيرّ العقول وفزعت له القلوب، وخشعت له الجبال وتصدّعت، فهو حلقة مهمة في التأثير واستمالة المتلقي، ويتمثل في أكثر من صعيد، ويشارك فيه بالدرجة الأولى ما يسمى (بالبديع).

(1) - عبد السلام عشير: عندما نتواصل نغيّر، ص 94.

(2) - محمد العمري: في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 97.

(3) - عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص 07.

5-5 الاستشهاد:

هو نوع من الحجّة التي بها يدعم المخاطب قضيته ويزيدها قوّة، لأنّ "الاستشهاد بالنّصوص ذات القيمة السلطوية على المخاطب كالمقولات الدينية أو كلمات القواد الخالدين في نظر الجماعة المقصودة، لأنّ قيمة الشخص المعترف بها سلفاً من قبل السامعين يمكن اعتبارها مقدّمة حجاجية"⁽¹⁾، وعليه فإنّ الخطابات الموثوق بها هي التي تدعم السّامع على وجه الخصوص.

5-6 الشاهد:

يُعدّ الشاهد في بلاغة الحجاج من أكبر الأدلّة الدامغة في بيان الحجة، ولعلّه أهم سلطة في الخطاب الحجاجي؛ لأنّ دوره يتجلى في تأكيد الخطاب وبيان حقيقة القول، فهو "بمثابة الضامن للفعل المبتغي... شأنها شأن حجة السلطة"⁽²⁾، وحضوره في القرآن أكبر مقبولة، وهذا ما أكدّ عليه في أكثر من موضع، سواء كان مادياً أو معنوياً.

ويُستنتج من عمل البلاغة أنّها لا يقصد بها جمال الكلام "الذي يوجه عناية خاصة إلى الأداة اللغوية في ذاتها ولحسابها دونما عناية بنفس القدر بباقي المكونات النفسية والمنطقية والتاريخية والإيديولوجية، وقد تعني كل كلام يروم إلى مهمة إقناع المتلقي لا الإمتاع فحسب، لأنّ العناية المفرطة بجمال العبارة قد تعرقل الإقناع وتصرف المتلقي على الالتفات إلى مواطن الإقناع، مع تسخير كل الإمكانيات الفكرية والعاطفية واللغوية والبلاغية والمنطقية لبلوغ هذا المرمى"⁽³⁾.

6- الفعالية النفسية للمخاطب والمتلقي:

لقد أتت المعلم الأول عن الراحة النفسية، التي يظهر أثرها على النفوس بوصفها جزءاً هاماً من الكيان الإنساني، وأطلق عليها مصطلح اللذة ولا يقصد بها "اللذة الدنيئة

(1) - سالم الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص 131-132.

(2) - محمد مشبال: بلاغة النص التراثي مقارنة حجاجية بلاغية حجاجية، دار العين للنشر، الإسكندرية، 2013م، ص 136.

(3) - ينظر: فرانسو مورو: البلاغة المدخل لدراسة الصور البيانية، ص 09.

الحقيرة، وإنما يقصد اللذة السامية التي تمنح متعة جمالية مصدرها الشعور، لا العقل. فالإحساس الذي يصحب النظر إلى شيء جميل يشبه المتعة التي تصحب التفكير الفلسفي⁽¹⁾، وقد سمى هذا الأثر النفسي الانفعالي بالتطهير.

ويرى أيضا أنه ذات وظيفة جوهرية في معالجة النفس خاصة في التراجيديا الإغريقية، وأنه السبب في جلب اللذة وعلى الشاعر أن يمارسها في التراجيديا، كما تُعد الموسيقى - التطهيرية - والرقص المقدس عند قدماء اليونان كان لها أثر كبير في قوة الأرواح ومزاجها، ويرى أن الموسيقى محاكاة لأحوال النفس ولها وقع خاص.

ولعلّ أول من تفتن لفكرة الأثر النفسي في البلاغة هو أبو سليمان الخطابي - رحمه الله - الذي اهتدى بحسن تنظيره البلاغي إلى جانب جديد يهتم بعوالم التأثير الوجداني والعاطفي الذي ينبع داخل النفس البشرية، ولا شك أنّ جانب التأثير الجمالي هو أسمى مقاصد البلاغة العربية، والذي أخذ مساحة واسعة في البيان عارضا مقولته التي تدعو إلى الاهتمام بهذا الجانب لما يأخذه المتلقي من الانشراح والحلاوة وخفة الروح بتأثير القرآن في القلوب يقول - رحمه الله - "وفي إعجاز القرآن وجه آخر، ذهب عنه الناس، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وذلك صنيعه في القلوب، وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلاما غير القرآن منظوماً ولا منثوراً، إذا قرع السمع خلص له القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى، ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس، وتشرح له الصدور"⁽²⁾، فحاجة المتلقي إلى تلك المسائل ضرورية؛ لأنها تثير نفسيته وتغير مزاجه وهي من جماليات النص القرآني. وقد أضاف عبد القاهر الجرجاني جهازاً مصطلحي هام يُعنى بالتأثير الجمالي أو ما يسمى باللذة الفنية أو منغصاته وحصرها في الأوجه التالية:

1- المصطلحات ذات التأثير الجمالي: "الأريحية، الأنس، الهزّة، الطرب، الارتياح، البهجة، الحلاوة، النشوة، الأنس، الألف، الروح، الروق، الخفة، الإيناس، تشفي الغلة..."⁽³⁾، هذه المصطلحات ينشرح لها صدر المتلقي، فتزيده أريحية نفسية بالتلذذ والإمتاع بالخطاب.

(1) - أبو الوليد ابن رشد: كتاب تلخيص فن الشعر لأرسطو، ص 13.

(2) - الخطابي: بيان إعجاز القرآن، ص 70.

(3) - عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، ص 19، 121، 128، 129.

2- المصطلحات المنغصة للأثر الجمالي: الثقل، الوحشة، التكدير، التنغيص. النفرة، الاضطراب، القلق...⁽¹⁾.

ولم يقتصر الجرجاني على سرد هذه المصطلحات، بل أعطى استراتيجية وحلولا يقوم بموجبها على فك الطلاسم والألغاز التي تجري على المعاني من غموض وخفاء بقوله: "واعلم أنك لا تشفي الغلة ولا تنتهي إلى ثلج اليقين، حتى تتجاوز حدّ العلم بالشيء مجملاً إلى العلم به مفصلاً، وحتى تكون كمن تتبع الماء حتى عرف منبعه، وانتهى في البحث عن جوهر العود الذي يصنع فيه إلى أن يعرف منبته، ومجرى عروق الشجر الذي هو منه"⁽²⁾. ومن هنا نستطيع القول أنّ الجرجاني وضع سمّة خاصة في معرفة السرّ الذي يزيح الغموض عن المعاني، وينزع الأفتنة عن الألفاظ ويكشف عن اللذة الفنيّة في الصورة، لذا يتعيّن عليك أن تسخرّ الحواس الظاهرة، والباطنة لبلوغ هذه الأغراض والمقاصد يقول الجرجاني في هذا الصدد: "وأنها ليست لك حيث تسمع بأذنك، بل حيث تنظر بقلبك، وتستنعين بفكرك، وتعمل رويتك، وتراجع عقلك، وتستجد في الجملة فهمك، وبلغ القول في ذلك أقصاه، وانتهى إلى مداه"⁽³⁾.

لقد وعى الخطابي والجرجاني بمسألة التأثير السيكولوجي الذي يحدثه القرآن بصفة خاصة في نفسية المتلقي، وأنه من أوجه الإعجاز، فالأريحية النفسية والحلاوة الإيمانية التي نستشرفها من قراءة القرآن لدليل واضح على الطاقة التأثيرية التي تستحوذ على النفوس قبل العقول.

ونستخلص من هذا أنّ الخطابي أسس لبنة جديدة في الإعجاز القرآني. ويوحى بنا مباشرة إلى تساؤلات يثيرها كل من تعامل مع الصورة أو العبارة ونسأل أنفسنا كما يقول سيسل دي لويس: "لماذا يثير التشبيه عواطفنا؟.. ما سرّ هذه المتعة التي نجدها في لغة

(1) - عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص46، 47، 85، 132، 286.

(2) - نفسه، ص455.

(3) - نفسه، ص64.

المجاز؟... لماذا نغرق في اللذة حين نتصور جبيننا كالوردة الحمراء؟... لماذا يعاد بناء توازننا النفسي عندما نلاحظ مع الشاعر (أن الوادي يزداد ظلما والنسيان يزداد إظلاما)؟⁽¹⁾

6-1 القرآن الكريم وملكات النفس البشرية:

لا شك أنّ الجانب النفسي والجانب الذوقي أول عتبة يمتطيها المتكلم لإثارة وجدان المتلقي، لذا يعمل على أن يكون متألقا في خطابه وهذا ما أشار إليه حازم القرطاجني بقوله: "أنّها أول ما يقرع السّمع فهي رائد ما بعدها في القلب، فإذا قبلتها النفس تحركت لقبول ما بعدها، وإن لم تقبلها كانت خليقة أن تتقبض عما بعدها. وعلى نحو ما يشترط فيها من جهة المسموع يشترط فيها من جهة المفهوم، فإنّ النفس تكون مرتقبة لما يرد عليها من استئناف كلّ فيقبضها ما تستقبله من كراهة المسموع أو المفهوم أولا عن كثير من نشاطها بما يرد بعد"⁽²⁾.

لقد تطرق القرآن الكريم عن الأثر النفسي للبشر فبين كيف هي نفس المؤمن، أنها مستبشرة مطمئنة هادئة، ووصف نفس أهل الكفر والنفاق، بأنها مضطربة خائفة، وهذه التحليلات النفسية التي أورد القرآن تأثيرها فهي عامل أساسي في بيان الحجّة والإقناع سواء كانوا مؤمنين أو كفّارا، فالقرآن الكريم مزق حواجز النفس البشرية من الكفار والمنافقين وأهل الشرك في مواطن عدّة، فيظهر ما يسرون وما تخفي صدورهم.

لقد خاطب القرآن الكريم النفس البشرية بما يؤثر فيها لعلها تخشع وتؤمن بخالقها، ولو خاطب به الجمادات لخشعت وتذللت من رهبتة وجبروته، قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَلْشَعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا

(1) - سيسيل دي لويس: الصورة الشعرية، تر، أحمد نصيف الجنابي، مالك ميري، سلمان حسن إبراهيم، دار الرشيد للنشر، بغداد، 1982م، ص26.

(2) - الجاحظ: كتاب الحيوان، ج1، ص90.

لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ⁽¹⁾، فالله تعالى لم يوجه خطابه للجبل، بل ألزمه على البشرية كي تؤمن به.

وقد أقرّ أعداء الإسلام أنفسهم بالأثر النفسي الذي يتركه القرآن في نفوسهم وهذه شهادة ألد أعدائه، "فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنّ الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه القرآن ... قال: وماذا أقول؟؟ فو الله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني، لا برجزه ولا بقصيده، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقوله شيئاً من هذا، والله إنّ لقوله الذي يقول لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه يعلو وما يعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته، قال: والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه... فقال: فدعني أفكر، فلما فكر قال هذا سحر يؤثر بأثره عن غيره⁽²⁾، وهذا عمر بن الخطاب الذي قيل عنه الكثير قبل إسلامه، أنه رجل ذات شدة وقوة لكن حباه الله بالإيمان عند سماعه لكتاب الله.

لقد بين القرآن الكريم مدى تأثر النفس البشرية، أكثر من تسيير الطبيعة وإحياء الموتى يقول سيد قطب: "هذا ما يصنعه القرآن في هذه المخلوقات، ولقد صنع هذا القرآن في النفوس التي تلقته وتكيفت به أكثر من تسيير الجبال وتقطيع الأرض وإحياء الموتى، لقد صنع في هذه النفوس خوارق أضخم، وأبعد آثاراً في أقدار الحياة، بل أبعد أثراً في شكل الأرض ذاته"⁽³⁾، ومقتضى ظاهر القول أنّ التأثير النفسي للقرآن للبشرية وجه من وجوه الإعجاز، لما له أثر في تربية النفوس وحملها على الإقناع.

7- سلطة السياق وتجلياته في الدرس البلاغي:

اهتم البلاغيون العرب بفكرة المقام؛ لأنه يحدّد القيمة الدلالية للنصوص أو المفردات داخل التركيب اللغوي أو خارجه من خلال الصور والعناصر غير اللغوية، فإذا

(1) - سورة الحشر: الآية 21.

(2) - ابن هشام: السنة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، دار الفني للنشر والتوزيع، ط1، 1999م، ج1، ص283.

(3) - سيد قطب: في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، المجلد الخامس، ط2، 2003م، ص2061.

كانت اللغة ظاهرة اجتماعية مرتبطة بثقافة مستعمليها فإنّ فكرة المقام "هي المركز الذي يدور حول علم الدلالة الوصفية في الوقت الحاضر، وهو الأساس الذي يُبنى عليه الشقّ أو الوجه الاجتماعي للغة، وهو الوجه الذي تتمثل فيه الأحداث والظروف والعلاقات التي تسود ساعة أداء المقال⁽¹⁾. وعبرّ عليه آخر، بأنه "علاقة لغوية وخارج نطاق اللغة يظهر فيها الحدث الكلامي"⁽²⁾.

لقد تحدث البلاغيون عن ثمرته من خلال أنواع المواقف التي يقتضيها الخطاب، لأنّ "مقام التشكر يباين مقام الشكاية، ومقام التهنة يباين مقام التعزية، ومقام المدح يباين مقام الذم، ومقام الترغيب يباين مقام الترهيب، ومقام الجدّ في جميع ذلك يباين مقام الهزل، وكذا مقام الكلام ابتداء يغيّر مقام الكلام بناء على الاستخبار أو الإنكار، ومقام البناء على السؤال يغيّر مقام البناء على الإنكار؛ جميع ذلك معلوم لكل لبيب، وكذا مقام الكلام مع الذكي يغيّر مقام الكلام مع الغبي، ولكل من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر⁽³⁾.

لقد أضحي العالم اليوم يسهلك البلاغة تحت ضغط الحاجة تقتضي تواسلا يجلب المنفعة والتفاهم كما يعمل على تحديد المعنى ودلالته، فإذا قال المتكلم (السلام عليكم)، فإنّ المقصد الحقيقي من هذا الكلام يكون حسب المقام الذي يستخدم فيه، فقد يكون المقصود التّحية وقد تتعدى إلى الاستهزاء أو اللهو⁽⁴⁾، ويتبين لنا من هذا الكلام، أنّ المقام ضروري لتفجير المكبوت من الخطاب، للوقوف على أغراضه الإقناعية .

ويظهر لنا تمام حسان الفرق بين لفظتي المقام والسياق، والذي يرجع الاختلاف في الثقافة الاجتماعية، وأنّ لفظ المقام لصيق بالبلاغيين العرب بقوله: "لقد فهم البلاغيون (المقام) أو (المقتضى الحال) فهما كونيا نمطيا مجردا ثم قالوا لكل مقام مقال (...)"، فهذه المقامات نماذج مجردة، وأطر عامة، وأحوال ساكنة (...). وبهذا يصبح المقام عند

(1) - تمام حسان: اللّغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، (د- ط)، 1994، ص337.

(2) - فريد عوض حيدر: علم الدلالة، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2005، ص157.

(3) - السكاكي: مفتاح العلوم، ص 168.

(4) - ينظر: الغزالي، المستصفي من علم الأصول، ج2، ص 49 .

البلاغيين سكوني (static) فالذي أقصده بالمقام ليس إطاراً ولا قالباً، وإنما هو جملة الموقف المتحرك الاجتماعي الذي يعتبر المتكلم جزءاً منه، كما يعتبر السامع والكلام نفسه، وغير ذلك مما له اتصال بالمتكلم (speech events)، وذلك أمر يتخطى مجرد التفكير في موقف نموذجي ليشمل كل عملية الاتصال (...)، وعلى الرغم من هذا الفرق بين فهمي وفهم البلاغيين للمصطلح الواحد، أجد لفظ المقام أصلح ما أعبر به عما أفهمه من المصطلح الحديث (context of situation) الذي يستعمله المحدثون⁽¹⁾. ونحن بدورنا نساند رأي تمام؛ لأنّ المقام يتغير بحسب حالة المتلقي، وأنّ مراعاة المقام تجعل المتكلم يعدل عن استعمال الكلمات التي تنطبق عن الحالة التي يصادفها خوفاً أو تأدباً، بل يضطر المتكلم إلى العدول عن الاستعمال الحقيقي للكلمات فيلجأ إلى التلميح دون التصريح⁽²⁾، لقد قسم السياق حسب أنصار مدرسة لندن الذي يتزعمه "فيرث بما ليونوفسكي" إلى ما يلي:

أ- السياق اللغوي: فهو حصيلة استعمال الكلمة داخل نظام الجملة متجاوزة مع كلمات أخرى مما يعطيها معنى خاصاً؛ ذلك أن المعنى المعجمي عادة ما يتصف بالاحتمال، ولا يتحدد إلا إذا وضع في سياق. كما يوضح كثيراً من العلاقات لدلالية عندما يستخدم مقياساً لبيان الترادف أو الاشتراك أو العموم أو الخصوص ونحو ذلك.

ب- السياق العاطفي أو النفسي والذي به يُحدد طبيعة استعمال الكلمة بين دلالتها الموضوعية، ودلالاتها العاطفية، كما يحدد درجة الانفعال قوة وضعفاً.

ج- أما سياق الموقف: ويدل على العلاقات الزمانية والمكانية التي يجري فيها الكلام، كما يهتم بالموقف الخارجي الذي تقع فيه الكلمة، وهذا المصطلح يقابله عند البلاغيين العرب مصطلح المقام.

(1) - تمام حسان: الأصول، دراسة استمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، النحو، فقه اللغة، البلاغة، عالم الكتب، القاهرة، 2000م، ص 303-304.

(2) - ينظر: أحمد محمد قدور، مبادئ اللسانيات، دار الفكر، دمشق، طبعة منقحة، 2008م، ص 358.

د- السياق الثقافي فيقتضي تحديد المحيط الثقافي أو الاجتماعي الذي يمكن أن تستخدم فيه الكلمة، ويضاف على ذلك أن العديد من الكلمات لها ارتباط وثيق بالثقافة، إذ تحمل وضعيات ثقافية معينة فتكون علامات على الانتماء العرقي والديني والسياسي⁽¹⁾.

7-1 السياق عند الأصوليين:

لا شك أن الخطاب القرآني لا يمكن الوصول إلى فهم معاني آياته وقصصه إلا بالرجوع إلى معرفة سبب مواضع نزولها والمقام الذي قيلت فيه، والأحداث والوقائع التي ارتبطت بتلك الآيات، لذلك عمد المفسرون على الإحاطة الكاملة لمعاني الآيات من خلال سياقها الذي قيلت فيه؛ لأنّ "كلام العرب على الإطلاق لا بد فيه من اعتبار معنى المساق في دلالة الصيغ، وإلا صار ضحكة وهزأة، ألا ترى إلى قولهم: فلان أسد أو حمار أو عظيم الرماد، أو جبان الكلب، وفلانة بعيدة مهوى القرط، وما لا ينحصر من الأمثلة لو اعتبر اللفظ بمجردده، لم يكن له معنى معقول. فما ظنك بكلام الله وكلام رسوله"⁽²⁾، وهذا دليل قويّ على الشهادة العينية التي يبديها المقام في الخطاب القرآني.

أما ابن القيم الجوزية (751هـ) -رحمه الله- فيرى أنّ السياق أولى العناصر في تحديد غرض المتكلم في قوله -رحمه الله- "السياق يرشد إلى تبين المجمل، وتعيين المحتمل والقطع بعدم الاحتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنويع الدلالة، وهذا من أعظم القرائن الدالة على المتكلم. فمن أهمله غلط في نظره، وغالط في مناظرته. فانظر إلى قوله تعالى ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾⁽³⁾، كيف تجد سياقه يدل على أنه الذليل الحقير"⁽⁴⁾. ويمكن أن نسوق مثالا آخر نوضح فيه كيف يشتغل السياق في إظهار الغرض الحقيقي عند تفسير آي القرآن، فقوله تعالى: "وَاطِيعُوا اللَّهَ

(1) - ينظر: أحمد محمد قنور، مبادئ اللسانيات، ص 356-358.

(2) - أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي: الموافقات، علق عليه، أبو عبيدة بن حسن آل سليمان، دار عفان للنشر، المملكة العربية السعودية، ط1، 1997، ج3، ص419-420.

(3) - الدخان: الآية 49.

(4) - ابن القيم الجوزية: بدائع الفوائد، تحقيق، علي بن محمد العمران، دار عالم الفوائد للنشر، ج2، (د-ت)، ص1314.

وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ" جاءت في "سياق ترجيح ما أمرهم به الرسول عليه الصلاة والسلام على ما تهواه أنفسهم، وضرب لهم مثلا لذلك بحادثة كراهية الخروج إلى بدر في بدء الأمر ومجادلتهم للرغبة في عدمه، ثم حادثة اختيارهم لقاء العير دون لقاء النفير خشية الهزيمة، وما نجم عن طاعتهم الرسول عليه الصلاة والسلام ومخالفتهم هواهم ذلك النصر العظيم والغنم الوفير لهم مع نزاره الرزء، ومن التأييد المبين للرسول صلى الله عليه وسلم، والتأسيس لإقرار دينه"⁽¹⁾

أما جدل السياق الذي لاقتته هذه الآية ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾⁽²⁾ و﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾⁽³⁾ ولَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾⁽⁴⁾ وقد اختلف في تأويلها المفسرون يقول الطبري في كتابه جامع التنزيل: "اختلف فيمن عنيّ بهذه الآية، فقال بعضهم: عني بها نفر من المشركين، وقال آخرون: عني بها المنافقون، وأولى القولين في ذلك بالصواب، قول من قال: إنه عني بهذه الآية مشركو قريش، لأنها في سياق الخبر عنهم"⁽³⁾. وعليه يمكن أن نقول: لا يمكن أن نتحكم في المعاني الحقيقية للمفردات ونظام الجملة والنص إلا عند استعمالنا الحقيقي لسياقها الخاص الذي قيلت فيه.

(1) - الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، ج09، ص302.

(2) - سورة الأنفال: الآية 22 - 23.

(3) - الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، حققه، بشار عواد معروف، عصام فارس الحرساني، ج4، مؤسسة

الرسالة، بيروت، ط1، 1994، ص25.

خامسا- الأسوب الحجاجي للقصص القرآني بين الترغيب والترهيب:

يُطلق على مفهوم القصة الأدبية بأنها "سرد لأحداث، لا يشترط فيه إتقان الحبكة، ولكنه ينسب إلى راوٍ، وأهميتها تنحصر في حكاية الأحداث، وإثارة اهتمام القارئ أو المستمع للكشف عن خبايا النفس، والبراعة في رسم الشخصيات"⁽¹⁾، لذا أجمع أهل الأدب والنقد على أن القصص من أهم الأجناس الأدبية؛ لأنها تعبر عن روح الأمم وكيانها، ولا مباحة أن العرب تميزوا بالفكر الثاقب، مما منحهم حظا وافرا من سعة الخيال ودقة التصوير.

أما القصة القرآنية ليست عملا فنياً كبقية القصص الأدبية، التي يطرأ عليها الخيال والتخييل والتي ترمي إلى أداء فني طليق، بل هي وسيلة من وسائل إيلاغ الدعوة الإيمانية وتثبيتها على أساس الواقع⁽²⁾، فهي تصوير لأحداث وأخبار الأمم السابقة، بل هي "عرض لأحداث تاريخية مضى بها الزمن، فهي وثيقة تاريخية من أوثق ما بين يدي التاريخ من وثائق فيما جاء فيه من أشخاص وأحداث، ومما يتصل بالأشخاص والأحداث من أمكنة وأزمنة.. هكذا أطلق القرآن على ما حدث به من أخبار القرون الأولى في مجال الرسائل السماوية وما كان يقع في محيطها من صراع بين قوى الحق والضلال وبين مواكب النور وجحافل الظلام"⁽³⁾، وكذلك جاءت لمواساة نبي الرحمة محمد ﷺ وتثبيتا لقلبه وللدعوة الإسلامية. قال الله تعالى: ﴿أَنْبَاءَ الرُّسُلِ مَا نُثِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾⁽⁴⁾.

(1) - مجدي وهبة وكامل المهندس: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، ص 289 .

(2) - ينظر: سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط7، 2004م، ص116.

(3) - ينظر: عبد الكريم الخطيب، القصص القرآني منظوفه ومفهومه، دراسة تطبيقية لقصتي آدم، ويوسف، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط2، 1975، ص39.

(4) - سورة هود: الآية 120.

1- الغرض الحجاجي من أسلوب القصة في القرآن:

لا شك أن منطق الاختلاف قائم منذ بدء الخليقة، وأنه عامل فطري جُبلت عليه الإنسانية منذ القدم، وهذا ما تؤكدُه الآية الكريمة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۗ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾⁽¹⁾. وهذا الاختلاف تتزاح ضباييته بالحوار، والجدل المحمود، فيصبح النَّاس كتلة واحدة تحملهم الفطرة على التعارف والتعاون ﴿يَتَّيَّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۗ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾⁽²⁾. فأصل الوجود الإنساني في هذه الأرض هو عبادة الله سبحانه وتعالى، والله تعالى أرسل رسلا وأنبياء، ليبيّنوا رسالة ربهم، وأنّ القصص القرآني هي أحد الأساليب التي "حملها القرآن ليحاجّ بها الناس، وليقطعهم عن الجدل والمماحكة، شأنه في هذا شأن ما جاء في القرآن من أساليب الاستدلال والمواقف المبنوثة في القرآن الكريم كلّها، من قصار السور إلى طوالها. لا نجد سورة - مهما قصرت - تخلو من مشهد أو موقف، يمهدّ للدعوة الإسلامية، ويضع معلما أو معالم للهدى والتبصرة بها، في منطق محكم، وحنة دامغة، وبيان معجز مفحم"⁽³⁾. مستعملين الأسلوب الحواري المبني على البيّنة والحجة التي لا يشوبها زلل ولا خطل، فالقصة القرآنية جاءت لتجسد صورة حسية للإخبار عن الأولين وسائر المتقدمين، وكل من شاهدها وحضرها بأسلوب راق يعجز المخلوقين على صياغة خطه، وتعدّ أهم المعجزات التي أبهرت العقول والألباب البلغاء قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ۗ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ ۗ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾⁽⁴⁾.

(1) - سورة هود: الآية 118.

(2) - سورة الحجرات: الآية 13.

(3) - عبد الكريم الخطيب: القصص القرآني منظومه ومفهومه، ص 08.

(4) - سورة هود: الآية 49.

إنّ ورود القصّة في القرآن الكريم هي سبب لإيصال الدلائل والحجج إلى قلوب المنكرين، من أجل تحقيق منهج التوحيد، لذا عدّت وسيلة من وسائل الدعوة الإيمانية لإقناع الناس بهذا الدين، لما تحمله من قوّة أسلوبها وانسجام أحداثها بحيث تُلقَى بالسّامع إلى الانتباه والتشوق لمعرفة أحداثها وما آلت إليه نتائجها، فتعطف قلوبهم إلى سماعها وتفتح مغاليق العقول المتحجّرة، فترغبّ النّفوس على تجنبّ الشّرك والوثنية التي طغت على النّفوس وأفسدت العقول.

لا شك أنّ الخطاب القرآني حفيّ بتوظيف صوراً تتجلى فيها أجمل المعاني وأبلغ العبارات وأحسن المشاهد، لأنّ دراسة أساليب القرآن في التأثير والاستمالة كانت تؤدي بدورها إلى فهم الصورة القرآنية على أنها طريقة في الإقناع، تتوسّل من الإبانة والتوضيح وتعتمد على لون من الحجاج والجدل، وتفرض على المتلقي نوعاً من الانتباه واليقظة وإثارة الانفعالات في النّفوس⁽¹⁾، لأنّ ثمة علاقة وطيدة بين أسلوب النصّ القرآني القصصي والاستراتيجية الحجاجية؛ ولأنّ "أسلوب القرآن ذو بعد حجاجي وأنّ الحجاج فيه ناشئ عن طريقة له في القول مخصوصة فضلاً عن نشوئه من مضامين هذا القول"⁽²⁾، فهو يعبر عن أفكار وصراعات عقائدية بين الأنبياء وأقوامهم. كما يحمل صوراً لواقع تاريخي حيّ، بصورة مخلصّة لا ينتابها الشكّ ولا الريب، فهي نموذج واقعي يُقتاد به المتأخرون، فهو عبرة وعظة مرّ به هؤلاء الأنبياء والرسل، يحمل معه من أنواع العواطف البشرية الخيرة والشريرة، الواقعية والمثالية، من الحسد والمكر، والتآمر والإجرام، والعطف الأبوي والحذر، والحزن والحنين والشوق، والغريزة الجنسية والترفع المثالي والإباء⁽³⁾.

(1) - ينظر: جابر عصفور: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، المركز الثقافي، بيروت، ط3، 1992، ص 327 - 328.

(2) - محمد مشبال: من بلاغة الحجاج، ص 243

(3) - المبارك محمد: دراسة أدبية لنصوص من القرآن، دار الفكر، بيروت، ط4، 1973، ص 106.

لقد تنوعت أحداث القصص القرآني وشخصاتها، وفيها يحتدم الصراع إلى العنف اللفظي والمعنوي الذي يستعمله الأقسام الكفرة ضد أنبيائهم، وجاء سرد هذه القصص تنبيها وعظة لما وقع للأمم السابقة، لما انحرفت عن المنهج الرباني، وكذلك تنبيها للنبي ﷺ على ما أصابه من كفار قريش ولمن بعده من الأمم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ (1).

لقد تنوع دور القصص في القرآن الكريم، فكانت وسيلة حجاجية من وسائل التأثير والتذكير والعبرة، والنصح والتسليية، فهي "عصر مشوق، جذاب محبب، مرغوب في التربية والتعليم وإثبات البراهين العقلية بالوقائع الحسية، وظيفتها غرس بذور العقيدة الصحيحة وإبطال كل ما يدعو إلى الشرك والمعصية، فهي مدرسة إلهية، أسأذتها الأنبياء، وواقعها الأقسام، وتاريخها قديم عريق، وموضوعها نجات المؤمنين وإهلاك الظالمين (2). من أجل ذلك لا يمكن الاستغناء عن دورها الحجاجي، فهي تعمل على إقامة الدليل القاطع على بيان عقيدة التوحيد والدعوة إلى الله. قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (3).

إن الشيء الذي تميّز به الأسلوب القصصي القرآني هو توفره على طاقة بلاغية حجاجية، محرّكها الأساسي العقل الذي هو أساس كل خطاب دعوي، بالإضافة إلى قوى النفس التي نصيبها وافر في التأثير والإقناع تحرك وجدان المتلقي وتوجّهه إلى الفعل؛ فالتأثير العقلي والوجداني الذي يحدثه القرآن في النفس البشرية، يألفه كل من سمعه، ويجرده كل منكر متكبر، لأن "التعبير القرآني يؤلف بين الديني والغرض الفني، فيما

(1) - سورة غافر: جزء من الآية 78.

(2) - ينظر: هبة الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، المجلد السادس، ج 11، ص 482.

(3) - سورة يوسف: الآية 111.

يعرض من الصور والمشاهد، بل لاحظنا أنه يجعل الجمال الفني أداة مقصودة للتأثير الوجداني، فيخاطب حاسة الوجدان الدينية، بلغة الجمال الفنية. والفنّ والدين صنوان في أعماق النفس وقرارة الحسّ، وإدراك الجمال الفني دليل استعداد لتلقي التأثير الديني، حين يرتفع الفنّ إلى هذا المستوى الرفيع تصفو النفس لتلقى رسالة الجمال⁽¹⁾، فإذا صاحب هذا الأسلوب الممتع حجج متنوعة وعلاقات تربط بدقة بين أجزاء الخطاب أمكن للمتكلّم أن يحقق غايته من الخطاب؛ أي: قيادة المتلقّي إلى فكرة أو رأي معين، وهذا لا يكون ناجحا ومتفاعلا إلا بالأسلوب التعبيري الذي يندرج تحت مصطلح الحوار .

يغلب نمط الحوار على الأسلوب القصصي في القرآن، وهو تفاعل بين شخصين في مقام مشترك قصد غرض وفائدة ينتج عنه قوة حجاجية، بحيث يبرر كل طرف عن موقفه من قضية ما، ولاشك أن أول سجل حوار في عالم الغيب والشهادة بين الذات الإلهية الله جل جلاله، وبين محور الفساد والشر إبليس اللعين، الذي تكبر على من خلقه، فالقصة القرآنية جاءت تحمل "التأييد الإلهي للرسول، وإظهار آيات الله ومعجزاته وحججه على الناس، مما يحمل على الإقناع بصحة الدعوة الإلهية، والإيمان بأصحابها الرسل"⁽²⁾، والشيء المميّز فيها أنه، "يبدأ أولا بذكر ملخص القصة، ثم يعرض بعد ذلك تفاصيل القصة من بدايتها إلى نهايتها، كما هو واضح مثلا في قصة "أصحاب الكهف". وذكر ملخص القصة قبل سرد تفاصيلها إنما يؤدي إلى تشويق المستمعين وإثارة انتباههم لتتبع تفاصيل القصة"⁽³⁾، وهذا ما يروم إليه الحجاج الحوارية عند بنائه للصرح القصصي .

(1) - سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص 144.

(2) - الزحيلي هبة: التفسير المنير، ج 11، ص 483.

(3) - سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص 147.

الفصل الثاني

التوظيف الحجاجي في الدرس اللغوي والتداولي في سورة هود

- توطئة

- التعريف بالمدونة القرآنية

أولاً- حجاجية المفردة القرآنية وعُدولها في الخطاب القرآني .

ثانياً- العُدول التركيبي وأثره الحجاجي في السياق القرآني .

ثالثاً- الأفعال الكلامية ومظاهرها الإنجازية في القرآن .

الفصل الثاني: ————— التوظيف الحجاجي في الدرس اللغوي والتداولي في سورة هود

أقرّ علماء الغرب أنفسهم بأهمية جهود العرب في نحو اللغة العربية وقالوا: بأنه أثر رائع من آثار العقل العربي بما له من دقة الملاحظة، ومن نشاط في جمع ما تفرّق؛ وهو أثر عظيم يرغم الناظر فيه على تقديره، ويحقّ للعرب أن يفخروا به⁽¹⁾.

وقد عني علماء الغرب باللغة لأهميتها في الحقل التواصلّي، فنجد مثلا (أزفالد ديكرو Decrot)، أعطى تصوّرا جديدا في دراسته للغة الطبيعية، وقد توصّل أنّ الحجاج والتداولية وعلم الدلالة تقوم على بنية اللغة التّواصلية اليومية والإبداعية، بعيدة عن قواعد الاستدلال المنطقي، فموضوع الحجاج في اللغة هو بيان ما يتضمّن القول من قوّة حجاجية تمثّل مكونا أساسيا لا ينفصل عن معناه، ويجعل المتكلّم في اللحظة التي يتكلّم فيها يوجّه قوله وجهة حجاجية ما⁽²⁾، لذلك لا تتوقف اللغة على أنّها أداة للتواصل بين المتخاطبين فحسب، بل وسيلة هامة "للتأثير في العالم وتغيير السلوك الإنساني من خلال مواقف كلية"⁽³⁾، ولا يتحقّق التأثير إلا بالآليات الحجاجية.

إنّ كلّ خطاب وما يحمله من تنوّع في تركيبه اللغوي والبلاغي والمنطقي يروم إلى التأثير والإقناع، "ومن هذه الزاوية يصبح الحجاج بعدا جوهريا في اللغة ذاتها، مما ينتج عن ذلك أنه حيثما وجد خطاب العقل واللغة، فإنّ ثمة استراتيجية معيّنة نعد إليها لغويا وعقليا، إما لإقناع أنفسنا، أو لإقناع غيرنا، وهذه الاستراتيجية هي الحجاج ذاته... وأنّ كلّ خطاب حال في اللغة، تمنحه هذه الأخيرة العناصر الأولية والقاعدية لكل حجاج، أي عناصر الاستدلال والتدليل"⁽⁴⁾، وهذه العناصر لا نعرف قيمتها الدلالية والتداولية إلا بالرجوع إلى حال مقام الخطاب الذي قيلت فيه.

– التعريف بالمدونة القرآنية:

(1) – ينظر: ديبور، تاريخ الفلسفة في الإسلام، تحقيق، محمد عبد الهادي أبو ريده، دار النهضة العربية، بيروت، ص60

(2) – ينظر: سالم الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص192.

(3) – أوستين: نظرية أفعال الكلام العامة (كيف ننجز الأشياء بالكلام)، ترجمة عبد القادر قنيني، دار أفريقيا الشرق، المغرب، 1991، ص06.

(4) – حبيب أعراب: الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص99-100.

الفصل الثاني: ————— التوظيف الحجاجي في الدرس اللغوي والتداولي في سورة هود

سورة هود من السور المكيّة عدد آياتها مائة وثلاث وعشرون آية كلها مكيّة، إلا آية واحدة وهذا ما روي عن ابن عباس وابن الزبير وقتادة، وهي: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾⁽¹⁾، وسُمّيت هذه السورة باسم نبي من أنبيائه هود عليه السلام لتكرار اسمه خمس مرات⁽²⁾، كما تُعدّ تخليدًا لجهوده الكريمة في الدعوة إلى الله، وقد جاءت لتقرّر أصول العقيدة الإسلامية من توحيد الألوهية، وإثبات القرآن أنه منزل من عند الله، وإثبات يوم البعث والجزاء عن طريق الحجج العقلية، مع الموازنة بين النفوس المستعدة للإيمان، والنفوس النافرة، كما تحدثت هذه السورة عن جملة من قصص الأنبياء بالتفصيل تسليّة للرسول ﷺ، وإنذارا للمكذّبين⁽³⁾.

بُسطت قصّة نوح عليه السلام في هذه السورة (25-49)، أكثر من السورة التي سُمّيت باسمه، وتطرقت إلى قصّة الطوفان وما فيها من عقاب الله تعالى للمكذّبين، ثم ذكرت بعدها قصّة هود عليه السلام، الذي أرسله الله إلى قوم عاد وقد بسط الله لهم القوّة والصحة فاغتروا بذلك، فتجبروا وتناولوا على الذي خلقهم ﴿وَقَالُوا مَن أَشَدُّ مِثًا قُوَّةً﴾⁽⁴⁾، ثم تسرد لنا بعد ذلك قصّة النبي صالح مع قومه ثمود، التي بقيت آثارهم تذكرهم، وما حلّ بهم من العذاب، كما تضمّنت بعض المواقف مثل جدال إبراهيم عليه السلام مع الملائكة حول قوم لوط عليه السلام، وبشارة زوجته، وتحدثت أيضا عن قصّة لوط ثم شعيب، وموسى.

وختمت السورة في بيان الغرض من سرد هذه القصص، وما آل إليه الأقسام السابقين، من مكر الله بهم بسبب تجبرهم وعنادهم، والغرض من هذه القصص هو تثبيت

(1) - سورة هود: الآية 114.

(2) - ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج11، ص311.

(3) - ينظر: أبو الفضل شهاب الدين الألويسي، روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، (د-ط)، ج1، ص127.

(4) - سورة فصلت: جزء من الآية 15.

الفصل الثاني: ————— التوظيف الحجاجي في الدرس اللغوي والتداولي في سورة هود

قلب النبي ﷺ على الدعوة الإيمانية، فهي عبرة وعظة لمن تسوّّل له نفسه بالطغيان. ومما جاء في آثارها قول رسول الله ﷺ "شيبتي هود وأخواتها" وهذا إجمالاً، وجاء مفصلاً في رواية أخرى أنه ﷺ قال: "شيبتي هود والمرسلات، والواقعة، وعمّ يتساءلون، وإذا الشمس كورت" والجامع بين هذه المعاني عن اليوم الآخر وأهواله وما يكون فيه .

وضّح الله سبحانه وتعالى العلل والأسباب التي انتشر بها الكفر والإلحاد بأسلوب منطقي عقلائي، مبيناً الأسباب التي وُجد من أجلها هذا الكائن الإنساني مسترسلاً الأحداث بأسلوب بلاغي تأثيري راقٍ.

أولاً- حاجية المفردة القرآنية وعدولها في الخطاب القرآني:

لا تتوقف معاني الكلمة القرآنية عند شكلها الخارجي الصرّفي والنحوي، بل تقتضي معانٍ أخرى تعمل على بيان سمات دلالية يضمّرها اللفظ؛ لأنّ "الكلمات ليست أصواتاً تلفظ، أو خطوطاً ترسم، وإنما الكلمة رمز وتجسيد ودلالة على موضوع يتعدّاه، كذلك السلوك العاطل عن المعنى في الظاهر لغة مبدلة أو رمز ذو منطوق خاص، يستهدف الاتّصال، ويتجه نحو الآخرين من أعضاء الجماعة الحيّة"⁽¹⁾. فلامسة المعنى الدلالي للموضوع يحتاج إلى منلقٍ عادي يعمل على فك شفرات الخطاب المستغلقة للوقوف على الأغراض الحقيقية للصورة الحاصلة في ذهن المتكلم.

ويأتي دور السيّاق في الكشف عن القيمة الحضورية للمفردة، وهذا ما ذهب إليه فندريس بقوله: "إنّ الذي يعيّن قيمة الكلمة في كلّ الحالات إنّما السيّاق، الذي يفرض قيمة واحدة بعينها على الكلمة بالرغم من المعاني المتنوعة التي في وسعها أن تدلّ عليها، والسيّاق أيضاً هو الذي يُخلّص الكلمة من الدلالات الماضية التي تدعها الذاكرة تتراكم عليها وهو الذي يخلق لها قيمة حضورية"⁽²⁾؛ لأنّ السيّاق يُورد حقائق ساطعة لهذه المفردة، فيكشف عن المعنى الخفيّ وما تبثّه في قارئها، لهذا يمكن أن نقول أنّ وظائف الكلمة في الخطاب ينطلق مدلولها تبعاً للسيّاق الذي وُجدت فيه، فهي تحمل معانٍ مُضمرة يُكشف عن بنيتها العميقة من خلال ما يسمّى بالاختصاص أو التّأويل.

وقد عرف الجرجاني المقتضى بقوله: "المقتضى هو الذي لا يدلّ اللفظ عليه، ولا يكون من ضرورة اللفظ... وقيل هو عبارة عن جعل غير المنطوق منطوقاً لتصحيح

(1) - مصطفى ناصف: دراسة الأدب العربي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، (د-ت)، (د-ط)، ص130.

(2) - ج فندريس: اللغة، تر، عبد الحميد الدواخلي، محمد القصاص، طبع بالهيئة العامة للشؤون المطابع الأميرية،

القاهرة، ط1، 2014م، ص231.

الفصل الثاني: ————— التوظيف الحجاجي في الدرس اللغوي والتداولي في سورة هود

المنطوق، ومثاله (فترير رقبة). وهو مقتضٍ شرعا لكونها مملوكة، إذ لا عتق فيما لا يملكه ابن آدم⁽¹⁾.

ويساق مفهوم المفردة بأنها، "الوحدة المعجمية -الصرفية- الإعرابية معًا القابلة لأنّ تكتسب بالإضافة إلى معناها المعجمي سمات دلالية إضافية من خلال علاقتها بالمقال الذي ترد فيه وبالمقام الذي تستعمل فيه، وهي قادرة في الوقت نفسه على التأثير في ذلك المقال والمقام بفضل ما لها من قيم دلالية مختلفة بعضها مستمد من اللغة نفسها، وبعضها متأّت من الاستعمال والتداول"⁽²⁾، فحضور المقتضى فيها يحمل حركة حجاجية تداولية، لأنّ مصطلح الاقتضاء يحيل على "صنف من المعاني التي تضرها -بالقوة أو بالفعل- بنيات لغوية محيئة actualisées، جملا كانت أم تعابير، مركبات أم مفردات، فتلتصق بالخطاب اللغوي، في ثابتة(الدلالة) وتحوّله (التداول)"⁽³⁾.

ولا شكّ أنّ اختيار لفظة معينة دون غيرها من الألفاظ في الحدث الكلامي، لم يأت اعتباريا، بل يحكمه مقصد المتكلم وغرضه، لأنّ "الفعل الكلامي يراد به الإنجاز الذي يؤديه المتكلم بمجرد تلفظه بملفوظات معينة... ولذلك يصح أن تُعدّ تلك المعاني والمقاصد التّواصلية أفعالا كلامية... باعتبار أنّنا لا ننظر إليها أنها مجرد دلالات ومضامين لغوية وإنّما هي فوق ذلك إنجازات وأغراض تواصلية ترمي إلى صناعة أفعال ومواقف اجتماعية"⁽⁴⁾. ولعلّ الغرض الأسمى هو محاججة المتلقي وإقناعه والتأثير فيه.

لقد تكلم الإمام الخطابي عن إبدال كلمات القرآن والتي يرى فيها نتيجتين خطيرتين: فساد المعنى بالتبديل، وسقوط البلاغة يقول -رحمه الله- "ثمّ اعلم أنّ عمود هذه البلاغة - يعني بلاغة القرآن - التي تجتمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التي

(1) - الشريف الجرجاني: التعريفات، ص 191.

(2) - عبد الله صولة: الحجاج في القرآن، ص 68.

(3) - بنعيسى عسو أزيبط: الخطاب اللساني العربي، هندسة التواصل الإضماري، (من التجريد إلى التوليد)، مستويات البنية الإضمارية وإشكالاتها الأساسية، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، ج2، 2012، ص 51.

(4) - مسعود صحراوي: التداولية عند العرب، ص 10.

الفصل الثاني: ————— التوظيف الحجاجي في الدرس اللغوي والتداولي في سورة هود

تشمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به، الذي إذا أُبدل مكانه غيره جاء منه:

- إما نُبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام.

- وإما ذهاب الرونق الذي يكون منه سقوط البلاغة⁽¹⁾.

وتحدث الجرجاني عن أثر العدول في اللفظة وما يتركه في التركيب النظمي، وأنها جزء مهم من الإعجاز الإلهي للقرآن الكريم فيقول "وهل تشك إذا فكرت في قوله تعالى: "وقيل يا أرض ابلعي ماءك... بعدا للظالمين"، فتتجلى لك منها الإعجاز، بهرك الذي ترى وتسمع... وإن شككت، فتأمل: هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها وأفردت، لأدّت من الفصاحة ما تؤدّيه وهي في مكانها من الآية؟ قل "ابلعي" واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وما بعدها، وكذلك اعتبر سائر ما يليها"⁽²⁾، فالمزينة من اختيار هذه اللفظة "ابلعي" من بين الكثير من مرادفاتها، توحى لنا مباشرة تآلفها وانسجامها مع التركيب السياقي الذي وضعت فيه.

والمتأمل في استعمال هذه "الألفاظ والتراكيب بوصفها اختيارات، استخدمها المتكلم لما تتطوي عليه من فائدة وقوة حجاجية بمقارنتها مع غيرها من الألفاظ والتراكيب التي كان بالإمكان استعمالها . ويقوم مفهوم الاختيار هنا على معيارية حجاجية؛ فلكي نحدّد - كما يقول بيرلمان - الاستخدام الحجاجي للفظ ما، ينبغي معرفة الألفاظ والتعبيرات التي كان من الممكن أن يستخدمها الخطيب، ولكنه فضلّ عليها اللفظ الذي وقع اختياره"⁽³⁾، مبرراً لنفسه سبب انتقائه لمفردة دون غيرها، من خلال الأثر الذي تتركه في نفسية المتلقي.

(1) - الخطابي : ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص29.

(2) - الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص45.

(3) - محمد مشبال: البلاغة العربية وإستراتيجية الإيتوس في النص القرآني، مقال ضمن، بلاغة الخطاب الديني، دار الأمان، الرباط، ط 1، 2015، ص195.

إنّ المنزلة التي تحظى بها المفردة في سياقها لا يمكن أن تحلّ مكانها مفردة أخرى، لأنها "وُضعت وضعًا فنيًا مقصودًا في مكانها المناسب، وأنّ الحذف في المفردة مقصود، وإنّ الإبدال مقصود، كما أنّ الأصل مقصود، وكلّ تغيير في المفردة أو إقرار على الأصل مقصود له غرضه...فالتعبير القرآني تعبير فني مقصود، كل كلمة بل كل حرف وإنّما وضع لقصد"⁽¹⁾. وهناك نوع من الألفاظ تحمل من الدلالات والمعاني القويّة التي يفتح لها القلب حين توجّه انتباهه إلى صورة حسية.

ولهذا علينا في هذا المقام أن نتوخى الحذر من إعطاء المعنى الحجاجي للمفردة، لأننا نتعامل مع كلام ربّ العالمين، فالرجوع إلى السياق ومقصد المتكلم أمر مهم، لأنهما يقفان على المقتضى الحقيقي للمفردة، وسنعرض بعض النماذج المكرّرة للألفاظ التي لها صدى في سياقات التركيب للمدونة القرآنية.

1- المقتضى المعجمي للفظة الأخ:

إنّ الأصل في لفظة أخ هو المشارك لآخر في الولادة من الطرفين، أو من أحدهما أو من إرضاع. ويستعار في كلّ مشارك لغيره في القبيلة، أو في الدّين، أو في صنعة، أو في معاملة أو في مودّة، وفي غير ذلك من المناسبات⁽²⁾، كما قد تُعبّر عن الرّحمة والألفة والمحبة والرابطة الدينية مثل، قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾⁽³⁾، وفي سياق آخر نجدها تعبّر عن الأخوة في الإجرام والكفر والجحود بنعم الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾⁽⁴⁾. هذه الأخوة مُعينة على الفساد بأبشع صوره.

والمتتبع للأسلوب القصصي للقرآن، نجد أنّ الله تعالى أرسل رسلا بلسان أقوامهم؛ كي لا يترك أي حجة لهم، فيزيل عنهم كلّ ريب أو شك من نفوسهم حول شخصية النبي

(1) - فاضل السمرائي: بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، العاتك لصناعة الكتاب، القاهرة، ط2، 2006م، ص04.

(2) - الراغب الأصفهاني: مفردات القرآن الكريم، ص69.

(3) - سورة الحجرات: جزء من الآية10.

(4) - سورة آل عمران: الآية156.

المختار، لأنّ قدوة الشخص هي بمثابة الدّرب الذي يسير عليه من ظلّ الطريق، وأنّ أفعاله وسلوكاته ومكانته الاجتماعية وغيرها، تجعله يحظى بهذه المكانة، "وبناءً عليه تمثّل صورة الشخص المستحسنة أو المستهجنة وسيلة حاجية في الخطابات الاجتماعية والسياسية والتربوية بشكل خاص"⁽¹⁾. وهذا مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾⁽²⁾.

وقد توحى لفظة أخٍ عن بعد أخلاقي ذميم تشتمنز منه النفس السّوية، وهو فعل الغيبة التي يتداولها بعض الناس، والتي مثلها الله تعالى بصفة أكل لحم الأخ وهو ميّت، قال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ بَرُّ الرَّحِيمِ﴾⁽³⁾، وهذا دليل على استنكار الدّين لمثل هذا الخلق الذّميم والنّهي عنه.

وفي المقابل نجدها تأخذ حيزاً آخر من معاني المقتضيات، أنّها تعبّر عن سموّ المنزلة التي يحظى بها الإخوان يوم القيامة، وهم فرحين بما آتاهم الله من فضله، قال تعالى: ﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾⁽⁴⁾. وهذا المشهد يعبّر عن الرّاحة والاطمئنان الذي تؤول إليه النفس المؤمنة لما تراه من نعيم دائم يوم الآخر.

أما المقتضى الذي تحمله معنى الأخ في مقام سورة هود، فهي تروم إلى تحقيق غايتين: الأولى تُظهر لأهل الكفر والشّرك وأهل قريش خاصة أنّ محمد ﷺ هو أخ منهم في النّسب، ولا مناص من إنكار ذلك، فنكرارها هو بمثابة حجّة عليهم، لأنّ قومه كانوا يستبعدونه مع أنّه واحد من قبيلتهم أن يكون رسولا إليهم من عند الله، فذكر الله تعالى أنّ

(1) - محمد مشبال: من بلاغة الحجاج، ص 148.

(2) - سورة إبراهيم: الآية 04.

(3) - سورة الحجرات: جزء من الآية 12.

(4) - سورة الحجر: جزء من الآية 47.

الفصل الثاني: ————— التوظيف الحجاجي في الدرس اللغوي والتداولي في سورة هود

هودا كان واحدا من عاد، وأنّ صالحا كان واحدا من ثمود لإزالة هذا الاستبعاد⁽¹⁾. وهذا من أجل استمالتهم إلى الدعوة.

وهذه الرابطة الأخوية كانت من دعوة إبراهيم عليه السلام إلى أمة محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾⁽²⁾، ويقول الطبري - رحمه الله - "فبعث فيهم رسولا من أنفسهم يعرفون وجهه ونسبه وأمانته حتى لقب بالأمين، لأن أخلاقه ومعاملاته حجة عليهم في الدنيا والآخرة، فقد جاء ليخرجهم من الظلمات إلى النور. ويحذّرهم على اجتناب المعاصي والآثام"⁽³⁾.

ومن خلال هذه الرابطة أراد الرسول ﷺ أن يثبت لقريش أنه أخوهم في النسب، والمقتضى الحامل للحجة هو الاقتداء بالأنبياء الذين سبقوه بأنهم كانوا إخوانا له، وهذا ما يسعى إليه الحجاج، لأنّ الغرض منه "هو إزالة شك المرسل إليه في وجهة النظر محلّ الخلاف"⁽⁴⁾. فيزيل الغموض عن الخطاب، لإضعاف حجج الخصم.

إنّ توظيف لفظة الأخ أنجع حجاجيا في إقناع الأنبياء لأقوامهم لدحض كلّ شبهة تكون ذريعة للمشركين في إبطال دعوة أنبيائهم، لهذا "لا تستعمل ألفاظ الأخ وما يشاكلها، في هذا الخطاب وأمثاله لتكون علامة على التضامن فحسب، بل ليؤسس عليها المرسل فعلا حجاجيا، بالإضافة أنّها حجج في ذاتها."⁽⁵⁾ فقد جمع الله صفات أخلاق الأنبياء بين الحلم والأناة، والذكاء والإذعان، وكشف البيان، لإثبات الحجة على خصومهم خاصة في مقام عقيدة التوحيد ويوم البعث.

(1) - محمد فخر الدين الرازي: مفاتيح الغيب، دار الفكر، لبنان، بيروت، ط 1، 1981، ج18، ص10.

(2) - سورة البقرة: الآية 129.

(3) - ينظر: الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج2، ص574.

(4) - ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص482.

(5) - نفسه، ص487.

2- المقتضى المعجمي للفظ الكفر:

يأخذ معنى الكفر عند الأصفهاني معانٍ ودلالات عديدة، نجده في اللغة يعني "سترُ الشيء، ووُصِفَ الليل بالكافر لستره الأشخاص، والزرّاع لستره البذر في الأرض، وأعظم الكُفر: جحود الوجدانية أو الشريعة أو النبوة، والكُفران في جُحود النعمة أكثر استعمالاً، والكُفر في الدين أكثر، ولمّا كان الكُفران يقتضي جُحود النعمة صار يُستعمل في الجُحود"⁽¹⁾. فلفظة الكفر تحمل عدّة معاني:

- قد تعبّر عن الكفر والإنكار، وهو أن يكفر بقلبه ولسانه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾⁽²⁾.

- وقد يقصد بها كفر جحود، وهو أن يعترف بقلبه ولا يقرّ بلسانه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾⁽³⁾.

- كفر معاندة، فهو أن يعرف الله بقلبه ويقرّ بلسانه، ولا يدين به حسداً وبغياً .

- كفر نفاق، بأن يقرّ بلسانه ولا يعتقد بقلبه .

وقد تدلّ على معنى الجحود وعدم الشكر لنعم الله تعالى، وهذا دليل على قلة البصيرة والتأمل، وقلة العقل في الاستدلال، فتعرّض النفس إلى الهلاك لا محالة؛ لأنّ الإنكار والجحود يُعمي القلب عن إدراك الحجة، لقوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ قُلْتِ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾⁽⁴⁾، فالملفوظ (الَّذِينَ كَفَرُوا) الذي استحق أصحابه حمل هذا الاسم، فقد توقفت عنهم آلة الإقناع والاستمالة بالحجة القلبية والمنطقية، فهو يحمل مقتضيات إنكارية وهي:

(1) - ينظر: الأصفهاني، مفردات القرآن الكريم، ص 714.

(2) - سورة البقرة: الآية 06.

(3) - سورة البقرة: جزء من الآية 89.

(4) - سورة هود: جزء من الآية 07.

الفصل الثاني: ————— التوظيف الحجاجي في الدرس اللغوي والتداولي في سورة هود

- إنكارهم ليوم البعث. والمقتضى الذي يحمله هذا السياق جاء عن طريق "الكناية الإيمائية، لأنّ إنكار البعث إنكار للقرآن"⁽¹⁾. هذه الصورة تمثل صورة أسلوب الطغاة المعاندين الذين تعطّشت قلوبهم للعقاب الإلهي الذي لن ينجو منه عاصٍ.
- وأما كفرهم بما جاء به القرآن ورميه بالسحر، وتكذيبهم لنبوة محمد ﷺ. هذا يستلزم استدلالاً منطقياً، بأنهم كفروا برسالة الإيمان والتوحيد .

لو تمعنّا قليلاً في تركيبية النفس البشرية، نجد نفس الكافر تستيقن الحقّ وتؤمن بوجود الله، وعلمها المتيقن بوجود دليل على خالق هذه المخلوقات، لكنّ الجحود والعناد والتعنّت والاستكبار أعمى قلوبهم لا أبصارهم، فيكشف الله عمّا في قلوبهم فاضحاً لنفوسهم الخبيثة، قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾⁽²⁾، فتوعدهم بالعذاب الشديد.

أما ما تحمله لفظة "الكفور" التي لا يخرج مقتضاها على ما سبق ذكره عن الجحود والإنكار، قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَا مِنْهُ إِنَّهُوَ لَيَكْفُرُ﴾⁽³⁾، فهي تعبّر عن المبالغة في الجحود، للتأثير في متلقي الخطاب؛ لأنّ لفظة الكفور متأنيّة من صيغة (فُعول)، "وإن كانت دالّة على الحدث المطلق، وهو لا يختصُّ بجحود الإيمان والنعمة، وإنما يأتي لمطلق الكفر"⁽⁴⁾، ويُرَاد بها في مقام آخر "مُنكر نعمة الله؛ لأنّه تصدر منه أقوال وخواطر من السّخط على ما انتابه كأنّه لم يُنعم عليه قط"⁽⁵⁾. هذا القول يكشف عن قمة الجحود والإنكار والتعنّت الذي آل إليه بعض الكفّار، فأسلوب المبالغة في هذا المقام يُظهر عظمة الجحود والطغيان الذي اتّصف به هؤلاء الكفّار، واستعماله بهذه الصيغة لترهيب نفس الكافر والمشرك، وكلّ من يُقبل على إنكار وجوده وعدم شكر نعمه.

(1) - الألويسي: روح المعاني، ج12، ص13.

(2) - سورة النمل: الآية 14.

(3) - سورة هود: الآية 09.

(4) - ينظر: الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن الكريم، ص715.

(5) - الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، ج12، ص13.

الفصل الثاني: ————— التوظيف الحجاجي في الدرس اللغوي والتداولي في سورة هود

كما يمكن أن يحمل المقتضى الدال على السّتر والتّغطية قوله تعالى: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَطْلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾⁽¹⁾، تغطية نعم الله والحدود بها، وهو سلوك مُشين ناتج عن دوافع وانفعالات نفسيّة كالإنكار والتّكبر والخطرة، وقد يأخذ معاني العفو وإزالة الذّنب، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾⁽²⁾؛ أي "سترناها حتى تصير كأن لم تكن، أو يكون المعنى نذهبها ونزيلها، من باب التّمرّض لإزالة المرض، والتّقيّة لإذهاب القذى"⁽³⁾. ويُستخلص من هذا كلّهُ، أنّ معنى مفردة الكفر تتخذ معنى حجاجياً، فهي ستر الإيمان والحق وإبطاله وكنّ العداوة للأنبياء والمؤمنين. والله تعالى لن يعذب أحداً حتّى يُقيم عليه الحجّة بعدما ألزم فكره وقلبه بالأدلة والبراهين القاطعة.

وقد اعتبره الشعراوي - رحمه الله - عين الاستدلال على الإيمان، عند تفسير قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾⁽⁴⁾، يأتي هذا السّؤال... ولا يستطيع الكافر له جواباً!! لأنّ الله هو الذي خلقه وأوجده... ولا يستطيع أحد منا أن يدّعي أنّه خلق نفسه أو خلق غيره.. فالوجود بالذات دليل على قضية الإيمان.. ولذلك يسألهم الحق تبارك وتعالى كيف تكفرون بالله وتسترون وجود من خلقكم؟⁽⁵⁾، وهذا فيه حجّة ودليل على إثبات وجود الله .

(1) - سورة الكهف: جزء من الآية 56.

(2) - سورة المائدة: الآية 65.

(3) - مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق محمد علي النجار، مؤسسة الأهرام، مصر، القاهرة، 1992، (د- ط)، ج4، ص365.

(4) - سورة البقرة الآية: 28.

(5) - محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي، دار أخبار اليوم إدارة الكتب والمكتبات، القاهرة، ج1، ص138.

3- المقتضى المعجمي للفظة الظلم:

ورد معنى الظلم عند أهل اللغة وكثير من العلماء: وضع الشيء في غير موضعه الْمُخْتَصُّ به، إمَّا بِنُقْصَانٍ أو بَزِيَادَةٍ؛ وإمَّا بِعُدُولٍ عن وقته أو مكانه، ومن هذا يُقال: ظلمتُ السَّقاء: إذا تناولته في غير وقته، ويسمى ذلك اللَّبْنُ الظَّلِيمُ. والظلم يُقال في مجاوزة الحق، ويقال فيما يكثر، وفيما يقلُّ من التَّجاوُز، ولهذا يُستعمل في الذنب الكبير، وفي الذنب الصَّغير، ولذلك قيل لآدم في تعدِّيهِ ظالمٌ، وفي إبليس ظالم، وإن كان بين الظلمين بونٌ بعيدٌ⁽¹⁾.

تتغير معنى لفظة الظلم حسب ما يقتضيه المقام، فهي تعبر عن مقتضيات عديدة، بالإضافة إلى وظيفتها الحجاجية، وقد قسم أحد الحكماء الظلم إلى ثلاثة أنواع: "ظلم بين الإنسان وبين الله تعالى، وأعظمه الكفر، والشرك، والنفاق، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾⁽²⁾ وإيَّاه قصد بقوله: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾⁽³⁾. والثاني: ظلم بينه وبين الناس، وإيَّاه قصد بقوله: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾⁽⁴⁾. والثالث ظلم بينه وبين نفسه، قال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾⁽⁵⁾... وكل هذه الأقسام في الحقيقة ظلم للنفس؛ فإن الإنسان أول ما يهمل بالظلم فقد ظلم نفسه⁽⁶⁾. فالمتعمن لهذه الآيات يدرك يقيناً أن نفس الإنسان تظلم نفسها، وهي تخصّ نفس الكافر في هذا السياق، فتظلم نفسها في عدم امتثالها لطاعة الله وانغماسها في أحوال الدنيا ولذاتها، ونسيت وعيد الله من العذاب يوم القيامة، وهذا بسبب إتباع الهوى،

(1) - الأصفهاني: مفردات القرآن الكريم، ص 537.

(2) - سورة لقمان: جزء من الآية 13.

(3) - سورة هود: جزء من الآية 18.

(4) - سورة الشورى: جزء من الآية 42.

(5) - سورة فاطر: جزء من الآية 32.

(6) - الفيروز آبادي: بصائر نوى التمييز في كتاب الله العزيز، ج 3، ص 542.

الفصل الثاني: ————— التوظيف الحجاجي في الدرس اللغوي والتداولي في سورة هود

ولهذا تأتي مادة الظلم بمقتضيات تحمل معاني التهيب والوعيد لمن اعتدى على حق الله، كما يراد بها تنبيه الغافلين، وإيقاظ الضمائر النافرة .

أما وروده في الحديث الشريف، فقد جاء مقاربا للمعنى اللغوي، قال رسول الله ﷺ: "الظلم ظلمات يوم القيامة"⁽¹⁾، فالرسول ﷺ يحذر المؤمنين من صفة الظلم التي تعدّ من مساوئ الأخلاق، "وهو ما يؤدي إلى إقناع المتلقي بضرورة اجتناب الظلم حتى لا يقع في مغبة العاقبة الأليمة للظلم وهي الظلمات المسببة عنه يوم الآخرة، بأن يُظلم الله على الظالم ويمنعه لذة النظر إليه جلّ شأنه"⁽²⁾، وقال أيضا: "انصر أخاك ظالما أو مظلوماً، فقال رجل: يا رسول الله، أنصره إذا كان مظلوماً، أفرأيت إذا كان ظالماً كيف أنصره؟ قال: تحجزه، أو تمنعه من الظلم فإنّ ذلك نصره"⁽³⁾.

ونجد معنى صفة ظلم النفس في المدونة القرآنية، في قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ^ط فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ^ط وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ^{١٠١}﴾⁽⁴⁾ فالمقصود "وما ظلمناهم" أنّ الله لم يظلمهم وإنما هم السبب في جلب العذاب لأنفسهم، لأنهم كافرون بما أنزل عليهم من البيّنات، ونفي الظلم عن الله جلّ جلاله، فالله " لا يظلم الناس بتعذيبهم يوم القيامة شيئا من الظلم، ولكن الناس أنفسهم يظلمون ظلماً مستمرا، فإنّ مباشرتهم المستمرة للسيئات الموجبة للتعذيب عين ظلمهم لأنفسهم... ومساق الآية الكريمة على الأوّل لإلزام الحجّة، وعلى الثاني للوعيد"⁽⁵⁾.

(1) - أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري: صحيح البخاري، دار بن كثير، دمشق، بيروت، ط1، كتاب المظالم، رقم 2443، ص592.

(2) - أمال يوسف المغمسي: الحجاج في الحديث النبوي، الدار المتوسطة للنشر، تونس، ط1، 2016، ص207.

(3) - أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري: صحيح البخاري، باب المظالم، رقم الحديث 2447، ص592.

(4) - سورة هود: الآية 101.

(5) - الألويسي: روح المعاني، ج12، ص126.

كما تُعدُّ تعريضاً بتحذير المشركين من العرب، وإقناعهم على أن عبادة الأصنام ليس فيها نفع، بل هي سبب في جلب المهانة والعذاب، وعليكم الاقتداء بالأمم السابقة التي استأصلها الله من الأرض بسبب ظلمهم وجورهم⁽¹⁾، كما يمكن أن تُعبّر عن الخضوع والتوبة والإذعان والاستكانة والإنابة، ويظهر هذا في قول ملكة سبأ في وحي الله، قال تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنَّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسَأَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾⁽²⁾.

4- المقتضى المعجمي للفظ البشارة :

لقد لفت انتباهنا تكرار لفظ البشارة في المدونة والتي تُعدُّ من مسرات المرء لا تفارقه في مواقف الفرح، لذا وُجد لها حضور قوي في القرآن الكريم، فقد تكررت في سياقات مختلفة، لكن مدلولها في السياق اللغوي يحمل معنى الخير والشر، قال الزجاج: "معنى يبشرك يسرك ويفرحك وبشرت الرجل أبشره إذا أفرحته وبشّر يبشّر إذا فرح. قال: ومعنى يبشرك ويبشرك من البشارة. قال: وأصل هذا كله أن بشرة الإنسان تتبسط عند السرور؛ ومن قولهم: فلان يلقاني ببشّر أي بوجه مُنبسط"⁽³⁾. أما الجرجاني فيراها "كل خبر صدق تتغير له بشرة الوجه، وتستعمل في الخير والشر، وفي الخير أغلب"⁽⁴⁾.

وتكملة مما سبق نجدها دالة على الخير في قوله تعالى: ﴿وَأَمْرَاتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ

فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾⁽⁵⁾، فقد بُشّرت زوجة إبراهيم عليه السلام ببشارة الولد "ففاجأتها البشري بإسحاق، وهي بشري مضاعفة بأن سيكون لإسحاق عقب من بعده هو يعقوب، والمرأة -وبخاصة العقيم- يهتزّ كيانها كله لمتل هذه البشر، والمفاجأة بها تهزّها وتربّكها"⁽⁶⁾؛ لأنها بُشّرت بحفيد، فالمقام هنا مقام فرح وفرح كربة.

(1) - ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج12، ص159.

(2) - سورة النمل: الآية 44.

(3) - ابن منظور: لسان العرب، مادة (بش).

(4) - شريف الجرجاني: معجم التعريفات، ص42.

(5) - سورة هود: الآية 71.

(6) - سيد قطب: في ضلال القرآن، ج4، ص1912.

وهناك تبشير الله سبحانه وتعالى للمؤمنين كافة يوم القيامة ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾⁽¹⁾، كما قد تحمل معنى السخرية والتّهمك والوعيد، إذا استخدمت في سياقها المجازي دون الصريح، نحو قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾⁽²⁾. وهي حجة بصورة غير مباشرة على الوعيد وما يترتب عنه من الحسرة والندامة إذ يفاجأ المخاطبون بأنّ البشرى التي تزف إليهم إنّما هي عذاب أليم، ومهما يكن من الزمن بين الأمرين وجيزاً ستحدث في نفوسهم صدمة من نوع آخر⁽³⁾.

وتطالعنا عن مشهد بلاغي دقيق تظهر فيه حالة الرجل الذي بُشِّرَ بأنثى، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾⁽⁴⁾، هذه الآية تعبر عن "الإعلام بازدياد الأنثى بفعل "بُشِّرَ" في موضعين لأنّه كذلك ازدياد المولود نعمة على الوالد لما يترقبه من التأنس به ومزاحه والانتفاع بخدمته وإعانتة عند الاحتياج إليه، ولما فيه تكثير نسل القبيلة الموجب عزتها، وأصرة الصهر. ثمّ إنّ هذا مع كونه بشارة في نفس الأمر فالتعبير به تعريضا بالتّهمك بهم إذ يعدّون البشارة مصيبة وذلك تحريفهم الحقائق"⁽⁵⁾، الحقائق"⁽⁵⁾، فهي تحمل الحزن والكآبة، وغيرها كثير في القرآن الكريم.

وقد ورد ذكرها في السنّة النبوية المطهرة، عن أبي زُرعة رضي الله عنه قال: سمعت أبا هريرة رضي الله عنه قال "أتى جبريل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله هذه خديجة قد أتتك إناء فيه إدام أو طعام أو شراب فإذا هي أتتك فأقرأ عليها السلام من ربّها عزّوجلّ ومنّي، وبشّرّها ببيت في الجنّة من قصب لا صخب فيه ولا نصب"⁽⁶⁾، وهي بُشْرَى سارة من الربّ سبحانه وتعالى لزوجة النبي ﷺ.

(1) - سورة البقرة : جزء من الآية 25.

(2) - سورة آل عمران الآية 21.

(3) - عبد الحليم حنفي: أسلوب السخرية في القرآن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د-ط)، 1978، ص225.

(4) - سورة النحل: الآية 58.

(5) - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج14، ص184.

(6) - مسلم بن الحجاج: صحيح مسلم، تحقيق، نظر بن محمد الفاريابي أبو قتيبة، 2006، دار طيبة، كتاب فضائل

الصحابة رضي الله عنهم، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها، حديث رقم 2432، ص1138.

الفصل الثاني: ————— التوظيف الحجاجي في الدرس اللغوي والتداولي في سورة هود

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قيل لرسول الله ﷺ، أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير وتحمده الناس عليه، قال "تلك بشرى المؤمن" (1).

ويُستخلص من هذا كَلِّه أن البشارة تحمل من المعاني والمقتضيات ما تجعل ذهن المتلقي ونفسه تتبسط وتتقبض بحسب حركتها الحجاجية، لأنها قد تعبر عن الخير، فهي توحى بالأمن والسلم والراحة النفسية التي يتلقاها المُبشِّر من المُبشَّر، وهذا نجده في بشارة الله للمؤمنين التي فيها ترغيب على العمل الصالح والوعد بالجنة، فيحرص المؤمن على النجاة، ومن ثمّة تغيير سلوكه نحو الإيمان والطاعة.

ويمكن أن تؤدّي المقتضى الدال على الترهيب والوعيد والخسران والعذاب الشديد لمن كفر وجدد بنعمة الله، كما تعدّ تنبيها وتحذيرا للغافلين فيحصل لهم اليقظة والخوف لما ينتظر العاصين، فتجبرهم على تغيير سلوكهم وإتباع المنهج الصحيح لشرعية الله وعدم التعدي على حدوده .

5- المقتضى المعجمي للفظ السخرية:

ورد مصطلح السخرية عند ابن منظور في السياق اللغوي بمعنى: سخر منه وبه سخرًا وسخرًا ومسخرًا وسخرًا، بالضمّ، ... وسُخْرِيًّا وسُخْرِيَّةً: هَزِيءَ بِهِ. (2) وقال ابن فارس: "السين والخاء والراء مطرّد مستقيم يدلّ على احتقار واستدلال. من ذلك قولنا سخر الله عزّ وجلّ الشيء وذلك إذا ذلّله لأمره وإرادته. قال الله جلّ ثناؤه: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ (3) ... ومن الباب: سَخَرْتِ مِنْهُ، إِذَا هَزَيْتَ بِهِ". (4)

أما لفظ الاستهزاء الذي يأتي من الهُزء: مَزَحٌ فِي خَفِيَّةٍ، وقد يقال لما هو كالمزح، فمما قُصِدَ بِهِ الْمَزْحُ قَوْلُهُ: ﴿ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ﴾ (5)، ويتّضح لنا أنّ ثمّة فروقًا بين

(1) - مسلم بن الحجاج: صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أتى على الصالح فهي بشرى ولا تضره،

حديث رقم 6720، ص 1219، 1220.

(2) - ابن منظور: لسان العرب، مادة (سخر).

(3) - سورة الجاثية: جزء من الآية 13.

(4) - أحمد بن فارس: معجم مقاييس اللغة، تحقيق، عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، ج 3، ص 145.

(5) - سورة المائدة: جزء من الآية 58.

الفصل الثاني: ————— التوظيف الحجاجي في الدرس اللغوي والتداولي في سورة هود

السخرية والاستهزاء، وهذا ما استوقفنا عليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾⁽¹⁾.

وقد بين أبو الهلال العسكري فروقا بينهما قائلا: "أنَّ الإنسان يُستهزأُ به من غير أن يسبق منه فعل يُستهزأُ به من أجله، والسُّخْرُ يدلُّ على فعل يسبق من المسخُور منه"⁽²⁾. وكلُّ من المفهومين يدخل في الإنقاص من قدر المرء والحط من شأنه.

كما تأتي على شكل إلزام الحجّة أمام الخصوم، وذلك في وضعهم في موقف استخفافي لزعة عقولهم على التفكير والتأمل وإظهار الحق، وهذا ما ورد في قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه حول إبطال وثنية الطين والسخرية مما يعبدون، قال تعالى: ﴿قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾⁽³⁾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسَعَوْهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْظُرُونَ ﴿١٣١﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣٢﴾⁽³⁾، وهذه السخرية منهج حجاجي اتّخذها سيّدنا إبراهيم سلاحا "ليقرّع قومه به، ويحتجّ به عليهم، ويعرّفهم موضع خطئهم وسوء نظرهم، ليرجعوا إلى عقولهم"⁽⁴⁾، وهذه الوسيلة حجاجية، تحت القوم على التدبر والتعقل، لما يُعرض عليهم من حجج، ويمكن تلخيص ما توصلنا إليه عبر هذا الجدول الآتي:

الكلمة	المعنى المنطوق اللغوي	المعاني المقتضاة وقيمها الحجاجية
الأخ	- المشارك للأخر سواء في الولادة أو الدين أو القبيلة أو العمل وغيرها.	- إثبات النبي محمد <small>صلى الله عليه وسلم</small> لقومه (قريش) أنه أخوهم في النسب، وهذا اقتداء بالأنبياء الذين سبقوه. - لفظه الأخ تجلب الراحة النفسية والأمن والاطمئنان للمتلقى، فينشرح صدره في تقبل الخطاب. - يأتي لفظ الأخوة في المدونة حجّة على تفاني الأنبياء في إبلاغ دعوة ربهم، وخوفاً على أقوامهم من العذاب، وحجّة عليهم عند التكذيب والإعراض.

(1) - سورة الأنبياء: الآية 41.

(2) - أبو الهلال العسكري: الفروق الغوية، تحقيق، محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ص255.

(3) - سورة الأنبياء: من الآية 62 إلى 64.

(4) - ينظر: الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج16، ص301.

الفصل الثاني: ————— التوظيف الحجاجي في الدرس اللغوي والتداولي في سورة هود

<p>- تنبيه المخاطب وتحذيره من أئمة الكفر حتى لا يقتدى بهم.</p> <p>- إنَّ الكفران بالنعمة وعدم أداء شكرها، موجبة للسَّخط والعذاب.</p> <p>- استحقَّ أهل الجحود معنى الكفر، بعدما أقيمت عليهم الحجَّة بالأدلة القاطعة.</p>	<p>نقيض الإيمان، وهو الشُّرك بالله، وجحود نعمه .</p>	<p>الكفر</p>
<p>- حالة نفسية فيها ترغيب للمؤمن، لأنها تُعدُّ درعه الواقية من السَّخط، فكلما زادت البشرية زاد الإيمان.</p> <p>- وتأتي ترهيب لأهل الكفر، فهي ندامة وحسرة عليهم يوم القيامة، كما تُعدُّ بمثابة تحذير وتنبيه الغافلين عن المنهج الرباني، فتدفعهم إلى اليقظة من الغفلة لتغيّر سلوكهم نحو منهج التوحيد.</p>	<p>أكثر استعمالها في الفرح والمسرّة، وهذا لا يمنع أن تأخذ مدلول دال على الحزن والتَّهكم والسخرية والوعيد.</p>	<p>البشارة</p>
<p>- السخرية انفعال نفسي خفي يستخدمه الخصم في تشويه شخصية المتلقي، وإهدار سمعته، كي يتراجع عن أفكاره.</p>	<p>تأخذ معنى الاستهزاء،</p>	<p>السخرية</p>
<p>هذه اللفظة تحمل وظيفة حجاجية، على أن الأنبياء قدّموا دعوتهم لأقوامهم وإظهارهم البيّنة دون إلزام أو إكراه على قبولها، وهذا هو الحجاج الذي يدعو إليه بيرلمان، حيث يسعى المخاطب إلى طرح القضية على المتلقي دون إلزامه بالفكرة. وهذا ما نصّت عليه الآية الكريمة ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾.</p>	<p>تأت بمعنى لزم، وتحمل عدّة معانٍ منها أوجب، أو فرض عليه، يقول الله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلَمَنَّا طَلَبَهُ فِي عُنُقِهِ﴾⁽¹⁾، جعل عمله يصاحبه ولا يفارقه.</p>	<p>أنلزمكموها</p>

(1) - سورة الإسراء: جزء من الآية 13.

ثانياً- العدول التركيبي وأثره الحجاجي في السياق القرآني:

تعدُّ البلاغة ظاهرة منفردة في التوجيه الكلامي، والتقديم والتأخير لون من فنونها، فهو رأس البيان وحلته، وقد عبّر عنه أهل البصر الثاقب الذين أوتوا حظاً وافراً من بلاغة الكلم، أنه لون بلاغي و"سرّ من أسرار التعبير، يكسب الكلام جمالا وتأثيرا، لأنه سبيل إلى نقل المعاني في ألفاظها إلى المخاطبين كما هي مرتبة في ذهن المتكلم حسب أهميتها عنده، فيكون الأسلوب صورة صادقة لإحساس المتكلم، وصدق مشاعره"⁽¹⁾، لأنه يعبر فيها عن مكنوناته العاطفية والنفسية بصورة جليّة.

أما "جون كوهن" فيعتبره انزياحا، لأنه يقوم باختراق النظام الترتيبي للغة، لكنّ هذا الانزياح يعمده الشاعر فيخرق هذا النظام بالتشويش المتعمّد حتى يستطيع تصوير مشهد مؤثر به يمارس سلطته على نفس المتلقي، من خلال عنصر المفاجأة والتشويق والغرابة فيلجأ إلى انتهاك نظام الرتبة في اللغة⁽²⁾.

ولا مشاحة أنّ التقديم والتأخير في الخطاب، يحمل أغراضا ومعانٍ جديدة في التركيب اللغوي، بل يُعدّ من محاسن القول وبلاغته فهو "باب كثير الفوائد، جمّ المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية..."⁽³⁾. وأثره مستتبّ على النفس البشرية، لأنه "حين نُقدّم ما لاحق له في التقديم، نكون قد أحدثنا تغييراً في المواقع، وفي الصلاحيات، وفي الأضواء، وفي الأثر النفسي؛ لأنّ المقدم يحتل مركزاً ممتازاً، فهو أوّل ما تقع عليه العين، وأوّل ما تتأثر به، وأوّل ما تُعجب به، وأوّل ما تقع النفس تحت أضوائه، فتتشغل به؛ لأنه يستحق هذا، ولأنّه غير مكانه الذي تعودنا أن نراه فيه، ثم تأتي الألفاظ الأخرى، فتكون الشحنة التي استحوذ عليها اللفظ المقدم قد قلّت"⁽⁴⁾. لذا عدّ أحد الأساليب البلاغية التي تبحث في فنية القول وجماليته ومدى تأثيره في قلوب المتلقين.

(1) - عبد الفتاح لاشين: ابن القيم وحسه البلاغي في القرآن، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1982، ص98.

(2) - ينظر: جان كوهن، بنية اللغة الشعرية، تر، محمد الولي، محمد العمري، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ص07.

(3) - نفسه، ص106.

(4) - أحمد غالب النوري الخرشنة: أسلوبية الانزياح في النص القرآني، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في النقد والبلاغة، جامعة مؤتة، الأردن، ص155.

1- التقديم والتأخير :

1-1 تقديم الجار والمجرور على المتعلق به:

وردت في سورة هود تقنية تقديم الجار والمجرور لغرض بلاغي حجاجي دقيق، من نماذجه قوله تعالى: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾⁽¹⁾.

تقدّم في هذا التركيب الجار والمجرور "عليه" على الفعل توكّلت، والضمير فيه هو "الهاء" يعود على اسم الجلالة الله عزّوجلّ، فنقديم الذات الإلهية في الضمير "الهاء"، جاء ليبين أنّ الله وحده المختصّ بالعبادة، وحسن التوكّل عليه، والاستعانة به في كل حال، ويأتي هذا النوع من التقديم لغرض بلاغي حجاجي، وهو إثبات الخبر وتوكيده .

ويتجلّى لنا أيضا في تقديم شبه الجملة (إليه) على الفعل المضارع (أنيب) للدلالة على الاختصاص، تقدّم فيها الله جلّ شأنه . ومن القيم الحجاجية التي يدركها المتلقي في موطن التقديم والتأخير بيان عظمة الخالق سبحانه وتعالى وجلّ شأنه، أنّه الواحد الموجب للطاعة عليه نتوكل ونستعين بالمعونة منه في كل شيء، وهذه إشارة على أنه هو الذي له الحق في طلب العون منه والاستعانة به في جميع أمور ديننا ودنيانا.

ويقول الله تعالى أيضا: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبَهَا وَمُرْسَبَهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾⁽²⁾، قدّم الجار والمجرور في هذا المقام بمحذوف، لا بد له من متعلق يكون مقدّراً، ويأتي متأخراً أوّلى، لأنّ الله هو وحده المستحقّ بالتّعظيم والابتداء فهو سابق في الوجود، وهذا ما ذهب إليه البيضاوي قائلاً: "وتقديم المعمول ههنا أوقع كما في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾⁽³⁾، لأنّه أهم وأدلّ على الاختصاص، وأدلّ على التّعظيم وأوفق للوجود..."⁽⁴⁾،

(1) - سورة هود: جزء من الآية 88.

(2) - سورة هود: جزء من الآية 41.

(3) - سورة الفاتحة: الآية 05.

(4) - ناصر الدين أبي الخير الشيرازي الشافعي البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، (د-ت)، ج1، ص25.

الفصل الثاني: ————— التوظيف الحجاجي في الدرس اللغوي والتداولي في سورة هود

وهذا ما تستشعر به نفوس السّامعين من الكمال الإلهي والرّهبة والمهابة التي ينفرد بها الله عزّ وجلّ عن بقية المخلوقين.

1-2 تقديم النذارة عن البشارة:

قال الله تعالى: ﴿أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾⁽¹⁾.

جاء تقديم النذارة عن البشارة في هذه الآية لغرض بياني إعجازي حجاجي؛ لأنّ الأولى تحمل معها الوعيد والتهديد، فهي تعبّر عن سخط الله من المنكرين لوحداثيته، كما توحى بالرّهبة والتّخويف. وهي حجّة عليهم أمام الله يوم القيامة، بأن يقولوا ﴿لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾⁽²⁾، أما الثانية فتحمل دلائل التّرجيب والسّرور والرضا والثّواب الذي سيحظى به المؤمنون من نعيم الجنة، فيبعث فيهم الطمأنينة والأمل في حصول هذا النّعيم وتدفعهم إلى التمسك بحبل الله المتين.

ويأتي اجتماع كلّ من التّرهيب والتّرجيب في سياق واحد لغرض حجاجي وهو حمل المتلقي على أنّ "التّرهيب وحده قد يؤدي إلى طغيان الرّهبة على النفس فتنبأس من رحمة الله، واستخدام التّرجيب وحده قد يؤدي إلى استيلاء الأمل في رحمة الله على النفس مما قد يوكلها إلى الدّعة والتّهاون والغفلة، فتتمنى على الله ما ليس لها"⁽³⁾، وهذا المزيج بين الرّحمة والرّهبة يدفع بالإنسان إلى التّفكير الجدّي في الأمور التي من حوله.

1-3 تقديم السّماء عن الأرض:

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾⁽⁴⁾.

تتجلّى قدرته سبحانه وتعالى في عظمة سلطانه، وإبداع ملكوته، في خلقه للسموات والأرض، وورود الطّباق بين اسمين (السموات والأرض) لبيان قدرة هذا الرّب، جلّ

(1) - سورة هود: الآية 02.

(2) - سورة طه: جزء من الآية 138.

(3) - محمد عثمان نجاتي: القرآن وعلم النفس، دار الشروق، القاهرة، ط7، 2001، ص170.

(4) - سورة هود: جزء من الآية 07.

الفصل الثاني: ————— التوظيف الحجاجي في الدرس اللغوي والتداولي في سورة هود

شأنه، وحبّة للخلق، يقول ابن القيم إنّ تقديم السمّوات والأرض تدلّ على " وحدانيته، وربوبيته، ومعلوم أن الآيات في السمّوات أعظم منها في الأرض لسعتها وعظمتها، وما فيها من كواكبها، وشمسها وقمرها، وبروجها وعلوّها، واستغنائها عن عمد نقلها، أو علاقة ترفعها، إلى غير ذلك من عجائبها، التي الأرض وما فيها كقطرة في سعتها، ولهذا أمر سبحانه أن يرجع الناظر البصر فيها كرة بعد كرة، ويتأمل استواءها، واتساقها، وبراعتها من الخلل والفتور، فالآية فيها أعظم من الأرض، وفي كل شيء آية" (1).

والغرض الحجاجي من هذا التقديم هو إقرار واعتراف وتبني المتلقي على انفراد الله بالوحدانية، وهذه السمّوات والأرض، وما فيهما من ظواهر الوجود وأسباب المعيشة هي بديع صنائع الخالق تُلزم إثارة الناظر للتدبر والتأمل فيما خلق.

1-4 تقديم السلام عن البركة:

قال تعالى: ﴿قِيلَ يٰنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (2).

جاء تقديم السلام على البركة، لأنّ السلامة تطمح لها كلّ نفس، والنفس تسعى دائماً إلى الأمن والاطمئنان وتعمل على إزالة الخوف وكلّ ما يرهبها، وهذا مناسب لمقام الآية، "لأنّ نوحاً عليه السلام محتاج إلى أن بشره الله تعالى بالسلامة من التهديد والوعيد فلما قيل له " يٰنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا " حصل له الأمن من جميع المكروه (3)، فلفظة السلام تحمل معاني النعمة والفضل، وتدفع البؤس والكآبة وتقطع كل موارد الشرّ والهلاك، فتقديم السلام فيه ترغيب للنبي نوح عليه السلام على أنه تحت حفظه ورعايته. ونذكر بعض النماذج القرآنية وما تحويه من قيم حجاجية فيما يلي:

(1) - عبد الفتاح لاشين: ابن القيم وحسّه البلاغي في تفسر القرآن الكريم، ص 109.

(2) - سورة هود 48.

(3) - ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج 12، ص 07.

الفصل الثاني: ————— التوظيف الحجاجي في الدرس اللغوي والتداولي في سورة هود

الآية	المقدّم	القيمة الحجاجية وأثرها في المتلقي
﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (1)	تقدّم الخبر "كذلك" على المبتدأ "أخذ ربك"	وإنّما قدّم الخبر للفت الأذهان إلى ما تقدّم من قصص الأمم السابقة لتكون حاضرة في الذهن، وهي بمثابة حجّة على ظلم العباد لأنفسهم .
﴿وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ (2)	تقديم شبه الجملة "إليه"	في هذا المقام غرض إقناعي يُظهر فيه شرف المقدّم وعظمته وعلوّ مرتبته، لذا قدّم اسم الله تعالى بالجار والمجرور بالضمير، وأنّه هو المتصرّف في هذا الكون.
﴿وَكَلَّا تَقْصُ عَلَيَّكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُسِيتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (3)	تقدم المفعول به "كلا" على الجملة الفعلية	الاهتمام بما تقدم ذكره من قصص الأنبياء أجمعين، وأنها سيقّت من أجل تثبيت قلب النبي ﷺ والافتداء بمن سبقه من المرسلين.
﴿بَقِيَّتِ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ (4)	تقديم جواب الشرط "بقية الله" على فعل الشرط "إن كنتم مؤمنين".	جاء هذا التقديم لغرض حجاجي وهو ترغيب المؤمنين على نيل محبة الله، ولإطماعهم فيما عند الله.

2- بلاغة الصّمت والإضمار:

لا مُمَاحَكَة أنّ مصطلح الحذف له نصيب أوفر في البلاغة العربية، بل يُعدّ طيفاً من أطياف الخطاب العربي، لأنّه يُعنى به النحوي والبلاغي والأسلوبي والتداولي، فهو يحمل معه معانٍ وأغراض ومقاصد كثيرة تتعطش لها النفس، وتطمح إلى الارتواء من منابعه؛ لأنّ النفس بطبعها دائماً تتجنّب المَلل والضجر، والعرب على سليقتهم الأولى أولوا

(1) - سورة هود: الآية 102.

(2) - سورة هود: جزء من الآية 123.

(3) - سورة هود: الآية 120.

(4) - سورة هود: الآية 86.

الفصل الثاني: ————— التوظيف الحجاجي في الدرس اللغوي والتداولي في سورة هود

أهمية بالغة لهذه الظاهرة، لذا يُعدُّ أحسن الكلام وأجله "إذا خفّ واعتدلّ وحسن موقعه من النفس، وإذا طال وثقل اشتدّت كراهة النفس له"⁽¹⁾. إنه عمادة الكلام وأبلغ محلّ عند العربي.

يُطال الحذف الحرف أو المفردة، ولا يتوصّل إلى ملء هذا الفراغ الشاغر، إلا من توفرت فيه ملكة النظر، فلا يفهم إلا عن طريق التّأويل دون إهدار المعيار النحوي الذي يكون ملازمًا له وضروريًا في البناء التركيبي للخطاب، يقول ابن وهب: "الإيجاز والاختصار والاكتفاء بيسير القول إذا كان المخاطب عالما بمرادها فيه"⁽²⁾؛ بمعنى أنّ بلاغة الحذف تقوم على يسير القول، وحنكة المتلقي في فهم القصد والغرض منه.

إنّ بلاغة الصّمت سلاح الشّخص ودرعه الواقى، يستعمله حيث شاء، لأنّه قد "يُقلب ويقنّع حقائق النّاس، فقد يسمّى الغبيّ على إثره عاقلاً، والصّامت حليماً، والسّاكت لبيباً، والمُطرق مفكراً، والبليغ مكثّراً، والخطيب مهداراً، والفصيح مفرطاً"⁽³⁾؛ لذا فالغاية التي يصبو إليها الحذف أنه يهتم بغزارة المعنى أكثر، وهو تحت طائل اللّفظ القليل، فيضفي جمالا وبيانا للغة، وقد أختصّ بالدراسة والتّعمق في دلائله؛ لأنّه يُعدّ أعجب المسالك في استحوازه على قلب المتلقي، فينال منه حظاً ومنزلةً جراً حسن بيانه وسموّ بلاغته، يقول الجرجاني - رحمه الله - "هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسّحر فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصّمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجذك أنطق ما تكون إذا لم تتطق، وأتمّ ما تكون بيانا إذا لم تُبّن"⁽⁴⁾. فالسّكوت لا يخلّ بنظام القول وبلاغته، بل يسعى إلى التّخلي عن الشّوائب التي يركن إليها الخطاب؛ وذلك برفض زوائده وفضوله، وكلّ ما يخلّ بالغرض المقصود.

(1) - حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 65.

(2) - ابن وهب: البرهان في وجوه البيان: تحقيق، حنفي شرف، دار الكتب العلمية، بيروت، (د- ط)، 1982، ص 69.

(3) - أمينة الدهري: كتابة الصّمت، مجلة البلاغة والنقد الأدبي، العدد رقم 1، يوليو، 2014، المغرب، ص 13.

(4) - الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 146.

الفصل الثاني: ————— التوظيف الحجاجي في الدرس اللغوي والتداولي في سورة هود

ويعي الشريف المرتضى(436هـ) -رحمه الله- في أماليه أنّ الحذف له وقع خاص في أي القرآن لما يحمله من معانٍ ترتفع بمستوى إدراك المتلقي، بقوله: "اعلم من عادة العرب الإيجاز والاختصار والحذف طلباً لتقصير الكلام، واطراح فضوله، والاستغناء بقليله عن كثيره، يعدّون ذلك فصاحة وبلاغة، وفي القرآن الحذف والاستغناء بالقليل من الكلام عن الكثير مواضع كثيرة نزلت من الحسن في أعلى منازلها، ولو أفردنا لما في القرآن من الحذف الغريبة، والاختصارات العجيبة كتاباً لكان واجباً"⁽¹⁾.

إنّ الحذف صورة تعبيرية يرتسم فيها المحذوف في ذهن المتلقي، فيعطي له فسحة خطابية تأويلية، لملء المحلّ الشاغر للصورة، ولا يتوقف دوره عند جمالية القول فحسب، بل يتعدّى دوره إلى الحجاج الذي به يعطف القلوب وينبّه الألباب ويحملهم على الاستمالة والتأثير، وهذا ما يؤكد "روبول ريكور" بقوله: "الإيجاز هام من زاوية تعنى الحجاج، لأنّه يشكّل سلاحاً نواجه به العدوِّين القاتلين النسيان وعدم الانتباه، فالتطويل في الوصف والتصوير والإسهاب في الشرح والتعليل ينتهيان بالمتلقي إلى الملل فتضعف قدرته على الانتباه ولا يحتفظ من القول إلا بأقله وحتىّ هذا القليل معرّض إلى النسيان لبعده عن الإيجاز"⁽²⁾.

وتتجلّى فائدة الحذف في مقاصد وأغراض تلقي بضلالها على المتلقي، بل تُعدّ دليلاً لمشاركة هذا الأخير في البحث عن أسباب الحذف ومعرفة المحذوف، وهذا الأخير كامن في البنية العميقة الذي لا تظهر على السطح الخارجي للخطاب، بل يختصّ بظهورها المتلقي الذي ينقب عنها ليستدلّ بها ويملاً فجوات الخطاب، بل هو محاولة أسلوبية من أجل "الرقى بالخطاب إلى مستوى تعبيرى قادراً على شدّ انتباه المتلقي والتأثير فيه، أي الإقناع، فضلاً عن استغلال سمات جمالية تُضفي على الخطاب سمات الجمال، أي

(1) - الشريف المرتضى: أمالي المرتضى، غرر الفوائد ودرر القلائد، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ج2، ط1، 1954، ص309.

(2) - أوليفي روبول: هل يمكن أن يكون حجاج غير بلاغي، نقلاً عن سامية الدريدي، الحجاج في الشعر، ص123.

الفصل الثاني: ————— التوظيف الحجاجي في الدرس اللغوي والتداولي في سورة هود

الإمتاع⁽¹⁾، فدور الحذف^(*) هو تنشيط آلة ذهن المتلقي وإثارة أحاسيسه ومشاعره، كما يفتح له آفاقاً جديدة في تقبل المعاني أو الدلالات وبيان غرض المتكلم.

لقد وظّف الحذف في القرآن الكريم بصورة جليّة، لما يحمله من أغراض بيانية وإعجازية حجاجية، لأنّه يعطي للقارئ مساحة تدبّرية وتأمّلية، ليقتطف ثمار معانيه من تأثير في النفوس وتغيير في السلوك، والحذف أنواع منها: حذف الحرف، حذف المسند إليه؛ أي الفاعل والمبتدأ، وحذف المسند وهو الفعل والخبر، وحذف التوابع كالمفعول به والصفة وجميع الزيادات .

2-1 حذف الحرف:

يسعى المتكلم أحيانا عنوة إلى إسقاط بعض حروف الهجاء ليس كصورة أريد بها الجمال فحسب، أو أنها تستدعي ضرورة لغوية أو شعرية كما يتغنّى بها بعض اللغويين؛ بل هي طريق بلاغي إقناعي يراد به السيطرة على نفسية المتلقي، فيقيّد انتباهه ويؤقّد فيه سجيّة التأمل، يقول السيوطي -رحمه الله-: "هو أن يحذف المتكلم من كلامه حروفاً من حروف الهجاء بلا تكلف ولا تعسف، بأنّ يحذف كل حرف موصول ويأتي بالجميع مقطوعة أو عكسه أو يحذف كل حرف منقوط ويأتي بالجميع مهملة أو عكسية، أو يأتي بكلامه متخالفًا حرف منه موصول وحرف مقطوع أو حرف معجم وحرف مهمل أو كلمة كل حروفها معجمة، وكلمة كل حروفها مهملة وهكذا، أو يلتزم حذف حرف واحد كالألّف"⁽²⁾.

(1) - محمد خطابي: لسانيات النص، ص 95.

(*) لقد تمّة فروقا بين الإيجاز والحذف والإضمار، أما الأول فانه عبارة عن اللفظ القليل الجامع، للمعاني الجمّة بنفسه، وأما الثاني فالشرط فيه أن يكون فيه ثمّ مقدر، نحو قوله تعالى: ﴿وَاسْتَلِ الْقَرْيَةَ﴾ يوسف 82، أما الإضمار فالشرط فيه بقاء أثر المقدّر في اللفظ، نحو قوله تعالى: ﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ الإنسان 31. (للاستزادة ينظر: بدر الدين الزركشي: البرهان في علوم القرآن ج3، ص174.

(2) - أحمد مطلوب: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، إعادة طبع 2007، ص457.

الفصل الثاني: التوظيف الحجاجي في الدرس اللغوي والتداولي في سورة هود

إنّ موقع الحذف في الخطاب القرآني يشمل أصغر جزء في التركيب اللغوي، وهو الحرف، وأن وقوعه في السورة جاء مناسباً لمقام الآية ليدرك المخاطب مدى أهمية الحذف، فقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ^١ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ^٢ وَإِنَّا لَمُوقِنُونَ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ^٣﴾^(١). فسقوط حرف النون في قوله تعالى: "فَلَا تَكُ" ليس بسبب كثرة الجمل وثقلها فجاز حذفها، بل يرى الزركشي رأياً آخر أنّ حذف النون في لام الفعل لم يحذف تخفيفاً لثقل الفعل، أو اعتبارياً توافقاً عليه أهل اللغة، لكنّ حذفه جاء "تنبهياً على صغر مبدأ الشيء وحقارته، وأنّ منه ينشأ ويزيد، إلى ما لا يحيط بعلمه غير الله"^(٢)، فالله تعالى استصغر أعمال هؤلاء المشركين وما يعبدونه من الأصنام والأوثان، ليقنعهم أنّها لا تستحق العبادة، وأنّ عبادتها تُوجب عليهم العذاب الأليم يوم القيامة.

2-2 حذف المبتدأ:

ورد أسلوب الحذف في الجملة الاسمية، وذلك باستغناء على أحد الركنين في الجملة، وهما المسند والمسند إليه، فقد يحذف المبتدأ تارة والخبر تارة أخرى، وقد يحذف المبتدأ "لإيهام صونه عن اللسان تعظيماً له أو صون اللسان عنه تحقيراً له أو للاحتراز عن العبث لدلالة القرينة عليه، أو لضيق المقام عن إطالة الكلام، أو للتخييل في تركه تعويلاً على شهادة العقل"^(٣)؛ بمعنى أنه قد يأتي لإنشاء المدح أو الذم وغيرهما بحسب المقام.

(١) - سورة هود: الآية 109.

(٢) - بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي: البرهان في علوم القرآن، تحقيق، يوسف عبد الرحمن المرعشلي وآخرون، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ج2، ص37.

(٣) - مصطفى عبد السلام أبو شادي: الحذف البلاغي في القرآن الكريم، مكتبة القرآن للطبع والنشر، القاهرة، (د-ت)،

الفصل الثاني: ————— التوظيف الحجاجي في الدرس اللغوي والتداولي في سورة هود

تستفتح أغلب سور القرآن عند بدايتها بالحروف المقطعة أو بما يسمّى حروف التهجي فنجد ﴿أَلر، الم، كهيعص، حم، ص، ق، يس...﴾ والتي لم تأت اعتبارياً، بل جاءت لتعبّر عن دلالات ومقاصد وأغراض يحددها المتكلم (الله)، فهي مفاتيح للسور، لأنها تستحوذ على فكر المتلقي فتجعله أكثر نباهة وانتباهاً، وتأملاً بما سيلقى عليه من ترغيب وتحبيب، أو ترهيب ووعيد، فتشدد نفسيته إلى معرفة المستقبل من الكلام، والله تعالى جعل أول خطابه بالحروف لما فيها من الإعجاز البياني والإقناعي وحسن الانتباه .

ويأتي ذكر بعد هذه الحروف المقطعة، اسم القرآن وهذا ما أشار إليه الزركشي بقوله: "واعلم أن عادة القرآن العظيم في ذكر هذه الحروف أن يذكر بعدها ما يتعلق بالقرآن العظيم"⁽¹⁾، وهذا ما يظهر جلياً في بداية سورة هود، قال تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ وَتُمْ فَضِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾⁽²⁾.

وردت لفظة (كتاب) خبراً لمبتدأ محذوف إذ يُعدّ أصل الخطاب (هذا كتاب)؛ أي القرآن، فحذف المبتدأ لعدة أسباب نذكر منها:

– أن القرآن الكريم كتاب الله المعجز الذي حاجّ به النبي محمد ﷺ قومه، والذي تمّ فيه "إثبات نبوة الأنبياء عليهم السلام، وإقامة الشرائع، وهذا يدلّ على جلال قدره"⁽³⁾. فهم يعلمون يقينا بهذا الكتاب، لهذا طال حذفه من الخطاب، وكذلك ليلفت الرسول ﷺ قومه بمنهج شريعة الإسلام، وأنه دستور حياة ونجاة يوم الآخرة.

– كما يُظهر القرآن الكريم مرّة أخرى أثر التحدي والمحاجة في نظم التأليف، في نظم بديع لاستمالة القلوب، كما هو إعلام مباشر أن القرآن دليل على نبوة المصطفى ﷺ، وأن

(1) – الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج1، ص259.

(2) – سورة هود: الآية 01.

(3) – ينظر: أبو إسحاق إبراهيم السري الزجاج: معاني القرآن وإعرابه، تح، عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، ط1،

1988، ج3، ص56.

الفصل الثاني: ————— التوظيف الحجاجي في الدرس اللغوي والتداولي في سورة هود

عجزهم عن الإتيان بمثله وبما جاء به حجة عليهم إلى يوم القيامة على كفرهم وجحودهم⁽¹⁾.

- إنَّ الحذف الذي طرأ على المبتدأ جاء لقسدية المحذوف (القرآن) عند الذات الإلهية، وتنبية المتلقي على سمو منزلته.

2-3 حذف الفعل:

ومن أمثلة الحذف التي تطل الفعل، قوله تعالى: ﴿وَالِي عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾⁽²⁾.

وقع حذف الفعل في الآية، وتقديرها، " وأرسلنا عادٍ أخاهم هودًا"، ومثاله أيضا في موقع آخر، قوله تعالى: ﴿وَالِي ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾⁽³⁾. فجاء حذف الفعل، لأنَّ عدم وجود الشيء الذي جعل "صالحا" منصوبا، بل "علم بذكر النبي والمرسل إليه أن فيه إضمار "أرسلنا"⁽⁴⁾. لهذا ثمة فرق بين قول الله تعالى: ﴿وَالِي ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ وبين قولنا "أرسلنا وِإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا"، وقول الله أبلغ بيانا وحجة، لما يحمله من المعاني اللطيفة وحسن التمثيل، وأن حذف الفعل واجب في الآيتين؛ لأنَّ مقام الخطاب يستوجب حذفه، وكذلك، لأنَّ الفعل المحذوف معلوم في ذهن المخاطب، لذا لا داعي لذكره، فحذف الفعل في هذا المقام "يكتفي بدلالة الحال عليه، وتترك النفس تجول بين الأشياء المكتفي بالحال عن ذكرها على الحال... وبهذا القصد يُؤثر في المواضع التي يراد بها التعجب والتهويل على النفوس"⁽⁵⁾، وسياق الحال هنا يتحقق فيه عنصر التأثير والاستمالة .

(1) - ينظر: الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج1، ص 265-266.

(2) - سورة هود: الآية 50.

(3) - سورة هود: الآية 61.

(4) - بدر الدين الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج3، ص276.

(5) - باطاهر بن عيسى: أساليب الإقناع في القرآن الكريم، دار الضياء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2006، ص159.

2-4 حذف الفاعل:

ومن صور الحذف حذف الفاعل لينوب عنه المفعول في مقامه مع بناء الفعل للمجهول، لقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْمَأْ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ^ط وَقِيلَ بُعْدَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾⁽¹⁾.

تقدير الخطاب: وفاض الله الماء، وقضى الله الأمر، فحذف الفاعل "ومجيء أخباره على الفعل المبني للمفعول للدلالة على الجلال والكبرياء، وأن تلك الأمور العظام لا تكون إلا بفعل فاعل... وأن فاعلها فاعل واحد لا يشارك في أفعاله، فلا يذهب الوهم إلى أن يقول غيره: يا أرض ابلي ماءك، ويا سماء أقلي، ولا أن يقضي ذلك الأمر الهائل غيره، ولا أن تستوي السفينة على متن الجودي، وتستقر عليه إلا بتسويته وإقراره"⁽²⁾، فحذف الفاعل في هذه الآية جاء مناسباً ومنسجماً مع نظم الآية، التي تبين عظمة هذا الخالق فتغني عن ذكره في هذا المقام.

وكذلك جاء مناسباً لمقام الذات الإلهية، التي تتجلى فيها صفة الكمال؛ فهو الأمر الموجد لهذا الكون، وهو يصف هذا الطوفان وصفاً دقيقاً تقف له القلوب والعقول حائرة لعظم هذا الهول في جلال وخشوع، فهو مظهر من مظاهر قدرته المطلقة لهذا الكون، لهذا ثبت حذف الفاعل للدلالة على أن تلك الأمور العظام لا تتأتى إلا من ذي سلطان، وهذا نوع من الاستدلال على عظمة هذا الخالق.

2-5 حذف المفعول به:

يحذف المفعول به من الخطاب لعدّة أمور منها: لقصد الاختصار عند قيام القرائن والاحتقار والتعميم ورعاية الفاصلة، والبيان بعد الإبهام، كما في مفعول المشية والإرادة⁽³⁾

(1) - سورة هود: الآية 44.

(2) - الزمخشري: الكشاف، ج12، ص485.

(3) - ينظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج3، ص234-239.

ومثال ذلك، قوله تعالى: ﴿وَيَقَوْمٌ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ (1)

جاء حذف المفعول به في "أَعْمَلُوا"، وفي "وَأَرْتَقِبُوا"، فغيابه عن المشهد الحالي للآية جاء ليحقق التأثير في النفس من الرهبة والتخويف، ومن فضاة الأمر الذي ينتظرهم وفيه من التهديد والوعيد الذي يجعل النفس في حالة اضطراب وترقب. أما قوله تعالى: ﴿يَبْنِي أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ (2).

حذف المفعول به "الفلك"، لأنَّ المقام الذي سبقت فيه الآية لا يحتمل التصريح به، لأنَّ الموقف شديد الهول، وحياة الابن بين النجاة أو الهلاك، وعاطفة الأبوة حريصة على نجاة فلذة كبدها، وحضور المفعول به "الفلك" كان حاضرا في ذهن النبي نوح عليه السلام وابنه، لأنَّ لا وسيلة نجاة إلا به، فتغاضى عن ذكره، فالخطاب هنا حجاج عاطفي، لما فيه من إثارة العواطف والمشاعر للحالة النفسية للابن، وتصوير فضاة هذا الموقف لما فيه من القوة والهول، وهذا من أجل إقناع ابنه بركوب السفينة.

2-6 حذف الجواب:

يحذف الجواب ليضع المتكلم المتلقي أمام موقف يستوجب عليه أعمال فكره وتبنيه على المراد من السؤال، فيتردد في ذهنه جوابا، لهذا قيل أن "حذف الجواب يقع في مواقع التّفخيم والتّعظيم، ويجوز حذفه لعلم المخاطب به، وإنما يحذف لقصد المبالغة، لأنَّ السّامع مع أقصى تخيله يذهب منه الذهن كلّ مذهب، ولو صرّح بالجواب لوقف الذهن عند المصرّح به، فلا يكون له ذلك الوقع، ومن ثمّ لا يحسن تقدير الجواب مخصوصاً، إلا بعد العلم بالسياق" (3).

(1) - سورة هود: الآية 93.

(2) - سورة هود: جزء من الآية 42.

(3) - الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج3، ص254.

الفصل الثاني: ————— التوظيف الحجاجي في الدرس اللغوي والتداولي في سورة هود

والمتمامل لبلاغة التعبير القرآني يجد في آياته استغناءً عن التفصيلات الجزئية التي تُعرف من السياق، وفي تخطيها وصولاً إلى العناصر الجوهرية في الخطاب، ويمكن أن يدرك المتلقي ذلك دون حاجة إلى تفصيل أو تطويل⁽¹⁾، ومن نماذجه قوله تعالى: ﴿قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنِكُمْ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَكُم عَنْهُ إِنَّ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾⁽²⁾.

حُذِفَ جواب إن الشرطية لأنَّ المقام غير لائق بذكره، أو لضيق المقام، والقرآن الكريم من حسن بلاغته وتأثيره على القلوب أنه يراعي مقام المخاطبين في إظهار الحجّة؛ وبهذا يأتي تقدير فصول الكلام الجزئي المحذوف حسب الرازي بقوله: "أنّه تعالى لما آتاني جميع السعادات الروحانية وهي البيّنة والسعادات الجسمانية وهي المال والرزق الحسن فهل يسعني مع هذا الإنعام العظيم أن أخون في وحيه وأن أخالفه في أمره ونهيه"⁽³⁾، وهذا تنبيه على أنّ "الإعزاز من الله تعالى والإذلال من الله تعالى أيضاً، وإذا كان الكلّ من الله تعالى فأنا لا أبالي بمخالفتكم ولا أفرح بموافقكم، وإنّما أكون على تقرير دين الله وإيضاح شرائع الله تعالى"⁽⁴⁾، ما يدلّ حذف جواب الشرط على وضع المتلقي أمام آلة العقل والتبصر، ولتذهب النفس عنه كل مذهب من خلال أعمال الفكر ومخاطبة العقل الذي يؤدي إلى قبول الحق لا محالة، وقد انتهت هذه الأجوبة على أن العاقل يجب أن يراعي حقوقاً ثلاثة أهمّها حقّ الله، وحقّ النفس وحقّ العباد على الترتيب⁽⁵⁾.

(1) - ينظر: أحمد أحمد بدوي: من بلاغة القرآن، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، (د- ط)، 2005م، ص127.

(2) - سورة هود: الآية 88.

(3) - الرازي: مفاتيح الغيب، ج12، ص46.

(4) - نفسه، ص47.

(5) - ينظر: إبراهيم بن عمر بن حسن البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة،

(د- ط)، ج9، ص358-359.

كما يأتي حرف "لو" في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ

شَدِيدٍ﴾⁽¹⁾، إذ يقوم عدم الجواب على قرينة سياقية أن "لو" للتمني وليست شرطاً، فالأصل كما قال محمد بن إسحاق: معناه لو أن لي قوة لحلت بينكم وبين المعصية⁽²⁾، والشيء الذي يجب التنبيه إليه هنا أن الحذف يجعل المتلقي أو المستمع "كلما مرّ بموضع من مواضع الحذف تضاعفت يقظته إذا كان يقظاً أو تنبهه إذا كان غافلاً، أو تجدد نشاطه إذا كان قد فتر نشاطه⁽³⁾، وهذه العناصر من شأنها تعمل على تقوية الحجّة وازدياد وعي المتلقي لما يلقي عليه من خطابات .

3- العدول الكمي وطابعه الحجاجي:

لقد اصطلح عبد الله صولة على الإيجاز والإطناب بالعدول؛ أي خرق سنن اللغة العادية اليومية، فسمّى العدول الكمي بالنقصان بالإيجاز، والعدول الكمي بالزيادة - وهذا ما يشاع عند البلاغيين العرب- بالإطناب، فهو يأتي لغاية تخاطبية غرضها الإقناع، وتوجيه الملفوظ وجهة معيّنة، فهو إذن عدول كمي مفض إلى عدول نوعي في طبيعة الكلام نفسها من مجرد الإبلاغيّة إلى الحجاجية⁽⁴⁾.

إنّ الخطاب القرآني يأخذ منحى مغايراً في إبلاغ الحجّة والدليل، ويتغيّر بتغيّر ذهنية المتلقين والمقام، هذا ما أشار إليه الجاحظ بقوله: "ورأينا الله تبارك وتعالى، إذا خاطب العرب والأعراب، أخرج الكلام مُخْرَجَ الإشارة والوحي والحذف، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم، جعله مبسوطاً، وزاد في الكلام"⁽⁵⁾، وأول ما نحتّ الرّحال إليه هو هو تنوّع سرد القصص في سورة هود، ولم يأت ذكرها اعتباطياً، بل جاءت لتحرك

(1) - سورة هود: الآية 80.

(2) - الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج3، ص257.

(3) - مصطفى عبد السلام أبو شادي: الحذف البلاغي في القرآن الكريم، ص152.

(4) - ينظر: عبد الله صولة: في نظرية الحجاج، ص128.

(5) - الجاحظ: الحيوان، ج1، ص94.

الفصل الثاني: ————— التوظيف الحجاجي في الدرس اللغوي والتداولي في سورة هود

أشجان المتلقي، فتجعله يعيشها بوجوده وأحاسيسه، لعلها تحقق فيه التغيير الفكري والسلوكي، وهذا من خلال عرض مشاهد حال الأمم السابقة مع أنبيائهم بأسلوب بياني حجاجي.

إنّ تنوّع الحجّة في القرآن الكريم يفتح عيوننا عمياً، وأدانا صماً وقلوباً غلفاً، فهو أسلوب تتجلى فيها مظاهر الإفهام والأفكار بصيغة مطوّلة وشيّقة، تشدُّ النفوس وتوقظ العقول إلى التأمل، وبالتالي ينجلي الغموض والالتباس من خلال الشروح المفصلة، فيزول التشرّد الذهني، وتختفي غشاوة المثل والتكرار غير المجدي. فالإطناب "هو الإيضاح بعد الإبهام ليرى المعنى في صورتين مختلفتين، أو ليتمكن في النفس فضل تمكّن فإنّ المعنى إذا أُلقيَ على سبيل الإجمال والإبهام تشوّقت نفس السّامع إلى معرفته على سبيل التّفصيل والإيضاح، فيتوجه إلى ما يرِدُ بعد ذلك"⁽¹⁾.

وعلى هذا الأساس جاء سرد قصة نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى ومحمد ﷺ، لتمكين العبرة والعظة لما ساقه لنا الأنبياء عليهم السلام من الصبر والأناة والحلم عند مجادلتهم لأهل الكفر، "قلولا الكتاب الذي قيّد علينا أخبار من مضى من الرّسل، ونقل إلينا ما أتوا به من الكتب، لما قامت لله سبحانه حجّة علينا، إذ كنا لم نشاهدهم، ولم نسمع حججهم، ولم نعاين غاياتهم، لأنقرضت العلوم والروايات بانقراض أهلها، ومات من تحملها، ولم يبق في أيدي الناس من ذلك ومن أخبار الماضين، وآثار المتقدمين، إلا اليسير مما تلقاه الخلف عن السلف"⁽²⁾، ولهذا يبقى القرآن حجّة كونية خالداً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

هذا الاستعراض الطويل لمشاهد القصص يحمل معه حقيقة الدّعوة المحمّدية، وتمكين مواقف الأنبياء وصبرهم على أقوامهم، فتكون ترغيباً للمؤمنين، وترهيباً لمن

(1) - الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة (المعاني والبيان والبديح)، وضع حواشيه، إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2003، ص151.

(2) - ابن وهب: البرهان في وجوه البيان، ص254.

الفصل الثاني: ————— التوظيف الحجاجي في الدرس اللغوي والتداولي في سورة هود

سوّلت له نفسه على ارتكاب المعصية، وهذا ما جاء في سورة هود، حيث ذكرت كل من قصة عاد وثمود ومدين وإبراهيم ولوط وهذا لإثبات الوحدانية لله تعالى، وأنّ رسالة التوحيد واحدة، وأما ما يثبت أنّ القرآن نزل متفرقاً لعلّه أرادها الله سبحانه وتعالى؛ لأنّ "في تدرّج نزوله برهان منطقي دامغ على أنّ هذا الكتاب المجيد كلام الله العليم الحكيم، أنزله على رسوله هدى وموعظة وتبيناً لكل شيء" (1)، وحجّة على من أنكر وجوده.

ومن أمثله كذلك، قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (2).

جاءت هذه الآية مناسبة للآيات السابقة، التي فضح الله فيها المشركين والمنافقين ما يسيرونه ويعلنونه في صدورهم، قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (3). وتُحيلنا إلى جهلهم بحقيقة الذات الإلهية بما له من علم، وقدرة، وأنه - سبحانه - يعلم السرّ والعلن، فأردف بهذه الآية حالة من الإطناب، ليزيد يقيناً وحجّة على أهل الشرك أنّه عالم بما يحيط بهذا الكون، فقوله تعالى ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾، فقد أظهرت مزيداً من البيان ونزعت كلّ إبهام، وأعطت أكثر عمقاً لقدرة الله وعلمه من خلال استطالة القول الذي يُضفي مزيداً من الشّروح؛ لأنّ ازدحام الألفاظ والمعاني في الخطاب يلقي بضلاله على نفسيّة المتلقي؛ فنتشوّق النفس وتهنّز إلى معرفة المزيد من المقاصد والأغراض.

ويزيدها تفصيلاً أكثر قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾، فحدوث الإطناب في هذا المقام جاء لمعرفة مدى تمكين علم الله وإحاطته

(1) - صبحي الصالح: مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين، بيروت، ط10، 1977، ص62.

(2) - سورة هود: الآية 06.

(3) - سورة هود: الآية 05.

الفصل الثاني: ————— التوظيف الحجاجي في الدرس اللغوي والتداولي في سورة هود

بالموجودات، وأنه محيط بجميع أحوال ما في الأرض من المخلوقات، يعلمها علم تفصيل لا علم إجمال⁽¹⁾.

ثم زاد تأكيد ما سبق بحجة قاهرة، تجعل اللبيب حيران، في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾⁽²⁾.

إنَّ خلق السموات والأرض أكبر حجة للخلق ودفع الشبهة عن كل منكر جاحد، لعظمة هذا الإله جلّ جلاله، فيظهر بها أنَّ خلق السموات والأرض أعظم من خلق الدواب بما فيها الإنسان وجميع أرزاقهم، وأنه أوسع علماً وأسرع تكويناً، أليس هذا دليلاً على انفراد الله سبحانه وتعالى بالإلوهية دون غيره؟ ويظهر لهم قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾⁽³⁾، وقوله أيضاً: ﴿إِنَّمَا أَنْتُمْ أُشْدُّ خَلْقًا أَمَّ السَّمَاءِ بِنهَا⁽⁴⁾ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَاهَا⁽⁵⁾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا⁽⁶⁾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا⁽⁷⁾﴾⁽⁴⁾، فكلّ هذه المسائل الغيبية هي حجة أساسية على المتلقي الكوني؛ لأنّ الذي بلغ الرّسالة هو النبيّ الصادق الذي كذّبه قومه، وأنّ السموات والأرض أكبر خلقاً من خلق الدواب⁽⁵⁾.

وفي مقام آخر يأتي العدول الكمي بين نصيحة شعيب عليه السلام وقومه حول قضية التّطيف في قوله تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ⁽⁸⁾ إِنَّي أَنزَلْتُ إِلَيْكُمْ

(1) - ينظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، تحقيق، عبد القادر احمد عطا، مطبعة السعادة، الرياض، ج4، ص 11.

(2) - سورة هود: جزء من الآية 07.

(3) - سورة غافر: الآية 57.

(4) - سورة النازعات: الآية 27 - 30.

(5) - ينظر: محمد متولي الشعراوي، تفسير الشعراوي، المجلد العاشر، ص6328.

عَلَيْكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَقَوْمٍ أَوفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ (1).

أول شيء جاء به النبي شعيب عليه السلام هو دعوة قومه إلى التوحيد، ونبذ العقائد التقليدية، وأبلغهم بعدم التطفيف في الكيل والميزان، لكنهم واجهوه بإنكار وتعنت وكبرياء، متسائلين عن تدخل الذات الإلهية في شؤون حياتهم اليومية، ويظهر التكرار والتأكيد جلياً في هذه الآية بسبب تعنتهم وإنكارهم، ويتجلى في ثلاثة صور:

- جاء النهي عن التطفيف ﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ مستعملاً التأكيد، أي لا شيء يدفعكم لهذا العمل، فأنتم في سعة من الرزق، ثم يأتي الإطناب في الآية الآتية ﴿وَيَقَوْمٍ أَوفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾، ليزيد تقرير المعنى ووضوح الحجة، ويُزال كل غموض، وتظهر لهم عيوب التطفيف في المعاملات الاجتماعية .

- كما يبسط لهم القول مرة أخرى من خلال ورود فعل الأمر الذي يفرض عليهم الإيفاء في الشيء الذي يُكال ويوزن، دون نقيصة، ثم يأتي النهي عن بخس الناس في أشيائهم شاملاً للوجهين، والبخس يُعدّ مظهرًا من المبالغة في التعبير حيث إنّ "استعمال التكرار والتوكيد حتى تستيقظ نفوسهم من غفلتها، وتقبل على طاعة الله، لذا جُمع بين الأمر والشيء، وبين النهي عن ضده للمبالغة في التعبير وحملهم على الإقناع بأن يرفعوا أيديهم عن هذه الإباحية الفاسدة من المعاملات، وهذا الجمع هو غاية التأكيد (2).

إنّ التوكيد والتكرير في الإطناب "عاملان قويّان في تكوين الآراء وانتشارها، وإليهما تستند التربيّة في كثير من المسائل، وبهما يستعين رجال السياسة والزعماء في خطبهم، ولا يحتاج التوكيد إلى دليل عقلي يدعمه وإنما يقتضي أن يكون وجزياً حماسياً ذا

(1) - سورة هود: الآية 84-85.

(2) - ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج12، ص 42.

الفصل الثاني: ————— التوظيف الحجاجي في الدرس اللغوي والتداولي في سورة هود

وقع في النفس⁽¹⁾، فالإطناب يحمل مزيداً من التفصيل لمجرى الأحداث والمشاهد فيؤدي إلى التعجب والتهويل في النفوس عند سماع هكذا أحداث، كما يُعدّ حجة يقينية لتعدد أدلته الجزئية، التي لا يجد منكرها منفذاً للتكذيب والإنكار.

4- التوكيد وقيمه الحجاجية:

جاء التوكيد في لسان العرب: وكد وأكد العهد إذا أوثقه⁽²⁾، أما في المعنى الاصطلاحي فهو "تمكين الشيء في النفس وتقوية أمره، وفائدته إزالة الشكوك، وإمطة الشبهات عما أنت بصدده، وهو دقيق المأخذ، كثير الفوائد"⁽³⁾، وقد ورد في القرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾⁽⁴⁾.

ويتجلى الدور الأساسي للتوكيد في الخطاب لضرورة ملحة في تأكيد الخبر وتقويته وإثباته وبيان حجته وزيادة الفائدة، يقول الزركشي (794هـ): "إنما يُؤتى به للحاجة للتحرز عن ذكر ما لا فائدة له، فإن كان المخاطب ساذجاً ألقى إليه الكلام خالياً من التأكيد، وإن كان متردداً فيه حسن تقويته بمؤكد، وإن كان منكرًا وجب تأكيده"⁽⁵⁾، كما يأتي لتعظيم شيء أو السخط والإنكار أو لتهيئة النفوس وإيقاظها من غفلتها.

4-1 التأكيد بالضمير:

قال الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾⁽⁶⁾، جاء التأكيد بالضمير المنفصل "هم" على أنّ

(1) - محمد أبو زهرة: الخطابة العربية أصولها، تاريخها في أزهر عصورها، مطبعة العلوم بشارع الخليج، السعودية، الرياض، ط1، 1934، ص88.

(2) - لسان العرب، مادة (وكد)

(3) - يحيى بن حمزة العلوي: الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، تحقيق، عبد الحميد هندأوي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، (د-ط)، ج2، ص94.

(4) - سورة النحل: جزء من الآية 91.

(5) - الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج2، ص490.

(6) - سورة هود: الآية 23.

الفصل الثاني: ————— التوظيف الحجاجي في الدرس اللغوي والتداولي في سورة هود

المؤمنين الذين فرعوا إلى الإيمان وآمنوا برسالة أنبيائهم هم سكان أهل الجنة، وهذه بُشْرَى من الله تعالى يزفها القرآن الكريم للمؤمنين، ليزدادوا طمأنينة وأمناً.

ويأتي توكيد الله سبحانه وتعالى في خاتمة قصة قوم نوح عليه السلام، قوله تعالى: ﴿وَلَا

تُخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (1)

أكدت الجملة، بأداة "إن" والتي فصل فيها الأمر بأن الله مغرق هؤلاء القوم، وكأن الخطاب في هذا المقام يثير تساؤلات في نفس سيدنا نوح عليه السلام، تحتاج إلى أجوبة، كيف يكون مصير قومي؟، وما نوع العذاب الذي سيحلّ بهم؟ وما علاقة صناعة الفلك بالدعوة؟ فافتضت لهذه التساؤلات النفسية المحيرة للنبي نوح عليه السلام، إجابة شافية وكافية، أن هؤلاء المعاندين من قومك قد حقّ عليهم العذاب، ومصيرهم الغرق، وهو حوار بين الله عز وجل ونبيه يُظهر له أن الأمر بشأن قومه قد فصل فيه، "ولا تدعني يا نوح في شأن قومك؛ أكدّ التعليل فقيل: "إنهم مغرقون" بالتأكيد؛ أي محكوم عليهم بالإغراق؛ وقد جرى به القضاء وجفّ القلم فلا سبيل إلى كفه، فهذا الكلام يلوح بالخبر تلويحاً، ويُشعر بأنه قد حقّ عليهم العذاب (2). وهذه استراتيجية خطابية حجاجية غايتها إبراز الصورة السيئة للقوم، بأنهم لن يؤمنوا بدعوتك، وأن أفعالهم وخصالهم قد حقّ عليها القول، فلا مجادلة في أمرهم .

4-2 التوكيد بالقسم:

لاشك أن مزاج النفس البشرية يختلف بحسب مقام الحدث الكلامي؛ لأنّ الشعور بالقلق والنقص مثلاً ينتاب كل إنسان، والخروج من هذه الشحنة النفسية المضطربة، يقتضي التقرب إلى الله تعالى، فنفس المؤمن التي لم تدنس فطرتها بالرجس، تستجيب مباشرة إلى صوت الحقّ، وتخلع ثوب الجهل والضلال وتتغمس روحها في رحبة الإيمان،

(1) - سورة هود: جزء من الآية 37.

(2) - ينظر: بدر الدين الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج2، ص504.

الفصل الثاني: ————— التوظيف الحجاجي في الدرس اللغوي والتداولي في سورة هود

بينما نفس الكافر التي امتلأ قلبها بأدران المعصية وخنوعها للشرك والوثنية، فلا يهتز كيانه إلا بمطارق الرهبة والزجر والوعيد.

وأسلوب القسم أو الحلف نوع من الاستدلال الذي يفهم الخصوم ويزيل الإبهام والشكوك، وقد روي عن بعض الأعراب أنه "لما سمع قوله تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ (٢٣) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ" (1)، صاح وقال: من الذي أغضب الجليل حتى ألجأه إلى اليمين (2).

ويرى السيوطي أن فائدة القسم تتعدى ذلك، هو أن "يريد المتكلم الحلف على شيء، فيحلف بما يكون فيه فخر له، أو تعظيم لشأنه، أو تنويه لقدره، أو ذم لغيره، أو جارياً مجرى الغزل والترقق، أو خارجاً مخرج الموعظة والزهد... وأقسم سبحانه بقسم يوجب الفخر لتضمته التمدح بأعظم قدرة، وأجل عظمة." (3)، فهو بهذا المفهوم يوظف المتكلم القسم لغرض تأكيد الخبر للسامع، وإقامة الحجّة عليه، وفضّ كل التباس يشوّه مجرى الخطاب. ومن أمثله في المدونة التي تزيل الشك والريب، قوله تعالى: ﴿...وَلَيْنَ قُلْتِ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (4).

جاءت هذه الآية مؤكدة بستة مؤكدات؛ لأنّ المقام ينتابه الشك والإنكار ليوم البعث، لذا أكد الله بهذه التوكيدات، بأنهم سيبعثون لا محالة، واقتضى السياق مضاعفة التوكيد لمواجهة هذا الإنكار الذي آل إليه قوم قريش، وجاء تأكيد مقدّمة الآية بلام القسم الموطئة (*) مصحوبة بأداة التوكيد، لتنزيل السامع منزلة المتردد في صدور هذا القول

(1) - الذاريات: الآية 22- 23

(2) - أبو الفضل جلال الدين السيوطي: معترك الأقران في إعجاز القرآن، ضبطه وصححه، أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1988، ج1، ص341.

(3) - جلال الدين السيوطي: الإتيان في علوم القرآن، تح، محمد أبو الفضل إبراهيم، من إصدارات وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، (د-ط)، ج1، ص1768- 1769.

(4) - سورة هود: جزء من الآية 07.

(*) اللام الداخلة على الشرط ليست بلام القسم، ولكنها زائدة، وتسمى الموطئة للقسم ويعنون بذلك أنها مؤذنة بأن جواب القسم منتظر؛ أي الشرط لا يصلح أن يكون جواباً؛ لأنّ الجواب لا يكون إلا خبراً. (ينظر: الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج3، 126).

الفصل الثاني: ————— التوظيف الحجاجي في الدرس اللغوي والتداولي في سورة هود

منهم لغرابة صدوره من العاقل، فيكون التأكيد القوي والتنزيل مستعملاً في لازم معناه وهو التعجيب من حال الذين كفروا أن يحيلوا إعادة الخلق وقد شاهدوا آثار بدء الخلق وهو أعظم وأبدع⁽¹⁾.

ويأتي جواب القسم لبيّن إبطالهم لهذه الحجّة في قوله تعالى: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، فجاء القسم ليؤكد شيئاً غيبياً وينزع كل مزاعم الشك، وهو حقيقة وجود البعث والنشور بعد الموت؛ لأنّ من وظيفة القسم "توكيد لاعتقاد المتكلم المتعلق بحدث لم يقع بعد، أو وقع وانقضى أو هو واقع في زمان الإخبار عنه"⁽²⁾.

وتكون الأفعال الإنجازية أكثر فعالية وفي "أوج قوتها عند التعبير عن الالتزام باستخدام فعل إنجازي قوي كالقسم"⁽³⁾، وذلك من أجل حملهم على الإقناع والتنزيل المخاطبين لتماديهم في الغفلة من ينكر الموت⁽⁴⁾، هذه المؤكّدات بالقسم جاءت لإثبات الحجّة.

يقول أبو القاسم القشيري: "إنّ الله ذكر القسم لكمال الحجّة وتأكيدها، وذلك أنّ الحكم يفصل باثنين: إما الشهادة، وإما بالقسم، فذكر الله تعالى النوعين حتّى لا يُبقي لهم حجّة"⁽⁵⁾، وعليه جاء استخدام التوكيد في هذا المقام؛ لأنّ عقولهم تعطلت عن التفكير السليم، فهي تعمل على تشويه الحقّ الذي يرجى منه النجاة يوم القيامة، كما جاءت هذه التوكيدات للفت أنظار هؤلاء القوم لترغيبهم في الإيمان والإقرار بحقيقة الموت، وأنّ يوم البعث حقّ، كما تقتضي شدة إنكار هؤلاء القوم من خلال جواب القسم، بأنّ ما يدّعيه هؤلاء الأنبياء والرسل ما هو إلا سحر.

(1) - الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، ج12، ص09.

(2) - خالد ميلاد: الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة دراسة نحوية تداولية، المؤسسة العربية للتوزيع، تونس، ط1، 2001، ص 100.

(3) - الصرّاف علي محمود حجي: في البراجماتية، الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة، دراسة دلالية ومعجم سياقي، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط1، 2010، ص48.

(4) - الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج2، ص491.

(5) - نفسه، ج3، ص122.

ومن أمثلته أيضا، قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَخْرَجْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْسِبُهُؤُا إِلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾⁽¹⁾

لقد وصف الله تعالى قمة الجحود والتكذيب الذي وصل إليه أهل الكفر، بل تعدوا إلى التهكم والاستهزاء والاستعجال بالعذاب، ففي مقدمة الآية نجد لام الموطئة للقسم وقد أشرنا إلى عملها في المثال السابق، فمقام الآية هو مقام تحدّ وإنكار وتهكم، لما جاء به النبي محمد ﷺ ﴿لَيَقُولُنَّ مَا يَحْسِبُهُؤُا﴾؛ أي شيء يمنعه من المجيء، "وكان منهم من بالغ في التكذيب، وبلغ الغاية في السفاهة والحمق... فهم إذا أنذروا بالعذاب يوم القيامة قالوا: متى هو؟ وإذا أنذروا بالعذاب والهلاك في الدنيا قالوا: ما يحبسهم؟ يقولون ذلك في تحدّ وعناد، وإصرار على الكفر والتكذيب، بهذا الوعيد الذي توعدّهم الله به.. ولو عقلوه ما استعجلوا هذا البلاء، ولأخذوا أنفسهم بما ينجيهم منه⁽²⁾، فقد كفروا بالقرآن وبرسالة النبي ﷺ، وكذبوا بيوم البعث، بل طالبوا باستعجال العذاب استهزاءً وتهكمًا، ويأتي جواب القسم المنتظر ﴿إِلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾، بأنه إذا جاء الوقت الذي تحدّده الله سبحانه وتعالى، سيحيط بكم من كل جانب، جزاءً بما كنتم تستهزئون وتستعجلون به "وعبر بلفظ الماضي تنبيها على تحقق وقوعه فكأنه قد حاق بهم"⁽³⁾، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوْ فَعُ ۗ مَّالَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾⁽⁴⁾.

(1) - سورة هود: الآية 08.

(2) - عبد الكريم الخطيب: التفسير القرآني للقرآن، دار الفكر العربي، القاهرة، (د-ط)، ج12، ص1108.

(3) - محمد بن علي الشوكاني: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، تحقيق، عبد الرحمن عميرة، دار الوفاء، الإسكندرية، ج2، ص674.

(4) - سورة الطور: الآية 07-08.

3-4 التوكيد بحرف التنبيه:

يأتي التوكيد بحرف التنبيه "ألا" في قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَشْتُونَ صُدُورَهُمْ لَيَسْتَخَفُوا مِنْهُ^١ الْأَحِينِ يَسْتَعْشُونَ يَا بَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ^٢ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ^٣﴾ (1) وقوله أيضا: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ^٤﴾ (2)، يأتي حرف التنبيه ﴿أَلَا﴾، عادة ليوقظ السامع من غفلته، وحتى لا يفاجأ لما يسمعه من مقدمات القول، فاستخدم التنبيه الأول على "أنهم ينصرفوا عنه ليستخفوا ثم كرر كلمة ﴿أَلَا﴾ للتنبيه على ذكر الاستخفاء لينبهه على وقت استخفائهم" (3)، وهذا التكرار جاء ليثبت أمرا، وهو أن الله مطلع عليهم ويعلم سرهم وجهرهم، فلا سبيل لهم للانكار والإعراض؛ لأن الغاية التي يصبو إليها القرآن الكريم من تكرار حقائقه ليس توجيه النظر إلى الشيء المكرر لأهميته فحسب؛ بل ترسيخه في النفس وإقراره فيها، وحملها على الاقتناع" (4). وقد اشتملت على قيمة أخلاقية مشينة، تميز بها هؤلاء القوم بأنهم يضمرون معاني صفات القبح، ومن أمثلته أيضا، قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ^٥ أَلَا بَعْدًا لِعَادٍ قَوْمٍ هُودٍ^٥﴾ (5).

استهلت الآية بأداة تنبيه "ألا"، ثم أكدت بثلاث توكيدات، فالأول بأداة "إن" وتؤكد لنا أن قوم عاد كفروا وأنكروا ولم يؤمنوا بالمنهج الرباني الذي دعاهم إليه سيدنا هود عليه السلام، والتأكيد الثاني "ألا" التي تفيد تحقق ما بعدها، أنهم الأحقون بهذا الوصف، بأنهم كفروا، أما (اللام)، وهو تأكيد من الله سبحانه وتعالى أن مصيرهم العذاب، وهذا النوع من التوكيد

(1) - سورة هود: الآية 05.

(2) - سورة هود: جزء من الآية 08.

(3) - فخر الدين الرازي: مفاتيح الغيب، ج 17، ص 192.

(4) - باطاهر بن عيسى: أساليب الإقناع في القرآن الكريم، ص 152.

(5) - سورة هود: جزء من الآية 60.

الفصل الثاني: ————— التوظيف الحجاجي في الدرس اللغوي والتداولي في سورة هود

المقترن بإنّ مع اللام يسميه عبد الله صولة "مُبْتَرًا" والذي يقصد به "تسليط الأضواء على القضية بواسطة التوكيد"⁽¹⁾، فالمقام هنا يقتضي هذه التوكيدات؛ لأنه مقام إنكار وتعنّت.

5- الروابط والعوامل الحجاجية ودورها في بناء الخطاب الحجاجي:

5-1 الرابط (بل):

لا يمكن أن تخلو أي لغة من الأدوات اللغوية التي بفضلها يُنسج الخطاب، فتتوافق ألفاظه ويعطي معنى، فيتحرّر من قيود الغموض والبتّر، وعلى ضوء هذا الكلام يقول العالم الفرنسي ديكرو: "أنا نتكلم عامّة بقصد التأثير، وهذا التأثير والحمل على الإذعان والإقناع بما يعرض علينا من أفكار ومعتقدات إنما يحصل بالوسائل اللغوية وبإمكانات اللغة الطبيعية التي يتوفر عليها المتكلم"⁽²⁾، ومن أمثله في المدونة القرآنية قوله تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَكُ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرَكُ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَأَيْنَا بُادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾⁽³⁾.

يصور هذا المشهد إنكار قوم نوح عليه السلام لدعوته، والطعن في شخصيته، فقد بدأت هذه الآية بالفعل "قال" لتقدّم حجج قوم نوح، يعقّبها الرابط (بل) الذي يضرب عمّا قبله على جهة الإبطال، فهذا الأخير له أهمية كبرى في العملية الحجاجية؛ "إذ تكمن حجاجيته في أنّ المرسل يرتّب بها الحجج في السلم، بما يمكن تسميته بالحجج المتعاكسة، وذلك بأنّ بعضها منفي وبعضها مثبت"⁽⁴⁾، كما يُعدُّ "حرف إضراب، وله: حالان: الأول: أن يقع بعده جملة، والثاني: أن يقع بعده مفرد. فإن وقع بعده جملة كان إضرابا عمّا قبلها، إما على جهة الإبطال [...]. وإما على جهة التّرك للانتقال، من غير إبطال [...]. وإذا وقع بعد بل

(1) - عبد الله صولة: الحجاج في القرآن الكريم، ص283.

(2) - أبو بكر العزاوي: الحجاج في اللغة، مقال ضمن مؤلف الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، ج1، 2012، ص56.

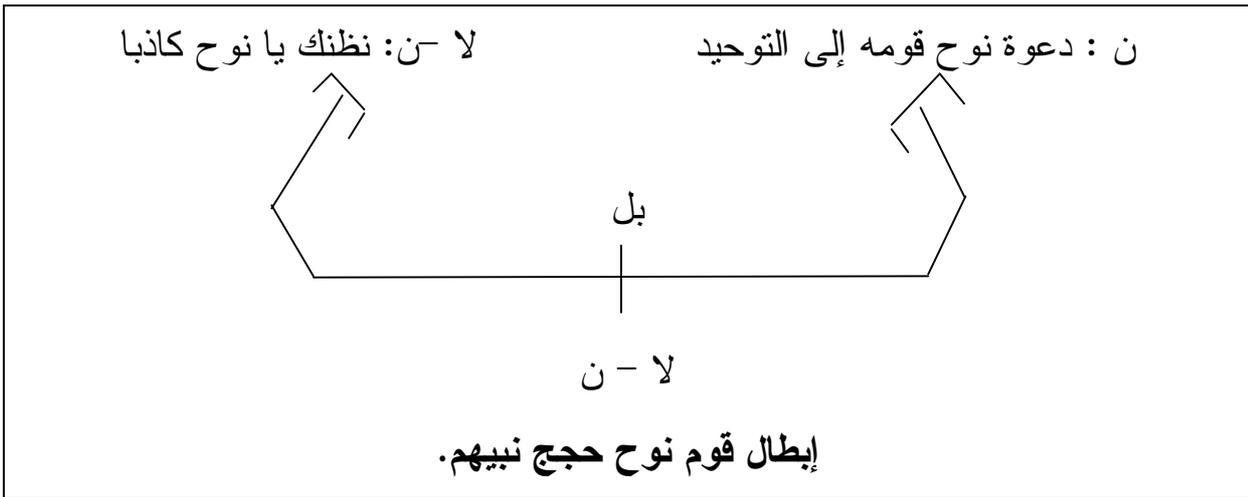
(3) - سورة هود: الآية 27.

(4) - عبد الهادي بن ظافر الشّهري: استراتيجيات الخطاب، ص514.

الفصل الثاني: ————— التوظيف الحجاجي في الدرس اللغوي والتداولي في سورة هود

مفرد، فهي حرف عطف، ومعناها الإضراب. ولكن حالها فيه مختلف: فإن كانت بعد نفي [...] فهي لتقرير حكم الأول، وجعل ضده لما بعدها...⁽¹⁾.

إنّ الرابط الحجاجي "بل" جاء ليقيم الحجّة على قوم نوح عليه السلام، فقد رموه بحجّة عدم الأهلية في النبوة كونه بشرا مثلهم، لاشيء يميّزه عنهم، أما الحجّة الثانية أنّ أتباعه هم أرذل القوم ليس لهم وزن اجتماعي، فيأتي "الرابط" "بل" ليربط دائما بين حجّتين تخدمان نتيجتين متضادتين، ولكن الحجّة الواقعة بعد الرابط هي الحجّة الأقوى، والنتيجة المضادة "لا-ن" هي النتيجة المعتمدة⁽²⁾، وعليه فإنّ الرابط (بل) جاء لتأكيد إبطال للمنفي كلّ الدال على صدقه في دعواه بإثبات ضد المنفي، وهو ظنهم إياهم كاذبين، فزعموا أنّ نوحا -عليه السلام- كاذبا في دعوى رسالته⁽³⁾. ويمكن تمثيلها بالشكل الآتي:



5-2 الرابط (لكن):

﴿أَمْ مَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَٰ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ
أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۚ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ ۚ مِنَ الْأَحْزَابِ ۚ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ۚ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ

الْحَقُّ مِّن رَّبِّكَ ۚ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾⁽⁴⁾.

(1) - عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص 515.

(2) - أبو بكر العزاوي: اللغة والحجاج، ص 63-64.

(3) - الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، ج 19، ص 49.

(4) - سورة هود: الآية 17.

الفصل الثاني: ————— التوظيف الحجاجي في الدرس اللغوي والتداولي في سورة هود

يقدم الله حججا وأدلة في هذه الآية، أولاها أن لا أحد ينكر أن الله مميّز الكائن الإنساني بالعقل الذي به يهتدي إلى طريق الحقّ، وذلك عن طريق التدبّر والتبصّر والتأمّل في هذا النظام الكوني، الذي به يتحقّق وجود الله، وهي حجة أولى لهذا المخلوق البشري. ثمّ يُدعم الحجة السابقة بحجة أقوى وهي وجود الشاهد أي القرآن الكريم لما فيه من إعجاز على وجود الله، وبه يزداد المتدبّر عقلا وإيمانا واطمئنانا.

أما الحجة الثالثة التي بها تُدعم الحجة الأولى والثانية تذكيرهم بالكتب السابقة، وأنّ ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ليس حدثا جديدا.

بعد تقديم هذه الحجج يأتي الرابط "لكن" ليهدم الحجج السابقة، والنتيجة المنتظرة التي هي الإيمان بوحداية الله وبدعوة نبيّه. ويكون تمثيلها وفق المخطط الحجاجي الآتي:

← ن: جميع الناس تؤمن بالله

ح1: الاستدلال بالعقل ح2: الشاهد القرآني ح3: الكتب السابقة

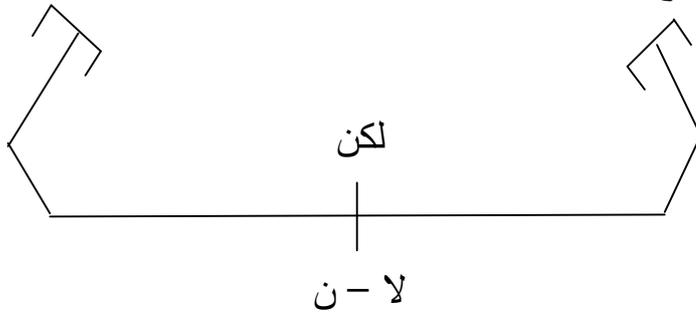
على وحدانية الله تعالى (كتاب موسى)

يأتي عمل الرابط "لكن" الذي يقوم بهدم النتيجة المتضمنة والمتوقعة عند سرد هذه

الحجج من الجزء الأول من الآية، فيدلي بنتيجة معاكسة وهادمة للأولى وهي أنّ "أَكْثَرَ

النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ"، ومبطللة للحجج السابقة ويكون تمثيلها على النحو الآتي :

ن : جميع النَّاسِ تؤمن بالله لا - ن : أكثر النَّاسِ لا يؤمنون



3-5 العامل الحجاجي (إنما):

لقد أجمع علماء النحو على أن "إن" المكسورة الهمزة المشددة النون و"أن" المفتوحة الهمزة المشددة النون، تقتربان ب "ما" فكفهما عن العمل، كما اتفق أهل النحو كذلك على أن "إنما" تفيد أقصى درجات التوكيد بالقصر وهذا الأخير هو إثبات الحكم للمذكور في الكلام، أو نفيّه عمّا عداه، فإذا قلنا: ما سافر إلّا علي، أستفيد من ذلك، أن ما قبل إلا مقصورا، وما بعدها مقصورا عليه⁽¹⁾.

ومن أمثله كذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾⁽²⁾.

جاء القصر في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾، ودور أداة القصر "إِنَّمَا" في القرآن الكريم تعبّر عن "مقام التعريض وهي وسيلة مؤدبة مؤثرة معًا فضلا عن إيجازها. أما إنها مؤدبة فلأنها تصل إلى الغرض من غير أن تذكر الطرف المقابل، ومؤثرة من ناحية أنها توحى بأنّ ترك التصريح بما يخالف ما أثبتته هو من الواضوح بمكان، كما أنّ الاكتفاء بالمثبت يوحي أحيانا بأنه لا يليق أن يوازن بين ما أثبت وما نفي"⁽³⁾. ويأتي هذا التأكيد بالقصر ليؤكد لتبنيه أنّك رسول بعثت لبيان الحقّ ولا سلطان على قلوبهم، وأنك نذير لا موكل بإيقاع الإيمان في قلوبهم، إذ ليس ذلك إليك، بل هو الله، وفيه تعريض بالمشركين بردّ اعتقادهم أنّ الرسول يأتي بما يُسأل عنه من الخوارق فإذا لم يأتيهم به جعلوا ذلك سندا لتكذيبهم إيّاه⁽⁴⁾. فهذه إشارة واضحة للمنكرين بالرسالة، فهم يريدون تعجيز الأنبياء والسخرية منهم، بطلب الإتيان بالخوارق.

(1) - ينظر: أحمد مصطفى المراغي: علوم البلاغة، البيان والمعاني والبديع، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د-ط)،

(د-ت)، ص130.

(2) - سورة هود: جزء من الآية 12.

(3) - أحمد أحمد بدوي: من بلاغة القرآن، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، مارس 2005، ص124.

(4) - ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج12، ص18.

ثالثاً- الأفعال الكلامية ومظاهرها الإنجازية في سورة هود.

1- الإخباريات:

لقد وضّح ابن فارس الفرق في تعريف الخبر بين نظرة أهل اللغة وأهل البيان، وبالأحرى أهل البلاغة، فأهل اللغة ينظرون إلى الخبر على أنه إفادة الخبر وإعلام للآخرين، وأهل البلاغة يصفونه بالصدق أو الكذب، يقول ابن فارس "أما أهل اللغة فلا يقولون في الخبر أكثر من أنه إعلام... والخبر هو العلم. وأهل النظر يقولون: الخبر ما جاز تصديق قائله أو تكذيبه وهو إفادة المخاطب أمراً في ماضٍ من زمان أو مستقبل دائم⁽¹⁾". فالخبر هو نقل صورة من الواقع نقلاً أميناً لا يشوبه زيف ولا خلل.

أما الرّازي فيعرفه، بأنه "القول المقتضى بصريحه نسبة معلوم إلى معلوم بالنفي أو بالإثبات"⁽²⁾، ورضه الإنجازي هو الوصف والتقرير؛ لأنّ "إنجازيته تتم من خلال خطوتين؛ الأولى تتمثل في أنّ الانجاز يتحقّق من خلال "نطق الكلام وآدائه"، أما الثانية فمن خلال "الإخبار أو الوصف" باعتبار الإخبار أو الوصف غرضين إنجازيين شأنهما شأن أي غرض آخر كالرفض أو القبول"⁽³⁾.

ويشير الدارسون أنّ الأفعال الإنجازية "قد تظهر في البنية السطحية من خلال استخدام ألفاظ إنجازية بعينها مثل، "أقسم أو أعد"، أو من خلال كونها متضمنة في البنية العميقة للمنطوق لتدلّ بمعناها العام على إنجاز الإخبار أو الوصف"⁽⁴⁾. ومعنى هذا أنّ المخاطب يحاول أن يقرّ للمتلقّي شيئاً ما، ويثبتّه في نفسه؛ لأنّ التقرير "هو حمل المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقرّ عنده"⁽⁵⁾. لهذا نجد تداول الأفعال

(1) - أحمد بن فارس: معجم مقاييس اللغة، تحقيق، عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، ج1، 1979، ص361.

(2) - مسعود صحراوي: التداولية عند العرب، ص 146.

(3) - الصراف علي محمود حجي: في البراجماتية الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة، ص61.

(4) - نفسه.

(5) - السيوطي: معترك الأقران في علوم القرآن، ج1، ص329. بدر الدين الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج2،

ص331.

الفصل الثاني: ————— التوظيف الحجاجي في الدرس اللغوي والتداولي في سورة هود

التقريرية في الحدث الكلامي اليومي للمخاطب بصورة ملفتة للنظر؛ لأنه "يعبر عن وجهة نظره، وليحدّد موقفه من نقطة الخلاف، كما يستعمله للمواصلة في حجاجه من خلال التأكيد أو الادّعاء"⁽¹⁾.

1-1 وصف القرآن الكريم وتحديده :

قال تعالى: ﴿الرَّكِيبُ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ وَتُرُفُّصَلَّتْ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾⁽²⁾.

جاء الاستفتاح بالحروف المقطعة، في العديد من السور، لتظهر صورة جليّة وعظيمة لهذا الكتاب، وهذه الحروف هي بمثابة مصدر تنبيه "السامعين وإيقاظهم، وذلك أنّ قرع السمع في أول الكلام بما يعيي النفوس فهمه أو بالأمر الغريب، دافع لها أن تصغي وتنتيقظ وتتأمل وتزداد إقبالا"⁽³⁾. فهي بمثابة استدراج النفوس لسماع القرآن؛ لأنّ أهل الكفر كانوا يقولونه لبعضهم البعض: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾⁽⁴⁾. فلما أنزل الله سبحانه وتعالى هذه السور المبدوءة بالحروف المقطعة، استهوت قلوبهم، واستمالت عقولهم، فأمن من أراد الله هدايته، وشارف الإيمان من شاء الله تأخيرها، وقامت الحجّة في وجه الطّغاة المكابرين، وأخذت عليهم الطّرق فلا عذر لهم في الدنيا ولا يوم الدين⁽⁵⁾، ثمّ يأتي الملفوظ الكلامي "كتاب" الذي يُظهر السّموم والعظمة، وهو أبلغ حجّة عليهم، فيندرج الملفوظ الذي تحمله هذه الآية ضمن صنف التقريريات (Assertifs) حسب تصنيف سيرل، إذ عرّفه بأنّه: "إدراج مسؤولية المتكلم عن صحة ما يُتلفظ به"⁽⁶⁾، فالأفعال الكلامية تُصدّق كلّما سلّم قصد المتكلم من القضية .

(1) - ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص 482.

(2) - سورة هود: الآية 01.

(3) - محمد عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، تحقيق، فوز أحمد زمزلي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ج1، ط1، 1995، ص 189.

(4) - سورة فصلت: الآية 26.

(5) - ينظر: محمد عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، ص 189.

(6) - مسعود صحراوي: التداولية عند العرب، ص 135.

الفصل الثاني: ————— التوظيف الحجاجي في الدرس اللغوي والتداولي في سورة هود

أما الفعل التّأثيري الذي نادى به أوستن يُعدّ بعدا حجاجيا آخر، وتتجلى مكانته أكثر في نفوس المتلقين، وهذه إشارة واضحة على التّحدّي والإعجاز الذي طال القوم. فقد تأثر لبلاغته أهل الكفر أنفسهم، وفي قصة الوليد بن المغيرة المشهورة أكثر شاهد على أثره النفسي وتملكه للقلوب.

1-2 وصف أدلة التوحيد:

﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾⁽¹⁾

تتشكّل هذه الآية من متغيّرات واستلزمات منطقيّة ونفسية، فالشّطر الأوّل من الآية يحمل أفعالا إنجازية إخبارية مباشرة، وهي تقرير العبودية لله تعالى وحده لا شريك له، وإثبات العظمة له، كما تتضمّن أفعالا إنجازية غير مباشر في لفظتي البشارة، والنذارة، فالفعل الإنجازي الأوّل يتضمّن التّخويف والتّهديد، "وهذا الإنذار والتّحذير والتّوعد لم ينجع فيهم، ولا لانّت له قلوبهم، بل هم مصروّن على العناد مصمّمون على الكفر"⁽²⁾، فهو تهديد عظيم على ما يرتكبونه من إنكار وجود واستهتار بهذا الدّين .

أما الفعل الإنجازي الذي تحمله لفظة البشارة، فلأنّ ذلك "يدلّ على قدرة عالية وجلالة عظيمة لهذا الحاكم وعلى ضعف تام وعجز عظيم لهذا العبد"⁽³⁾، فالبشارة تطمئنّ لها النّفس المؤمنة، فتجتهد وتحرص أكثر على الطّاعة.

2- التوجيهات :

يقصد بالأفعال التوجيهية هي تلك الأفعال التي يلجأ إليها المتكلم في مخاطبة المتلقي قصد توجيهه للقيام بفعل ما، أو الاستفسار عن شيء غامض لدى المتكلم. ونجاحه يتوقف على شروط مهمة وهي:

1- سلطة المرسل.

(1) - سورة هود: الآية 02.

(2) - محمد بن علي الشوكاني : فتح القدير، ج2، ص672.

(3) - الرازي: مفاتيح الغيب، ج17، ص191.

الفصل الثاني: ————— التوظيف الحجاجي في الدرس اللغوي والتداولي في سورة هود

2- جهة المنفعة الإنجازية؛ إما باتجاه المرسل، أو المرسل إليه، فقد تكون منفعة الخطاب عائدة على المرسل دون المرسل إليه، وقد تكون عائدة على المرسل إليه وحده⁽¹⁾، لذا يلجأ المرسل عادة إلى استغلال سلطته الكلامية، مستخدماً أفعال الأمر والنهي والاستفهام وغيرها، والتي حصرها البلاغيون في الإنشاء، وهذا من أجل استحواز فكر المتلقي وإقناعه .

يغلب أسلوب الاستفهام والأمر والنهي والنداء في سورة هود؛ لأن ما تمتاز به هذه السورة هو الطابع الدعوي الجدلي، وهذا ما يتجلى لنا في مقارعة الأنبياء لخصومهم، وإظهار الحجج والبراهين الدامغة على صدق دعوتهم.

إنّ هذه الأفعال الكلامية في كثير من الأحيان قد تخرج عن معناها الصريح إلى أفعال غير مباشرة. فمثلاً الأمر قد يخرج إلى معاني الدعاء والالتماس والنصح والتّحذير وغيرها، كما في الاستفهام الذي يكون غرضه الإنكار والوعيد والتوبيخ والسخرية وغيرها من الأغراض والمعاني المضمرة.

1-2 الأمر:

لا شك أنّ الأمر والنهي لا يختصّ وقوعهما إلا بالفعل، سواء كان مُظهراً أو مُضمراً⁽²⁾، ويُعدّ الأمر من الأفعال الطلبية؛ لأنه "صيغة تستدعي الفعل أو قول ينبئ عن استدعاء الفعل من جهة الغير على جهة الاستعلاء"⁽³⁾، ومن شروطه أن يكون الأمر يحمل من السّطة ما تخوّله على توجيه المتلقي، حيث يستعمله المرسل من أجل "طلب الحصول في الخارج... ليحصل في ذهن المتلقي نقش له مطابق"⁽⁴⁾، بمعنى أنّ الأمر يحمل من الكفاية التداولية والسّطة ما تُوجب على المأمور الامتثال؛ لأنّ السّطة الأمرية لها "الحق

(1) - ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص324.

(2) - خالد ميلاد: الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة دراسة نحوية تداولية، المؤسسة العربية للتوزيع، تونس، ط1، 2001، ص132.

(3) - يحي بن حمزة العلوي: الطراز، ج3، ص156.

(4) - ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص330.

الفصل الثاني: ————— التوظيف الحجاجي في الدرس اللغوي والتداولي في سورة هود

في الأمر، فهي تستلزم أمراً ومأموراً وأمرأ، أمراً له الحق في إصدار أمر إلى المأمور، ومأموراً عليه واجب الطاعة للأمر بتنفيذ الأمر الموجّه إليه⁽¹⁾. فسلطة الأمر تتوفر فيها شروط التأثير، سواء كانت في الإدراك العقلي أو في التأثير الوجداني.

لقد وردت أفعال الأمر في سورة هود بطرق متنوعة، فهي تعبّر عن مقاصد وأغراض حجاجية بحسب السياق الذي قيلت فيه، مما تستدعي ذهن المتلقي الوقوف عليها، ومعرفة وظيفتها الكلامية، ومدى استجابة هؤلاء الأقوام لأمر رسلهم. "وإن نظرت إلى الأوامر والنواهي لوجدتها تستوعب كل أفضية الحياة من قمة الشهادة بأن لا إله إلا الله، إلى إمطة الأذى عن الطريق"⁽²⁾.

لقد أجمع علماء اللغة العربية أنّ "النهي حرف واحد وهو لا الجازم في قولك : لا تفعل؛ والنهي محذو به حذو الأمر في أنّ أصل استعمال: لا تفعل، أن يكون على سبيل الاستعلاء بالشرط المذكور، فإن صادف ذلك أفاد الوجوب، وإلا أفاد طلب الترك فحسب [...] والأمر والنهي حقهما الفور"⁽³⁾. فهما من أفعال الطلب والكفّ عن الفعل باستعمال سلطة المتكلم .

أ- النصح والإرشاد:

إنّ بلاغة الوعظ التي تتمثل في النصح والإرشاد، والتي تؤسس طريقاً يهتدى به، إلى صلاح الأمة واستقامتها، يحملان معهما الفلاح والنّجاة والترغيب إلى سبل الخير، ومن نماذج النصح قوله تعالى مخاطباً نبيه محمد ﷺ وقومه من المؤمنين: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾⁽⁴⁾.

(1) - ناصيف نصّار: منطق السلطة، مدخل إلى فلسفة الأمر، دار أمواج، بيروت، لبنان، ط2، 2001، ص07.

(2) - محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي، المجلد الأول، ص6300.

(3) - عبد الهادي ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص349.

(4) - سورة هود: الآية 49.

الفصل الثاني: ————— التوظيف الحجاجي في الدرس اللغوي والتداولي في سورة هود

يأتي الأمر في سياق الآية ﴿اصْبِرْ﴾ يحمل معه الفعل الإنجازي غير المباشر المتضمن النَّصْح والإرشاد والأناة وعدم الاستعجال في أمر الدَّعوة، وهو خطاب جاءت إحالته من سلطة الذات الإلهية، إلى نبيه محمد ﷺ وقومه، وفيه تنبيه وعظة من الله تعالى على أن الصَّبْر عاقبته حسنة، كما يُعد قياس حاله مع قومه على حال نوح -عليه السَّلام- مع قومه، فكما صبر نوح -عليه السَّلام- وكانت العاقبة له، كذلك تكن العاقبة لك على قومك⁽¹⁾، فسيدينا نوح رغم الجحود والإنكار والسَّخرية من دعوته، إلا أنه كان ثابتاً حليماً صابراً على أذى قومه فأكرمه الله بالنَّجاة، لذا تأتي قوَّة الفعل الإنجازي لفعل الطلب "اصبر" ترغيباً للمتلقي على الخضوع والانخراط لأوامر الأمر، فصفة الأنبياء للنبي محمد ﷺ هي قدوة له في الحلم والأناة والصَّبْر.

أما قوله تعالى: ﴿يَبْتَئِي أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ﴾⁽²⁾.

تتحدث الآية عن الحوار الذي دار بين سيدنا نوح ﷺ وابنه، وهو يدعو إلى ركوب الفلك مستخدماً الفعل التوجيهي "اركب"، الذي يُعبّر عن فعل إنجازي غير مباشر، وهو دعوته إلى الإيمان بطريقة العرض والتحذير⁽³⁾، سعياً منه للنَّجاة، لكن الابن العاق لنصيحة والده، والمكذَّب بالله وبقضية الطوفان، قابله بصيغة التَّهكم والاستهزاء، ﴿قَالَ سَآوِيَ إِلَىٰ جِبَلٍ يَْعَصْمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾⁽⁴⁾.

ب- الخطابات الأمرية للجمادات:

من الصيغ الصَّرِيحة التي يأتي عليها الأمر، الفعل المبني للمجهول، وهنا فرق بين صيغة (افعل)، وبين الفعل المبني للمجهول، ويتعيّن ذلك "أن المرسل يوجّه خطابه بصيغة افعل إلى المرسل إليه العيني أو الذهني مباشرة، بينما يقتصر التَّوجيه في الفعل المبني

(1) - الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، ج12، ص93.

(2) - سورة هود: جزء من الآية 42.

(3) - الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، ج12، ص76.

(4) - سورة هود: جزء من الآية 43.

الفصل الثاني: ————— التوظيف الحجاجي في الدرس اللغوي والتداولي في سورة هود

للمجهول على المخاطب الذهني، وهو يدرك ماهيته من خلال المعرفة السابقة⁽¹⁾، وهذا نموذج يخاطب فيه الله سبحانه وتعالى الجمادات، التي لا تعقل، قال تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْمَأْ أَقْلِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقْضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾⁽²⁾.

استفتحت الآية الكريمة بفعل ماض مبني للمجهول (قيل)، ويأتي بناء "فعل النداء للمجهول زيادة في التشويق إلى استطلاع القصة، فإبهام المنادي يشوق السامع وينبئه لما يُلقى إليه من قول⁽³⁾. فتركُّن نفسه إلى معرفة سرِّ هذا الخطاب؛ لأنَّ المقام يصور مشهدا عظيماً لواقعة الطوفان تبقى الأبواب حائرة تائهة لعظمة هذا الإله، فهي مشاهد "تجذب النظر وتثير الحسّ وتهدف إلى ربط الإنسان بالكون والحياة، وتلمس مظاهرها، واستقصاء أسرارها لاستجلاء آثار القدرة، ومظاهر الإبداع بالتعقل والتبصر، إذ الصنعة دليل على قدرة الصانع"⁽⁴⁾، وهذه القدرات الإلهية كلها أنساق جاءت لتحقّق العبودية لله وحده. ثم يأتي الأمر من الله سبحانه وتعالى، مخاطباً الأرض والسماء وهما من الجمادات بأن "تبلع" و"تقلع" من الأفعال الإنجازية التوجيهية الصريحة بصيغة الأمر "بحسب الظاهر على هذه الجمادات القويّة الشديدة يقرّ في الوهم نوع عظمتة وجلاله تقريراً كاملاً"⁽⁵⁾، وهذه العناصر التوجيهية تقرّ بسلطة حامل الخطاب والذي توعدّ فيه بهلاك قوم نوح عليه السلام فأهلكهم.

(1) - ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص 345.

(2) - سورة هود: الآية 44.

(3) - الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، ج 12، ص 102.

(4) - حامد صادق قنبيبي: المشاهد في القرآن، دراسة تحليلية وصفية، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، ط 1، 1984،

ص 17.

(5) - السكاكي: مفتاح العلوم، ص 529.

ج- خطاب السّلام والوعيد:

وقال الله تعالى: ﴿قِيلَ يٰنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ
وَأُمَّمٌ سَمِئَتْهُمْ ثُمِّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. (1)

لقد نجّى الله سيدنا نوح عليه السلام والمؤمنين معه، وحفظهم من الأمواج الهوجاء العاتية، وأذن الله للسفينة أن ترسو، ثم أمره بفعل انجازي (اهبط بسلام)؛ أي دون خوف ولا تردّد ولا جزع، والسّلام فيه من العبر والمعاني التي تُضفي على النفس الأمن والاطمئنان، الذي يعمل على تكسير التّوتر العاطفي المشحون بالخوف والرّهبة جراء ما شاهده من هلاك قومه، وهذا الاستدلال هو جوهر ولبّ الاستراتيجية الدينامية النفسية. فالشّعور بالقلق والرّهبة والخوف ينتاب كلّ نفس إنسانية، فنفس المؤمن تتطلّع إلى الأمن والرجاء، فهي تسعى إلى التّقرب إلى الله سبحانه وتعالى؛ لأنها جُبلت على ألا تتدسّ فطرتها النّقية بالرّجس والأوثان، ودائماً تتطلّع أن تخلع ثوب الكبر والضلال، وتنعش روحها في حضان الاعتقاد الصحيح.

2-2 النهي:

يقترن كل من الأمر والنهي في الخطاب البلاغي، إذ يقول الشاطبي (ت790هـ):
"الأمر والنهي يستلزم طلباً وإرادة من الأمر، بالأمر يتضمن طلب المأمور به وإرادة إيقاعه، والنهي يتضمن طلباً لترك المنهي عنه وإرادة لعدم إيقاعه ومع هذا؛ ففعل المأمور به وترك المنهي عنه يتضمنان أو يستلزمان إرادة، بها يقع الفعل أو الترك أو لا يقع" (2)،
ومن أمثله قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً
قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ لُّوطٍ﴾ (3).

(1) - سورة هود: الآية 48.

(2) - أبو إسحاق الشاطبي: الموافقات، ضبط نصّه وعلق عليه، أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار بن عفان للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط1، 1997، المجلد الثالث، ص269-270.

(3) - سورة هود: الآية 70.

الفصل الثاني: ————— التوظيف الحجاجي في الدرس اللغوي والتداولي في سورة هود

إنّ الشيء المتعارف عند الناس عادة، إذا نزل إليهم ضيف أكرموا وأحسنوا ضيافته، لكنّ ضيوف إبراهيم عليه السلام يختلفون عن بقية الضيوف؛ لأنّه رغم إكرامهم بعجل حنيذ إلا أنّهم امتنعوا عن الأكل، وهذا المعنى يرسم لنا صورة نفسية قد حلت بقلب الخليل إبراهيم عليه السلام، والمتمثل في الفعل الإنجازي التّأثيري، وهو سمة الخوف والجزع والتّكرُّ لهذا الفعل من قبل الضيوف؛ لأنّه غير معتاد عليه، وكأنّه يرى أنّهم جاءوا ببشارة مضرّة، لذا استعملت لفظة الوجس والتي تعني "حالة تحصل في النفس بعد الهاجس؛ لأنّ الهاجس مُبَدِّئُ التّفكير"⁽¹⁾. وقد اضطره هذا الموقف بأن أباح لهم عمّا في نفسه، وهو خوفه وفزعه منهم، قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا كُنَّ مَجْلُونًا﴾⁽²⁾، فتغيّر لون الأسلوب في هذه الآية، من الخبر إلى الإنشاء الطلبي بأسلوب النهي، والقصد منه إزالة الخوف والفزع عن الخليل إبراهيم عليه السلام، والتي كانت بادية على ملامح وجهه، فاستعمل الملائكة أسلوب التّهذئة لنفس سيدنا إبراهيم وزرع كل حالات الاطمئنان والأمان، وهذا بعدما لمسوا آثار الخوف على محياه، فقالوا له: ﴿لَا تَخَفْ﴾، فالفعل الإنجازي التّأثيري فيه من الطمأنينة والأمن والبشرى أراح كل آثار الخوف والنكران والروع.

ومن أمثلة النهي أيضاً الذي ينهى فيه النبي شعيب عليه السلام عن فساد أخلاقي ذميم وهو الغش في الكيل والميزان ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَيَقْوَمُ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾⁽³⁾.

بدأت الآية بفعل إنجازي توجيهي أمري الذي يدعو فيه إلى إيفاء الكيل بالعدل، ثم يأتي النهي عن مفسدة أخلاقية، وهي الغش في معاملات الكيل والميزان، وهم على علم بذلك، "فالنهي عن النقصان أمر بالإيفاء، فما فائدة قوله أوفوا؟ قلت: نهوا أولاً عن عين

(1) - الراغب الأصفهاني: مفردات القرآن الكريم، ص 855.

(2) - سورة الحجر: جزء من الآية 52.

(3) - سورة هود: الآية 85.

الفصل الثاني: ————— التوظيف الحجاجي في الدرس اللغوي والتداولي في سورة هود

القبیح الذي كانوا عليه من نقص المكيال والميزان؛ لأنّ في ذلك التصريح بالقبیح نعيًا على المنهي وتعبيرًا له، ثم ورد الأمر بالإيفاء الذي هو حسن في العقول مصرحًا بلفظه: لزيادة ترغيب فيه، وبعث عليه، وجيء به مقيدًا بالقسط، أي: ليكون الإيفاء على وجه العدل والتسوية، من غير زيادة ولا نقصان⁽¹⁾.

ويأتي النهي في هذا المقام ليعبر عن فعل إنجازي غير مباشر هو معاتبة نبيّه نوح عليه السلام عن السؤال قال تعالى: ﴿قَالَ يَدُعُّ يَدُعُّ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلِنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾⁽²⁾، فالمراد بالنهي هنا هو عدم وقوع السؤال في المستقبل، ثم إن كان نوح -عليه السلام- لم يسبق له وحي من الله لا يغفر للمشركين في الآخرة كان نهيه عن أن يسأل ما ليس له به علم، نهى تنزيهًا لأمثاله؛ لأنّ درجة النبوة تقتضي أن لا يُقدم على سؤال ربه سؤالًا لا يعلم إجابته⁽³⁾، فالنهي عن السؤال بمثابة تربية للأمة من بعده، لأنها قد تستدعي الوقوع في الذنب.

2-3 النداء:

يُعدّ النداء عنصرًا فعالًا في الخطاب القرآني، وتتنوّح فعاليته أكثر عند خروجه عن التعبير إلى أغراض مختلفة، كالتحذير، والاستعطاف، والتّحسّر، والتّعجب وغيرها من الأغراض التي يختلف عملها باختلاف الفكرة المشهورة "لكل مقام مقال"، وغايته جذب اهتمام المتلقي، وتهيئة نفسه لقبول مضمون الخطاب والإصغاء إليه، وهذا ما علّق عليه محمد الولي "بأن الغاية من الاستفتاح هو كسب لمصلحة الأطروحة... وله وظائف ثلاث هي:

1- إثارة انتباه المتلقي أو القاضي .

2- تهيينته لأجل الاستفادة .

(1) - الزمخشري: الكشاف، ج12، ص493.

(2) - سورة هود: الآية 46.

(3) - الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، ج12، ص87.

3- استمالاته، وأهمية هذه العناصر تختلف باختلاف أجناس الخطابة⁽¹⁾، ويأتي بصورة ثرية في الخطاب القرآني، خاصة في قصص الأنبياء مع أقوامهم.
أ- دعاء استغاثة وتلطف:

وجاء مثاله في قوله تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾.⁽²⁾

أستخدم أسلوب المحاوره في هذه الآية الكريمة بين الأب المشفق نوح عليه السلام وابنه الذي أبى تلبية نداء النجاة، ولا شك أن أسلوب الدعاء لا يتحقق غرضه ومنفعته، إلا في حضن النداء، لأنّ النداء ماهو إلا حلقة تواصلية بين المتكلم والمخاطب بغرض توجيه رسالة ما.

يأتي نداء الاستعطاف في هذا المقام الذي يظهر لنا دعاء استغاثة، وهو خطاب من سيدنا نوح عليه السلام وهو يعرض قضيته أمام أحكم الحاكمين، مناجياً فيها ربّه بأخلص الدعاء بأن يخلص ابنه من الحكم الذي نزل به، وهذا يوافق الفعل التائيري الذي نادى به أوستين، يمتلك نفسية سيدنا نوح عليه السلام من خوفه على ابنه ومظاهر العذاب الذي حلّ بقومه، فسلك طريق نداء الاستعطاف والإلحاح بالرغم أن نوحا عليه السلام "لا يجهل أن ابنه كافر، ولذلك فسؤال المغفرة له عن علم بأنّه كافر، ولكنّه يطمع لعلّ الله أن يعفو عنه لأجل قرابته به، فسؤاله له المغفرة بمنزلة الشفاعة له عند الله تعالى، وذلك أخذٌ بأقصى دواعي الشفقة والرحمة بابنه"⁽³⁾، لكنّ الله عدلٌ في حكمه.

(1) - الحسين بنو هاشم: آليات الحجاج في كشف ماهو في الحقيقة للحجاج، ضمن مجلة عالم الفكر، العدد 02، المجلد 40، أكتوبر 2011، ص 45.

(2) - سورة هود: الآية 45.

(3) - التحرير والتوير، ج 12، ص 85.

ب- دعاء عتاب واعتذار:

يأتي الفعل الإنجازي غير المباشر وهو عتاب الله لنبيه نوح عليه السلام ونهيه عن السؤال دون علم، وقد عرف ابن القيم العتاب بقوله: "هو دليل بقاء المودة ودوام الألفة والصحبة. والغرض منه إزالة ما في النفوس من الوحشة، لأنّ بجريانه يظهر ما في القلوب من آثار الجناية ويبدو ما في البواطن من تأكيد أسباب العناية؛ إذ لولا بقاء المودة الخفية لحصلت القطيعة بالكلية، ولم يحتج إلى عتاب ولم يرغب في الأعتاب؛ ولهذا قيل: ويبقى الودّ ما بقي العتاب"⁽¹⁾.

ومن أمثله ما جاء في هذه الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿قَالَ يَبْنَوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنَّ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْطِكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾⁽²⁾

تأتي هذه الآيات معطوفة على ما سبق من قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعَدَكَ الْحَقُّ﴾، وهي جواب عن سؤال سيدنا نوح عليه السلام فيه نداء استغاثة ودعاء، "والنداء هنا نداء دعاء فكأنه قيل: ودعا نوح ربّه، لأنّ الدّعاء يصدر بالنداء غالباً، والتعبير عن الجلالة بوصف الربّ مضافاً إلى نوح -عليه السلام- تشریف لنوح وإيماء إلى رافة الله به وأنّ نهيه الوارد بعده نهى عتاب"⁽³⁾، فأظهر الله له الحجّة أنّه ليس من أهله.

ج- نداء الله للجّمادات، استجابة وطاعة:

لقد أستعمل النداء "يا" دون غيرها من أدوات النداء في هذا المقام، وهي حرف موضوع لنداء البعيد "حقيقة أو حكماً، والمسوّغ؛ وقد ينادى بها القريب لنكته، منها إظهار

(1) - ابن القيم الجوزية: كتاب الفوائد "المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان"، صححه، محمد بدر الدين النعساني، مطبعة السعادة، مصر، ط1، 1327هـ، ص202.

(2) - سورة هود: الآية 46 .

(3) - الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، ج12، ص84.

الفصل الثاني: ————— التوظيف الحجاجي في الدرس اللغوي والتداولي في سورة هود

الحرص في وقوعه على إقبال المدعو⁽¹⁾، وقد يأتي للدلالة على علو مرتبة المنادى عن المنادى عليه، ويتجلى لنا هذا في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ أَبْلَيْ مَاءً كِ وَيَسْمَاءُ أَقْلِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾⁽²⁾.

لقد عدل النداء في هذه الآية ولم يقل "وقيل للأرض" كذا، و"للسماء كذا" من وجهين:

1- ظهور العناية بالإقبال على المنادى تنويهاً بذكره وتشريفاً لقدره، ولهذا نزلته منزلة العاقل.

2- التنبيه على أن القدرة العظيمة صالحة بأن تصير هذه الأجرام الجسيمة إلى حال من يعقل، وتوصل هذه الجمادات الكثيفة إلى رتبة من يعقل، وإلا فخطاب من لا يعقل مهمل، والإقبال عليه بالأمر أمر معضل⁽³⁾، كما يدل على عظم ما خلق، وهي حجة دامغة على وحدانيته، ولها من التأثير العميق على نفوس البشرية، لأنها من المشاهدة العينية.

فالآية الكريمة لم تصرح فيها عن قائل (يا أرض) و(يا سماء) في صدر الآية، فيأتي الفعل الإنجازي غير المباشر يُظهر سلوكاً في كل واحد من ذلك لسبيل الكناية، فتلك الأمور العظام لا تتأتى إلا من ذي قدرة... فلا مجال لذهاب الوهم إلى أن يكون غيره جلت عظمته قائلاً (يا أرض) و(يا سماء)، ولا غائضاً ما غاض، ولا قاضياً مثل ذلك الأمر الهائل، أو أن تكون تسوية السفينة وإقرارها بتسوية غيره وإقراره⁽⁴⁾، فالقوة الانجازية التي يتمثلها هذا النداء هو التقرير بوحدانية الله تعالى.

2-4 الاستفهام:

يُعد الاستفهام من الأساليب الإقناعية التي يسلكها المتكلم في مخاطبة كفاية المتلقي؛ لأنه "استعلام ما في ضمير المخاطب، وقيل: هو طلب حصول صورة الشيء في الذهن،

(1) - أبو الفضل جلال الدين السيوطي: معترك الأقران في إعجاز القرآن، المجلد الأول، ص340.

(2) - سورة هود: الآية 44.

(3) - أبو الخير شمس الدين محمد الجزري: كفاية للألمي، تحقيق، نشيد حميد سعيد بن محمود، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ط1، 2003م، ص163.

(4) - الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، ج12، ص81.

الفصل الثاني: ————— التوظيف الحجاجي في الدرس اللغوي والتداولي في سورة هود

فإن كانت تلك الصّورة وقوع نسبة بين الشئيين أو لا وقوعها فحصلها هو التصديق وإلاّ فهو التّصوّر، والإقرار والتّقرير، هو اعتراف وإخبار بحقّ لآخر على النفس⁽¹⁾، فالاستفهام يمثل شكلا من أشكال قيام الحجّة على الخطاب؛ لأنّه " أكثر التراكيب اللغوية الفنيّة استدعاء للمثيرات عند المتلقي، فهو يمارس إثارة الدهشة النّاجمة عن قطع رتبة التلقي المستكين، ورضوخ المتلقي لخمول وطأة استقبال التراكيب الجاهزة، ويمارس فعل المفاجأة التي تنتهك جمود التّوقع؛ لينشئ جدلية حيوية بين المبدع والمتلقي عبر تركيب السّؤال، وذلك الذي يجعل المتلقي فاعلا أصلا في التجربة الإبداعية بما تتضمنه من جدلية لا تزول بين المبدع والمتلقي"⁽²⁾.

تعدّ سلطة الاستفهام أنجع أنواع الأفعال اللغوية حجاجيا، به تحرك همّة المخاطب، وبه يشحذ ذهن المتلقي إلى عمق التّفكير، "لأنّ طرح السّؤال يمكن أن يضخم الاختلاف حول موضوع ما إذا كان المخاطب لا يشاطر المتكلم الإقرار بجواب ما، كما يمكن أن يلطّف السّؤال ما بين الطرفين من اختلاف إذا كان المخاطب يميل إلى الإقرار بجواب غير جواب المتكلم"⁽³⁾، وهذا ما يمكن أن يتوافق مع غايته المرجوة التي يسعى فيها المتكلم إلى الإثارة والفهم فالتأثير والإقناع.

أخذ الاستفهام مساحة هامة في القرآن الكريم؛ لأنّه يريد للإنسان "أن يحصل على الإقناع الذاتي المقرون بالحجّة والبرهان في إطار الحوار الهادئ العميق، سواء في ذلك قضايا العقيدة، أو قضايا الحساب والمسؤولية، فلكلّ سؤال جواب، ولكلّ علامة استفهام تواجه الإنسان في الطريق علامات في كل منعطف تشير إلى سواء السبيل"⁽⁴⁾، ومن أمثله

(1) - الجرجاني: معجم التعريفات، ص18.

(2) - زاهر بن مرهون بن خصيف الداودي: خصائص البنية الحجاجية للخطاب الإشهاري" الوسائط الإعلامية المرئية الثابتة نموذجا"، جامعة السلطان قابوس: سلطنة عمان، عن مجلة علمية متخصصة في الدراسات الأدبية والنقدية واللغوية، نصف شهرية تصدرها كلية الآداب واللغات، جامعة الجزائر 02، العدد 12 سبتمبر 2015، ص125 المصدر الرسمي عيد بلبلع: أسلوبية السؤال، رؤية في التنظير البلاغي، ط1، دار الوفاء، القاهرة، 1999، ص77.

(3) - ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص483-484.

(4) - باطاهر بن عيسى: أساليب الإقناع في القرآن الكريم، ص114.

قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ مَّعَهُ وَ مَلَائِكَةٌ مِّنَ السَّمَاءِ يَنزِلُونَ عَلَيْهِ كُلَّ نَجْوَىٰ وَيُخَوِّفُهُ ۗ سَنُضِرُّهُ بِالْبَاطِلِ الَّذِي هُوَ يَكْفُرُ ۖ﴾ (1).

جاء الاستفهام محذوف الأداة ويجوز تقديره، "ألعك" وهذا الفعل الكلامي يقصد به التحريك من همّة المخاطب وإلهاب همّته لدفع الفتور عنه، وتأتي قوّة الفعل الإنجازي هنا بمعنى التحذير؛ أي تحذير النبي -صلى الله عليه وسلم- من عدم الاكتراث بما يفعلونه وعدم التأثر بعنادهم وتكذيبهم واستهزائهم⁽²⁾، وهذا من أجل تثبيت قلبه على طريق الدعوة.

أ- الاستفهام التقريري :

يُعد الاستفهام التقريري^(*) من أروع الأساليب القرآنية؛ لما له من علاقة مباشرة مع النفس الإنسانية التي دائماً تدعو إلى حبّ الاطلاع والرغبة في معرفة المجهول، وإيجاد الإجابات الشافية الكافية للتساؤلات؛ لأنّ "هذا هو الذي يمهد سبيل إقرار المخاطب بما يعرض عليه من قضايا بواسطة الاستفهام إقراراً لا يتطلّب منه رويّة ولا طول تفكير فالمخاطب سرعان ما ينخرط في دورة الخطاب وينسلك في ثناياه خاضعاً له متجاوباً معه مقرّاً به"⁽³⁾، فالقول الاستفهامي أقوى الأقوال في تبنّي الخطاب الحجاجي؛ لأنه "أبلغ الحجج وأشدّها إلزاماً للخصم وأكثرها إفحاماً له ما نطق بها هو نفسه وساهم في صنعها من خلال إجابته عن الاستفهام الموجّه إليه"⁽⁴⁾.

(1) - سورة هود: الآية 12.

(2) - ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج12، ص16.

(*) ثمة فرق بين الاستفهام التقريري والإنكاري، فالأول ملزم بتثبيت الأمر وتحقيقه أو انتزاع إقرار المخاطب واعترافه، وأما الثاني لا تقرر للمخاطب في شيء، وإنما تنكر عليه، وتستهن منه. (للاستزادة، ينظر: فضل حسان عباس: البلاغة وفنونها وأفنانها(علم المعاني)، دار الفرقان للنشر والتوزيع، اليرموك، الأردن، ط2، 1998، ص194.

(3) - عبد الله صولة : الحجاج في القرآن الكريم، ص429.

(4) - نفسه.

الفصل الثاني: ————— التوظيف الحجاجي في الدرس اللغوي والتداولي في سورة هود

ولعل من مزايا الأسلوب التقريري في القرآن الكريم ما له علاقة مباشرة مع النفس البشرية المجبولة على غرائز الجدل والتعليل، والرغبة في حب الاستطلاع، لذا يسعى الاستفهام التقريري أن "يحمل المخاطب على الاعتراف بالحقيقة الثابتة دون جبر أو قسر، مع بسط الدليل الملزم، والحجة المقنعة، ومن هنا كان أسلوباً أقوى في الطلب، وأبعد في الإقناع⁽¹⁾."

ومن أمثله، قوله تعالى: ﴿قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَعَآتَنِي مِنهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ^ط فَمَا تَرِيدُونَ^ط غَيْرَ تَحْسِيرٍ﴾⁽²⁾، جاء الاستفهام بالهمزة، يريد من ذلك أن يبلغهم بأنه بسط لهم كل الأدلة والحجج من شأنها أن تقنعهم بالدعوة الإيمانية، وهذه العناصر منطوية تحت ما يسمى بالأفعال الإنجازية غير المباشرة لهذا الاستفهام، والتي "يريد من ورائها أن يظهر لهم بأنهم لو تأملوا هذه الدعوة تأملاً بريئاً وصادقاً من الكراهية والعداوة، لعرفوا الحق والذي جاء عن طريق أسلوب التعريض⁽³⁾، فالقوة الإنجازية المستلزمة التي يظهرها هذا الاستفهام هي شدة إنكارهم لعقيدة التوحيد. أما قوله تعالى: ﴿فَعَمِيَّتْ عَلَيْكُمْ أَنْزَلُكُمْ مَوْهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ﴾⁽⁴⁾.

جاء التعقيب بالفاء؛ لأن ورود الحجة البيّنة المبنية على الرحمة من النبي نوح عليه السلام خوفاً عليهم من العقاب الإلهي، لكنهم واجهوه بإنكار دعوته وإبطال حججه، وكان ردّه أنّه لا يلزمهم بالإكراه على قبول دعوته، والمعنى أنكم لو "زعمتم أن عهد النبوة لا يناله إلا من له فضلة على سائر الناس... أخبروني إن امتزت عنكم بزيادة مزية وحيازة فضيلة من ربي وآتاني بحسبها نبوة من عنده فخفيت عليكم تلك البيّنة ولم تصيبيها ولم تتالوها ولم تعلموا حيازتي لها وكوني عليها إلى الآن حتى زعمتم أنّي مثلكم وهي متحققة في نفسها، أنلزمكم قبول نبوتي التابعة لها والحال أنكم كارهون لذلك"⁽⁵⁾.

(1) - باطاهر بن عيسى: أساليب الإقناع في القرآن الكريم، ص 120.

(2) - سورة هود: الآية 63.

(3) - ينظر: الطاهر بن عاشور: التحرير والتوير، ج 12، ص 51.

(4) - سورة هود: جزء من الآية 28.

(5) - أبو السعود: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، ج 4، ص 201.

الفصل الثاني: ————— التوظيف الحجاجي في الدرس اللغوي والتداولي في سورة هود

فالقوة الإنجازية التي يحملها الاستفهام الإنكاري في قوله تعالى: "أَنْزَلْنَاهُمْ هَاهُنَا"، هو إنكارهم لحجج النبي نوح عليه السلام، وهذا تعريض يحمل قوة إنجازية مستلزمة، بأنكم لو تأملتم حقيقة دعوتي برجاحة عقولكم، لآمنتكم بها، لكن استكبارهم وجحودكم حال عنكم حقيقة الإيمان، ثم يأتي الاستفهام هنا للحمل على الإقرار وهو الأنسب بمقام المحاجة. ثم يأتي الجواب في الاستفهام عادة فيه من الإقرار والتثبيت سواء كان صريحا أو ضمنيا من الخاطب؛ فتقديم نوح عليه السلام للأدلة على نبوته ودعوته، وحرصه الشديد على نجات قومه ونصحهم إياهم وتحقير آلهتهم، لم يترك لهم أي منفذ على المحاجة، بل لجأوا إلى السخرية والاستهزاء للهروب من دعوته، وهم يعلمون أنه الحق، لكن الإنكار والاستكبار والعناد أعمى قلوبهم.

ونأخذ نموذج آخر يحقق هذه الغاية الحجاجية، قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ

أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾⁽¹⁾.

تأتي همزة الاستفهام التقريرية لتحدث للنفس نوعا من الهلع والخوف، وهذا ما يسمى بالفعل التأثيري الذي يُظهر أثرا نفسيا يترقبه المخاطب فينعقد لسانه عن التعبير، إلبا بالتسليم بما وعد به الله من وعيد وهلاك، وهذا ما يترقبه أهل المعصية من قوم لوط، وهو سؤال تقريري لإنعاش نفس لوط وإيناسه بعد ما ذاق من همّ وغمّ كاد أن يخنقه، جاء الموعد وتأكيد، فهو مطلع الصباح؛ وفي ذلك حكمة لكونهم مجتمعين في مساكنهم، فلا يفلت منهم أحد.

ب- الإنكار:

لقد وردت أمثلة كثيرة عن الأسلوب الإنكاري في سورة هود، لأنها تسرد سبع قصص لأنبياء مع أقوامهم، وجاءت لتدعو إلى عقيدة التوحيد؛ لكن في المقابل هناك إنكار

(1) - سورة هود: جزء من الآية 81.

الفصل الثاني: ————— التوظيف الحجاجي في الدرس اللغوي والتداولي في سورة هود

وتهكم لهذه الدعوة الايمانية، في صيغة أسلوب إنكاري وغرضه البلاغي "أن يتنبه السامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدع ويعي بالجواب"⁽¹⁾.

ومن أمثلته، قوله تعالى: ﴿وَمَا قَوْمٌ لَوْطٍ مِّنْكُمْ بَبَعِيدٍ﴾⁽²⁾.

إن قوة الفعل الإنجازي المستلزم يتمثل في تهديد وتحذير الكفار والمشركين من العذاب الذي حلّ بالأقوام السابقين، فهم ليسوا ببعيدين منهم في الكفر، وهم عبرة لهم، لذا يرى أوستين أنّ الفعل الإنجازي "يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمقصد المتكلم، وعلى السامع أن يبذل الجهد الكافي للوصول إليه، وهذا يقوم مقام قصد المتكلم الذي يعبر عن الانجاز بدور مركزي في نظرية الفعل الكلامي"⁽³⁾، أما الفعل التأثري فتظهر ملامحه فيما يحدثه الفعل الإنجازي في نفسية (المتلقي) من الرهبة والخوف.

ج- التهكم والتحقير:

يُعد مصطلح التهكم في نظر البلاغيين آلية من آليات البيان فهو "عبارة عن إخراج الكلام على ضد مقتضى الحال استهزاء بالمخاطب"⁽⁴⁾، فهو سلاح تلمحي يقصده المتكلم للإنزال من مقام السامع والسخرية منه، ويدخل في الاستراتيجيات التلميحية، حيث "يعبر بها المرسل عن القصد بما يغاير معنى الخطاب الحرفي، لينجز بها أكثر مما يقوله، إذ يتجاوز قصده مجرد المعنى الحرفي لخطابه، فيعبر عنه بغير ما يقف عنده اللفظ مستثمرا في ذلك عناصر السياق"⁽⁵⁾. ومثاله قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَسْخَبُ أَصْلُوكُ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتَّزِكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾⁽⁶⁾.

(1) - الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص. 119.

(2) - سورة هود: جزء من الآية 89.

(3) - ينظر: محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص. 69.

(4) - يحيى العلوي: الطراز، ج 3، ص. 91.

(5) - عبد الهادي ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص. 371.

(6) - سورة هود: الآية 87.

الفصل الثاني: ————— التوظيف الحجاجي في الدرس اللغوي والتداولي في سورة هود

لقد استعمل قوم شعيب نوع من المغالطة الكلامية، فقد استعاروا لفظي الحلم والرشد بما هي في التّضاد للسّقه والغواية، وهما يحملان فعلا إنجازيا ضمنيا بمعنى السّقه والجهالة، فالآية تحمل ما يعرف "بالمفارقة البنائية Structural irony التي تعتمد على معرفة مقصد المتكلم السّاخر، ووظيفتها تدعيم بنية الدلالة في النّص وتأكيدا ويأتي ظهور المعنى بوجهين مختلفين، أي لعرض مستوى من مستويات المعنى، وهو الظاهر، بغية الوصول إلى مستوى آخر، وهو المعنى الباطن الذي ترمي إليه الدلالة العميقة للمنطوق، أو عدد من المنطوقات التي ذكرت في الآية الكريمة (1).

لقد استعمل القوم أسلوب الاستفهام للنيل من خصمهم وهو النبي شعيب عليه السلام، وذلك لإقناع هؤلاء القوم وكل من يسير على شاكلتهم على التّصدي لدعوته، مستخدمين أسلوب التّهم والاستهزاء بالصّلاة، وذلك في صورة مغالطية وقد أنكروا جملة من الأمور تدعم حججهم، وتبطل ما دعاهم إليه النبي وهي:

- التقليل من شأن قدر النبي شعيب عليه السلام، واستهزائهم بصلاته.
- قولهم بأن لنا الحرّية في التّصرف في أموالنا، ولا شأن لك فيما نعمل، فإننا نستوفي عند الكيل ونبخس من أموال الناس.
- مناداته بصفة الحليم الرشيد التي تتعارض مع شدة إنكارهم واستهزائهم بما سبق، فالقوّة الإنجازية المستلزمة التي افتعلها قوم شعيب عليه السلام هي التّهم والاستهزاء وإقرارهم بأننا لن نؤمن بدعوتك.
- د - استفهام التعجب:

يقصد باستفهام التعجب هو تعظيم الشيء، وخروجه عن المألوف، بحيث يُلقى على قلوب السامعين الحيرة والتّشوق لمعرفة السّبب، قال الزّمخشري "معنى التّعجب تعظيم الأمر في قلوب السامعين؛ لأنّ التّعجب لا يكون إلا من شيء خارج عن

(1) - ينظر: محمد العبد، المفارقة القرآنية دراسة في بنية الدلالة، دار الفكر العربي، دمشق، ط1، 1994، ص78.

الفصل الثاني: ————— التوظيف الحجاجي في الدرس اللغوي والتداولي في سورة هود

نظائره⁽¹⁾، فأسلوب التعجب خطاب حجاجي، يستعمله المتكلم لقصد من المقاصد كالتضامن مع المتلقي أو وجود حيرة أو ثناء على شيء من الدهشة، لأنّ ليس الإبهام الحقيقي هو الدافع الوحيد إلى استعمال أسلوب التعجب، بقدر ما هو التضامن مع المرسل إليه بجعل ما هو معروف في مكانة المبهم؛ لأنّ الشيء المبهم إذا أبهم كان أفخم لمعناه وكانت النفس مُتَشَوِّقَةً إليه لاحتماله أموراً⁽²⁾. ومن نماذج قوله تعالى على لسان سارة:

﴿قَالَتْ يَوْتِلَيَّ آلِدٌ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾⁽³⁾.

إذا نظرنا إلى "الاستفهام بالهمزة" في موضع هذه الآية الذي نراه يفيد التعجب ويليه الفعل "ألد"، وأنّ الفعل بعد الاستفهام بالهمزة يكون للشك؛ لأنّ "غرضك من استفهامك أن تعلم وجوده"⁽⁴⁾. فزوجة النبي إبراهيم عليه السلام سارة، طرحت سؤالاً تريد له إجابة، وهي كيف ألد وأنا عجوز عقيم، وهذا بعلي بلغ من العمر عتياً، فهي تريد أن تنقع نفسها بالبحث عن الإجابة، وهذا يقودنا إلى أنّ "الاستفهام في الأصل يتطلّب جواباً يحتاج إلى تفكير يقع به هذا الجواب في موضعه، ولما كان المسؤول يجيب بعد تفكير وروية عن هذه الأسئلة بالنفي، كان توجيه السؤال حملاً له على الإقرار بهذا النفي، وهو أفضل من النفي ابتداءً"⁽⁵⁾.

ثم يأتي الجواب عن الاستفهام من الملائكة مباشرة، قال تعالى: ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾⁽⁶⁾، فالفعل الإنجازي الذي يحمل النهي؛ "لا تعجبي" يا سارة من بشارة الملائكة حتى إن كنت عجوزاً عقيماً وبعلك شيخاً كبيراً فإنّ الله على كل شيء قدير.

(1) - الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج2، ص423.

(2) - ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص307.

(3) - سورة هود: الآية 72.

(4) - الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص111.

(5) - أحمد بدوي: من بلاغة القرآن، ص126.

(6) - سورة هود: الآية 73.

الفصل الثاني: ————— التوظيف الحجاجي في الدرس اللغوي والتداولي في سورة هود

ويأتي جواب الملائكة لزوجة إبراهيم عليه السلام بجملة "﴿تَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾^ط، فهذا إنكار لتعجبها، لأنه تعجب مراد منه الاستبعاد، وأمر الله "هو أمر التكوين، أي أتعجبين قدرة الله على خلق العادات. وجوابهم جار على تقتهم بأن خبرهم حق منبئ عن أمر الله"⁽¹⁾. ويمكن تمثيله بالشكل الآتي:

الفعل الكلامي المباشر

← الشك والتعجب

← بصيغة الاستفهام ← القوة الإنجازية المستلزمة ← تقرير

← النهي عن التعجب

← الإنكار من التعجب

← البشارة.

2-5 التعبيرات:

هي أفعال كلامية غرضها الإنجازي هو "التعبير عن الموقف النفسي تعبيرا يتوافر فيه شرط الإخلاص... في التعبير عن القضية ويدخل في هذا الصنف أفعال الشكر، والتهنئة، والاعتذار، والتعزية، والترحيب"⁽²⁾.

قال تعالى: ﴿وَيَلْقَوْنَ لَآ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ

هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾⁽³⁾.

تحقق هذه الآية بعدا نفسيا، وهي إشارة لما حل من وعيد وتهديد وعذاب على قوم نوح وهود ولوط، فالقرآن الكريم يسعى إلى التغيير في البناء النفسي للفرد من خلال استعمال أسلوب التخويف والتهديد، والذي له دور في إثارة الأحاسيس والشعور للمتلقي،

(1) - الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، ج12، ص 121 - 122.

(2) - أحمد أبو نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص90.

(3) - سورة هود: الآية 89.

الفصل الثاني: ————— التوظيف الحجاجي في الدرس اللغوي والتداولي في سورة هود

فنتحوّل هذه الانطباعات النفسية إلى سلوكيات تتفق مع أوامر ونواهي الله تعالى، وهذا هو جوهر الإستراتيجية الدينامية النفسية للإقناع⁽¹⁾.

ولا شك أن تسلسل الأحداث لهذه الأقوام لعبرة وحنة لمن بعدهم، فتومئ للمتلقى مزيداً من النظر والتأمل، يقول بعض علماء النفس: "إنّ الترابط - وهو ربط شيء بآخر - هو الطريقة الوحيدة لتذكّر أي شيء مهما كان . والتذكّر سبيلٌ لتحريك العقل. وإذا تحرك العقل بالنظر أو القياس أو الاستقراء، فقد يتحرك القلب بالإيمان، والوجدان باليقين⁽²⁾ .

- الفعل الكلامي غرض الفعل الإنجازي التأثيري

أن يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ ← الخوف والترهيب (موقف نفسي) ← ن: مصير السابقين الأقوام السابقة

وقال تعالى أيضا: ﴿قِيلَ يٰنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَّمٌ سَنَمَتُّعُهُمْ ثُمَّ يَمْسُهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾⁽³⁾.

جاء الفعل الكلامي "اهْبِطْ بِسَلَامٍ" أي دون خوف أو رهبة، فهي تعبّر عن الحالة النفسية للمتلقى، فلفظة السلام هي بمثابة رسالة إعلامية فعّالة تهدف إلى تغيير الأفعال النفسية للنبي نوح عليه السلام ومن معه، فتغيّر حركة النفس من الخوف إلى الأمن والاطمئنان.

الفعل الكلامي قوّة الفعل الانجازي التأثيري

اهْبِطْ بِسَلَامٍ (أمر) ← موقف نفسي (أمن - طمأنينة) ← "نمتعكم ثم عذاب أليم"

تتجلى مبدأ التعبيرات أيضا في قوله تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾⁽⁴⁾.

(1) - ينظر: معتصم با بكر مصطفى، من أساليب الإقناع في القرآن، كتاب الأمة، سلسلة دورية تصدر عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، العدد 95، 1، 95، 1424هـ، ص 83.

(2) - التهامي نقرة: سيكولوجية القصة في القرآن، الشركة التونسية للتوزيع، رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر، ص 467.

(3) - سورة هود: الآية 48.

(4) - سورة هود: الآية 45.

الفصل الثاني: ————— التوظيف الحجاجي في الدرس اللغوي والتداولي في سورة هود

لقد حصل فعل الدعاء من النبي نوح عليه السلام إلى ربّ العزّة، يرجو فيه نجاة ابنه من الغرق، فسيدنا نوح تنكشف مشاعره وعواطفه نحو فلذة كبده، لعلّ الله يتجاوز عنه.

الفعل الكلامي } نادى نوح ربه ← موقف نفسي . (دعاء - رجاء) ← نجاة.

2-6 الالتزامات:

هي أفعال كلامية يلتزم فيها المتكلم طوعا بفعل شيء للمخاطب في المستقبل بحيث يكون المتكلم مخلصا في كلامه وأفعاله عازما على الوفاء بما التزم به كأفعال الوعد والوعيد المعاهدة.. (1).

اعتبر القاضي عبد الجبار المعتزلي (ت415هـ) أن "الوعد" و"الوعيد" كليهما من الأخبار و"الوعد" عنده "هو كل خبر يتضمّن إيصال نفع إلى الغير أو دفع ضرر عنه في المستقبل"، وأما الوعيد فهو كل خبر يتضمّن إيصال ضرر إلى الغير أو تفويت نفع عنه في المستقبل" (2). فالإخبار الأوّل فيه طمأنينة ونفع للمتلقّي، أما الوعيد فهو صفة سلبية يتوعّد فيها المتكلم المتلقّي بإيصال الضرر.

وهذه الأفعال الإنجازية على قسمين كما يراها ابن القيم قسم "متحقّق الوقوع وهو وعد الله سبحانه وتعالى لقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ (3)، وقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ﴾ (4) ووعد مرجو وقوعه وهو وعد العباد" (5).

أ- الوعد: ويتجلى في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (6).

(1) - ينظر: محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص104.

(2) - مسعود صحراوي: التداولية عند العرب، ص143.

(3) - سورة الروم: جزء من الآية 06.

(4) - سورة آل عمران: جزء من الآية 09.

(5) - ابن القيم: كتاب الفوائد، ص152.

(6) - سورة هود: الآية 06.

الفصل الثاني: ————— التوظيف الحجاجي في الدرس اللغوي والتداولي في سورة هود

يأتي الفعل الكلامي الإخباري الوعد، وهو يتضمن معرفة مستقبلية بالفعل، وفيه إثبات من الله عز وجل بأن الرزق بيده سبحانه وتعالى ولعامة الدواب بما فيها الإنسان فهو مكفول لكل الخلق، وهذا الفعل الكلامي عبّر عنه سيرل بالمحتوى القضوي الذي "يتحقق شرطه في فعل الوعد إذا كان دالاً على حدث في المستقبل يلزم به المتكلم نفسه"⁽¹⁾، وسياق الآية يشير إلى التزام من الله تعالى على رزق خلقه وأنه "باق على تفضله لكن لما وعده سبحانه وهو جلّ شأنه لا يخلّ بما وعد صورّه بصورة الوجوب لفائدتين: التحقيق لوصوله. وحمل العباد على التوكل فيه"⁽²⁾.

ب- الوعيد: لقد دعا الأنبياء أقوامهم إلى الإيمان بالله بكل الطرق والوسائل، وتوعدّ المنكرين بالعذاب الشديد، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنْ الْأَحْزَابِ فَأَلْنَا رُ مَوْعِدُهُ﴾⁽³⁾، فالتهديد في هذه الآية يعبر عن فعل انجازي الذي يدخل ضمن بوتقة الأفعال الكلامية غير المباشرة؛ لأن قوتها الإنجازية تخالف مراد المتكلم"⁽⁴⁾، فبنزول العذاب الشديد عند الإصرار الإصرار على الشرك والكفر والجحود، وهو بمثابة تهديد دائم لمن تسوّّل له نفسه إتباع الضلال والانحراف عن شريعة الله، لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾⁽⁵⁾.

(1) - الصرّاف علي محمود حجي: في البراجمئية، الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة، ص52.

(2) - الألوسي: روح المعاني، ج12، ص02.

(3) - سورة هود: جزء من الآية 18.

(4) - ينظر: واضح أحمد، الخطاب التداولي في الموروث البلاغي العربي من القرن الهجري إلى القرن السابع الهجري، الهجري، أطروحة دكتوراه علوم، إشراف لزعر مختار، كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة وهران، 2011-2012، ص280.

(5) - سورة هود: جزء من الآية 03.

الفصل الثالث

الحجاج البلاغي وآلياته الإقناعية

توطئة.

أولاً- من سلطة اللغة إلى تجليات الصورة

ثانياً- البديع بين جرس الألفاظ وتداعيات المعاني

توطئة:

أعطى عبد القاهر الجرجاني مثالا حياً مستنداً به على أن بلاغة الصّور تمثّل وظيفة تأثيرية إقناعية، تتجاوز المستوى الجمالي، يقول في هذا الشأن: "لو أنّ رجلاً أراد أن يضرب لك مثلاً في تنافي الشئيين فقال: هذا وذاك هل يجتمعان؟ وأشار إلى ماء و نار حاضرين، وجدت لتمثيله من التأثير ما لا تجده إذا أخبرك بالقول فقال: هل يجتمع الماء والنار؟ وذلك الذي تفعل المشاهدة من التحريك بالنفس، والذي يجب بها تمكّن المعنى في القلب إذا كانت مستفادة من العيان، ومتصرفّة حيث تتصرف العينان"⁽¹⁾.

إنّ الصّورة هي جوهر الشعر وتاجه، وهي وسيلة من وسائل الاتّصال بين الأفراد، لأنها تكشف عن شعرية الإبداع التي يميّز بها المبدع، فهي تجسيم لمنظر حسّي أو مشهد خيالي، يتخذ اللفظ أداة له، وهناك -بالإضافة إلى التجسيم- اللون والظلّ، والإيحاء والإطار. وكلها عوامل لها قيمتها في تشكيل الصّورة وتقويمها⁽²⁾. ويمكن أن نقول: هي استدعاء للحجج والمشاعر، لقصد التأثير والإقناع. وهنا تتبادر إلى الذهن أسئلة عميقة تتعلق بوظائف الصورة في الخطاب البلاغي أذكر منها: ما درجة التفاعل والتواصل الذي تبديه الصورة في الخطاب؟ كيف يتعاطى المتلقي معها عند فعل القراءة؟ هل يكمن أثرها في الرصيد الإقناعي أم في التجسيد الإمتاعي؟ أو إلى تمثيل جانب جمالي؛ باعتبار أنّ "الجمال فيها رافد من روافد الإقناع وتقنية من تقنيات الاستمالة والتأثير فهو متمم لوظيفتها، وإن يُقصد إليه قصداً⁽³⁾، فهي بمثابة ترجمان لما تراه العين البصيرة على الواقع، وإضافتها في أحسن حلّة من أجل التأثير في النفس والإقناع بها. فكلما كان معنى الصّورة أبعد وأعمق وأغرب كانت أبلغ للحجّة وأعجب وألذ للنفس.

(1) - عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، ص 127.

(2) - ينظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي، نظرية التصوير عند سيد قطب، دار الشهاب، باتنة، الجزائر، 1988، ص 75.

(3) - ينظر: سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، ص 111-112.

أولاً- من سلطة اللغة إلى تجليات الصورة في الخطاب القرآني:

تمثل الصورة في القرآن الكريم أعلى درجات البيان، لما فيها من الدقة في تصوير الحقائق اليقينية التي لا تبعث إلى السامة أو الملل الذي تنفر منه النفوس، فالخطاب القرآني يتضمّن في جزئه الأوّل كلامًا مصرحًا به، ونقصد بذلك القرينة اللفظية، التي تؤدي بدورها إلى فهم الكلام الضمني الذي ينتجه المتلقي⁽¹⁾، وبهذا فإنّ الصورة تمثّل الشيء المحسوس وإظهاره للمخاطب، لحمله على الإقناع أو الاقتناع وتوير فكره بالحجة البينة والتسليم بها.

1- المجاز المرسل:

جاء تعريف المجاز المرسل عند البلاغيين "هو ما كانت العلاقة بين ما استعمل فيه وما وضع له ملابسةً غير التشبيه"⁽²⁾، ولعلّ أكثر البلاغيين والنقاد ينظرون إلى المجاز المرسل على أنه صورة ذات قيمة جمالية، يعرض فيها الشاعر أو الأديب حلّة كلامه، لكن في المقابل هناك من يرى، بأنه طريقة من طرق الاستدلال والإقناع، فهو "طريقة من طرائق إثبات المعنى وإقامة الدليل عليه"⁽³⁾.

فإذا كانت الاستعارة تقوم على خرق دلالي لحدود الشيء ونقله إلى وضع جديد تحت حكم المشابهة، فإنّ المجاز المرسل جاء يسير عكس تيار الاستعارة، فهو "يؤتى به لتجلية الجوهر وإبرازه فهو جزء ظاهر منه أو نتيجة عنه أو سببًا له وهو في الحالات الجانب الظاهر الذي يبدو رغم ظاهريته أجدى في الحجاج من الجوهر الذي جاء ينوب عنه"⁽⁴⁾.

(1) - عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، ص 127.

(2) - القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، المعاني البيان البديع، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2003، ص 205.

(3) - جابر عصفور: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، ص 166.

(4) - عبد الله صولة: نظرية الحجاج، ص 101.

إنّ المجاز إذا لم يفهمه المتلقي على الوجه المقصود، فلا يكون قاصراً عن فهم معنى الحقائق والوقائع فحسب، وإنما يتعدى إلى تحريف المعنى وتغيّر الدلالة، وهذا ما يقع فيه الكثير من هو جاهل باللّغة؛ لأنّ المجاز في القرآن الكريم تعبير أصيل به تميّز عن باقي اللّغات، يمدحها الخفاجي بقوله: "إلا أنّ لغتنا فيها من الاستعارات الحسنة الموضوعّة ما ليس مثله في غيرها من اللّغات"⁽¹⁾. ومما ورد في مدونتنا، قوله تعالى:

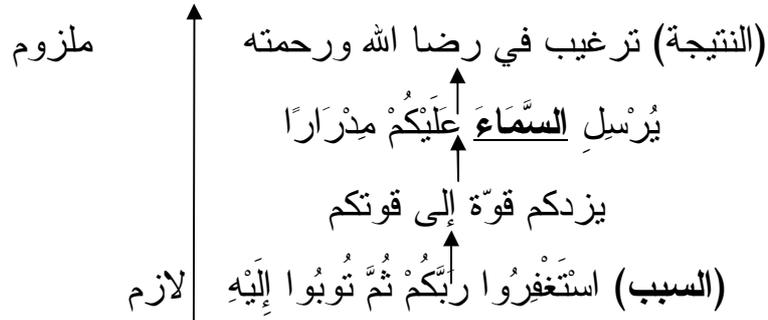
﴿وَيَقَوْمٌ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ ثُمَّ نُوْبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدُّكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾⁽²⁾.

تُبرز صورة المجاز المرسل في هذه الآية التي تحمل العلاقة السببية، حيث عبّر بالسّماء عن المطر؛ لأنّها سبب الجود والعطاء والنّفْع، فالمجاز يستجيب لمسار حجاجي كونه يحيل إلى نتيجة، وهي حتّ القوم على الاستمالة والخضوع إلى الله تعالى، والإيمان بوحدانيته، فلجوء هود عليه السلام إلى ترغيب قومه إلى فعل الطاعات وترك المنكرات من عبادة الأوثان والأصنام، التي اتخذوها آلهة دون الله طمعاً في نجاتهم، لذا أمرهم بتقديم الأسباب من الاستغفار والتوبة من أدان الشرك، "والأظهر أنّ الله أمسك عنهم المطر سنين فتناقص نسلهم ورزقهم جزاءً على الشّرّك بعد أن أرسل إليهم هوداً - عليه السلام - فيكون قوله "يرسل السماء" وعداً وتنبئهاً على غضب الله عليهم"⁽³⁾، وقد حاول سيدنا هود عليه السلام إقناع قومه بالوحدانية وحثّهم من العدول والإعراض عمّا نهاهم عنه؛ لأنّها سبب مقت الله وغضبه، ونقص الخير في الدنيا والآخرة .

(1) - ابن سنان الخفاجي: سرّ الفصاحة، ص 50.

(2) - سورة هود: الآية 52.

(3) - الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، ج 12، ص 96.



ومن أمثلته أيضا قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ

وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾⁽¹⁾.

جاء لفظ المجاز المرسل من باب إطلاق الكل والمراد به الجزء أو البعض؛ أي أنهم "عصوا رسولهم هودا، وهذا يدل على فضيع حالهم وبيان أن عصيانهم له عصيان لجميع الرسل السابقين واللاحقين فهو مجاز من باب إطلاق الكل وإرادة البعض"⁽²⁾. وهو بذلك يريد أن يقنعنا بقوة جحود القوم وتعنتهم وإعراضهم عن الإيمان، لهذا وظّف المجاز في هذا المقام لإبراز شناعة فعل قوم هود، كما تسوق هذه الحجّة إلى المتلقي الكوني أن يعتبر بما آل إليه قوم عاد.

2- حجاجية الاستعارة:

تعد الاستعارة جوهرة اللسان البشري، لأنها تعين المتكلم على الوصول إلى أهدافه الحجاجية، بـغية التأثير والإقناع، بل إنها من الوسائل اللغوية التي نعتمدها بشكل كبير جدا، ما دما نسلّم بفرضية الطابع المجازي للغة الطبيعية⁽³⁾، فإذا كان الخطاب الشعري يزرع إلى توظيف الصّورة الشعريّة الممزوجة بالخيال الذي يُرجى منه اللذة والإمتاع وتملك قلب السامع، فإنّ "الاستعارة الحجاجية تكون أكثر قهرا واقتسارا"⁽⁴⁾، وتعمل على توظيف السياق لبيان تأثيرها الإقناعي.

(1) - سورة هود: الآية 59.

(2) - محمد حسين سلامة: الإعجاز البلاغي، ص110.

(3) - ينظر: أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص106.

(4) - عبد السلام عشير: عندما نتواصل نغيّر، ص118.

كما تُسهم في إحداث تغيير في الموقف الفكري أو العاطفي للمتلقّي، ودفعه إلى الاقتناع، فهي قاعدة مشتركة بين المخاطب والمتلقي في الدعوى وتبادل الأحاسيس والمشاعر⁽¹⁾، فالاستعارة نوع من الغموض والخفاء الدلالي لمفرداتها، وهذا الغموض من مسلمات اللغة الطبيعية؛ لأنها "أصل لكل غموض دلالي، ومجال لكل انزياح لساني، وعليه يكون الأمر معقداً وعسير الفهم في العملية الحجاجية"⁽²⁾، وعلى المخاطب أن يستعمل كفاءته اللغوية والبلاغية والمنطقية والنفسية، بغية السيطرة على ذهن المتلقي والتأثير وإقناعه، وفي المقابل يجب على هذا الأخير (المتلقي) تحريك آلة عقله لفك شفرات الخطاب من خلال آليات الفهم والتأويل حتى يتسنى له الوقوف على مقصدية الخطاب.

وعليه يمكن أن نقول: أنّ الاستعارة حاضرة معنا في كل وقت، يتداولها الناس ببسر، وهذا ما يؤكد لا كوف وتورنر Turner "الاستعارة أداة عادية حيث نستعملها بدون وعي منا، بشكل آلي وبأقل مجهود (...) وهي تسمح لنا بفهم ذواتنا والعالم الذي نعيش فيه بطريقة أسهل من أنماط أخرى للفكر"⁽³⁾، وهذا ما بلغنا به من قبل ابن جني: "اعلم أنّ أكثر اللغة مع تأمله مجاز لا حقيقة"⁽⁴⁾، فاللغة البشرية لا تخلو من الاستعمال الاستعاري، لما لها من طاقة الاستيعاب التي لا تخلو منها أي لغة.

تُشكل الاستعارة جوهر الخطاب القرآني وخاصته، لما لها من وقع خاص في نفسية المتلقي، ومن أمثلته، قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ أَبْلغِي مَاءكِ وَيَسْمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾⁽⁵⁾.

(1) - ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص 495.

(2) - عبد السلام عشير: عندما نتواصل نغيّر، ص 131.

(3) - سامية إدريس: أنماط اشتغال الاستعارة في البلاغة الجديدة، مجلة الخطاب، العدد 19 جانفي 2015، جامعة تيزي وزو، الجزائر، ص 207.

(4) - ابن جني: الخصائص، تحقيق، محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، ج 2، ص 447.

(5) - سورة هود: الآية 44.

إنَّ أوَّل ما بدأت به الآية حرف النَّداء "يا" دون سائر أخواتها، لأنها أكثر استعمالاً، لدلالاتها على بعد المنادى والتي تُفضي إلى انقيادها لأمر الله وحكمته، وهو مقام إظهار العظمة، وجاء تقديم التنبيه لتمكين الأفعال الأمرية الواردة بعده في نفس المنادى، واستخدم الفعل ﴿قِيلَ﴾ وهو فعل ماضٍ مبني للمجهول، وكان الأصل أن يصاغ إلى فعل مضارع فعدل عن هذا تنبيهاً على تحقق الوقوع، ويدلّ مرة ثانية على إيهام للقائل وتعظيم لأمر الله سبحانه وتعالى وهو يخاطب الجماد (الأرض والسماء).

لقد أمر الله سبحانه وتعالى الأرض بابتلاع الماء، على سبيل الاستعارة، وأنَّ اختيار لفظ "بلعي" الذي يستعمل عادة للطعام أو الغذاء دون الماء، وهو الذهاب إلى مقر خفي، ووقعت المشابهة بين الماء والغذاء؛ فالماء مثل الغذاء يرجى منه الإنبات للزروع والأشجار، والأرض تقوي الأكل للطعام⁽¹⁾، وقد استعمل لفظ البلع الخاص بالطعام وإسقاطه على الماء لاستخلاص التشابه بينهما لغاية تقريب المعنى إلى المتلقي، وهذا ما يراه فونتانيي (Fontanier)، أنَّ وظيفة الاستعارة الحجاجية هي "تقديم فكرة تحت علامة تكون ملفنة أكثر، أو معروفة أكثر والتي لا تتعلق على كل حال بالأولى بأي رابط آخر غير نوع من التوافق أو التماثل"⁽²⁾، هذا كلّ من أجل إقناع المتلقي من خلال تجسيد المعاني بصورة حسيّة، حتى تنسَى للمشاهد عظمة هذا الخالق على أنه وحده المستحق للعبادة.

وهذا الاستدلال بالدليل الحسي يدلّ على "عظمة هذه الأجسام، وشدّتها وقوتها، فإذا شعر العقل بوجود موجود قاهر لهذه الأجسام مستول عليها، متصرّف فيها كيف شاء وأراد، صار ذلك سبباً لوقوف القوّة العقلية على كمال جلال الله تعالى وعلوّ قهره وكمال قدرته ومشيئته"⁽³⁾، وهذه حجج عينية تدفع بالمتلقي إلى التأمّل والتدبير، واستنباط دلائل قدرة الله.

(1) - ينظر: السكاكي، مفتاح العلوم، 528.

(2) - سامية إدريس: أنماط اشتغال الاستعارة في البلاغة الجديدة، مجلة الخطاب، ص 203.

(3) - أبو الخير شمس الدين محمد الجزري: كفاية للألمي، ص 81.

أما لفظ الإقلاع الذي نادى به الله تعالى السَّماء أن تكفَّ عن إنزال المطر. فإنّه يحمل من الرّهبة والعظمة التي يتجلّى بها سبحانه وتعالى، والسَّماء تعلم بهذا المنادى، لذا كانت الاستجابة فورية دون تفكير وتأمّل وهذا لعظمة شأن المخاطب. "وذلك أدلّ على نفاذ القدرة، وطواعية الأمور، من غير وقفة ولا لبثة، هذا إلى ما في المزاجية بين اللفظتين من البلاغة العجيبة، والفصاحة الشريفة"⁽¹⁾.

كما تتجلى صورتها في ملء المحلّ الشاغر الذي يُلبّي البعد الحجاجي للمتقين؛ لأنّ المحلّ ليس مجرد وسيط سياقي يبيح الاستنتاج، بل إنّ ذلك الحجّة التي نريد استدراج المتلقي إليها حتى يُذعن لها من دون أن نقول له ذلك"⁽²⁾، ويمكن أن نستنتج بعض الأبعاد الحجاجية التي تروم إليها الآية الكريمة:

- إقناع المتلقي أنّ العظمة والعلوّ والجبروت لا تتأتى إلا من ذي قدرة.
- إثبات أن العزّة لله وللمؤمنين، وتقرير ضلال أهل الكفر وتقويض حججهم، والكشف عن مدى صدق الرسالة والرّسل.
- بناء صورة الذات الإلهية المؤثرة في النفوس، وتعظيم مهابته في نفوس المخاطبين .

كما تتجلى في ذات الله جملة من الصفات والأفعال التي لا اعتراض عليها وهي القدرة على التأثير في المخاطبين من خلال الترهيب والترغيب"⁽³⁾، وأنّ مخاطبة الذات الإلهية للجمادات (الأرض والسماء) بما يخاطب به العقلاء دليل على انصياع كلّ مخلوق لأمر الخالق دون تفكير أو رويّة، ويؤكد "رولان بارت" أنّ البحث الاستعاري، "يهدف إلى إعادة بناء اشتغال الأنظمة الدلالية، وغاية البحث فيها هو الولوج إلى الدال الذي يتيح عتق المدلول وإعطائه معانٍ متعددة ودلالات شتى"⁽⁴⁾، فكلما طغى على الخطاب الحجاجي مزيد

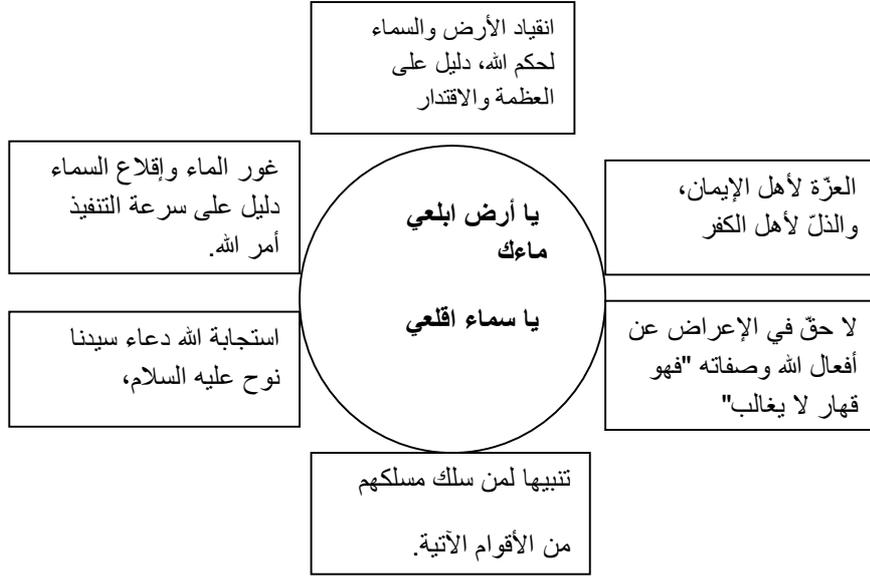
(1) - شريف الرضي: مجازات في القرآن الكريم، ص 162.

(2) - كمال الزماني: حجاجية الصورة في الخطابة السياسية لدى الإمام علي رضي الله عنه، ص 208

(3) - ينظر: السكاكي، مفتاح العلوم، ص 528.

(4) - رونال بارت: نظرية النصّ، ترجمة محمد خير البقاعي، مجلة العرب والفكر العلمي، بيروت، العدد 3، 1988،

من المتلازمات في المعاني زادت فسحة كبيرة في بيان الدليل، ومساحة التأثير والإقناع والشكل المقابل أكثر تفصيلاً .



وختم الله تعالى خطابه، بقوله ﴿وَقِيلَ بَعْدَ اللَّقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، وهذا تعريضاً و"تنبيهاً وعبرة لمن سلك مسلكهم في تكذيب الرسل ظلماً لأنفسهم لا غير، وبياناً لمكان السخط والعذاب، وأن قيمة الطوفان، وتلك الصورة الهائلة، ما كانت إلا لظلمهم⁽¹⁾. وتبقى هذه الحقائق المحسوسة خالدة تثير ذهن المتلقي الكوني عبر الأزمان.

ومن النماذج الاستعارية أيضاً قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَذْقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ ۖ وَلَيْنَ أَذْقْنَاهُ نَعْمَاءً بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسْتَه لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۗ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۗ﴾⁽²⁾.

تأتي بؤرة (مركز) الاستعارة في لفظة "الدوق"، وأصل استخدامها يأتي في اختبار الشيء، ويرتبط غالباً بسياق الأكل، ولا شك أن اختيار اللفظ لم يأت اعتباطياً في القرآن الكريم؛ لأنه أصدق أداة تجعل القارئ يحسّ بالمعنى أكمل إحساس وأوفاه، وتصور المنظر

(1) - ينظر: السكاكي، مفتاح العلوم، ص 529.

(2) - سورة هود: الآية 8-11.

للعين، وتتقل الصوت للأذن، وتجعل الأمر المعنوي ملموساً محسناً⁽¹⁾، وأنّ صدورها في القلوب أعمق تأثيراً وتوجيهاً.

جاءت لفظة الإذاقة من المجاز، وهذه استعارة، حيث شبه الرحمة بالطعام وهو المشبه به المحذوف، وترك أحد لوازمه وهو الذوق. إذاقة الرحمة ونزعها ليستا بحقيقة في هذا الموقف، والرحمة "أريد بها رحمة الدنيا، وكلّ النعم التي ينعم بها هذا الإنسان كالصحة والأمن والعافية، وأما النزع فهو سلب النعمة والافتكاك بها"⁽²⁾، ويشير لفظ الذوق في القرآن الكريم أكثره إلى العذاب.

وتوحي دلالاته الحجاجية من خلال الأثر النفسي الذي يتركه في قلب أهل الزيغ والضلال، جراء العذاب الذي يتجرّعون، "لأنه جعل بدل إحساس الطعام المستلذ إحساس الآلام... وإن لم يكن من المعنويات إلا أنّ العبارة عنه بذوق اللسان أوضح وأظهر، لأنّ الذائق يتّجه إلى الشيء الذي يريد ذواقه وهو منتبه إليه"⁽³⁾ وهذا ما ورد، في قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾⁽⁴⁾.

كما وُظفت في سياق الرحمة، قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَذْقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾، يأتي دخول لام القسم في الآية بغرض "جهة التأكيد والتفسير أو الاعتراض والتشديد"⁽⁵⁾، فجاءت لتثبت أمراً، أو تكشف عن حالة المتكلم في حالة الإعراض أو التردد. جسدت الاستعارة في هذه الآيات انطلاقا من محسوس لمعقول، فنجد المحسوس ينطلق من "استحضار حاسة الذوق بدلا من الإصابة؛ لشدة أثر الذوق في المتلقي، وبه يدرك الطعم المرّ والبشع"⁽⁶⁾. أما المعنى المعقول، فهو الرحمة الإلهية التي تشمل جميع خلقه من الكفار والمنافقين والمؤمنين وحتى العجميات من الحيوانات .

(1) - أحمد بدوي: من بلاغة القرآن، ص166.

(2) - ينظر: طاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج12، ص12.

(3) - محمد أبو موسى: الإعجاز البلاغي، دراسة تحليلية لتراث أهل العلم، مكتبة وهبة، القاهرة، ط2، 1997، ص127.

(4) - سورة الأنفال: جزء من الآية 35.

(5) - ينظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج2، ص473.

(6) - ينظر: السيد جعفر باقر الحسيني، أساليب البيان في القرآن، بوستان كتاب، أصفهان، ط1، ص510.

لقد كشفت لنا هذه الصورة الاستعارية عن حالة بعض النفوس المريضة، وهي في حالة صراع داخلي في مشهد عجيب يفضح ما في دواخلهم من مكنونات . فالصورة الحجاجية في هذا المقام ترسم لنا صراعا نفسيا وعقليا للإنسان، فهي تعبّر عن "كلام نصفه وهو المصرح به من صنع النص أو المتكلم، ونصفه هو الضمني من صنع المتلقي"⁽¹⁾، لهذا فكلّ صنف من النّاس اختار نتيجته النهائية بنفسه، إمّا أن يكون من المؤمنين أو العاصين، ونورد أدلّة تحمل بيان النتيجة التي يؤول إليها كل صنف .

1- فالصنف الأول من الناس أذاقه الله رحمة؛ أي أعطاه من النعم الدنيوية من صحة وأمن وعافية، وهذه النعم زائلة لا محالة، لكنها حجّة على إظهار الحمد والشكر، وهي جزء يسير من النعم المكتنزة له يوم الآخر، لذا استعمل لفظ الإذاقة، فإن تعرضت هذه النعم إلى النزع والسلب؛ وأبدلت شدة ونقمة أضحى جاحدا لهذه النعم وصار يؤوسا وكفورا.

م 1 — ← إذاقة الله تعالى الإنسان الرحمة

م 2 — ← نزع الله منه الرحمة

ن — ← يؤوس كفور

أما الصنف الثاني من خلقه، فقد مسّتهم ضراء وشدة، والمسّ هنا ما يلاصق البشرية أو الجسد ظاهرياً دون الإصابة المباشرة، وهذه من رحمة ربي، أي من غير تأثير، ويأتي الحرف "ثم" الذي يفيد الترتيب والتراخي، فقد أذاقه الله رحمة فقابل نتيجة هذا الفضل العظيم من النعم بالفرح الذي يصحبه الكبر والخيلاء والتعظيم واحتقار خلقه، وعدم شكر نعمه، وهذا الفرح مذموم، لقوله تعالى: ﴿...إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾⁽²⁾.

(1) - كمال الزماني: حجاجية الصورة في الخطابة السياسية لدى الإمام علي رضي الله عنه، ص 208.

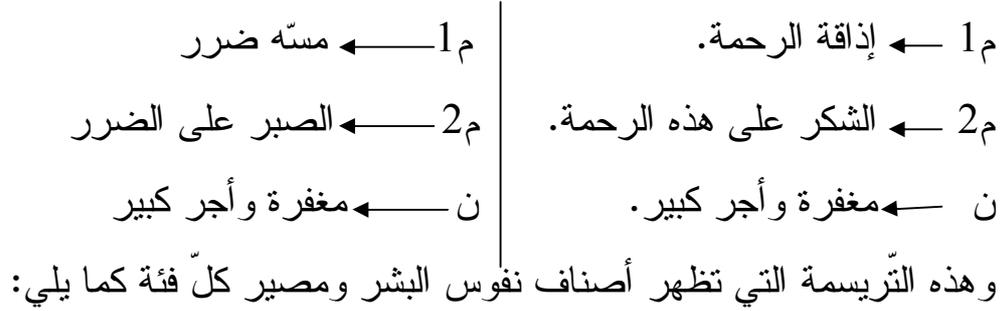
(2) - سورة القصص: جزء من الآية 76.

م1 ← مسّه ضرر

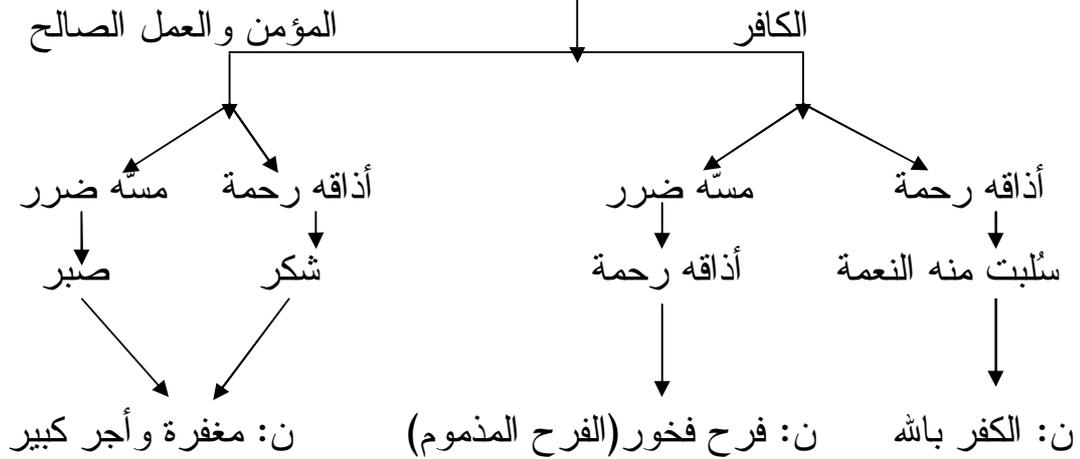
م2 ← أذاقه النعمة بعد ضرر

ن ← فرح فخور (الفرح المذموم)، عدم شكر النعم.

أما المؤمنين فقد استثناهم الله تعالى من بقية خلقه، ووصفهم الله عزوجل أنّ ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾، فالجملة مستأنفة ابتدائية، والإتيان باسم الإشارة عقب وصفهم بما دلّ عليه الاستثناء، بالصبر وعمل الصالحات تنبيه على أنهم استحقوا ما يذكر بعد اسم الإشارة من أجل ما ذكر قبله من أوصاف⁽¹⁾، فإن أذاقهم الله رحمة، قابلوا ذلك بالشكر والحمد، وإن مسّهم ضرر وضعف لجأوا إلى الصبر، فكان جزاؤهم مغفرة وأجر كبير.



الإذاقة والمسّ تشمل:



(1) - محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي، المجلد العاشر، ص 6356.

ويأتي الوجه الثالث من الاستعارة قوله تعالى: ﴿قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن

رَبِّي وَءَاتَنِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعُمِّتَ عَلَيْكُمْ أَنْزِلُكُمْ وَهِيَ وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ﴾ (1).

دعا سيدنا نوح عليه السلام قومه إلى التوحيد والإيمان برسالته، وهذه الدعوة كانت بمثابة نبراس ينجس عقول الناس بها يستقيم أمرهم في الدنيا والآخرة، وقد كان حريصا على هدايتهم وإنقاذهم من سوء العاقبة، لكنهم استمروا في شركهم واستخفوا منه وعطلوا عقولهم، وأقفلوا قلوبهم، وأصموا آذانهم عن سماع الحق اليقين، بل جادلوه بحجج واهية، بأن أتباعه هم أراذل القوم، قال الله تعالى: ﴿قَالُوا أَنْتُمْ مِنْ لَدُنْكَ وَأَتَّبَعَكَ الْأَلْزَلُونَ﴾ (2).

كما طعنوا في شخصه عليه السلام ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ فكان استدلالهم مقتصرًا على الظاهر الحسي من الرؤية البصرية، لأنهم "جعلوا استدلالهم ضروريا من المحسوس من أحوال الأجسام، أي ما نراك غير إنسان، وهو مماثل للناس لا يزيد عليهم جوارح أو قوائم زائدة" (3)، ثم بالغوا في الإنكار، والتكبر واعتقادهم الباطل ببطلان حجج النبي نوح عليه السلام، فرموه بصفة الظن في الاعتقاد والكذب قال الله تعالى: ﴿بَلْ نُنَظِّمُ

كذابين﴾. وعلى الرغم من هذه الاعتقادات الفاسدة والسلوك المشين لهؤلاء القوم، إلا أن سيدنا نوح عليه السلام لم يخلّ بخطابه التبليغي، فواجههم بسعة الصدر وإيراد حججهم الباطلة لبيان الحق، وردّ عليهم بأن حججه قد عميت عليكم، وهذا على سبيل التمثيل الإستعاري، فاللفظة "عميت"، ليس المقصود بها الحكم الظاهر الصريح ذهاب البصر عن الرؤية، وإنما هي عمى القلب على تحريك الوجدان، وعمى العقل عن التفكير والتأمل والتدبر، وكذلك تحمل معنى عدم تمييزهم الحق من الباطل.

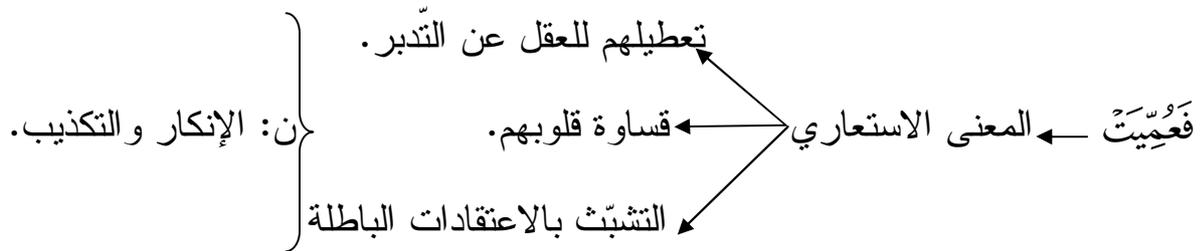
(1) - سورة هود: الآية 28.

(2) - سورة الشعراء: الآية 111.

(3) - الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، ج12، ص47.

لقد شبهت الحجّة التي لم يستوعبها القوم ولم يدركوا الحقّ بها كالعمياء، لأنّ " الرّحمة لا توصف بالعمى وإنّما يوصف النّاس بالعمى عن تمييز مواقعها، وإدراك مواضعها"⁽¹⁾، بمعنى أنّ قلوبهم غُلف وقد طُمست عن الحقّ، رغم المشاهدة العينية الحسيّة التي بين أيديهم، وهنا يكمن دور الاستعارة التي تُعدّ من الآليات الحجاجية التي يستخدمها المتكلم في تبرير فكرته للمتلقّي من خلال أسلوبها الجمالي الحسيّ الذي يلقي استحسانا من المتلقّي فتؤثر في نفسيته.

فَعَمِيَّتْ ← المعنى الأصلي السطحي الحجب عن الرؤية البصرية.



ويأتي مشهد آخر يصوّر الله فيه القيمة الأخلاقية التي تميّز بها بعض كفّار قريش فاضحاً سلوكهم العدوانى لرسالة النبي ﷺ، قال الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَشْتُونَ صُدُورَهُمْ لَيْسَتْ خَفُوفًا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَعْشُونَ يَا بَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَزِيزٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾⁽²⁾.

وردت أسباب نزول هذه الآيات في كثير من المصادر وبروايات متعددة، ونكتفي بما جاء به الواحدى إذ يقول: "نزلت في الأحنس بن شريق، وكان رجلاً حلو الكلام، حلو المنظر يلقي رسول الله ﷺ، فيظهر له أمراً يسره، ويضمّر في قلبه خلاف ما يظهر، فأنزل الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَشْتُونَ صُدُورَهُمْ﴾ يُكْمِنُونَ ما في صدورهم من العداوة لمحمد

(1) - الشريف الرضي: تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص 165 .

(2) - سورة هود: الآية 05.

صلى الله عليه وسلم⁽¹⁾، وبهذا هدم الله تعالى سرهم وفضح كيدهم، فالصورة تحمل طاقة حجاجية تستمد قوتها من "عوالم المتلقين وكفائتهم النفسية والثقافية والعقائدية، كما تستمد قوتها من الجوانب الضمنية التي تحمل المخاطب على استبعاد المعنى الظاهر أو الحرفي ليسلك مسارا استدلاليا حجاجيا يجعله يكتشف المعنى المضمرة الذي يستتر وراء المعنى الأول، فالمتلقي يعد طرفا فاعلا في العملية الخطابية، ومنتجا هاما للمعنى في الحدود التي رسمها المتكلم⁽²⁾. ويأتي مفهوم مدلول الآية ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَشْتُونَ صُدُورَهُمْ﴾ استعارة عن النفاق، والمنافق من طبعه أو من صفته أنه يضمّر الحقد والإنكار للنبي ﷺ وللمسلمين كافة، وييدي في ظاهره أنه من أهل الإيمان.

إنّ المعنى الأول يوهّم للمتلقي أن الثني أو ما يُعرف بالطيّ هو ذلك المعنى الحسي الظاهر المتولد من صريح اللفظ، أما حقيقة المعنى الذي يقصده المخاطب (الذات الإلهية)، هو المعنى المجازي الذي لا نصل إليه إلا عن طريق الاستدلال العقلي، فهو يوحي إلى معنى الإعراض والإنكار، وهو أسلوب سيميائي فيه إظهار "للكفر والإعراض من الحقّ وعداوة النبي ﷺ، بحيث يكون ذلك مخفيا ومستورا فيها، كما تعطف الثياب على ما فيها من الأشياء المستورة"⁽³⁾. فالمشهد التصويري في هذا المقام، يعرض لنا الذلّ والهوان الذي جناه هؤلاء الكفار، بعد فضح حالتهم النفسية.

وبهذا تتجلى لنا الحجّة أنّ الله تعالى محيط بكافة المعلومات التي تراود هذا الإنسان، وهذا الأخير يحسّ عادة في مثل هذه الخلوة أنه وحيدا لا يراه أحد، فالتعبير هكذا يلمس وجدانه ويوقظه، ويهزّه هزة عميقة إلى الحقيقة التي قد يسهو عنها، فيخيّل إليه أن

(1) - أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي: أسباب النزول، تخريج، عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح، دمام، المملكة العربية السعودية، ط2، 1992، ص265.

(2) - ينظر: كمال الزماني، حجاجية الصورة في الخطابة السياسية لدى الإمام علي رضي الله عنه، ص236.

(3) - أبو الطيب صديق بن حسين بن علي البخاري: فتح البيان في مقاصد القرآن، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، (د - ط)، 1992، ج6، ص140.

ليس هناك عين تراه⁽¹⁾، فتنمکن النفس من الاقتناع بأن الله أكبر من كل شيء، يعلم الظاهر والباطن، والسر والعلن، ويحمل صفات الكمال والعظمة والسلطان والقدرة .

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَا هُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾⁽²⁾.

إن من الخصائص الإقناعية التي يلجأ إليها النظام التصويري الاستعاري هو اختيار الألفاظ المعبرة عن المعنى الحقيقي للخطاب، فلفظة "غليظ" والتي هي خلاف للرفقة واللطف والتيسير، فهي تحمل الشدة والقوة في البطش والعنف.

والعذاب في الحقيقة لا يُوصف بالغلظة والدقة، لأنه "الألم الذي يلحق الحي في قلبه أو في جسمه. إنما وصفه تعالى بالغلظ على طريقة كلام العرب، لأنهم يصفون الأمر الهين بالضوول والدقة، كما يصفون الأمر الشاق بالغلظ والشدة، حملاً لذلك على عرفهم في المراعاة للشيء الغليظ الكثيف، وقلة الحفل بالشيء الدقيق الضئيل"⁽³⁾، فاستعمال هذه اللفظة في هذا المقام تحدث للمتلقي أثراً بالغا وقويّاً في نفسه من الرهبة والبطش، فتجبره على تغيير سلوكه، ويتشبث بالحق ويهجر الباطل، كما تعدّ تنبيهاً ووعيداً لأهل الضلال.

3- البعد الحجاجي لأسلوبي الكناية والتعريض:

يُعد أسلوبا الكناية والتعريض من الصّور البلاغية الهامة التي تحرّض الذهن وتجعله يعمل على ترجمة شفراتها وتحديد هويتها الدلالية والجمالية والحجاجية، وكل ما تتضمنه من الحالات النفسية التي تنتاب روح المتلقي، فتباشر في معرفة المعنى الحقيقي للخطاب، ويعرفها الجرجاني بقوله: "الكناية أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكرها باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه ورفده في الوجود

(1) - ينظر: سيد قطب، في ضلال القرآن، ص 1855.

(2) - سورة هود: الآية 58.

(3) - شريف الرضي: مجازات القرآن الكريم، ص 162.

فيومئ به إليه فيجعله دليلاً عليه⁽¹⁾، فالغاية التي تطمح إليها الكناية هي بيان لا يصل إليها إلا من لطف طبعه، وصفت قريحته، وهي طريق جميل للتعبير عن المعاني، وما يجيش في الصدور، فهي وسيلة من وسائل التأثير والإقناع.

أما التعريض في السياق اللغوي "ضد التصريح أي أن تخاطب واحدا وتريد غيره، وسمي بذلك لأنك تميل الكلام إلى جانب وأنت تشير إلى جانب آخر⁽²⁾؛ أي أن معاني الخطاب تُفهم من عرضه، قال الله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ الْمَسَاءِ...﴾⁽³⁾.

أما "سيرل" فيصنّفه من سمات التأدّب وقد عدّه من "أبرز الدوافع لاستعمال الاستراتيجية غير المباشرة في الطلب، وهناك صيغ معيّنة تكاد تكون بطبيعتها طرقاً عرفية للتأدّب في إنجاز الطلب غير المباشر"⁽⁴⁾. فهو بمثابة نافذة خطابية يستند بها المتكلّم من أجل التلميح لغرض الحياء أو الاستهزاء أو بطلان أمر عقائدي للمتلقي، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾⁽⁵⁾، قال بل فعله وكيهم هذا فسألوهم إن كانوا ينطقون⁽⁵⁾، هذا الموقف الجدالي الذي أبهت فيه سيدنا إبراهيم عليه السلام قومه بأن طلب منهم بأن يسألوا كبيرهم هذا "على سبيل الاستهزاء بما هم يعبدون، وإقامة الحجّة عليهم بما عرض لهم به، من عجز كبير الأصنام عن الفعل، مستنداً على ذلك بعدم إجابتهم إذا سئلوا، ولم يرد بقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ وَكَيْرُهُمْ هَذَا﴾، فأسند سيدنا إبراهيم عليه السلام فعل التحطيم إلى كبيرهم، ليؤكد حجّته على أن عقيدتهم باطلة، فالتعريض في هذا المقام بمثابة حجّة يقينية على أن هذه التماثيل لا تستحق العبادة .

(1) - عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص66.

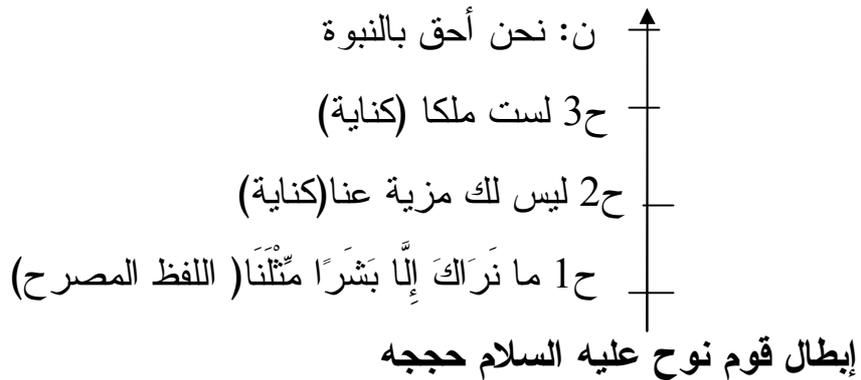
(2) - ينظر: أبو منصور الثعالبي، الكناية والتعريض، تحقيق، عائشة حسين فريد، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998م، ص53.

(3) - سورة البقرة: جزء من الآية 235.

(4) - عبد الهادي ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص372.

(5) - سورة الأنبياء: الآية 62-63.

ومن صور التعريض أيضا قوله تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشْرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ إِلَّا أَنْتَ بَشْرًا مِثْلَنَا﴾؛ أي أننا أحق بالنبوة منك، وهذا يظهر مدى إنكارهم للحق رغم بيان الأدلة والحجج التي ألزمهم بها، وأرادوا بقولهم هذا أنه كان ينبغي أن يكون ملكا لا بشرا؛ أي ليس لك مزية عنا بما تدعيه من النبوة ولو كان كذلك لرأيناه، لا أن ذلك محتمل ولكن لا نراه⁽²⁾، يأتي ترتيبهم للحجج من أضعف قوة إلى أفواها وفق السلم الحججي الآتي:



ثم يدافع على الذين اتبعوه من أهل الإيمان، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُوا لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْقُوا رَبَّهُمْ وَالْكَفَىٰ أَرْسَاكُمُ قَوْمًا جَهْلُونَ﴾⁽³⁾.

أراد قوم نوح عليه السلام التخلي عن الذين آمنوا معه، لأنهم ليسوا بمقامهم ولا بمركزهم الاجتماعي، لذلك "عبر عن أتباعه بطريق الموصولية بقوله: "الَّذِينَ ءَامَنُوا" لما يؤذن به

(1) - سورة هود: الآية 27.

(2) - ينظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ج3، ص32.

(3) - سورة هود: الآية 29.

الموصول من تغليط قومه في تعريضهم له بأن يطردهم بما أنهم لا يجالسون أمثالهم إيذاناً بأن إيمانهم يوجب تفضيلهم على غيرهم"⁽¹⁾، وهذا إبطال لتعريضهم في قولهم: ﴿وَمَا نَزَّلَكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا﴾.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾⁽²⁾.

يأتي نفي نوح عليه السلام ما ادّعاه قومه، مستخدماً الموجّه الحجاجي (لا أقول لكم)، وهي كناية "عن الاعتقاد، لأنّ المرء إنّما يقول ما يعتقد، وهي تعريضية للمخاطبين لأنهم يضمرون ذلك ويقدرونه"⁽³⁾، واستعمال هذا الموجّه الحجاجي (القول)، لتحقيق مجموعة من الأغراض الحجاجية، يدفع بالمخاطبين وهم قومه الى محاولة تأويل خطابه، والغاية من توظيف الأغراض الحجاجية وضعهم في موقف يستدعي منهم إعمال عقولهم للوصول الى النتيجة بأنفسهم.

وتظهر "حجاجية القول في كونه يسدّ مسدّ دليل -أو ملزوم- معين، له مدلول -لازم- يفهم من السياق، مدلول يقصد المتكلم مطالبة المخاطب التصديق به والانتهاض للعمل على وفقه، أي يقصد (إلزامه) و(التزامه) به معاً"⁽⁴⁾، وهذا من أجل تفعيل خطاب الإبطال وحملهم على الإقناع وإثبات بعدهم وضلالتهم.

(1) - الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، ج12، ص55.

(2) - سورة هود: الآية 31.

(3) - التحرير والتنوير، ج12، ص58.

(4) - طه ع الرحمن: اللسان والميزان، ص275.

جاء تأكيد خطاب الآية بثلاث مؤكدات: "إنّ ولام الابتداء، وحرف الجزاء، تحقيقاً لظلم الذين رموا المؤمنين بالرديلة، وسلبوا الفضل عنهم لأنهم أرادوا التعريض لقومه في ذلك"⁽¹⁾. ويكون تمثيلها بالشكل الآتي على النموذج التولميني:

إبطال سيدنا نوح حجج قومه ← إذن: (ن) أنتم من الظالمين
 - لا أقول (لا أعلم الغيب)
 - لست ملك

- ضعف الذين آمنوا ليس بحائل بينهم وبين الله.

وتأتي الكناية أيضاً، في قوله تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْرِلٍ يَبْنَئُ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾⁽²⁾ قَالَ سَاوِيَ إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمَغْرِقِينَ﴾⁽³⁾.

لقد حملت عاطفة الأبوة حنو الأب لابنه، فكان النداء "يَبْنَئُ أَرْكَبَ مَعَنَا" وهي كناية عن دعوة نوح - عليه السلام - ابنه إلى التوحيد والإيمان بطريقة الاستعطاف والتحذير من الغرق في الطوفان، مستعملاً أسلوباً ليّناً لعله يتأثر أو يعدل عن سلوكه المشين. وقدم سيدنا نوح - عليه السلام - دليلاً أن لا نجاة من هذا الطوفان، إلا برحمة من الله، فكانت حجة ابنه والضامن لنجاته هو الجبل، ﴿قَالَ سَاوِيَ إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ زعماً منه أنها كسائر المياه، "وكان عهد الجبال، وهي حرز من الأمطار إذا كانت، فظنّ أنّ ذلك كما كان يعهد"⁽³⁾، ويأتي الجواب على إبطال حجته على لسان أبيه ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾؛ أي لا نجاة لأهل الكفر فإنهم مغرقون، وتعد نتيجة حتمية لمن أشرك بالله. ويمكن التعليق عليها بالترسيمة التولمينية الآتية:

(1) - الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، ج12، ص59.

(2) - سورة هود: الآية43.

(3) - الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج12، ص399.

الرسم الأول (م) لا عاصم اليوم من أمر الله ← إذن: النتيجة كان من المغرقين
 نظرا إلى أن: (ض)
 عذاب الله واقع

الرسم الثاني

ثم يأتي الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ والعامل الحجاجي "إلا" الذي وظيفته الحصر استثنى الفئة التي تدخل في رحمة الله من المؤمنين الناجين من الغرق، فيكون تمثيل الرسم الثاني تدقيقا للرسم الأول، بعد ما أضيف له عنصران، الموجّه (ج) وعنصر الاستثناء (س)، فيأخذ الشكل الآتي:

(م) لا عاصم اليوم من أمر الله ← إذن، ن: ابن نوح من المغرقين
 نظرا إلى أن:
 عذاب الله واقع اللهم إلا إذا: رحمه الله

الرسم الثالث

ويأتي الرسم الثالث عند تولمين ليزيد من دقة الحجّة وبيانها، وذلك بإضافة عنصر مهم وهو (السند) الذي يعزّز الضامن أكثر، ممّا يضيفي على النتيجة مزيدا من القوة والبيان، ويمكن تمثيلها بالرسم الآتي:

(م) لا عاصم اليوم من أمرا الله ← إذن، (ن) كان من المغرقين
 نظرا إلى أن:
 عذاب الله واقع
 اللهم إلا إذا: رحمة الله

لا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون

ويأتي كذلك التعريض في قوله تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾⁽¹⁾.

(1) - سورة هود: الآية 45.

سلك سيدنا نوح عليه السلام أسلوب التعريض بسؤال عن حكمة الله - التي لا شك فيها- في غرق ابنه مستعملاً أسلوب النداء، تأكيداً منه أن الله تعالى وعده بنجاة أهله، لكن وقع عكس ما تمنّاه فكان مصيره مصير القوم الكافرين.

إنّ حساسية الموقف تجبر غريزة الأبوة التي اجتاحت قلب سيدنا نوح أن يستعمل هذا النوع من الأسلوب؛ لأن "عاطفة الأبوة عاطفة محمودة، والحق سبحانه يشحن بها قلب الأب على قدر حاجة البنوة، ولو لم تكن تلك العاطفة موجودة لما تحمل أي أب أو أي أمّ متاعب تربية الأبناء"⁽¹⁾، وقد أدلى سيدنا نوح عليه السلام حُججا، لعلها تكون سببا في نجاته فلذة كبده، وفي هذا "مقام الدعاء تعريض بالمطلوب لأنه لم يذكره، وذلك ضرب من ضروب التأدب والتردد في الإقدام على المسؤول استغناء بعلم المسؤول"⁽²⁾، وهي كالاتي:

- "ابني من أهلي، وأنّ وعدك الحق".

- "وأنت أحكم الحاكمين".

ويكون التمثيل لهذه الحجج وفق النموذج الآتي:

(م) دعاء نوح عليه السلام ← إذن: (ن) ابني يستحق النجاة

(نظرا إلى أن: (ض))

- ابني من أهلي، وأنّ وعدك الحق.

- وأنت أحكم الحاكمين.

استدلال سيدنا نوح عليه السلام على نجاة ابنه.

لنأتي الإجابة بعدها على بطلان استدلال سيدنا نوح عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿قَالَ

يٰنُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَكِنَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾⁽³⁾.

(1) - محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي، المجلد العاشر، ص 6481 .

(2) - الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، ج 12، ص 85.

(3) - سورة هود: الآية 46.

جاء تحذير الله تعالى لنوح عليه السلام ونصحه له بأن لا يكون من الجاهلين، فكنى الله نوحا في هذه الآية بالجهل؛ أي "إني أنبهك وأنصحك خشية من الجاهلين" (1). كما يعلمه أنه لا يعلم الغيب ف "كان نهيه نهى لوم وعتاب حيث لم يتبين من ربه جواز ذلك" (2). وعليه يكون ترتيب الحجج التي قدمت في الآية كالاتي:

- ﴿ليس من أهلك﴾، - ﴿عمل غير صالح﴾، "فكان النبوة هنا عمل، وليست ذاتا، فالذات منكورة هنا، والمذكور هو العمل، فعمل ابن نوح جعله غير صالح أن يكون ابنا لنوح" (3). ثم نهاه عن السؤال دون تفكير ﴿فَلَا تَسْأَلْ﴾؛ أي "لا تلتمس مني ملتصقا أو التماسا لا تعلم أصواب هو أم غير صواب، حتى لا تقف على كنهه، وذكر المسألة دليل على أن النداء كان قبل أن يغرق حين خاف عليه" (4).

- ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ يريد أن يقول له: أن السؤال "كان قد صدر لا عن علم، والقول بغير علم ذنب لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، كما بين الله تعالى أن ابنه ممن حق عليهم العذاب، فالنتيجة المستخلصة من هذه الحجج أن الله تعالى حذره من السؤال الذي يكون مؤديا للجهل، فقد "جعل الجهل كناية عن الذنب وهو مشهور في القرآن" (5).

أظهر سيدنا نوح عليه السلام حججا اعتبرها دليلا تشفع لنجاة ابنه؛ لأن من شروط الحوارية أن تلزم المدعي تقديم حججه الظاهرة لما يدعيه أو يعتقده، وإلا كانت حجته يشوبها الإبطال، ويكون تمثيل الشحنة الحجاجية في هذه الآية الكريمة وفق السلم الحجاجي الآتي:

(1) - محمد علي الصابوني: صفوة التفاسير، دار القرآن الكريم، بيروت، ط4، مجلد، 1981، ص17.

(2) - الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، ج12، ص87.

(3) - الرازي: مفاتيح الغيب، ج6، ص05.

(4) - أبو القاسم جار الله الزمخشري: الكشاف، ج12، ص486.

(5) - الرازي: مفاتيح الغيب، ج18، ص05.

(ن): لا يستحق أن يكون من الناجين

ح3 — أعضك أن تكون من الجاهلين

ح2 — إنه عمل غير صالح

ح1 — ليس من أهلك

الاستدلال الإلهي بعدم أحقية نجاته ابن نوح.

4- القوة الحجاجية للصورة الساخرة:

لا شك أنّ الخطاب السّاحر وُلد كي يُعري عن قضايا اجتماعية وأخلاقية وسياسية بطريقة هزلية، في مجتمع يسوده البطش والإنكار والإعراض يستخدم فيه المتكلم أنجع فنّيات السفسطة التي تحكّمها براعة التّلاعب بالألفاظ والحروف والعبارات، وكل من مستعملي هذه الطرق والأساليب التي من شأنها إهدار قيمة المتلقي بصورة تهكميّة عبثية في مشهد هزلي فكاهي الذي يعدّه بيرلمان "من أهم الأسلحة الحجاجية"⁽¹⁾، فهي نوع من الإيحاء غير المباشر ذي النزوع المتعارض، يستخدمه الشخص في تهكمّه على نقيض قضيته، فهي "طريقة تهكمية نقول عكس ما نوّد تبليغه عبر بلاغة المعنى المقلوب Anti phrase"⁽²⁾. وهي أيضا نوع من الانزياح الكلامي يحاجج به المتكلم المتلقي قصد التّهكّم والاستهزاء، الذي ينتج عن شدّة الغضب، والتوتّر .

لقد اعتبرت السخرية عند البلاغيين والنقاد من الصّور المجازية، وقد عبّر عنها محمد طروس بمصطلح السّخرية وحجّة الصّمت وهي " إجراء حوار استقزالي تعمل على زعزعة التّوازن النفسي وقطع وإقصاء كل أشكال التّواصل، فهي نوع من الحجاج يعمل على تجنّب المناظرات الجادّة؛ وحجّة الصمت تلعب أيضا على تجميد المخاطب"⁽³⁾،

(1) - سالم الطلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص128.

(2) - عبد النبي ذاكر: العين الساخرة، أفنعتها وقناعتها في الرحلة العربية، المركز المغربي للتوثيق والبحث في لأدب الرحلة، ط1، مارس، 2000م، ص9.

(3) - محمد طروس، النظرية الحجاجية، ص39.

فهو من التواصل غير الحكيم يسعى إلى تشويه الصفة من الخلق لغرض عقائدي أو مصلحي أو سياسي.

يُعد أسلوب السخرية أهم نشاط كلامي بياني يحمله الشعراء والبلغاء من أهل الكفر والشرك، فاتخذه أعداء الإسلام كمرادفة كلامية خبيثة، الغرض منها إحباط دعاوى الأنبياء والخط من شخصياتهم بأسلوب نفسي ينتابه الكيد والمكر، فقد كان حرصهم الشديد على جمع كل القوى والوسائل والآليات من أجل إخماد فتيل هذا الدين، فاتخذوه "سلاحاً نفسياً مؤثراً يريدون به تحطيم عزم المسلمين والنيل من ثقتهم، فتصدى لهم القرآن بسخرية أبلغ وقعاً، وأشد تحطيماً، وأنفذ سهماً"⁽¹⁾، وعليه نعرض بعض المواقف للسخرية التي بسطت في المدونة القرآنية:

قال تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُونَ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾⁽²⁾.

لقد استعمل الكفار أسلوب السخرية، لغرض النيل من شخصية الأنبياء، وقد ورد موقف السخرية في قصة نوح عليه السلام عندما شرع النبي نوح عليه السلام في صنع السفينة فخطبوه بلسان حادٍّ لاذع، لجأ فيه الملائكة من قومه، للنيل من شخصيته، وهذا من أجل أن يتراجع على ما يدعو إليه من التوحيد، فاستعملوا السخرية كأسلوب حاجي ساخر على شكل مشاكلة لفظية. يقول سيد قطب -رحمه الله- "والتعبير بالمضارع فعل الحاضر وهو الذي يُعطي المشهد حيويته وحدته، فنحن نراه ماثلاً لخيالنا من وراء هذا التعبير، يصنع السفينة، ونرى جماعات من قومه المنكبرين يمرّون به، يسخرون من الرجل الذي كان يقول لهم: أنه لرسول الله يدعوهم ويجادلهم فيطيل جدالهم، ثم أنه ينقلب نجّاراً يصنع مركباً... فإننا نسخر منكم لأنكم لا تدركون ما وراء هذا العمل من تدبير الله وما ينتظركم

(1) - عبد الحليم حنفي: أسلوب السخرية في القرآن الكريم، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1978، ص12.

(2) - سورة هود: الآية 38.

من مصير⁽¹⁾، فسُخرية نوح عليه السلام التي جاءت بصيغة المشاكلة، تعبر عن رد فعل قوي على سخريتهم، ويريد بذلك إظهار حجته، بأنني قادر على ردّ سخريتكم بإذن الله وهي مبالغة في إثبات الحجّة.

ويأتي مشهد آخر يعبر فيه عن سخرية قوم شعيب عليه السلام، قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَدْعُبُ أَصْلَوتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشْتَوُا إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾⁽²⁾.

بدأت الآية الكريمة باستفهام التّهم، الذي يكون للاستهزاء، وهو استهزاء قوم شعيب من نبيهم عليه السلام؛ بذكر ﴿أَصْلَوتُكَ﴾، وهي كناية عن الدّين والإيمان، "وأرادوا أنّ هذا الذي تأمر به من ترك عبادة الأوثان باطل لا وجه لصحّته، وأنّ مثله لا يدعوك إليه داعي عقل، ولا يأمرك به أمر فطنة، فلم يبق إلا أن يأمرك به أمر هذيان ووسوسة شيطان، وهو صلواتك التي تداوم عليها في ليلك ونهارك"⁽³⁾، فقد ربطوا استهزاءهم بما جاء به النبي شعيب عليه السلام بالعبادة وهي الصلاة وفي هذا المقام، يقول الزركشي "لما تقدّم ذكر العبادة والتّصرف في الأموال كان ذلك تمهيدا تاما لذكر الحلم والرشد، لأنّ الحلم الذي يصحّ به التّكليف والرّشد حسن التّصرف في الأموال، فكان آخر الآية مناسبا لأولها مناسبة معنوية، ويسمّيهم ملاءمة"⁽⁴⁾. فقد عبّروا عن ذلك بطريقة المجاز البلاغي على عكس ما يقرّون به في صدورهم، وبذلك تمثّل السخرية تعبيراً اصطلاحياً غير مباشر يستبدل فيه المعنى بالضد الدلالي. فالعبارة التي تتضمن السخرية تعبر عن معناها عبر النقيض⁽⁵⁾، ولا ينتبه إليها إلا متذوق أو ناقد ذهن.

(1) - سيد قطب: في ضلال القرآن، المجلد الرابع، ص 1877.

(2) - سورة هود: الآية 87.

(3) - الزمخشري: الكشاف، ج 12، ص 494.

(4) - الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج 1، ص 171.

(5) - توماس أسلوان: موسوعة البلاغة، ترجمة نخبة، مراجعة وتقديم، عماد عبد اللطيف، مصطفى لبيب، طبع بالهيئة العامة للشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ط 1، ج 2، 2016م، ص 328.

وجه المغالطة والسخرية:

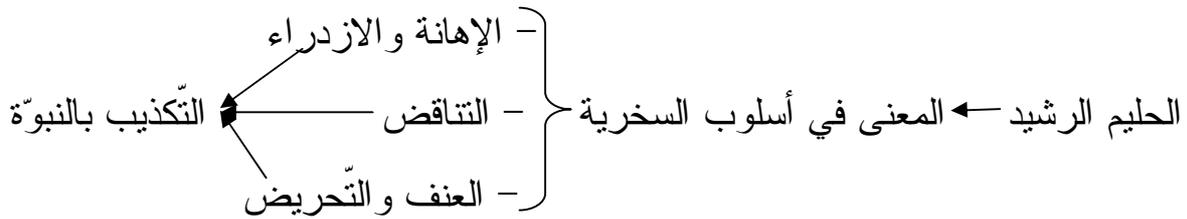
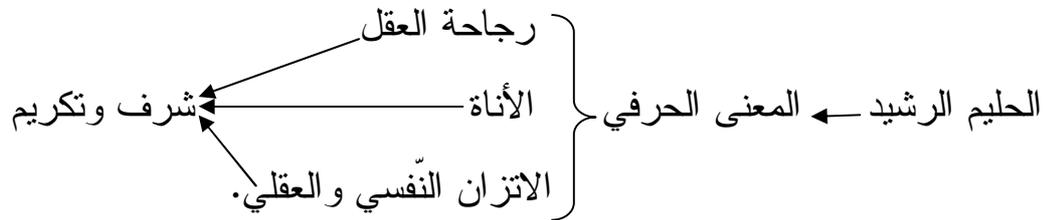
إسناد الأمر إلى الصلاة علاقة سببية ← (ن): ترك ما يعبد آباءنا

المقدمة الكبرى: صلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباءنا

المقدمة الصغرى: الصلاة فعل والفعل لا يأمر.

النتيجة: لا نترك ما يعبد آباءنا .

وتكشف لنا الصورة الثانية التي جاءت بصيغة التهكم المحمل باللفظ المجازي المغالطي حيث يشعر السامع كأنه يرى هذه الصورة بعينيه، ويرى موضع السخرية واضحاً بارزاً، وهي تؤدي وظيفتها في إثارة الانفعال والمشاعر لمتلقيها⁽¹⁾، وهذا ما يتجلى لنا في لفظتي ﴿الحليم الرشيد﴾، فتحمل من المعاني والدلالات ما تظهر في معناها الحرفي على رجاحة العقل والفتنة والذكاء؛ أي في ظاهرها تكريم وتشريف، لكن في المقابل وفي عمقها الدلالي والحجاجي تحمل التناقض والسفسطة، فهي تظهر بطريقة غير مباشرة إلى مظاهر العنف والتحريض والعناد والاستكبار الذي أعمى قلوبهم .



ومن أمثله أيضا قول الله تعالى على لسان قوم شعيب: ﴿قَالُوا يَشْعَيْبُ مَا نَفَقَهُ

كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِيْنَا ضَعِيفًا ۖ وَأَوْلَا رَهْطَكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا

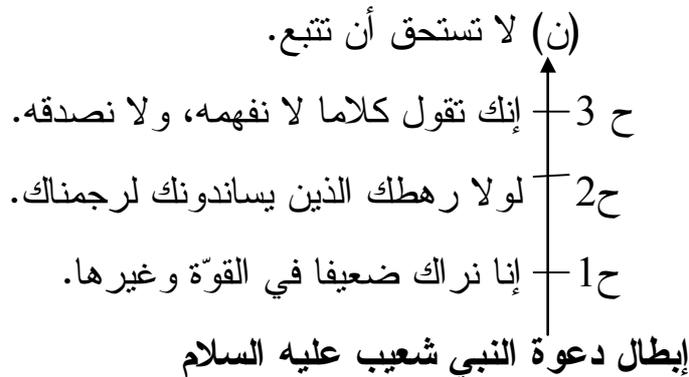
بِعَزِيزٍ﴾⁽²⁾.

(1) - ينظر: عبد الحليم حنفي: أسلوب السخرية في القرآن الكريم، ص 103.

(2) - سورة هود: الآية 91.

يرى علماء النفس أنّ السّخرية لها دور انهزامي على النفس البشرية حيث تُسيطر على فكر المتلقي فتشوّشه وتزعزع كيانه، وتهزّ معنوياته، وتفقده توازنه، كما تعمل على انهيار جدار الثقة بالنفس فتشكّك في قدراته العقلية، والموقف الذي يدافع عنه، وبها يعاني من اعتداء مباشر على تقديره لذاته⁽¹⁾.

لقد خاطب النبي شعيب عليه السلام قومه بأسلوب لين طبع، لعله يستميل قلوبهم، لكننا نجد في المقابل أنهم نادوه باسمه، وقيل: "قالوا ذلك استهانة بكلامه، كما يقول الرجل لصاحبه إذا لم يعبأ بحديثه ما أدري ما تقول، أو لأنهم لم يلقوا إليه أذهانهم لشدة نفرتهم عنه"⁽²⁾، وهذا المشهد فيه إنكار لدعوته ونبوّته بأسلوب الكناية؛ أي أنّ هذه الدلائل التي ذكرها ما أقنعتهم بصحة التوحيد والنبوة والبعث؛ بمعنى أنك لست نبياً، ولن تؤمن بدعوتك وليس لك مكانة اجتماعية بيننا، كما دعموا حججهم ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾؛ أي ليس لك قوة تمنعنا عن إيدائك، كما أنهم لا يباليون بالأخلاق التي تدعو إلى السمو بالفطرة الإنسانية، وأنهم متعارضون مع البحث عن الحقيقة، لأنهم "يُعلون من شأن ما هو تافه، ويضعون من قيمة ما هو عال الشأن، بأساليب إسهاب، وإيجاز تهدف إلى تقديم رأي ما في شكل مقنع"⁽³⁾. وكلها حجج توحى بنتيجة مضرة التي جاءت ملتفة بأسلوب كنائي. ويمكن تمثيلها بالسلم الحجاجي الآتي:



(1) - ينظر: عبد الحليم حفنى، أسلوب السخرية في القرآن الكريم، ص 82.

(2) - البيضاوي: أنوار التنزيل، ج 12، ص 146.

(3) - صابر الحباشة: تاريخ نظريات الحجاج، ص 33.

ثانياً - البديع بين جرس الألفاظ وتداعيات المعاني:

جاء مصطلح البديع في لسان العرب من بدع الشيء ببدهه بدعا: أنشأه وبدأه. وبدع الرّكبة: استنبطها وأحدثها. والبديع والبدع: الشيء الذي يكون أولاً. وقد ورد هذا المصطلح في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾⁽¹⁾؛ أي ما كنت أول من أرسل، قد أرسل من قبلي رسل كثير. وأبدعت الشيء: اخترته لا على مثال... وحبل بديع: جديد⁽²⁾. إن الصورة لم تُخلق كي تكون خدمة لقوانين الإبداع فحسب، بل هي ضرورة من ضروريات الخطاب التواصلي المبني على الإقناع، تقول (جويل غارد طامين): "جميع الصّور لها أهداف مماثلة بدرجات متفاوتة؛ خلق الرّؤية لترسيخ الخطاب في ذاكرة المتلقين، وتجسيد الحجج المجرّدة، وتحسين الخطاب للإمتاع، وتقويته للتأثير...⁽³⁾، وهذا هو عماد البلاغة في نظر ريبول رغم أنّ بيرلمان تجنّب النظر إلى الحجاج من زاوية الإمتاع واللذة رغم قناعته بوظيفتها الحجاجية، وهذا ما أكّده ريبول في قوله: "نحن نعرف أنّ بعض طرق التعبير يمكنها أن تنتج أثراً جمالياً مرتبطاً بالتناغم والإيقاع وصفات شكلية أخرى، والتي يمكنها أن تكون ذات تأثير حجاجي بواسطة خلق الإعجاب والسّرور والراحة والإثارة... دون أن تكون هذه العناصر قابلة للتّحليل بمعطيات الحجاج. إنّنا نستبعد من دراستنا الحالية للحجاج مع ذلك دراسة هذه الآليات على الرّغم من أهميتها غير القابلة للجدل في الفعل الخطابي"⁽⁴⁾، فهذه الصّورة الشعريّة لا شك أنّها تلامس نفسية المتلقي وتطمح إلى التأثير والإقناع، وستتعرّض لبعض الآليات الحجاجية الخاصّة بمستوى البديع.

(1) - سورة الأحقاف: جزء من الآية 09.

(2) - ابن منظور: لسان العرب، مادة (بدع).

(3) - محمد مشبال: في بلاغة الحجاج، ص310.

(4) - نفسه، ص310-311.

1- الطباق:

الطباق طيف من أطراف الفنّ البديعي ويقصد به، "الجمع بين الشيء وضده في الكلام"⁽¹⁾، وهذا ما اتفق عليه أهل البلاغة، ويظهر جلياً في جمالية القول وبلاغته، ويعدّ وقعه على النفس أشد تأثيراً، وهذا ما أدركه حازم في كتابه، بقوله: "إنّ للنّفوس في تقارب المتماثلات وتشافعها، والمتشابهات والمتضادات وما جرى مجراها تحريكا وإيلاعا بالانفعال إلى مقتضى الكلام، لأنّ تناظر الحسن في المستحسنين المتماثلين والمتشابهين أمكن من النفس موقعا... وما أمكن للنفس وأمكن منها فهو أشدّ تحريكا لها"⁽²⁾، ويتعدّى عمله إلى كونه ذا طابع حجاجي؛ لأنّ استعماله يكمن في إبراز البعد الإقناعي و"أنّ محسناً لهو حجاجي إذا كان استعماله وهو يؤدي دوره في تغيير زاوية النّظر يبدو معتادا في علاقته بالحالة الجديدة المقترحة، وعلى العكس من ذلك، فإذا لم ينتج عن الخطاب استمالة المخاطب، فإنّ المحسنّ سيتم إدراكه باعتباره زخرفة، أي باعتبار محسنّ أسلوب، ويعود ذلك إلى تقصير عن أداء دور الإقناع"⁽³⁾.

ولاشك أنّ الطباق جاء ليثبت الحجّة في ذهن المتلقي من خلال قوّة الألفاظ المتضادة، ومن أمثله في النصّ القرآني قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَوَاكِنًا تَرْحَلُ﴾⁽⁴⁾، تتجلى في هذه الآية حسن البيان والمعاني، وهذا ما نلمسه في تنعيم جرسها الموسيقي، فتهيئ الشّعور الوجداني على استقبال الرّسالة فتزيد للمتخاطبين نباهة وإدراكاً، ويقصد بهذا المعنى أنّ "الشمس دليل على الظل، لأنّ الأشياء تُعرف بأضدادها، ولولا الشمس ما عُرف الظل، ولولا النور ما عرفت الظلمة، فالشمس دليل أيّ حجة

(1) - أبو الهلال العسكري: الصناعتين، ص 307 . ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ج 2، ص 05.

(2) - حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 44- 45.

(3) - صابر الحباشة: التداولية والحجاج، ص 61.

(4) - سورة الفرقان: الآية 45.

وبرهان⁽¹⁾، وتتضمن مدونتنا القرآنية خطابات توحى بهذا الطيف البلاغي الحجاجي، قوله تعالى: ﴿ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾⁽²⁾.

وُظف في سياق هذه الآية طباق السلب، فالطرف الأول فيه إثبات ونفي من الله سبحانه وتعالى، أنه لا يظلم أحدا من عباده، أما الطرف الثاني يثبت أن الظلم الذي وقع على أهل الكفر جاء من جراء أنفسهم، وهذا دليل على عدل الله في حكمه، فالطباق لم يأت اعتباريا، بل جاء في معناه الشامل، يستنهض النفوس ويحرك آلة الفكر، للوصول إلى إقناع المتلقي بأغراض جمالية وحجاجية نذكر منها:

1- إثبات الحكم والعدل لله عَلَّامٌ خَبِيرٌ، وقد حرم الظلم على نفسه لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾⁽³⁾.

2- تنبيه وتأکید من الله عزوجل أن الظلم مصيره وخيم، وعلى الإنسان أن يكون يقظاً ومنتبها؛ لأن الله قد توعددهم بعذاب أليم .

3- إن المتلقي الكوني لهذه الآية عند سماعها تأخذ الرهبة والخوف، فتكون حافظاً نفسياً لتجنب ظلم نفسه وظلم الآخرين .

ومن الأمثلة التي يظهر فيها هذا الأسلوب الحجاجي البديعي أيضا، قوله تعالى: ﴿أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾⁽⁴⁾.

يفهم من سياق هذه الآية توظيف طباق الإيجاب في لفظتي "نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ"، فالأولى توحى بالتخويف والرّهبة والفرع، وهذه الأفعال موجّهة لأهل الشرك والضلال، وفي المقابل نجد أصحاب القلوب النقيّة المؤمنة تتجلّى فيها صفة البشارة التي تنبئ بالشيء

(1) - وهبة الزحيلي: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، المجلد العاشر، ج19، ص93 .

(2) - سورة هود: جزء من الآية 101.

(3) - سورة النساء: جزء من الآية 40.

(4) - سورة هود: الآية 02.

الحسن والمفرح، "ومن عادة القرآن الكريم يذكر الشيء وفائدته للترغيب فيه، ثم يذكر مقابله للترهيب والتهديد، والتنفير"⁽¹⁾، فالنذارة هي وعيد وعقاب في الدنيا وما ينتظرهم يوم القيامة، أما البشارة فهي الفلاح والنجاة في الدارين.

ومن أمثله كذلك، قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾⁽²⁾، نزلت هذه الآية لتفضح هؤلاء المشركين والكفار جهلاً منهم بعلمه، وظنهم أن الله غير مطلع على ما تكنه صدورهم، فأعلمهم بأنه يعلم السر والعلن، وهذا بعد توليهم عن سماع صوت الحق من النبي ﷺ، ولا فائدة من استخفائهم .

يظهر الطباق بين فعلين بارزين (يسرون وما يعلنون)، ويظهر لنا هذا التكافؤ بينهما، أن الله عزوجل يعلم السر والخفاء والجهر والعلن في ملكوته، وهذه إشارة واضحة، لأهل الأرض عامة وأهل الكفر والشرك خاصة، فقد مزق الله غشاوة قلوبهم، وكشف عن حقيقة ما يضمرونه في نفوسهم؛ لأن الله مطلع على كل شيء موجود في الوجود "من النيات والضمائر والسرائر مع علمه بالجهر، ولا تفاوت في علمه بين أسرارهم وإعلانهم"⁽³⁾، ومخرج القول أن الطباق يقوى "من إظهار هذه الحال حين طرح المعنى المظنون بإثبات ضده، ويبقى أحد الضدين يثبت الآخر"⁽⁴⁾، وهذه الأضداد تقودنا إلى شيء مهم وهو أنها تهيي العقول والنفوس أن تقارن بينها، فلا تملك إلا أن تسلّم بعدم تساويها، ومن ثم تنشط في اختيار النهج السوي والتزامه⁽⁵⁾، ويمكن تدوين بعض الأمثلة التي نراها ضرورية في الجدول المقابل:

(1) - وهبة الزحيلي: التفسير المنير، المجلد 06، ج 12، ص 322.

(2) - سورة هود: جزء من الآية 05.

(3) - وهبة الزحيلي: التفسير المنير، ص 325.

(4) - الشحات محمد أبو ستيت: دراسات منهجية في علم البديع، ص 34.

(5) - ينظر: الشحات محمد أبو ستيت: دراسات منهجية في علم البديع، ص 35.

الفصل الثالث: الحجاج البلاغي وآلياته الإقناعية

الآية	أوجه الطباق	الوجه الحجاجي للآيات
﴿وَلَنْ أَدْفِنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسْتَه لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ﴾ ⁽¹⁾ .	نعماء - ضراء	- تنبيه المخاطب على الصبر والعمل الصالح عند النعماء والضراء . - التحذير من إنكار النعمة والجحود بها. - إثبات أن النعماء والضراء بيد الله عز وجل وحده، يُبتلى بهما الإنسان. - قُدمت النعماء على الضراء، لأن الأولى فيها أثر السرور والبهجة، فترغب فيها كل نفس لما فيها من فضل وإحسان. والله أعلم.
﴿جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سَجِيلٍ مَنُودٍ﴾ ⁽²⁾ .	عاليها - سافلها	- تنبيه المتلقي على أن الله تعالى له من العظمة والقوة على الانتقام بأبشع طرق العذاب، وهذا ما حدث للأمم السابقة، فهي حجة من الشواهد العينية، لآثار الدمار الباقية للأمم السابقة.
﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ ⁽³⁾	الحسنات - السيئات	- إثبات الحسنات على السيئات، لأن الأولى سبباً في تغمد الثانية .

2- المقابلة:

المقابلة في المعنى اللغوي المواجهة والمعارضة، نقول: قابل الشيء بالشيء مقابلة إذا عارضته وواجهته⁽⁴⁾، وفي اصطلاح البلاغيين: "أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو معانٍ متوافقة، ثم بما يقابلها على الترتيب⁽⁵⁾". وهذا من أجل الوقوف على دلالة معانيها، واستخراج وجه المقارنة لإثبات الدليل الأصح.

(1) - سورة هود: الآية 10.

(2) - سورة هود: جزء من الآية 82.

(3) - سورة هود: الآية 114.

(4) - أحمد مطلوب: المصطلحات البلاغية، ص 635.

(5) - الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، ص 259.

وتتجلى القيمة الحجاجية للمقابلة أنها تخاطب العقل والوجدان، فتشذذ ذهن المتلقي بعمق التفكير والايجادة في البيان، فيبلغ محاكاتها إلى النفس فيزيدها يقيناً ومعرفةً، ومن أسرار هذا الفن البلاغي، قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾⁽¹⁾.

إن الناظر لهذا التقابل العجيب في هذه الآية، الذي يوحي ببراعة التأليف وحسن البيان، بدعوى أنّ الله تعالى جمع بين ثلاث مقابلات: فقابل المؤمن بالكافر، والأعمى بالبصير، والأصمّ بالسَّمِيع، وهذه المقابلات تُضفي على سياق الخطاب الجمال والبهاء، وتهيئ هذه العناصر للمتلقي وتضعه وجها لوجه في بناء المقارنة بين هذه الأسماء فتزيده إقناعاً وإبصاراً بالحجة .

وقد تستخدم استخداماً نفسياً فنجدها في مجال التّربيع ليزداد المؤمنون إيماناً وأمناً وبشارة، وفي التّرهيب لأهل الكفر خوفاً وإنذاراً، ونعيّاً، وكلّها انعكاسات لمعانٍ قصد تقريب الصورة الحقيقية لأهل الإيمان والكفر، ففي القرآن دوماً البشارة مع النّذارة والجنة مع النار⁽²⁾. وهذا لتسليط حجة البيان على المتلقي، لعلها تجد طريقاً آمناً إلى نفسيته، فتغيّر من سلوكاته ونمط تفكيره.

والمشهد الذي بين أيدينا يصرّ حالة معنوية يتّصف بها أهل الشرك والكفر، وهو عدم استفادتهم مما يلقي عليهم من الهدى والإيمان، وكأن هناك حواجز مادية مانعة تحول بين معرفة سلطان الحق وأهل الباطل .

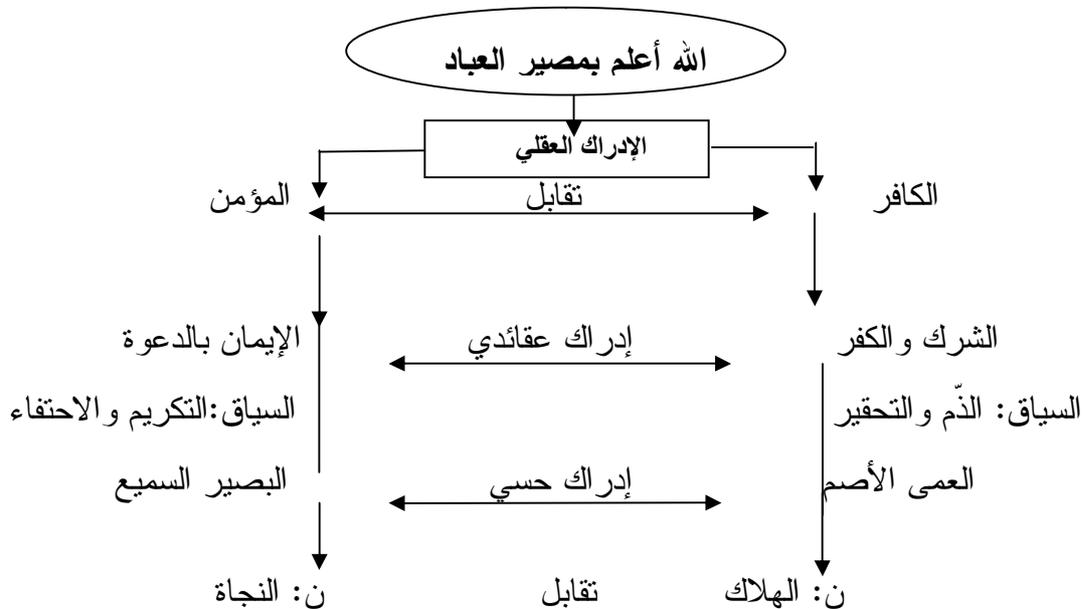
إنّ المعنى لا يتضح ولا يُعرف إلا بضده، فنجد (المؤمن والكافر)، و(الأعمى والبصير)، و(السميع والأصم)، فقد صنع هذا التّضاد ومضة بلاغية تناغمية منسجمة مع حركة النفس الداخلية، فيتجلى المعنى الخفيّ، وتتحقق الاستجابة الفورية عند المتلقي؛ أي إظهار الأغراض والمقاصد الكامنة في النصّ القرآني.

(1) - سورة هود: الآية 24.

(2) - ينظر: مصطفى الصاوي الجويني، البلاغة العربية تأصيل وتجديد، دار المعارف، الإسكندرية، مصر، (د-ط)،

إنَّ العناد والتكبر، والتعصب يُعْمِي ويصمّ النَّفس حيث لا تستسيغ الحق، وهذا ما مرّ بنا في تعصب الوليد بن المغيرة، وأبي طالب عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيرهم، أما نور الإيمان لا يأتي إلا بمعالجات عسيرة، والإقناع لا يكون إلا بالطب لأدواء النفوس، وأدواء النفوس أعرس علاجاً، وأعر دواء من علاج الأجسام⁽¹⁾، ولهذا نجد الصّورة التمثيلية وقعت بين عنصرين أحدهما يخضع للإدراك العقلي وهما (الكافر والمؤمن).

أما الصّورة الثانية فهي محسوسة وتشمل (العمى، الصمم، الإبصار، السمع)، ووجه التّقابل جاء ممزوجاً بين الإدراك العقلي والإدراك الحسي؛ لأنّ الإدراك العقلي من الوسائل الحجاجية التي تعمل على التّحليل والتّمييز والتّركيب، وقد قيل عن آلة العقل إذا تعطلت تعطلت معها الحقيقة، "فمن لم يتفكر بقلبه وينظر بعقله، لم ينتفع بهذا الجوهر الشّريف الذي وهبه الله عزّو جل"⁽²⁾ لخلقه، وأمّا حاستا السّمع والبصر فهما وسيلتان تزودان العقل بالمعلومات الإضافية من الواقع لتزيدها من يقين الحجّة، وعليه يمكن بيان أوجه التّقابل بين هذه العناصر بالمخطط الآتي:



(1) - ينظر: محمد أبو زهرة، المعجزة الكبرى القرآن، دار الفكر العربي، القاهرة، ص393.

(2) - أبو الفرج قدامة بن جعفر: كتاب نقد النثر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1980م، ص09.

هذا التشابك التقابلي ولّد لوحة فنيّة جماليّة حجاجية، تتعكس لا محالة على المتلقي من خلال التجسيد المعنوي والحسيّ لحال الكفار الذي شبّه أعمالهم بصورة الأعمى والأصمّ على سبيل التّمثيل، محمّلاً معه المقام الدّال على الإنكار والإعراض لدعوة النّبي نوح عليه السلام، وفي الجهة المقابلة نجد حال المؤمنين الذين صورهم الله بحالة البصير والسّميع، وقد نالوا من الرضا والتّكريم على صنيعهم الموجب للجنّة .

أ- الحذف المقابلي:

هذا النوع من الحذف يسمّى الاحتباك عند اللغويين وهو من الأساليب البلاغية الهامّة التي يحاجج بها المخاطب حسب مقتضيات المقام، ويعني به "شدّ الإزار، وكل شيء أحكمته وأحسنّت عمله فقد احتبكته، والمحبوك ما أجيد عمله، والحبك: الشّد والإحكام"⁽¹⁾. يوحى المعنى إلى الإتقان وقوّة الإحكام .

أما الزركشي فيعرفه بقوله: "وهو أن يجتمع في الكلام متقابلان، فيحذف من كلّ واحد منهما مقابله، لدلالة الآخر عليه"⁽²⁾؛ أي بمعنى "أن يحذف من الأوّل ما أثبت نظيره في الثّاني، ومن الثّاني أن يحذف نظيره في الأوّل قال الله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرُّجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾"⁽³⁾ .

إنّ المعنى الحقيقي الأصلي أنّها تدخل (غير بيضاء) حذف المقابل الأوّل وحذف المقابل الثّاني و(أخرجها) تخرج بيضاء، ويعلّق عنه السجلماسي: "وهذا النوع بالجملة هو من القول الجميل ذي الطّلاوة والبهجة والماء والعذوبة، الجزل المقطّع، الغريب النّزع، اللّذيذ المسموع، لما بين أجزاءه من الارتباط، ولما في النّفس الناطقة من الالتذاذ بإدراك النّسب والوصل بين الأشياء، ثمّ بإبراز ما في القوّة من ذلك إلى الفعل والشّعور به"⁽⁴⁾ .

(1) - أحمد مطلوب: معجم المصطلحات البلاغية، ص35.

(2) - الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج3، ص199.

(3) - سورة النمل: الآية12.

(4) - أبو محمد القاسم السجلماسي: المنزح البديعي في تجنيس أساليب البديع، تحقيق، علال الغازي، مكتبة المعارف، الرباط، المغرب، 1980م، ص195.

ومن أمثلته أيضا، قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي

وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا يُجْرِمُونَ﴾⁽¹⁾، فالحذف الذي وقع في هذه الآية ينطلق من مقابلات بين الألفاظ من شق، ونجد المقابل من شق آخر، وأن الله تعالى حذف عنهم البراءة في الجزء الأول فالأصل: "فإن افتريته فعليّ إجرامي وأنتم برآء منه، وعليكم إجرامكم وأنا بريء مما تجرمون فنسبة قوله تعالى: "إجرامي"، وهو الأول إلى قوله: "وعليكم إجرامكم"، وهو الثالث كنسبة قوله: "وأنتم برآء منه"، وهو الثاني. إلى قوله تعالى: ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾، وهو الرابع، واكتفى من كل متناسبين بأحدهما"⁽²⁾.

فالرسول صلى الله عليه وسلم أبلغَ المشركين بما يثيرونه عليه من افتراء القرآن، فجاء هذا الحذف "إفادة تبرئة نفسه من أن يفترى القرآن فإن افتراء القرآن دعوى باطلة ادعواها عليه فهي إجرام منهم عليه، فيكون المعنى وأنا بريء من قولكم الذي تجرمونه عليّ باطلا"⁽³⁾، فالحذف المقابلي هو بمثابة إثبات الحجّة وإحداث نوع من الإقناع، من خلال حذف المقابلات فيترى في المتلقي أثرا نفسيا "يتمثل في بعث الفكر وتنشيط الخيال وإثارة الانتباه، ليقع السامع على مراد الكلام ويستنبط معناه من القرائن والأحوال، وهكذا يكون للقرآن الكريم أثر في النفس يثير الوجدان ويرهف الإحساس والمشاعر، ويوقظ الإدراك والتفكير، فإذا الإنسان جديد كأنه خلق جديد"⁽⁴⁾، ومن هنا يُعد الحذف المقابلي من الآليات الحجاجية التي يستعين بها المخاطب في إقناع المتلقي، ونمثل هذا المثال بالشكل المقابل:

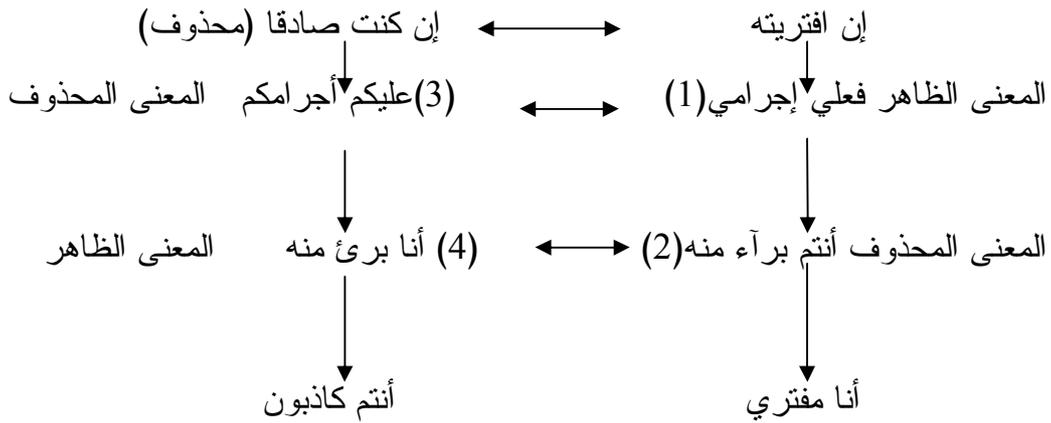
(1) - سورة هود: الآية 35.

(2) - الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ص 201.

(3) - الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، ج 12، ص 65.

(4) - عدنان مهدي الدليمي: الإعجاز البلاغي في القصة القرآنية، دراسة في سور الطواسين، دار غيداء، عمان، الأردن،

ط 1، 2013م، ص 56.



3- الجناس:

يُعد الجناس من الفنون البديعية، الذي اهتم به البلاغيون، لما له من أثر في المتلقي فعرقوه بأنه " ضرب من التكرار المؤكّد المنغمّ من خلال التشابه الكلّي، أو الجزئي في تركيب الألفاظ، فهذا التشابه في الجرس يدفع إلى التماس معنى تتصرف إليه اللفظتان، بما يثيره من انسجام بين نغم التشابه اللفظي ومدلوله على المعنى" (1)، فهو من المنبّهات ذات النبرة الدلالية التي تجد وقعاً خاصاً في أذن السامع فتتلذذ له من خلال تناسق الألفاظ وجرسها الموسيقي، ودلالة المعاني وسحرها، لذا تكمن بلاغة هذا التشاكل أو التجانس بنية تعبيرية وأداة فاعلة في نفسيّة المتلقي، وقد عدّه ابن حمزة العلوي من "ألطف مجاري الكلام ومن محاسن مداخله، وهو من الكلام كالغرة في وجه الفرس" (2).

من الواضح أنّ الجناس يقوم على التكرار أو المماثلة، وهو اتفاق اللفظتين في وجه من الوجوه، لكن الصلاح الصفدي يرى أنّ هذا التعريف ينتابه النقص، وقد وضع له رسماً يخلصه منه، فقال: "والذي اختاره أنا في رسم الجناس أن أقول: هو الإتيان بمتمائلين في الحروف، أو في بعضها، أو في الصورة، أو زيادة أحدهما، أو بمتخالفين في الترتيب، أو الحركات، أو بمماثل يرادف معناه مماثلاً آخر نظماً" (3)، هذا التشاكل والتقاطع في

(1) - ماهر مهدي هلال: جرس الألفاظ ودلالاتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1990م، ص 284.

(2) - يحيى بن حمزة العلوي: الطراز، ج 2، ص 185.

(3) - صلاح الدين الصفدي: جنان الجناس في علم البديع، مطبعة الجوائب، قسنطينة، 129، ص 19.

الحروف والانسجام في النغم هو نوع من التلاعب اللغوي الذي "يعمل على توليد المفردات التي تتطلب مهارة خاصة تخضع لقواعد اللغة"⁽¹⁾.

ولاشك أن تكرار هذه الحروف يولد مزية خاصة في الألفاظ ويترتب عن ذلك نغماً موسيقياً مثيراً "فتأنس الأذن بازدواجها وتآلفهما، فإن عودة الحرف في الكلمة تكسب الأذن هذا الأتس، لو لم يكن لعودته مزية أخرى تعود إلى معناه، فإذا كان مما يزيد المعنى شيئاً، أفاد مع الجرس الظاهر جرساً خفياً لا تدركه الأذن وإنما يدركه العقل والوجدان وراء صورته"⁽²⁾، وهذا التكافل والالتحام الوظيفي بين حركات الألفاظ ومعانيها، يجعل المتلقي يستجيب للتجاوب الموسيقي. فتختلج له نفسه ويخضع له عقله، ولذا عدّ من محاسن الجنس أنه يعمل على "اجتلاب الأذهان، وخداع الأفكار، حيث يوهم أنه يعرض على السامع معنى مكرراً أو لفظاً مردداً لا يجني منه السامع غير التطويل والسامة، فإذا هو يروّع ويعجب، ويأتي بمعنى مستحدث يغير ما سبقه كل المغايرة، فتأخذ السامع الدهشة لتلك المفاجأة غير المتوقعة"⁽³⁾، ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾⁽⁴⁾ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ⁽⁵⁾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ⁽⁶⁾.

لقد وصف الله سبحانه وتعالى في عدّة مواضع الحالة الشنيعة والعذاب الشديد الذي يؤول إليه فرعون وقومه يوم القيامة، بعد أن جاءهم الحقّ من ربهم، وجادلهم موسى عليه السلام بالحجج العقلية، مستعملاً معهم الأسلوب اللين لعل قلوبهم تخشع، وعقولهم تخضع، لكنهم واجهوا دعوته بالإنكار والجحود، فتوعدهم الله بالعذاب الأليم فأوردتهم النار. حملت هذه الآية الجنس الناقص بين الألفاظ (الورد، المورود)، و(الرفد، والمرفود)، وجميعها ينتمي إلى الحقل المفهومي الدال على "الطعام والشراب"، فهي تحمل صفة

(1) - ينظر: سعيد علوش: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1985، ص63.

(2) - عز الدين علي السيّد: التكرير بين المثير والتأثير، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط2، 1986، ص14.

(3) - عبد الفتاح لاشين: البديع في ضوء أساليب القرآن، دار الفكر، القاهرة، 1999م، ص169-170.

(4) - سورة هود: الآية 98-100.

المجانسة من ناحية البنية الدلالية والصوتية، فاختيار لفظة المورد في هذا السياق أنسب وأنجع حجاجياً مما غلب عليه قوة المعنى، وصلابة التأثير، لأنّ الورد عادة يكون خاصاً بالماء "المرشح للورود، واستعمل في النار على سبيل الفطاعة، فالألفاظ جاءت في حقّ فرعون الذي يتقدم قومه إلى النار ليطفئ هذا العطش ففرحته بالماء يجني له أثراً نفسياً إيجابياً؛ لأنه يرى ما يشفي ظمأه وريقة؛ لكن عندما يأتيه يجده ناراً، فيصطدم بعلة نفسية هالكة وهي " بنس المورد الذي يردونه النار وبنس المدخل المدخول فيه هو النار؛ لأنّ وارد الماء يردّه للتبريد، أما الوارد الذي يتقدم القوم فيسقي لهم "(1)، وهذا يُظهر لنا مدى شناعة العذاب النفسي والجسدي الذي يتجرّعه فرعون وقومه.

ومن هنا تتسق لنا صورة حال فرعون وقومه: يؤمّمهم في الدنيا إلى الضلال ويؤمّمهم في الآخرة إلى النار"(2)، وهي حجة لمن يركن إلى أهل الضلال، فيلقى نفس مصيرهم، كما يمكن القول أنّ بنية الفواصل للألفاظ دلّت على حالتين أو مصيبتين وقع فيها فرعون وقومه فوجد في بادئ الأمر ارتياح أنفسهم لوجود الورد، فهو أطمعهم بذهاب الظمأ، لكنه من نوع آخر، لهذا قالوا: "إنّ ألفاظ التّجنيس تحدث بالسمع ميلاً إليه، فإنّ النفس تتشوق إلى سماع اللفظة الواحدة إذا كانت بمعنيين، وتتشوق إلى استخراج المعنيين المشتمل عليهما اللفظ فصار للتّجنيس وقع في النفوس وفائدة"(3).

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ أَبْلَغِي مَاءَكَ وَيَسْمَأْ أَقْلِعِي﴾(4).

تحدث الآية عن وصف وقائع الطوفان الذي عذب الله به قوم نوح عليه السلام، حيث أمر الجمادات (الأرض، والسّماء) بفعل (البلع والقلع)، وقدم الله عزّ وجلّ الفعل المبني للمجهول "قيل"، والذي جاء فاعلها محذوفا تعظيماً له، "وتنبيه من هذا الوجه على أنه لا

(1) - ينظر: أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية، ص 865.

(2) - سيد قطب، مشاهد القيامة، ص 148 .

(3) - النجم الدين أحمد بن إسماعيل بن الأثير الحلبي: جوهر الكنز، تحقيق، محمد سلام زغلول، منشأة المعارف، الإسكندرية، (د-ط)، (د-ت)، ص 91.

(4) - سورة هود: الآية 44.

حاكم في العالمين إلا هو، فينصرف العقل البشري إلى الاهتداء، فيكون الفعل في هذا السياق أعلق بالطبع وأذ للنفس⁽¹⁾، فالتجانس جاء غير تام بين اللفظتين (ابلعي - أقلعي)، بالإضافة أن هناك تقاطعا صوتيا في بنية اللفظتين، وهنا تكمن قوة وسرّ الإعجاز البياني للقرآن .

ولا شك أن التجنيس في اللفظتين "ابلعي"، و"أقلعي" توحيان بدلالات حجاجية متعددة، لأنها تجعل المتلقي تحت تأثير ظاهرة العظمة والقوة والرّهبة، وفعل الأمر الصادر من الذات الإلهية، قوله تعالى: (ابلعي) من البلع "وهو الزرّد، والابتلاع: الازدراء يقال بلع اللقمة يريدون بذلك سرعة نزولها من الحلقوم من غير مضغ ولا علك ولا غيره"⁽²⁾، وهذا التصوير دليل هول المشهد وعظمته، ولم يستعمل الله عزّوجلّ "اشربي، وتشربي ونشفي، واذهبي وذلك؛ لأنّ هذه الألفاظ لا تؤدي معنى ازدراء اللقمة دفعة من غير توقّف، وذلك ليرجع الماء غائرا في عيون الأرض تبتلعه بأسرع وقت"⁽³⁾، أما استعمال الفعل "أقلعي" دون غيره من الأفعال كالإمساك مثلا ؛ لأنّ الفعل "أقلعي" هو التوقّف التام أو الإمساك عن إنزال المطر ؛ وجاءت هذه اللفظة بخلاف الإمساك الذي هو التوقّف الذي يفيد الاستئناف⁽⁴⁾، وأما دلالة التجانس بين الفعل "أقلعي" و"ابلعي" جاء ليخلق نغما صوتيا فريداً تستقطبه الأنفس فتقف حائرة من هول ما ترسمه صورة التخيل لهذا المشهد العظيم.

وهناك موقف آخر تقف فيه اللفظتان (ابلعي-أقلعي) موقفا دلاليا، وهو ارتباطهما مباشرة بالحقل الدلالي الدال على الطّعام والشراب، وهذا من أجل تقريب الصّورة إلى القارئ أو السّامع بجانب حسّي "لإثارة الخيال، وإيقاظ العاطفة، وإبراز الصّورة العقلية التي تنطوي عليها الألفاظ وترسمها أمام الفكر، وتنقشها على صفحات

(1) - ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج17، ص243.

(2) - الخير شمس الدين محمد الجزري: كفاية للألمعي، ص166.

(3) - نفسه.

(4) - ينظر حسنين محمد مخلوف: كلمات القرآن، تفسير وبيان، دار ابن حزم للنشر والطباعة، بيروت، لبنان، ص122.

النفس⁽¹⁾. وتظهر قيمتهما الحجاجية في تنبيه المخاطبين بما يخدم فطرتهم الإنسانية وما تقرر في العقول أنه لا حاكم في العالمين ولا متصرف في العالم العلوي والسفلي إلا هو⁽²⁾، فلا يعجزه أمر عن إيجاده أو إعدامه.

ومن أمثله أيضا قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَيَّ مَكَاتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٧﴾ وَأَنْتَظِرُونَ إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾⁽³⁾.

يتقدم فعل الأمر في قوله "أَعْمَلُوا عَلَيَّ مَكَاتِكُمْ"؛ على تمكنكم وحالكم ومنهجمكم "إنا عاملون على طريقتنا ومنهجنا وجهتنا من الإيمان بالحق والاعتزاز والتذكر، كما توحى بالوعيد والتهديد ويتأكد الخطاب مرة أخرى بلفظتي "وَأَنْتَظِرُونَ" و"إِنَّا مُنْتَظِرُونَ" الذي فيه من الوعيد والتهديد ما لا يخفى، والمعنى: انتظروا عاقبة أمرنا فإننا منتظرون عاقبة أمركم وما يحلّ بكم من عذاب الله وعقوبته⁽⁴⁾.

كما تأتي بنية التّجنيس متضامنة صوتياً مع بنية الفاصلة مما زاد من قوة تأثيرها على القارئ أو السامع (اعملوا - عاملون)، (انتظروا - منتظرون)، فالفعل الأول من كل ثنائية خاص بالذين لا يؤمنون، أما الثنائية الثانية والتي عبّر عنها بالاسم ونحن نعلم أنّ الاسم يمتاز بالثبات، بينما الفعل يدلّ على الحركة وهذا ما اتّصف به الذين لم يؤمنوا بدعوة الله .

إنّ هذه الثنائيات البديعية تأثيرها الحجاجي جليٌّ في الآية، وزاد من تجانسها وانسجامها عندما التقت مع بُنى آخر كبنية الفاصلة، وبنية الاشتقاق، فيغدو الخطاب

(1) - صلاح الدين عبد التواب: الصورة الأدبية في القرآن الكريم، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، القاهرة، ط1، 1995، ص12.

(2) - أبو الخير شمس الدين محمد الجزري: كفاية للألمعي، ص81.

(3) - سورة هود: الآية 121-122 .

(4) - ينظر: الشوكاني: فتح القدير، ج2، ص743.

البلاغي قوة حجاجية، فيتفاعل معه المتلقي؛ لأنّ نفسه تتشوّق لمعرفة هذه الثمرة التي يصنعها هذا اللون البلاغي.

4- المشاكلة:

جاء المعنى اللّغوي للمشاكلة في لسان العرب: الشّبّه والمثّل، وقد تشاكل الشيطان وشاكل كل واحد منهما صاحبه، ويقال هذا شيءٌ أشكَلُ، ومنه قيلَ للأمرِ المُشْتَبِهِ مُشْكِلٌ. وَأَشْكَلَ عَلَيَّ الأَمْرُ إِذَا اخْتَلَطَ، وَأَشْكَلَتْ عَلَيَّ الأَخْبَارُ وَأَحْكَلَتْ بِمَعْنَى وَاحِدٍ⁽¹⁾.

ولعل ظهور نشأة مصطلح المشاكلة حسب أحمد مطلوب يرجع إلى أبي علي الفارسي الذي كان أول من أطلق عليها هذا الاسم⁽²⁾. أما أهل البلاغة فقد صنّفوها في قسم فنون البديع، لأنها تعنى بالأسلوب الجمالي المتعلق بالصياغة اللفظية.

وقد أشار السيوطي أن المزيّة الكبرى التي يُعنى بها هذا اللون البديعي كونه يُحدث أثرا في النفس، لأنّ مناسبة الألفاظ تحدث ميلا وإصغاء إليها، ولأنّ اللفظ المشترك إذا حمل على معنى، ثم جاء والمراد به معنى آخر كان للنفس شوق إليه⁽³⁾، وقد وُظّف هذا اللون البلاغي كثيرا في القرآن الكريم، لأنه يُعدّ من الأساليب الفنيّة والجمالية التي تلقى موقعا خاصا في النفس، وقد أدرج البلاغيون هذا اللون البديعي ضمن فنّ الجناس، لأنّه عبارة عن استعمال لفظتين يجمعهما أصل واحد في اللّغة للدلالة على معنيين. وقد استخدمه أبو الحسن الرّماني تحت مصطلح المناسبة والتي هي من التجانس⁽⁴⁾. ومن الأمثلة الواردة في كتاب ربنا قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾⁽⁵⁾، فالمشاكلة تظهر بين لفظة صبغة الله والتي تعني " تطهير الله،

(1) - ينظر: لسان العرب، مادة (شكل).

(2) - ينظر: أحمد مطلوب: معجم المصطلحات البلاغية، ص 623.

(3) - السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، ج 2، ص 90.

(4) - الرّماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص 99.

(5) - سورة البقرة: الآية 138.

لأنّ الايمان يطهر النفوس. والأصل فيه أنّ النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمونه المعمودية، ويقولون: إنه تطهير لهم؛ فعبر عن الايمان بصيغة الله للمشكلة بهذه القرينة⁽¹⁾.

أما قوله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾⁽²⁾، تأت المشكلة في هذا المقام تحمل لفظة السخرية، ولا شك أنّ سيدنا نوح عليه السلام دعاهم بشتى الطرق، فقد دعاهم ليلاً ونهاراً، سراً وجهراً، لكنّ كلّ هذا لم يزداهم إلا عناداً وتجبراً، ولم يقفوا عند هذا الحدّ، بل سخروا منه، وردّ عليهم النبي نوح عليه السلام بأننا نحن من يسخر منكم؛ لأنّ السخرية المعلّلة أحقّ من الأخرى، فالكفار سخروا منه - عليه السلام - لعمل يجهلون غايته، ونوح - عليه السلام - وأتباعه سخروا من الكفار لعلمهم بأنهم جاهلون في غرور⁽³⁾، كما ورد بصيغة الفعل المضارع، الذي يفيد الحركة والاستمرارية والتجدّد، بمعنى أنّ السخرية لصيقة بكلّ الدّعاة إلى الله وتحكيم شريعته .

وجاء استعمال الملاء من قوم نوح أسلوب السخرية بصيغة المشكلة، ليحاجوا به على أنّهم على حقّ، وأنّ ما جاء به النبي عليه السلام هو الباطل، ويريدون من ذلك أن يكون المسخور منه "في الوضع الأدنى والأضعف نفسياً وهي بمثابة حرب نفسية بامتياز"⁽⁴⁾، لكن في المقابل تبقى حجّة النبي نوح عليه السلام أقوى وأعظم لما لها من بيان حجاجي عقلي وقلبي يظهر تأثيره في النفوس. وهذا ما أشار إليه (بيرلمان) بقوله: "إذا استخدمنا السخرية، فهذا يعني أنّ هناك ضرورة لوجود الحجاج؛ وذلك أن ظهور التّعرض [المفارقة] ما هو إلا طابع دافع إلى قمة الحجاج"⁽⁵⁾، وعليه تأتي سخرية نوح عليه السلام ردّ فعل قويّ على سخرية الملاء من قومه، وتنبيهاً منه ويقظة لما سيحلّ عليهم من العذاب.

(1) - السيوطي: البرهان في علوم القرآن، ج1، ص312.

(2) - سورة هود: الآية 38.

(3) - الطاهر بن عاشور: التحرير والتتوير، ج12، ص70.

(4) - ينظر: عبد الحليم حفنى، التصوير الساخر، ص19.

(5) - عبد الجليل العشاوي: آليات الحجاج القرآني، ص328.

5- حركة الالتفات وقيمه الحجاجية:

يُعد الالتفات فناً من فنون البلاغة لما فيه من أسرار بلاغية، وقد لقب "بالشجاعة العربية"، "لأنّ فيه ورود المواد الصّعبة واقتحام مضايق الأساليب، وحقيقته التّعبير عن معنى بطريق من الطّرق الثلاثة التّكلم والخطاب والغيبة بعد التّعبير عنه بطريق آخر منها"⁽¹⁾.

وعده الزمخشري عند تفسيره سورة الفاتحة من علم البيان وهو يطرح سؤالاً ثمّ يجيب عنه بقوله: "فإن قلت: لم عدل عن لفظ الغيبة على لفظ الخطاب؟ قلت: هذا يسمّى الالتفات في علم البيان، قد يكون من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التّكلم، كقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾⁽²⁾، وذلك على عادة افتنانهم في الكلام وتصرفهم فيه، لأنّ الكلام إذا نُقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السّامع وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد"⁽³⁾، كما عدّه ابن الأثير صورة بلاغية يقترح بها المعاني ليصل إلى المعنى المقصود، وهذا من أجل أن يستنهض همم المتلقي، ويلفته إلى مقام جديد، مؤثراً على وجدانه ومشاعره، وقد عدّه من علم البيان فيقول: "وهذا النوع - من الالتفات - هو خلاصة علم البيان التي حولها يُدندنُ وإليها تُستندّ البلاغة وعنها يُعنعن... ويسمّى أيضاً شجاعة عربية وإنّما سمي بذلك، لأنّ الشّجاعة هي الإقدام وذاك أنّ الرّجل الشّجاع يركب ما لا يستطيعه غيره ويتورّد ما لا يتورّده سواه وكذلك الالتفات في الكلام فإنّ اللّغة العربية تختصّ به دون غيرها من اللّغات"⁽⁴⁾.

إنّ الشّيء الذي يلفت الأنظار في مصطلح الالتفات هو القيمة الجمالية والفنيّة والإقناعية التي يحظى بها في الكلام، من الإثارة والتّحوّل، فالخطاب الذي يحمله لسان المتكلم

(1) - أحمد مصطفى المراغي: علوم البلاغة، البيان والمعاني والبديع، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 1993، ص141.

(2) - سورة يونس: جزء من الآية 22.

(3) - الزمخشري: الكشاف، ج11، ص120.

(4) - ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة، القاهرة، ج2، ص04.

بضمير المخاطب أو الغائب أو غيره يأتي لغرض إقناع المتلقي والتأثير فيه من خلال إثارة انتباهه سلبيًا أو إيجابيًا، ويعمل على تغيير موقفه، كي يسلك غرض المتكلم ومقاصده، وتتوفر هذه الشروط يمكن أن نقول أن هناك خطابا بلاغيا ناجحا .

اهتمّ علماء البلاغة والتفسير ببلاغة هذا الأسلوب لما يحمله من موقف نفسيّ خاص له من الإثارة والتأثير على أذهان المتخاطبين، وجاء حضوره في سورة هود قويًا، لأنّه يوحي بنكت بيانية تضيء على الأسلوب مزيدا من الاثارة والايضاح، ولا شك أنّ السياق له دور مهم في بيان الغرض المقصود، والحجّة التي تدعن المتلقي.

أ- الالتفات من المضارع إلى الأمر:

يأتي هذا النوع من الالتفات الذي ينتقل فيه الخطاب من صيغة المضارع الدال على الحال أو الاستقبال ويحمل دلالة الاستمرار غير المحدد بزمن معين، ثمّ تلتف هذه الصّورة بالسياق إلى صيغة جديدة وهي الأمر. ويتجلّى غرض هذا التحوّل " فقد يكون الغرض التّهمك، والاستهانة بمن أمروا بالفعل، وقد يكون اللفظ لفظ الأمر ويكون معناه الخبر لا طلب حصول الفعل، وقد يكون الغرض منه التأكيد أو أنه أبلغ من صيغة الخبر نفسه، يكون الفعل عندئذ مما ينبغي أن يُفعل وأنه مفعولا لا محالة، وقد يكون الفعل فعل أمر والفاعل هو المتكلم أي يكون المتكلم أمرا نفسه، ويكون الغرض من المبالغة في الالتزام بما طُلب منه...⁽¹⁾، وهكذا تتوالى الصّور وتتعدد الغايات.

ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَكْفُورُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي ءَالِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ ← (فعل مضارع) اللَّهُ وَأَشْهَدُوا ← (فعل أمر) أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾⁽²⁾.

(1) - عبد الله خضر حمد: العدول في الجملة القرآنية، دار القلم للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ص 163-164.

(2) - سورة هود: الآية 53-54.

يتجلى موضع الالتفات في قوله تعالى "واشهدوا" بصيغة الأمر، والسياق يقتضي أن يقال "وأشهدكم" ليتوافق مع ما قبله من الفعل المضارع وهو "أشهد"، لكنه عدل إلى الأمر ليدل على التهاون بينهم وقلة المبالاة بهم، "هلا قيل إنني أشهد الله وأشهدكم؟ قلت: لأنّ إشهد الله على البراءة من الشرك إشهد صحيح ثابت في معنى تثبيت التوحيد وشدّ معاقده، وأمّا إشهداهم ما هو إلا تهاون بدينهم ودلالة عن قلة المبالاة بهم فحسب، فعدل به عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما وجيء به على لفظ الأمر بالشهادة"⁽¹⁾.

أما البيضاوي فيذكر أن إشهداهم على هود عليه السلام ما هو إلا استهانة بما صنعت أيديهم، وقد حاجهم أنه: "أجاب به عن مقالتهن الحمقاء بأن أشهد الله تعالى على براءته من آلهتهن وفراغه عن إضرارهم تأكيدا لذلك وتثبيتا له، وأمرهم بأن يشهدوا عليه استهانة بهم"⁽²⁾. ثم يأمرهم بأن يتحدوا جميعا من غير انتظار من أجل إهلاكه وهم ذوو بطش وقوة حتى إذا اجتهدوا فيه ورأوا أنهم عجزوا عن آخرهم وهم الأقوياء الأشداء أن يضروه لم يبق لهم شبهة أنّ آلهتهم التي هي جماد لا تضر ولا تنفع لا تتمكن من إضراره انتقاما منه"⁽³⁾، وهذا دليل على بطلان حججهم ووثبيتهم التي يدعون إليها.

ب- الالتفات من الخطاب إلى الغيبة:

من أمثله قوله تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا﴾ ← (أنتم) رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ يَمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ^ط وَإِن تَوَلَّوْا ← (هم) فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ^ط (4).

جاء الالتفات في قوله تعالى: وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا بصيغة الخطاب، ثم انتقل إلى صيغة الغيبة وَإِن تَوَلَّوْا، وكان من مقتضى السياق أن تكونوا وأن تتولوا، والعرب كانت إذا

(1) - الزمخشري: الكشاف، ج12، ص488.

(2) - البيضاوي: أسرار التنزيل، ج1، ص138.

(3) - نفسه.

(4) - سورة هود: الآية03.

حكّت أو أمرت بحكاية خبرٍ يتلو القولَ - أن تُخاطب ثم تُخبرَ عن غائب، وتُخبر عن غائب ثم تعود إلى الخطاب؛ لما في الحكاية بالقول من معنى الغائب والمُخاطَب⁽¹⁾، والله تعالى أخبر على لسان نبيه محمد ﷺ وألزمهم بما يلي:

- نبذ عبادة الأصنام، وحذّرهم من عبادتها من دون الله.

- الاستغفار ثم التوبة .

ثم ينتقل الالتفات وَإِنْ تَوَلَّوْا بصيغة ضمير الغيبة، تنبيهًا لهم مع " تأكيد جملة الجزاء بـ(إِنْ) لقصْد تأكيد شدة توقُّع العذاب، فتخويفهم بعذاب الدنيا أوقع في نفوسهم"⁽²⁾، لأنّ الشّيء الغيبي المجهول تهابه النفس وتَعْظّمه، وتبقى تترقّبهُ لما يحلّ عليها من العذاب، لهذا جاء الالتفات بصيغة الغائب أبلغ في بيان الحجة والله أعلم .

ج- الالتفات من التّكلم إلى الغيبة:

ومن صور الالتفات أيضا أن ينتقل فيه الخطاب من التّكلم إلى الغائب، قوله تعالى:

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنصُورٍ﴾^(٨٢) مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ⁽³⁾. فانتقل الخطاب في هذا المقام من صيغة التّكلم (أَمْرُنَا، جَعَلْنَا) إلى صيغة الغيبة (عِنْدَ رَبِّكَ)، يوحي هذا الموضع من الالتفات سلطة الله في إظهار القوّة والشدّة والجبروت والمعجزة وزيادة في التّهويل، وما يحمله من الرّهبة والعذاب وبيان سرعة تنفيذه في قوم لوط، الذين انحرفوا عن عقيدة التّوحيد وعن الفطرة الإنسانيّة، فهذا الالتفات يزيد في النفس الرّهبة والقلق وتبحث عن صفة هذا العذاب وكيفيته، فتستحضر النفس وتفتنّع بعظمة هذا الخالق ومدى سلطة قوّته وغضبه.

(1) - الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج12، ص315.

(2) - الطاهر بن عاشور، ج11، ص319.

(3) - سورة هود: الآية 83.

د - الالتفات من الخطاب إلى التكلم:

ورد هذا النوع من الالتفات في قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾⁽¹⁾. الالتفات في قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ بصيغة الخطاب، ويأمرهم النبي ﷺ بالمبادرة بالاستغفار والتعجيل بالتوبة إلى ربهم لما اقترفوه من الأعمال السيئة، ثم تأتي صيغة التكلم، وكأن السياق المتوقع من مقتضى هذا الخطاب أن يكون: إن ربكم أو إن ربي وربكم رحيم ودود، فهذا العدول فيه حكمة بلاغية إعجازية، فكلمة ربي أسندت لسيدنا نوح ﷺ لتحقق الطمأنينة والسكينة لقومه ولتوثيق البشارة بأن الله رحيم بعبادة ويتجاوز عن سيئاتهم؛ "لأن رحمة الله وسعت كل شيء وهي شيء ثابت يقيني... وأن الاستغفار والتوبة التي تخصهم وحدهم؛ أي استغفروا ربكم من ذنوبكم التي أنتم مقيمون عليها من عبادة الأصنام وبخس الناس أشياءهم، ثم تأتي كلمة (ربي) ليهز نفوسهم ويمتلك قلوبهم لتقربهم من الله زلفى وعندما أراد أن يخبرهم بما يعهده في ربه أسند هذه الكلمة إلى نفسه لتكون دليلا على ثبات اليقين بها في نفسه المؤمنة، وشاهدا على صدق كلامه"⁽²⁾، وهذا دعا به إبراهيم ﷺ وهو يستغفر لأبيه في قوله تعالى: ﴿قَالَ سَلِّمْ عَلَيَّ سَأَسْتَغْفِرَ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾⁽³⁾، وهذا دليل على يقين إيمان الأنبياء بربهم.

6- الحجاج بالاستدراج:

ومن أهم المصطلحات التي حظي بها القرآن الكريم مصطلح الاستدراج الذي جاء مخاطبا أهل الكفر، بأن الإنعام عليكم في هذه الدنيا، ليس بمعنى الرضا والإكرام، بل هو السخط والهلاك، وهذا لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾⁽⁴⁾، فالحقيقة التي وقف عندها مصطلح الاستدراج أنه "من مخادعات الأقوال

(1) - سورة هود: الآية 90.

(2) - ينظر: الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج12، ص91.

(3) - سورة مريم: الآية 47.

(4) - سورة الأعراف: الآية 182.

التي تقوم مقام مخادعات الأفعال. والكلام فيه وإن تضمن بلاغة فليس الغرض هنا ذكر بلاغته فقط، بل الغرض ما تضمنته من النكت الدقيقة في استدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم⁽¹⁾، بما يطرح عليه من أفكار وحجج، لأن الاستدراج هو "الكلام المشتمل على إسماع الحق لا يورث مزيد غضب المخاطب، وسمي أيضا المنصيف من الكلام نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾⁽²⁾؛ أي مالكم أيها الكفرة لا تعبدون الذي خلقكم بدليل قوله تعالى: ﴿وإليه ترجعون﴾ فيه تعريض لهم على أنهم على باطل ولم يصرح بذلك لئلا يزيد غضبهم حيث يريد المتكلم لهم ما يريد لنفسه⁽³⁾، فيضعهم في مقام تسوده الحيرة وعمق التفكير.

إن الميزة الأساسية التي يتطلع إليها الاستدراج أنه سلوك حجاجي ذكي يستعمله المتكلم لجلب انتباه المتلقي وتذكيره، متسللاً إليه من زاوية الباعث العاطفي مستخدماً لطف العبارات وأرشقها وأعلقها بالنفس، كي ينفاد هذا الأخير فيذعن إلى المقصد الحقيقي لأن الاستدراجات تكون بتهيؤ المتكلم بهيئة من يقبل قوله، أو باستمالاته للمخاطب واستنطافه له بتزكياته وتقريطه،⁽⁴⁾.

وقد وظف القرآن الكريم أسلوب الاستدراج في سياق بعض الآيات القرآنية من سورة هود والتي تحدثت عن تجسيد الصورة الحوارية للخصم من أجل تقريبه إلى بيان حقيقة العقيدة والتوحيد وإبطال دعوهم، مستعملاً خطاباً تأديبياً تسوده الملاطفة في القول وحسن البيان.

قال تعالى: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾⁽⁵⁾.

(1) - ابن الأثير: المثل السائر، ج2، ص68.

(2) - سورة يس: الآية 22.

(3) - محمد علي التنهاوي: موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تحقيق، علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 1996م، ج1، ص150.

(4) - حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص64.

(5) - سورة هود: جزء من الآية 55.

يؤخذ لفظ الكيد على ضربين: قد يقصد به الشيء المذموم وهذا شائع الاستعمال، يقول الراغب الأصفهاني: "الكيد ضرب من الاحتيال. وقد يكون مذمومًا وممدوحًا، وإن كان يستعمل في المذموم أكثر، وكذلك الاستدراج والمكر. وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ﴾⁽¹⁾، خصّ الخائنين، تنبيهًا أنه قد يهدي كيدًا من لم يقصد بكيدته خيانة، ككيد يوسف أخيه...⁽²⁾.

لقد وصل بقوم هود -عليه السلام- من الإنكار وفساد العقل والجحود بالدعوة، حتى بالغوا في وصفه بالجنون، وقالوا أن آلهتنا هي التي سببت له ذلك، لأنه عارضنا عن عبادتها، ولما علم منهم الإعراض وأن قلوبهم عميت عن معرفة الحق وإتباعه، قال لهم: إني أشهد الله على ما أقول، وأنا بريء من عصيانكم لله، لأنكم اتخذتم آلهة غير الله، فإن كانت آلهة حقًا، فأجمعوا كل طاقاتكم وآهتكم وكل من ساندكم، بإلحاق الضرر بي ولا تتوانوا لحظة عن الإضرار بي ولا تأخذكم رافة بحالي.

إن استعمال هود عليه السلام هذا الخطاب لاستدراج عقولهم ونفوسهم وإفحام أباطيلهم، بأن آهتكم المصنوعة من الحجارة والطين لا تستطيع دفع الضرر عن نفسها فكيف تستحقّ العبادة، وهذا ليظهر لهم بالبرهان والحجة على سفه عقولهم وفساد عقيدتهم، فيريد من ذلك "نفي قدرة آهتهم على ضرره بطريق برهاني فإن الأقوياء الأشداء إذا لم يقدروا مع اجتماعهم واحتشادهم على الضرر كان عدم قدرة الجمادات عليه"⁽³⁾، وهذا الإفحام يعطي دليلًا آخر على سخريّة النبي عليه السلام مما يعبدون .

المقدمة الكبرى ← أجمعوا قومكم وآهتكم وكيدوني.

المقدمة الصغرى ← لن تستطيعوا كيدي.

النتيجة ← آهتكم لا تستحقّ العبادة.

(1) - سورة يوسف: جزء من الآية 52.

(2) - ينظر: الأصفهاني، مفردات القرآن الكريم، ص728.

(3) - الألوسي: روح المعاني: ج12، ص83.

ومن أمثلته أيضا، قوله تعالى: ﴿قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّي وَعَآتَنِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعَمِيتَ عَلَيْكُمْ أَنْزَلْتُكُمْوَهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ﴾⁽¹⁾

لا شك أن وظيفة النداء هو استجلاب المتلقي لما سيلقى إليه من خطاب إبلاغي، وهذا النوع من الخطاب استدراجي، لأن المتكلم يعطي صورة حسنة عن نفسه، وهذا ما جسّدته الآية الكريمة، فقد استهل سيدنا نوح عليه السلام في الآية الثناء على نفسه، أنه ذا بيّنة وحجة لا ينتابها الشك أو الريب، والإقرار بالرحمة التي أيدها الله سبحانه وتعالى بها، فقد عرض عليهم صوراً حجاجية مضمرة تُذيب كل أباطيلهم وافتراءاتهم؛ أي "إن كنت ذا برهان واضح، متصفا برحمة الله بالرسالة بالهدى فلم تظهر لكم الحجة ولا دلائل الهدى، فهل ألزمكم أنا وأتباعي بها، أي بالإذعان إليها والتصديق بها إن أنتم تكرهون قبولها"⁽²⁾، وهذا خطاب استدراجي يسعى من ورائه النبي نوح عليه السلام من قومه تحريك آلة العقل على التأمل فيما عرض عليهم من الدعوة.

ومن الأمثلة التي تصبّ في الحجاج بالاستدراج قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾⁽³⁾.

يأتي الاستدراج في هذا المقام مقدماً بنصيحة، وهي عدم الميل إلى ما يصنع الظالمون وعدم مؤانستهم وتشجيعهم والرضا بما يفعلون؛ لأنّ الظالم يستدرج أتباعه ومواليه، ويستميل قلوبهم من خلال ضعفهم في الشخصية أو بإغرائهم بالمال أو المنصب وغيرها فيصبح رهينة وسلاحاً يستغل كيفما شاء، وهو إحدى مسببات الركون، فالتحذير في هذا السياق هو عدم الميل إليهم "كالتزيي بزيتهم وتعظيم ذكرهم وشأنهم في المجالس، لأنّ بركونكم إليهم وكان الركون إلى من وجد منه ما يسمّى ظلماً كذلك ما ظنك بالركون

(1) - سورة هود: الآية 28.

(2) - الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، ج12، ص50-51.

(3) - سورة هود: الآية 113.

إلى الظالمين؛ أي الموسمين بالظلم، لذا جاء الاستدراج بعدم الاقتراب من به صفة الظلم⁽¹⁾، حتى لا يدخل في زمرة الظالمين.

ونخلص إلى أنّ الحجاج بالاستدراج كما ذكره ابن حجة الحموي تحت مسمى (براعة الطلب)، الذي قال في شأنه "أن يلوح الطالب بالطلب بألفاظ عذبة منقحة مقترنة بتعظيم الممدوح"⁽²⁾، حتى يستميل قلبه وينزع عنه كل الهواجس التي تثير الخوف والقلق والرّهبة.

7- التكرار وغرضه الحجاجي:

جاء معنى التكرار والتكرير عند أحمد مطلوب بمعنى "كرر الشيء: أعاده مرة بعد أخرى، وكررت عليه الحديث، إذا ردّته عليه"⁽³⁾، وقد عدّه البلاغيون من أساليب الفصاحة والبيان ومن محاسن القول، لأنّ "من عادة العرب في خطاباتها إذا أبهت بشيء إرادة لتحقيقه وقرب وقوعه، أو قصدت الدعاء عليه، كررته توكيداً، وكأنّها تقيم تكراره مقام المقسم عليه، أو الاجتهاد في الدعاء عليه، حيث تقصد الدعاء؛ وإنّما نزل القرآن بلسانهم، وكانت مخاطباتهم جارية فيما بين بعضهم البعض، وبهذا المسلك تستحكم الحجّة عليهم في عجزهم عن المعارضة"⁽⁴⁾، فالتكرار في الخطاب ما هو إلا ترداد للحروف أو الألفاظ أو الجمل فيصدر نغماً موسيقياً، به تستدعى الطّاقات الشعورية الكامنة للمتلقّي فتتجذب إليه انجذاباً، وقد عدّته نازك الملائكة أنّه "يسلّط الضّوء على نقطة حسّاسة في العبارة، ويكشف عن اهتمام المتكلّم بها، وهو بهذا المعنى ذو دلالة نفسية قيمية تفيد النّاقّد الأدبي الذي يدرس الأثر ويحلّل نفسية كاتبه"⁽⁵⁾.

(1) - ينظر: البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج3، ص151.

(2) - إبراهيم محمود علان: البديع في القرآن، أنواعه ووظائفه، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الآداب، إصدارات دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2002، ص274.

(3) - أحمد مطلوب: مصطلحات البلاغية، ص410.

(4) - الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج3، ص96.

(5) - نازك الملائكة: قضايا الشعر المعاصر، منشورات مكتبة النهضة، القاهرة، ط3، 1967م، ص242.

لا شك أنّ التكرار أشدّ علوقاً بالخطاب القرآني، ويحمل معه شحنة حجاجية؛ لأنه يعمل على "التبليغ والإفهام وتعين المتكلم ثانياً على ترسيخ الرأْي أو الفكرة في الأذهان، فإذا ردّد المحتجّ لفكرة حجّة ما أدركت مراميها وبانت مقاصدها ورسخت في ذهن المتلقي، وإن ردّد رابطاً حجاجياً أقام تناغماً بين أجزاء الخطاب وأكدّ الوحدة بين الأقسام"⁽¹⁾. ويعني من هذا الكلام أنّ التكرار له قوّة تأثيرية في بلوغ القول من خلال توكيد الكلام ورسوخ المعنى في ذهن المتلقي، وهذا يؤدي لا محالة إلى الاقتناع وتقرير الحق وتثبيتته، فيتفاعل معه الوجدان والمشاعر لأنّ "النفوس أنفر شيء من حديث الوعظ والنصيحة، فما لم يكرّر عليها عوداً عن بدء، لم يرسخ فيها ولم يعمل عمله، ومن ثمّ كانت عادة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكرّر عليهم ما كان يعظ به وينصح ثلاث مرات وسبعاً ليركّزه في قلوبهم ويغرسه في صدورهم"⁽²⁾. وقد وُجد التكرار في القرآن ليؤكد مسائل ويكشف عن أغراض تكون عوناً على بلوغ الحجّة، نذكر على سبيل المثال لا الحصر، كالتقرير والتأكيد الذي يزيد المتلقي تنبيهاً لما يعرضّ عليه من حجج، كما يفيد التهويل والتعظيم لله سبحانه وتعالى.

7-1 تكرار القصص في السورة:

اشتملت سورة هود على سبع قصص: نوح، وهود، وشعيب، وموسى، وإبراهيم، ولوط عليهم السلام، ومحمد ﷺ، وكلّها تدعو إلى توحيد الله تعالى، وفيها يظهر التسلسل الزمني لبعثة الرسل عبر فترات من التاريخ، وأنّ رسالة التوحيد واحدة وهي الإسلام، كما يخبرنا النبي محمد ﷺ أنّ الشرك قديم، ويحذّر قومه ومن بعده من عاقبة التي آل إليها هؤلاء الأقوام.

ولا شك أنّ التكرار أو الترداد على قول الجاحظ يكون على قدر المستمعين، ومن يحضره من العوامّ والخواص، وقد رأينا الله عزّ وجلّ ذكر قصّة موسى وهود، وهارون

(1) - سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، ص168.

(2) - أبو القاسم الزمخشري: الكشاف، ج5، ص300 — 301.

وشعيب، وإبراهيم ولوط، وعاد وشمود، وكذلك ذكر الجنة والنار، وأمورا كثيرة، لأنه خاطب جميع الأمم من العرب وأصناف العجم، وأكثرهم غبي غافل، أو معاند مشغول الفكر، وساهي القلب⁽¹⁾، ويضرب الله الأمثال لنبيه والمؤمنين بالأمم السابقة التي بلغ فيها الأنبياء الدعوة بالحجة القاطعة، وإقناعهم بقوة العقل والوجدان، وهذا لتوقظ من وراء ذلك التهديد الخوف في قلوبهم، لأنه أقوى عامل يكف الإنسان عن كثير من الأفعال العاجلة والأجلة القبيحة، وهو الأساس لغريزة التدبّر التي ترمي إلى قيادة السلوك الإنساني وتنظيمه⁽²⁾.

إنّ الميزة التي ينحوها التكرار القصصي في القرآن الكريم هو تجدد أسلوبها في كل مقام إيرادا وتصويرا، حاملة معها طابعها النفسي لما له من تأثير في النفوس، لأنّ التكرار ينطبع في تجاويف الملكات الشعورية التي تختمر فيها أسباب أفعال الإنسان ودوافعها⁽³⁾، فالتكرار الذي أصاب كل القصص عدا سورة يوسف لم يكن غرضها الإعجاز البياني والإمتاع الجمالي والتسلية للنبي -عليه السلام- فحسب؛ بل يتعدى غرضها إلى التأثير النفسي والعقلي بسلطان الحجّة وهذا ما ذهب إليه عباس فضل بأنّ التكرار جاء في القصص ليستميل قلوبهم وعقولهم بقوله: "إننا لا ننكر على الذين ذهبوا إلى القول بوجود التكرار في القرآن معلّين بأنه لا يخرج عن الأساليب التي عرفتها العرب، وإنّما يراد به التأثير على النفوس حتى يقررّ فيها ما يتكرر من أقوال"⁽⁴⁾ وسنذكر مايلي:

- إنّ المعاني التي اشتملت عليها القصة الواحدة من هذه القصص صارت متفرقة في تارات التكرير فيجد البليغ لما فيها من التغيير ميلا إلى سماعها، لما جبلت عليه النفوس من حبّ التنقل في الأشياء المتجددة التي لكل منها حصة من الالتذاذ به مستأنفة.

(1) - الجاحظ: البيان والتبيين، ج1، ص105.

(2) - ينظر: عبد الوهاب حمودة: القرآن وعلم النفس، دار الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، (د-ط)، 1968، ص09.

(3) - ينظر: التهامي نقرة، سيكولوجية القصة في القرآن، ص118.

(4) - حسان فضل: القصص القرآني، ص99.

- يرمي حجاجية التكرار لهذه القصص إلى ترغيب أهل الإيمان إلى تثبيت عقيدته وترهيب أهل الشرك والكفر في زمن النبوة من تسليط الله عليهم العذاب كما وقع لأقوام سابقين. فقد جاء متحدثاً بلغاء والفصحاء العرب، من الانسجام الرباني لهذه القصص في أماكن متفرقة من القرآن "دفعاً لحجتهم من كل وجه" (1).

- يأتي التكرار القصصي إعلاماً لأهل البلاغة والفصاحة من أهل الزيغ والشرك أنهم "عاجزون عن الإتيان بمثله بأي نظم جاؤوا، وبأي عبارة عبّروا" (2)، فالمعنى الحقيقي الذي يحمله هذا التصوير الهندسي الرباني للتكرار هو تثبيت قلب النبي محمد ﷺ "وتنبه أبناء آدم إلى غواية الشيطان، وإبراز العداوة الخالدة بينه وبينهم منذ أبيهم آدم، وإبراز هذه العداوة عن طريق القصة أروع وأقوى، وأدعى إلى الحذر الشديد من كل هاجسة في النفس تدعو إلى الشر" (3)، لتحمله على سدّ كل ثغرات الجهل والغواية.

7-2 حجّية تكرار النداء في التعبير القرآني:

يتّخذ القرآن الكريم طريقة في التعبير عن التصوير اليقيني للأحداث، وهي طريقة فنيّة من طرق الإدلاء بالحجّة، وإبرازها في صور حسية مجسّدة على الواقع، ولهذا فإنّ الأنبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام سلكوا هذا المنهج، لغرض إقناع أقوامهم بالمشاهدة المرئية، حتى تثبت العقيدة في نفوسهم، وعلى هذا نجد تردّد أسلوب النداء عند سيدنا نوح عليه السلام في دعوته في كثير من المواقف والمقامات الخطابية وتتجلى في بعض الآيات نذكر منها، قوله تعالى: ﴿قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُمْ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ (4)، ﴿وَيَقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنِّي أَنجِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ (5).

(1) - الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج3، ص111.

(2) - نفسه، ج3، ص27.

(3) - سيد قطب: التصوير الفني، ص154.

(4) - سورة هود: جزء من الآية 28.

(5) - سورة هود: جزء من الآية 29.

لا شك أنّ الخطاب الدّعوي الذي استهل به نوح عليه السلام يتضمّن حرف النداء، ونحن نعلم أنّ حسن الاستهلال يترتب عنه استحضار الوعي الذهني والقلبي، فيجلب الاستمالة والاستعطاف، فالنبي نوح عليه السلام صاغه في مجادلة قومه ومحاورتهم القصد منه تنبيههم على عظم الرّسالة التي خصّه الله بها واستدراجهم إلى قبول دعوته والإيمان بالواحد الأحد، وأمّا تكرار مناداته لهم بقوله: ﴿يا قومي...﴾ فعلى الرّغم من لجوء الملام من قومه الذين كفروا به وبدعوته لجأوا إلى السفسطة من أجل تكذيبه، بعدما خفض لهم جناح المودة والقربى فتكرّر خطابه لهم ﴿يا قومي﴾، وما كان ليخاطبهم بهذه الصّفة التي تحمل من الاستعطاف واللّين وإبراز حبه لهم وخوفه عليهم ورغبة منه في سكون معاني التّوحيد في قلوبهم وتثبيتها. لأنّ للتكرار تأثيراً في عقول المستيرين، وتأثيره أكبر في عقول الجماعات من باب أولى، والسبب في ذلك كون المكرّر ينطبع في تجاويف الملكات اللاشعورية، التي تختمر فيها أسباب أفعال الإنسان، فإذا انقضى شطر من الزمن نسي الواحد منا صاحب التكرار، وانتهى بتصديق المكرّر⁽¹⁾، وما ينبغي تأكّيده في هذا المقام أن حجية التكرار في النداء جاءت لتعبّر عن زيادة التّبيه لهم، وإيقاظهم من الغفلة.

3-7 التكرار الاشتقاقي:

يأتي هذا النوع من التكرار في إظهار قوّة اللفظ المكرّر الذي يشدّ ذهن المتلقي ويجعله أكثر يقظة وانتباهاً في بيان غرض المتكلم وحصول الإقناع، ولا شك أنّ هذا النوع يأخذ مساحة هامة في القرآن الكريم، ويتجلّى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَصَنَعَ أَلْفَاكٌ وَكَلَّمَ مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾⁽²⁾.

(1) - أحمد بدوي: من بلاغة القرآن، ص112.

(2) - سورة هود: الآية 38.

يدلّ اللفظ المشتق من المصدر السّخرية والذي تردّد أربع مرات وبضمائر مختلفة: (سخرُوا هم)، (تسخرُوا أنتم)، (نسخر نحن)، (تسخرُون أنتم)، بصورة التفات التي تضع المخاطب أمام أثر موسيقي ينتبه لنغماته وإيقاعه المنسجم، فينشأ عنه قوّة تأثيرية نفسيّة تلقي بضلالها على قلب المتلقي، فنكرار لفظة السّخرية التي أصلها الجذر (سخر) جاءت لتعطي فسحة ذهنية للمتلقي في معرفة سرّ هذا التّنوع في التّكرار الاشتقائي، فيجمع قواه الفكرية والقلبية في كشف هذا السرّ الكامن. وعليه يصبح التّكرار "حاجة ضاغطة تخرج المنشئ في كثير من الأحيان ليظلّ مشدوداً إلى كلمة بعينها إلى أن تبلغ حدّ الإشباع حينئذ يدعها بعد أن يفرغ كامل شحناته النفسيّة فيها"⁽¹⁾. فسلطة التّكرار تأتي لتقدّم وظيفة تأكيد المعنى في الذّهن والنّفس وحملها على المتلقي للإقناع والتأثير.

وما يلفت النّظر هنا أن الألفاظ جاءت متنوعة الضّمائر، فينتقل من صيغة الغائب إلى صيغة المخاطب إلى صيغة المتكلم، ثم يعود إلى صيغة المتكلم، هذا اللون الذي يُعرف عند البلاغيين بالالتفات يُضفي على النصّ مزيداً من الانتباه والتأثير الجمالي والإقناعي.

فالآية تُظهر سخرية ملأ قوم نوح عليه السلام، وتعجّبهم منه وهو يصنع السّقينة على اليابسة، وهم يسخرون منه بأن كنت نبياً فأصبحت نجّاراً، وهذا دليل على شدّة إنكارهم لدعوته وصغر عقولهم، وتأتي المقابلة بين سخرية الملأ مع النّبي نوح في موقف يقيني ثابت في رؤيته للحقّ، وعظم توكله على الله، إن تستهزئوا منّي فإنّي أسخر منكم عندما يحلّ عليكم عذاب الله (الطوفان)، وهو نوع من التّخويف والترهيب الذي يهزّ نفوسهم هزّاً، وهم يعلمون أنه الحقّ .

(1) - أحمد علي محمد: التكرار وعلامات الأسلوب في قصيدة (تشيد الحياة) للشابي "دراسة أسلوبية إحصائية" مجلة جامعة دمشق، المجلد 26، العدد الأول/الثاني، 2010، ص 49.

كما تكمن فائدة التكرير في الإشعار بالقضايا سواء كان تعظيمًا للذات الإلهية أم تهويلاً واستنكاراً للمشركين، ف"التكرير الحاصل نتيجة للمثير، له وقعه الخاص في النفس؛ إذ يدقّ اللفظ بعدد ما يتكرّر أبواب القلب موحياً بالاهتمام الخاصّ بمدلوله، فيشعل شعور المخاطب إن كان خافتاً ويوقظ عاطفته إن كانت غافية"⁽¹⁾، ولا شك أن تغيير نغمة الصوت المكرّر مع الضمير يُعد أكبر جذباً ويقظة وانتباهاً لشعور السامع، فهي تحقق التهيوّ الذهني والوجداني، فينتبه إلى تغيرات هذه الصفات الصوتية التي تشكل إيقاعاً وتناغماً بين الكلمات فتحمل النفوس إلى الإقناع .

8- آفاق التناسق الموسيقي وحجاجيته في التعبير القرآني:

إنّ النفس البشرية بفطرتها تميل وتتلذذ بالفعل الإيقاعي، وهذا الاضطراب نابع من الصوت الذي تتركه موسيقى الشعرّ وبين أفلاطون "إنّ النزعة الطّبيعية إلى الانسجام والإيقاع هي أساس في الشعرّ، فالوزن عنصر عرضي في الشعرّ بينما الانسجام والإيقاع عنصر جوهرى. وهذا دليل على الارتباط الضروري بين الشعرّ والموسيقى"⁽²⁾، ويرى أرسطو علينا التمسك بتعليم أبنائنا الموسيقى؛ لأنها منارة لتثقيف العقل وتزكية النفس معاً، "إذ إنّ للموسيقى لذة طّبيعية، لذا تستطيب استخدامها جدّاً كلّ الأعمار وكلّ الأمزجة، بل أن ننظر هل تمت في شيء إلى تحسين الخلق والنفس وقد تتجلى هذه الحقيقة إن كنا نكتسب بالموسيقى بعض المزايا الخلقية"⁽³⁾، فالموسيقى تمكّن المرء من الانصراف إلى السعادة والسرور والبحث عن المتعة النفسية التي بها يتقرر فنّ الإقناع.

أما أسلوب الخطاب القرآني فقد تحققت فيه كل معاني البلاغة، التي أطربت النفوس قبل العقول، واستوت فيه العبارات والجمل أجمل ما تستوي في القافية في الشعرّ، فهو ليس نثراً، كما ليس شعراً، إنّما هو قرآن يُتلى أثناء الليل وأطراف النهار، ولا يمكن أن

(1) - ينظر: التكرير بين المثير والتأثير، ص198.

(2) - أرسطوطاليس: فن الشعرّ، ترجمة عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، (د-ط)، 1953، ص13.

(3) - أرسطو: السياسيات، نقله عن الأصل اليوناني وعلق عليه الأب أوغسطس بربرارة البولسي، بيروت، 1957 للجنة الدولية لترجمة الروائع الإنسانية، ص433.

يسمى بغير هذا الاسم، ليس شعرا، وهذا واضح، فهو لم يتقيد بقيود الشعر، وليس نثرا، لأنه مقيد بقيود خاصة لا توجد في غيره. وهي هذه القيود التي يتصل بعضها بأواخر الآيات، وبعضها تلك النغمة الموسيقية الخاصة. فهو ليس شعرا ولا نثرا⁽¹⁾، ولكنه ﴿كَتَبَ﴾
أُحْكِمَتْ ءَايَاتُهُ وَتُورُفُصِّلَتْ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَيْرٍ ﴿٢٠﴾

هذا الانسجام والتناسب الإيقاعي بين الموسيقي سمّاه علماء الإعجاز "بالفواصل"، خلافا لمصطلح السجع المرتبط بسجع الحمام وأصحاب الكهانة في الجاهلية، لذلك تجنب العلماء تسمية أواخر التعبير القرآني بالسجع، ضف إلى ذلك، أنّ الفواصل تختص بالمعاني خلافا للسجع الذي يكون خاصا بالألفاظ؛ لأنّ الفواصل "حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن إفهام المعاني، والفواصل بلاغة، والأسجاع عجيب، وذلك أنّ الفواصل تابعة للمعاني، وأما الأسجاع فالمعاني تابعة لها"⁽²⁾.

جاءت السور المكية في القرآن الكريم لتثبيت العقيدة الإسلامية لدى أهل مكة وشعابها فهي مهد الدعوة الإسلامية، بينما عنيت السور المدنية بالأحكام وأصول التشريع، والتصدي لمواقف أهل الكتاب والمنافقين، ولا شك أنّ الإيقاع الموسيقي الذي تحدّثه هذه السور لم يأت اعتباريا، بل جاء ليلاصق أحاسيس ومشاعر المتلقين؛ لأنّ القرآن "لا يعتمد على التفكير وحده ليقنع، ولكنه يتكئ عليه وعلى الوجدان ليستميل"⁽³⁾

8-1 إيقاع اللفظ وأثره على المتلقي:

ومن مشاهد الشحنة الموسيقية التي يبدعها القرآن الكريم في التأثير النفسي على كاهل المتلقين، الذي يتأتى عن طريق النغمة الإيقاعية التي تحدّثها اللفظة في حدّ ذاتها، لأنّ لغة القرآن تتبع من "انتلاف الأصوات في اللفظة الواحدة وفي سياق الألفاظ وتتاسقها

(1) - طه حسين: من حديث الشعر والنثر، دار المعارف، مصر، ص 25 - 26.

(2) - ينظر: الرمانى: النكت في إعجاز القرآن، ص 97.

(3) - أحمد بدوي: من بلاغة القرآن، ص 37.

وتناغمها وأدائها للمعنى ودلالاتها عليه⁽¹⁾، وهذا ما يؤدي إلى التأثير الانفعالي للمتلقي، فتحاكي هذه الإيقاعات حالاته النفسية فتؤثر فيه سلبا أو إيجابا، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي وَعَآتِنِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعَمِيتَ عَلَيْكُمْ أَنْزِلْكُمْ مِّمَّهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ﴾⁽²⁾.

فالتأمل للجرس الموسيقي الذي تحدثه لفظة "أَنْزِلْكُمْ مِّمَّهَا" التي تحمل تسعة أحرف، فهي تصوّر "جو الإكراه بإدماج كل هذه الضمائر في النطق، وشدّ بعضها إلى بعض، كما يدمج الكارهون مع ما يكرهون، ويشدّون إليه وهم منه نافرون"⁽³⁾، ومقتضى هذا القول أنّ القرآن يُعنى بانتقاء الألفاظ من حيث النغمة الموسيقية التي تحدثها الألفاظ وهي مجتمعة من خلال الفواصل المتماثلة أو المتقاربة، فتحدث هزة عنيفة إذا كان السياق يصوّر مشاهد حال أهل الكفر وما يتلقونه من العذاب والوعيد، بينما نجد ألفاظا تحمل من الخشوع والتعبّد فتتسأل إليها النفس فتتأثر بها وهذا حال المؤمن. "فالصبح حين ينشر ضوؤه في الآفاق، ويبث الحياة في الطبيعة الهامدة الساكنة وفي الإنسان يتخير له القرآن هذه اللفظة الموحية المؤدية بجرسها لحركة الفجر الشفيفة المتتدة، وهي لفظة تنفس، ذات الجرس الهامش الرقيق⁽⁴⁾، فيقول الله تعالى: "والصبح إذا تنفس" وهذا يتناسب مع رقة بزوغه ويتناسب أيضا مع هوائه العليل المنعش للنفوس.

ومن الأمثلة ما توحى به هذه الألفاظ من نغمات موسيقية قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾⁽⁵⁾.

(1) - كاصد ياسر حسين: الجرس والإيقاع في التعبير القرآني، ص 335

(2) - سورة هود: الآية 28.

(3) - سيد قطب: التصوير الفني في القرآن الكريم، ص 92.

(4) - كاصد ياسر حسين: الجرس والإيقاع في التعبير القرآني، ص 343.

(5) - سورة هود: الآية 70.

يدلّ أصل " الوجس " على الإحساس بشيء وتسمّع له. أوجس القلب فزعا: أحسّ به، كما تعني: الفزع الذي يقع في القلب أو في السّمع، والتّوجّس: التّسمّع إلى الصّوت الخفي⁽¹⁾، فالوجس ينتهي تعريفه أنه إحساس مُضمر ينتاب كل نفس عندما تحسُّ بالخطر. وقد وردت في القرآن الكريم ثلاث مرات، أما الأولى فقوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ﴾⁽²⁾ والثانية قوله تعالى أيضا ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾⁽³⁾ أما الثالثة التي هي محلّ دراستنا.

وانطلاقاً من الآية فقد دلّ التعبير بلفظة ﴿وَأَوْجَسَ﴾ قوّة الهمز وقلقلة الجيم اللذين توحيان بمفاجأة الفزع الذي يُلقى سيطرته على النّفس والجسم معاً، أما حرف السّين المهموس الذي يرمز إلى خفاء ما يعتري النّفس. فغرابة اللفظة "أوجس" في معناها اللغوي يتناسب مع غرابة الأضياف، وخفة نغمات جرسها الموسيقي يلائم الحالة النّفسية التي استولت على قلب سيدنا إبراهيم عليه السلام، كما نرى ارتباط معنى لفظة "أوجس" بلفظة "الخيفة" التي تكرّرت في جميع مواضع الآيات السابقة، فهي لم تأت اعتبارياً؛ بل جاءت تعبّر عن نزعة فطرية تتملّكها كل نفس من الخوف والرّهبة، ووقع اختيارها لما لها من المبالغة، وتأخيرها عن الجار والمجرور "منهم" لأنّ "المراد الإخبار بأنّه عليه الصلاة والسلام أوجس من جهتهم لا من جهة غيرهم. وتحقيقه أنّ تأخير ما حققه التقديم يوجب ترقب النفس فيتمكّن عند وروده عليها فضل تمكّن⁽⁴⁾. فهذه الألفاظ النّفسية ومقطعها الموسيقي من شأنها إعداد المتلقي إلى استقبال مشهد القصة الصّامت المحرّك لقوى التّأثير والانفعال.

(1) - ينظر: لسان العرب، مادة (وجس).

(2) - سورة طه: الآية 67.

(3) - الذاريات: الآية 28.

(4) - أبو السعود: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ج3، ص68.

8-2 تناسق إيقاع الفواصل مع السِّيَاق:

ومن الأمثلة التي تظهر قوة الجرس الموسيقي ومناسبة الألفاظ لمعانيها، قوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْرِلٍ يُبْنَىٰ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ﴾⁽¹⁾، فهذا المشهد التصويري يصنع نغماً موسيقياً للجملة ليذهب طولاً وعرضاً في عمق وارتفاع ليشارك في رسم الهول العريض العميق، والمدات المتوالية المتنوعة في التكوين اللفظي للآية تساعد في إكمال الإيقاع وتكوينه واتساقه مع جوّ المشهد الرهيب العميق⁽²⁾، والناظر لهذه الفواصل والتنغيمات يوحي عند النطق بها إلى قوة الجرس الموسيقي مما يترتب على النفس شدة الهول وفضاعة الموقف⁽³⁾ فما كان الموج في المشهد إلا إطاراً للهول النفسي الذي يفرق بين الابن وأبيه، ويفصم الصلة التي لا تفصمها الأهوال!⁽⁴⁾ وتظهر خصائص التناسب الإيقاعي بين الفواصل أيضاً في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنصُودٍ﴾⁽⁴⁾.

وردت في هذه الآية فواصل تتماثل في حرف الروي والوزن، التي تحمل معها معاني الاستعلاء والقوة مصحوبة برنات قوية منبّهة للعقول والنفوس في نغمها الموسيقي، وهي مناسبة لهذا المشهد العظيم الذي ينتقم فيه الله من هؤلاء القوم الذين انحرفوا عن الفطرة الإنسانية، فجاءت هذه الفواصل لتلقي بثقلها الاستعلائي على نفسية المتلقين لتوقظ فيهم الحسّ والخوف والرهبة والتأثير حتى يعتبروا ويتعظوا، فهي منسجمة ومتناسبة مع مشهد العذاب: أمرنا، جعلنا، عليها، سافلها، أمطرننا، عليها، كلّها تصبّ في صوت واحد "وهو امتداد الألف في نهاية الفواصل وهذا التماثل في حرف الروي دالٌّ على وحدتها

(1) - سورة هود: الآية 42.

(2) - سيد قطب: التصوير الفني في القرآن الكريم، ص 113.

(3) - نفسه، ص 249.

(4) - سورة هود: الآية 82.

المعنوية والفكرية، وتأكيدها الاعتراف بوحدة الخالق المتصرف في كل شيء، والاعتراف بنعمه وآلائه، وشمول علمه، وما يتصل ويفرّع عليه من وجوب خشيته وعبادته، والرهبنة لجلاله وقوة بطشه والنأي عن أسباب عقابه⁽¹⁾

من أمثله قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَسْعَيْبُ أَصَلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾⁽²⁾

ترشد هذه الآية إلى سخرية قوم شعيب عليه السلام بنبيهم، فيصفونه بالحليم الرشيد، وهذه الفاصلة الحليم الرشيد، تظهر حكماً مغالطاً، لما يدعيه هؤلاء القوم، "فوصفه بالحلم أي العقل، الذي لا يتناسب في زعمهم مع دعوته إياهم إلى ترك عبادة ما كان آباؤهم يعبدون ووصفه بالرشد الذي يتنافى في زعمهم كذلك، مع دعوته إياهم إلى ترك تصرفهم في أموالهم، كما كانوا يتصرفون فقد ناسبت الفاصلة معنى الآية"⁽³⁾.

أما قوله تعالى ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾⁽⁴⁾

خاطب الله الجمادات (السماء والأرض) بفعل مبني للمجهول لينتظم مع أوزان في نفس الرتابة الموسيقية (قيل - غيظ - قضي) فخلقت بذلك انسجاماً وتناسقاً لفظياً يوحى بخصوصية القرآن الإعجازية التي يتميز بها كتاب الله، كما توحى الجملتان الندائيتان (يا أرض ابلعي - يا سماء اقلعي)، اللتان تحملان موازنة صوتية يبقى المتلقي خاشعاً لحسن انسياب ألفاظها ووقعها على النفس، لأنها تحمل ألواناً بلاغية عديدة منها الجناس بين اللفظتين (ابلعي، اقلعي)، ويأتي هذا لتمائلهما في الحروف عدا حرفي القاف والباء، واختلافهما في المعنى، لكن يبقى التناغم الصوتي يتحرك موازياً لمشهد الآية،

(1) - كاصد ياسر حسين: الجرس والإيقاع في التعبير القرآني، ص 367.

(2) - سورة هود: الآية 87.

(3) - أحمد دوي: من بلاغة القرآن، ص 68.

والذي يقرأ الآية ويرتلها يستشعر معاني ألفاظها ويتأثر بسحرها وما تُظهره من آثار الجلاء والهيبة، لهذا كانت غاية القرآن "أن يبقى الإنسان في حالة حضوره الفكري والوجداني، لأنّ الفكر بلا وجدان جمرة منطفئة، ولأنّ الوجدان بلا فكر تسيب بلا قانون"⁽¹⁾، وفي الأخير نخلص إلى أنّ القرآن ينفرد بإيقاع "موسيقي متعدّد الأنواع، يتناسق مع الجوّ ويؤدّي وظيفة أساسية في البيان"⁽²⁾، ويتجلى الإقناع من خلال تفاضل الألفاظ من حيث قوّة جرسها في القلوب، فهناك من تتقلّ عليك في اللسان والقلب، فنجدها موجّهة لأهل الكفر والنفاق لسوء عملهما وجحودهما بالله، وهناك من تكون خفيفة على النفس فتأنس بها وهذا من أثر إيقاعها الجميل.

(1) - باطاهر بن عيسى: أساليب الإقناع في القرآن الكريم: ص35.

(2) - سيد قطب: التصوير الفني في القرآن الكريم، ص101-102.

خلاصة:

تعدّ الآليات البلاغية عاملاً مهماً في التأثير والإقناع، فمثلاً الصورة بكل أنواعها هي جوهر البلاغة بوصفها مصدر إمتاع وإقناع، تسهم بشكل كبير في استقطاب المتلقين والتأثير فيهم عقلياً وجدانياً، ففي قراءتها الحديثة تتطلب حضوراً فكرياً واعيماً، للإمساك بحقيقتها، لأنها تعتمد على ترك فراغاً كلامياً يستوجب من المتلقي ملء هذا المحلّ بالاستعانة إلى القرينة المصرّح بها، أو تستلزم جهداً مضمناً في التأويل للإمساك بالأفق المتوقع منها، لذا نجدها تتميز عن بقية العناصر بحسن البيان وقوة الحجّة.

أما تداعيات القيمة الحجاجية للبدیع فإننا، فقد تعرضنا إليه بإسهاب على بعض الألوان البديعية، لما لها من قوة حجاجية على المتلقين، فهذه المنبهات ذات النبرة الدلالية العميقة، تجد وقعها المميّز في أذن السامع فتطرق باب قلبه، وهذا لتناسق ألفاظها وسحر بيانها، لذا تكمن حجاجيتها في تهيئة الحسّ الشعوري للمتلقي فيقبل عليها إقبال قبول وإقرار، فالمؤمن يزداد بشارة وأمناً، والكافر يزداد رهبة وخوفاً، كما وقفنا على براعة التصوير الذي يحدثه كل من التكرار والالتفات من عنصر المفاجأة الذي يدفع السامع إلى الالتزام لما يلقى إليه من حجج وأدلة .

الفصل الرابع

الاستدلال الحجاجي في الخطاب القرآني

أولاً- الاستدلال القياسي وأثره في إظهار الدليل.

ثانياً- طرق أخرى للاستدلال الحجاجي .

ثالثاً- الحجج بسلطة الهوية والقُدوة.

رابعاً- التمثيل الحجاجي للقصة القرآنية.

أولاً- الاستدلال القياسي وأثره في إظهار الدليل:

1- الاستدلال الطبيعي (Inférence naturelle):

إنّ الفلسفة في هذا العالم إيمانها كبير في إرساء الحقيقة وإثبات القواعد والقضايا، إلا أنها "مدينة بالكثير للغة الطبيعية، وما تمجُّ به هذه الأخيرة من استعارات والتباسات، وبناءً على ذلك فالخطاب الفلسفي هو خطاب برهاني بالمعنى المجازي أو الشبهي للبرهان لا بالمعنى الحرفي والدقيق له"⁽¹⁾.

وقد ثبت أنّ اللغة الطبيعية تتوفر على خصائص ومميّزات تفرّد بها عن اللغات الصّورية، فهي قبل كلّ شيء لغة التّواصل، لكونها تتوفر على خصوصيات تميّزها عن باقي الأنساق، سواء كانت الصّورية أم السّيميائية، باعتبارها تقتضي أساليب متعدّدة ومختلفة في الأداء والتّعبير، ويتوقّف نجاح التّواصل على مدى إيصال المتكلم الأفكار والمعاني إلى المتلقي والتأثير فيه⁽²⁾، كما يشكّل الانتباه الحلقة المهمّة في كل خطاب.

إنّ المدلولات التي تنتهي إليها الخطابات الطبيعية في الحقل الاجتماعي ليست بالضرورة تخدم أهداف منطقية بحتة، "بقدر ما يطلب منها أن تكون ناجحة مستجيبة لأهداف التّخاطب الاجتماعي سواء كان ذلك بقياسات برهانية أم باستنتاجات لا دليل عليها أم بقياسات ذات طابع ذاتيّ أم بتعميمات..."⁽³⁾، وعليه فإنّ اللغة الطبيعية والمنطق أهمّ المستندات التي يستند عليها كل من المخاطب والمتلقي في حسم قضاياهما، ويكون عن طريق الاستدلال، الذي لا يقصد به المفردات المعجمية أو الصّوتية، بل أقوال في كونه يسدّ مسدّ دليل أو ملزوم معين، له مدلول أو لازم يفهم من السّياق، ويسعى المتكلم من ورائه الحصول على تأييد لقضية مطروحة والتزام ما جاء في القول⁽⁴⁾، ولا شك أنّ

(1) - حبيب أعراب: الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص 117.

(2) - ينظر: حسان الباهي، اللغة والمنطق، بحث في المفارقات، ص 49.

(3) - شكري المبخوت: الاستدلال البلاغي، ص 16.

(4) - ينظر: طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ص 276.

المنطق أقرب العلوم إلى اللغة وأنّ العلاقة التي تجمعها بالبحث اللغوي وطيدة، فهو يشكّل واسطة بين المعاني والألفاظ التي تدلّ عليها.

لقد سعى كثير من المناطق واللغويين وعلماء البلاغة وعلماء النفس وغيرهم إلى بناء منطق جديد يختلف عن نموذج المنطق الصوري، الذي تُعدّ نتائجه محسومة أو ملزمة، بينما "الاستدلال الطبيعي أو (العفوي^(*)) استدلال ثريّ من حيث المادّة التي يجري عليها، وأنه رهين العناصر المستمدّة من السياقين المقاميّ والمقالّيّ عند التّخاطب، وكذلك هو ثريّ من حيث تقنيّاته التي لا يمكن اختزالها في ضرب منها قد يكون المنطقة وقفوا عليه وقتنوه، فجعلوه تقنية صريحة يستغلونها في الحكم على صلاحية الاستدلال من عدمه⁽¹⁾.

إنّ مصطلح الاستدلال تشترك فيه كثير من العلوم القديمة انطلاقاً من علوم المنطق، وعلم الكلام، وأصول الفقه والبلاغة، كما يتقاطع مع العلوم الحديثة كاللسانيات والتداوليات وعلم النفس، والذكاء الاصطناعيّ والإعلامية والعرفانية وغيرها من الاختصاصات، وبذلك يكون هذا المصطلح مشتركاً بين جملة من العلوم؛ لأنّه يحصر مجاله في التفكير بحثاً عن الدليل⁽²⁾، الذي يلعب دوراً فعّالاً في إقناع المتلقي.

جاء معنى الاستدلال عند البلاغيين هو بيان حكم على أسس بلاغية ونحوية وأصولية "ويشكّل دليلاً أو دلالة، بمعنى البيّنة والحجّة، ك معايير يحصل بها التّبيين أو إظهار الحقّ وصدق الخبر"⁽³⁾.

(*) المقصود بالعفوي وجود ربط بين معنى ومعنى آخر بسبب عرف عام يشرع في اعتقاد المخاطب اللزوم بين الملزوم واللازم، ولا يخرج في هذه الحال عن مفهوم اللزوم الذهني.

(1) - ينظر: شكري المبخوت الاستدلال البلاغي، ص 15.

(2) - ينظر: نفسه، ص 18-20.

(3) - حسان الباهي: اللغة والمنطق، بحث في المفارقات، ص 124.

أما بيرلمان بنى لغته الحجاجية من الوجه المعقول لا الوجه الوجداني، ورأى أن الإقناع والاستمالة تتحقق بفعل استدلالي منطقي قابل للاختيار والتمحيص من قبل المتلقي ليأتي اختياره عاكسا لوعيه واقتناعه⁽¹⁾.

وتظهر درجة قوة الحجاج في طبيعة اللغة، فالمتكلم هو الذي يحددها سواء كانت طبيعية أم صناعية، وتتغير حجاجيتها بتغير وضعية الجمهور، وهذا الأخير هو بمثابة الشاشة التي نسقط عليها الفكرة لتبيين مدى صحتها ومدى صلاحيتها، فالحقيقة تقع خارج الذات وضامن الصحة فيها الواقع والعمل⁽²⁾، ونخلص في الأخير أن الاستدلال الطبيعي يشمل الصريح والضمني، به تُحدّد أوجه الدلالات وأوجه التأويل، بينما اللغة الصورية (الصناعية)، لغة مغلقة الحدود، مجال استعمالها ضيق ونتائجها دقيقة وصریحة.

2- آليات الاستدلال القياسي في القرآن الكريم:

قسّم الفلاسفة الاستدلال إلى: القياس والاستقراء والتّمثيل، فإذا حكم على الجزئي لثبوت ذلك في الكليّ فهو القياس، وإذا حكم على الكلي لثبوته في الجزئيّ فهو الاستقراء، وإذا حكم على الجزئيّ لثبوت الحكم في جزئيّ آخر فهو التّمثيل⁽³⁾، ورد مصطلح القياس في القرآن الكريم في قصة خلق آدم ﷺ، وذلك لما أمر الله تعالى الملائكة بالسّجود له، فسجد جميع الملائكة وامتنع إبليس عن السّجود، فأبليس قاس نفسه مع سيدنا آدم، وأنه أفضل منه، وقد بيّن الحسن البصري مقايسة إبليس لآدم عليه السلام بقوله: "قاس إبليس، وهو أول من قاس. وقال محمد بن سيرين: أول من قاس إبليس، وما عبّدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس... ومعنى هذا أنه نظر لنفسه بطريق المقايسة بينه وبين آدم، فرأى نفسه أشرف من آدم فامتنع من السّجود له، مع وجود الأمر له ولسائر الملائكة بالسّجود.

(1) - جلال مصطفىاوي: قراءة في تلقي البلاغيين العرب للبلاغة الجديدة في العصر الحديث (حمادي صمود، ومحمد العمري) نموذجاً.

<https://platform.almanhal.com>

(2) - عبد الله صولة: نظرية الحجاج، ص 118.

(3) - ينظر: جميل صليبا المعجم الفلسفي، ج 1، ص 68.

والقياس إذا كان مقابلاً بالنص كان فاسد الاعتبار، وفساد في نفسه، فإنّ الطّين أنفع وخير من النّار، لأنّ الطّين فيه من الرزانة والحلم والأناة والنمو، والنّار فيها الطيش والخفة والسرعة والإحراق⁽¹⁾، فأبليس أخذ الكبر والغرور، فعصى ولم يستغفر فاستحق اللّعن والخلود في النّار.

إنّ أساس معرفة الله هو العقل به تتفتح الرّؤية الإيمانية، "أفتظن أن الله عز وجل يخصّ بهذه الخصال بعض خلقه دون بعض ثم لا يطالبهم إلّا كما يطالب بعض من أعدمه وأعرأه منه؟ فلم أعطاه العقل إلّا للاعتبار والتّفكير؟ ولم أعطاه المعرفة إلّا ليوثّر الحقّ على هواه؟ ولم أعطاه الاستطاعة إلّا لإلزام الحجّة؟"⁽²⁾، التي لا غموض فيها ولا التباس. إنّ ما يميّز به القرآن عن غيره من الخطابات أنّ "مقدماته ونتائجه يقينية لا مجال للظنّ فيها، فإنّ الظنّ لا يغني عن الحقّ شيئاً، فكلّ ما في القرآن حقائق يقينية، ولا ينبع منهاجها إلّا من اليقين، وقد لام على مخالفيه أنّهم يتبعون الظنّ، وإن هم إلا يخرصون"⁽³⁾، ونخلص من هذا القول أنّ القرآن قائم على أسس وقواعد يقينية، بينما نجد أسس المنطق اليوناني "مبنية على القياس القائم على الاستقراء والتتبع"⁽⁴⁾، ونحطّ الرّحال على بعض أشكال القياسات في القرآن الكريم:

2-1 القياس المضمّر وأبعاده الحجاجية:

ويقصد به كلّ قول طُوّبت مقدّمته الكبرى أو الصّغرى أو النتيجة، يقول الفارابي: "قول مؤلف من مقدمتين مقترنتين، ويسمّى ضميراً، لأنّ المستعمل له يُضمّر بعض مقدّماته، ولا يصرّح بها، ويعمل فيه أيضاً على ما في ضمير السّامع من معرفة المقدمات التي حذفها"⁽⁵⁾، ويرتبط مباشرة بالحجاج الاستدلالي؛ لأنّه يشتغل على بيان الحجّة أو

(1) - أبو الفداء إسماعيل بن كثير: قصص الأنبياء، مكتبة الشركة الجزائرية، الجزائر، (د- ط)، 1981، ص 11.

(2) - الجاحظ: الحيوان، ج 5، ص 543-544.

(3) - محمد أبو زهرة: المعجزة الكبرى القرآن، ص 398.

(4) - طه عبد الله محمد السبعوي: أساليب الإقناع في المنظور الإسلامي، ص 201.

(5) - أبو نصر الفارابي: كتاب في المنطق، الخطابة، تحقيق، محمد سليم سالم، مطبعة دار الكتب، 1976، ص 27.

الدليل وفتح أبواب الإقناع أمام المتلقي، مستعينا بحضور الجوانب العقلية والنفسية، وهذه الأخيرة هي بمثابة الوتر الحساس الذي يتكئ عليه المتكلم للتأثير في المتلقي، لذا "... يجب أن نترك للمستمع لذة القيام بكل شيء في بناء الحجّة... لأنّ إحدى الجماليات الأساسية للخطاب هي كونه مليئاً بالمعنى وإتاحة الفرصة للذهن من أجل فكر أكثر امتداداً مما عليه التعبير"⁽¹⁾، لهذا يُعدّ القياس الإضماري أساسياً في بناء العملية الحجاجية، لأنّه "قياس بلاغي، متطورّ وفق مستوى الجمهور، انطلاقاً مما يعتقد الجمهور؛ إنه استنباط يمتاز بقيمة محسوسة... ولذا فهو يزود الإقناع وليس البرهان"⁽²⁾، المبني على القبول الحتمي أو الاحتمال.

وقد حظي هذا المسلك القياسي بالاهتمام عند الخطباء والعلماء؛ لأنّ الجمهور يقتنع بواسطة الأمثلة أو بواسطة الأقيسة الإضمارية"⁽³⁾، ويؤدي غرضهما المطلوب عندما تكون هناك قابلية لدى المتلقي؛ لأنّ "هدف الحجاج ليس استنباط نتائج لبعض المقدمات، وإنما إثارة وزيادة قبول المتلقي للأطروحات المقدّمة لتكون له محلّ ترغيب فيقبل بها أو يعارض فتكون له محلّ تنفير"⁽⁴⁾، وهذه من المبادئ التي يقوم عليها الحجاج .

لا شك أنّ حضور القياس المضمّر في القرآن جاء ملفتاً للنظر؛ لأنّه "من أروع الطرق الفصيحة في البيان، وهي طريقة القرآن الكريم"⁽⁵⁾، كما يسايره الانفعال النفسي، ويرى "إخوان الصفا" أنّ وضع العقلاء للقياسات يصير داعياً إلى طلب الحجّة عند خصمائه، ويكون سبباً لغوص النفوس في طلب المعاني الدقيقة، ووضع القياسات واستخراج النتائج تكون سبباً ليقظة النفوس، وانتباهها من السّهو"⁽⁶⁾ والغفلة، فتجد قبولاً

(1) - سالم الطلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص39.

(2) - ينظر: رولان بارت، قراء جديدة للبلاغة القديمة، ص38.

(3) - حمو النقاري: حول التقنين الأرسطي لطرق الإقناع ومسالكه، مقال، ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته، ج3 الحجاج وحوار التخصصات، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2010، ص12.

(4) - ينظر: صابر الحباشة، تاريخ نظريات الحجاج، ص43.

(5) - طه عبد الله محمد السبعوي، أساليب الإقناع في المنظور الإسلامي، ص226 .

(6) - محمد العبد: النص الحجاجي العربي دراسة في وسائل الإقناع، مقال ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته، ج4، ص24.

حسناً في السَّمع والقلب، ومن الشواهد التي بُسّطت في سورة هود قوله تعالى لنوح عليه السلام:
 ﴿قَالَ يَنْحُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَأْنِنُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (1).

نبه الله تعالى نبيه نوح عليه السلام على أنّ ابنه ليس من أهله، ونهاه عن السؤال (*) بغير علم، وهذه الآية وإن كانت موجهة إلى نبيّ، فما بالك بغيرهم من العباد الذين يُذنبون آناء الليل وأطراف النهار، فالنتيجة التي نستخلصها من هذا الخطاب؛ أنّ كل خلق بشري يسأل ما ليس له به علم يُعدُّ من الجاهلين، ويمكن عرض عناصر هذا القياس بما يلي:

- 1م ← نهيُّ الله نوح -عليه السلام - من السؤال بغير علم.
- 2م ← السؤال بغير علم يُعدُّ من الجهل (الذنب).
- ن ← كلّ من يسأل بغير علم فهو من الجاهلين.

ومن ناحية أخرى أنّ الله تعالى أخبر نبيه نوح عليه السلام أنّ ابنه قد عمل عملاً غير صالح، به يستحق العقاب، وطُويت المقدّمة الكبرى التي تعبّر أنّ كل من عمل عملاً غير صالح، فإنّه يستحقُّ العقاب، ويكون تمثيلها بالشكل الآتي:

- 1م ← كلّ من عمل عملاً غير صالح يستحق صاحبه العقاب.
- 2م ← ابن نوح عمل عملاً غير صالح.
- ن ← ابن نوح يستحق العقاب (الغرق).

ويأتي على نفس المنوال الحوار الحجاجي الإنكاري بين النبيّ شعيب - عليه السلام -

مع قومه حول مسألة البخس في الأشياء قال تعالى: ﴿قَالُوا يَسْئِبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا

تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِيْنَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ (2).

(1) - سورة هود: الآية 46.

(*) يقصد بالسؤال الطلب أو المناجاة

(2) - سورة هود: الآية 91.

يستنبط من هذه الآية قياس إضماري باعتباره استدلالاً يعمل على بيان النتيجة بعدما أصابها حذف، وهذا الأخير "يُعدُّ إجراءً جمالياً ونفسياً؛ فالكثافة القائمة على الحذف والاختصار، تُغري سيكولوجية المتلقي بمنحه الشعور بالرضا لفهمه حجاج الخطيب أولاً، ثم لمشاركته في إتمامه ثانياً" (1)، وعليه يمكن من خلال معرفة مقدمات القياس المضمرة نتبأ مباشرة إلى الاهتداء إلى النتيجة التي سيؤول إليها قوم شعيب .

المقدمة الكبرى ← إنكار الأقوام السابقة، وتحذير الله قوم شعيب أن يلقوا نفس المصير.
المقدمة الصغرى ← إنكار قوم شعيب لدعوة نبيهم .
النتيجة ← مصير قوم شعيب كمصير الأقوام السابقة.

لقد أنكروا كل ما أسند إليهم من حجج، بل طعنوا في شخصه ومكانته الاجتماعية، مستنديين على تقديم حججهم من أضعف قوة إلى أقواها، ويكون تمثيلها وفق السلم الحجاجي الآتي:

ن: لن نؤمن بدعوتك.
ح3 ما نفقه كثيرا مما تقول.
ح2 نراك ضعيفا لست من كبراء القوم.
ح1 لولا عشيرتك لرجمناك.
استدلال قوم شعيب بعدم أهليته للنبوة

2-2 قياس الخُلف:

يقصد بقياس الخُلف هو إثبات قضية ما بإبطال نقيضها؛ لأنّ "النقيضين لا يجتمعان ولا يخلو المحلّ من أحدهما، كالمقابلة بين الوجود، والمقابلة بين نفي أمر معيّن في مكان معيّن وزمان معيّن، وإثباته في هذه الحال، فإن انتفى الدليل كان ذلك حكما بوجود نقيضه" (2)، وهذا النوع من القياس له حضور كبير في الشارح الحكيم، لأنّه وُظف لعرض

(1) - محمد مشبال: من بلاغة الحجاج، ص32.

(2) - محمد أبو زهرة: المعجزة الكبرى القرآن، ص400.

عقيدة التوحيد ويوم البعث، وإبطال عقيدة الشرك ومزاعم الكفار، ويعرفه أبو حامد الغزالي "إذا كانت إحدى المقدمتين ظاهرة الصدق، والأخرى كاذبة، أو مشكوكاً فيها، وأنتج نتيجة بيّنة الكذب، ليستدلّ بها على أنّ المقدّمة كاذبة يسمّى قياس الخلف"⁽¹⁾، وحمل هذا الاسم؛ لأنّه يرجع المستدل بالنتيجة إلى الخلف، لتسلّم على أنّ المقدّمة التي خلفتها صحيحة.

ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَيَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾⁽²⁾.

إنّ فحوى هذه الآية الكريمة تدلّ على تجاهل وإنكار قوم هود عليه السلام لكلّ الدّعات الإيمانية لنبيّهم هود عليه السلام رغم حرصه الشديد على تبليغ دعوته، وقد حذرهم من مغبة الشرك والظلم، لكن قومه أصرّوا على عدم ترك آلهتهم، وواجهوه بالحجاج المغالط، وذلك باستدراج سيدنا هود عليه السلام، وإلزامه الحجّة بأنّ سلوكهم هذا على وعي منهم، وأنّ هذه الأصنام والتّمائيل تستحقّ العبادة، وأنّ آباءنا كانوا عاكفين عليها، قال تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾⁽³⁾، وبالغوا في التّهم على شخص النبيّ هود عليه السلام، وأنّ آلهتهم أصابته بالجنون، وهذا كلام غير منتظم من ناحية إظهار الحجّة، لأنّه "كلام ملفّق من نوع ما يصدر عن السفستائيين، فجعلوه مجنوناً وجعلوا سبب جنونه مساً من آلهتهم، ولم يتفطنوا إلى دخل كلامهم وهو أنّ الآلهة كيف تكون سبباً في إثارة نائر عليها"⁽⁴⁾، وهذا لشدة غبائهم وحقدهم للنبيّ هود عليه السلام.

(1) - أبو حامد الغزالي: منطق تهافت الفلاسفة، المسمى معيار العلم، ص158.

(2) - سورة هود: الآية 53 - 55.

(3) - سورة الأعراف: جزء من الآية 70.

(4) - الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، ج1، ص98.

ويأتي تقديم هذا التمثيل القياسي بالخلف وذلك بإثبات أنّ الأصنام ليست آلهة ولا تستحق العبادة، فننطلق من فكرة أنّ الأصنام آلهة تستحق العبادة، ولكن نعلم أنّ الإله هو الذي ينزل منهاجاً (الأوامر والنواهي) يحدّد كيف يُعبَد؟، والأصنام ليس لها منهاجاً ولا قدرة على التحدّي "فَكِيدُونِي جَمِيعًا"، فنستنبط من خلال هذه المقدمات أنّ فكرة الأصنام آلهة تستحق العبادة غير صحيحة، فتكون النتيجة أنّ الأصنام ليست آلهة ولا تستحق العبادة، ويمكن تمثيل هذا القياس بالشكل الآتي:

المقدمة الكبرى ← الأصنام آلهة تستحق العبادة.

المقدمة الصغرى ← الإله يُنزل منهاجاً (الأوامر والنواهي)، والأصنام ليس لها منهاجاً.

النتيجة ← إنّ الأصنام ليست آلهة ولا تستحق العبادة.

إنّ الاستدلال القياسي الذي يوليه القوم، كان بمثابة إلزام الخصم وإفحامه وإثبات عجزه، لأنّ حجج سيدنا نوح -عليه السلام- لم تكن على مستوى تطلعاتهم واعتقاداتهم، فكيف تعتقد أن نترك آلهتنا؟ وهذا جانب من المكابرة والمعاندة، ولعلّ "الفطرة تنادي كل إنسان بأن تكون له قوّة مألوه لها؛ والقوّة المألوه لها إذا كان لها أوامر تحدّ من شهوات النفس، فهذه الأوامر قد تكون صعبة على النفس، أما إن كانت تلك الآلهة بلا أوامر أو نواهي فهي آلهة مريحة ويعبدها مظنةً أنها تنفع وتضر"⁽¹⁾، وهذا فيه إبطال لأصنامهم التي يعبدونها، كما تُعدّ "حجّة كل ادّعاء نبوّة أو ادّعاء مهديّة في هذا العصر فيدّعي النبيّ الكاذب النبوّة، ويدعو للاختلاط مع النساء، وشرب الخمر، وارتكاب الموبقات، ويسمّي ذلك ديناً"⁽²⁾، ثمّ بيّن هود عليه السلام ثقته بربه، بأنّه منجيه من كلّ مكروه، وأنّ الله سيبطل مزاعمهم فكان الردّ على إبطال آلهتهم بقوله: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾؛ أي أجمعوا كيدكم جميعاً "أنتم وآلهتكم أعجل ما تفعلون من غير إنذار فإنّي لا أبالي بكم

(1) - محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي، المجلد 11، ص 6504.

(2) - نفسه.

وبكيدكم ولا أخاف معرفتكم وإن تعاونتم عليّ وأنتم الأقوياء الشداد، فكيف تضرني آلهتكم وماهي إلا جماد لا تضر ولا تنفع، وكيف تنتقم مني إذا نلت منها وصدت عن عبادتها بأن تخبلي وتذهب بعقلي⁽¹⁾. فتأتي هذه الدعوات على أنهم تجاوزوا الحد في الكفر والشرك، لذا طلب منهم أن يكيدوه وهي كناية عن التعجيز والاستخفاف بعقولهم واحتقار آلهتهم، بعد ما قام عليهم الحجة القاطعة، لأنه واثق بعجزهم وأن الله غالب على أمره. كما يمكن أن تتعدى صور القياس بالخلف إلى حقيقة الإيمان بكتاب الله، المنزل على النبي محمد ﷺ قال الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَعْظَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾⁽²⁾.

لقد أنكر أهل الكفر القرآن، واتهموا محمداً ﷺ بالافتراء. ويأتي استعمال هذا النوع من الاستدلال كنتيجة لدحض أباطيلهم الكاذبة، فقد وضعهم في حيرة من أمرهم، "أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ" محمد ﷺ من عنده "فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ" في النظم والانسجام وفي التأثير وقوة الحجة وغيرها، وطلب منهم أن يجمعوا إنسهم وآلهتهم، وكل من ناصرهم في الكفر، أن يأتوا بمثل هذه الآيات، فكانت نتيجة ذلك دحض حججهم، ويكون تمثيل المشهد الاستدلالي بالشكل الآتي:

المقدمة الكبرى: تزعمون أنّ القرآن ليس من عند الله.
المقدمة الصغرى: عجز بلغاؤكم وآلهتكم وأصنامكم عن الإتيان بعشر سور مثله.
النتيجة: القرآن هو من عند الله.

يأتي أسلوب التعجيز عن الإتيان بمثل هذا الخطاب الرباني؛ لأنّ نسقه خاص ومفارق لكلّ الأنساق البشرية، فقد أحسن الله صناعة بيانه، ونظم دواله، فتحدّى أهل الكفر أن ينسجوا مثله، فتأتي حجته أنور على القلوب المظلمة والعقول المنكرة، فهو ليس أوعية

(1) - الزمخشري: الكشاف، ج12، ص488.

(2) - سورة هود: الآية 13.

الفصل الرابع: الاستدلال الحجاجي في الخطاب القرآني

لفظية محملة بدلالات لغوية فحسب، بل هو رسالة إقناعية عقائدية وإنسانية يتعدى مستواه أكثر إلى الإثارة النفسية، وقد تحدّاهم في موضع آخر من سورة يونس قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَعْتَمَرْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾⁽¹⁾.

(1) - سورة يونس: الآية 38.

ثانياً- طرق أخرى للاستدلال الحجاجي:

1- الاستدلال بالتشبيه والتمثيل:

يدلّ أصل التشبيه على المشاكلة والمماثلة، فهو عقد مشابهة بين شيئين اشتركا في صفة أو أكثر. قال الرماني "التشبيه هو العقد على أنّ أحد الشئيين يسدّ مسدّ الآخر في حسّ أو عقل، ولا يخلو التشبيه من أن يكون في القول أو في النفس"⁽¹⁾، ويتجلّى أهميته في البحث البلاغي، حيث يُخرج الخفي من الجلي ويُدني البعيد من القريب، فيزيد في المعاني رفعة ويكسبها جمالاً ورونقاً، ويكسوها شرفاً ونبلاً، وله هيبه في النفوس، كما يجمع بين المبالغة والبيان والإيجاز والتوكيد⁽²⁾، ويُعدّ أيضاً من أهم أعمدة التصوير البياني في البلاغة، لما يتوفر عليه من قيم جمالية وطاقه حجاجية، فهو الصّورة التي يستخدمها المتكلم من أجل تقريب المعنى إلى المتلقي بأي شكل من الأشكال، فقد "يلزم عنها من توازن طاقتي الإخبار والإيحاء أقدر التقنيات البلاغية على تحقيق هذا التفاوت أو على التخفيف من صدمته وغبابته (...). فالتشبيه أداة بلاغية تبدو أقرب إلى الشرح والتّوضيح ثمّ الإقناع الذي هو غاية الحجاج"⁽³⁾.

أما المثل فهو "عبارة عن قولٍ في شيءٍ يُشبهُ قولاً في شيءٍ آخر بينهما مشابهةٌ لبيّن أحدهما الآخر ويصوّره". نحو قولهم: الصّيفُ ضيّعت اللّبن. فإنّ هذا القول يشبه قولك: أهملت وقت الإمكان أمرك ثمّ قال: والمثل يقال على وجهين أحدهما بمعنى المثل. نحو: شبيه، وشبهه، ونقض ونقض. قال بعضهم: وقد يُعبرُ بهما عن وصف الشيء، كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ﴾⁽⁴⁾، والثاني عبارة عن المشابهة لغيره في معنى من المعاني أي معنى كان، وهو أعمّ الألفاظ الموضوعه للمشابهة، ولهذا نفى الله عنه المشابهة

(1) - الرماني: النكت في إعجاز القرآن، ص74.

(2) - ينظر: يحي العلوي: الطراز، ج1، ص136.

(3) - محمد عبد الباسط: في حجاج النص الشعري، أفريقيا الشرق، المغرب، ط1، 2013م، ص76.

(4) - سورة محمد: جزء من الآية 15.

من كل وجه فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾⁽¹⁾. وقيل المثل هنا بمعنى الصفة ومعناه ليس كصفته صفة، وقد منع الله تعالى عن ضرب الأمثال له⁽²⁾، ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾⁽³⁾. أما غرضه في القول فيأتي "لتقريب الحقائق العليا، ولتشبيهه الغائب غير المحسوس بالمشاهد الجزئية، والاستدلال بحال الحاضر على الغائب"⁽⁴⁾.

جاء التمثيل منطويًا تحت وقائع وأغراض ومقاصد تحركها آلة التفكير العقلاني، لهذا أخضع بدوره إلى القياس، يقول ابن تيمية - رحمه الله -: "قياس التمثيل إلحاق الشيء بنظيره"⁽⁵⁾، فهو آية استدلالية، تسعى إلى إظهار الدليل واستمالة القلوب يقول الماوردي (450هـ): "لها من الكلام موقع الإسماع والتأثير في القلوب، فلا يكاد المرسل يبلغ مبلغها، ولا يؤثر تأثيرها، لأن المعاني بها لائحة، والشواهد بها واضحة، والنفوس بها وامقة، والقلوب بها واثقة، والعقول لها موافقة، فلذلك ضرب الله الأمثال في كتابه العزيز، وجعلها من دلائل رسله، وأوضح بها الحجة على خلقه؛ لأنها في العقول معقولة، وفي القلوب مقبولة"⁽⁶⁾، لهذا عدّ باب من أبواب التشبيه.

وقد أجمع علماء البلاغة والبيان والنقد "أن المعاني المجردة أضعف وسائل التعبير؛ لأنها تؤدي معاني عابرة، لا تعلق في النفس كثيرا، ولا تثير في الشخص حركة أو انفعالا، أما الطرق التي تثير الشخص، وتثبت المعنى في النفس، وتقره في الذهن، فهي التي تحدد المعنى في صورة، وتقرنه بمثال"⁽⁷⁾، لذا يعد حضور التشبيه والتمثيل في كلام

(1) - سورة الشورى: جزء من الآية 42.

(2) - الراغب الأصفهاني، ص 759.

(3) - سورة النحل: جزء من الآية 74

(4) - محمد أبو زهرة: المعجزة الكبرى، ص 381.

(5) - نفسه.

(6) - علي بن محمد بن حبيب الماوردي: الأمثال والحكم، تحقيق، فؤاد عبد المنعم أحمد، دار الوطن للنشر، ط1، 1999، الرياض، المملكة العربية السعودية، ص 21.

(7) - عبد الفتاح لاشين: ابن القيم وحسنه البلاغي في تفسير القرآن، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1982، ص 158.

العرب خاصة القرآن الكريم، حضوراً واسعاً، ويعتبران من الوسائل الشائعة الاستعمال، لما لها من دور هام في تقريب المعاني والأدلة بين المتخاطبين، ولا يخلو أي مجتمع مهما كانت إيديولوجيته وثقافته من هذه الصور التعبيرية، فهما يُعدّان ضرباً من ضروب القياس؛ لأنّ "المتكلم يشرك طرفين في حكم من الأحكام لعلّة جامعة بينهما، والمتلقي في الصورة التشبيهية مدعوٌ إلى إعمال كفايته الثقافية والمنطقية لتبيين المسار الحجاجي المنتهج في التشبيه"⁽¹⁾، فيرسم معالم الخطاب بما يقابله ويشابهه داخل النظام الجمعي، وأدلّته تنطلق من "عملية عقلية هي أن نضع جنباً إلى دالين متمايزين يقابلها مدلولان يظهران تماثلاً بينهما، مع إيراد لفظة دالّة على تشابه الحقيقتين المذكورتين، وتُبنى عملية التشبيه على حقيقتين وكأنّ التشبيه أقرب صورة بلاغية شعرية رأى فيها النقاد، والشعراء، والمتلقون قدرته على القيام بذلك"⁽²⁾؛ لأنّه يحمل المتلقي على المتعة الجمالية وتحريك آله الفكرية.

ولاشك أنّ القرآن الكريم حافل بهذه الصور على اختلاف أغراضه البيانية والإقناعية، ويمكن رصد بعض آيات التشبيه والتمثيل من سورة هود والوقوف على غرضها الحجاجي.

قال تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ﴾⁽³⁾.

تحمل هذه الآية مشهداً عظيماً ومروعاً في نفس الوقت، لما فيه من القوّة والضخامة، فهو يصوّر لنا جريان سفينة نوح عليها السلام، وهي في موج يشبه الجبال في علوه وارتفاعه، وهذا النوع من نمط التصوير بمثابة "الأداة المفضلة في أسلوب القرآن، فليس

(1) - عبد الله صولة: الحجاج في القرآن، ص 545.

(2) - فتوح شعيب محيي الدين سليمان: الأدب في العصر العباسي خصائص الأسلوب في الشعر ابن الرومي، دار الوفاء، ص 196.

(3) - سورة هود: الآية 42.

حلية أسلوب أو فلتة تقع حينما اتفق. إنما مذهب مقرر وخطّة موحّدة، وخصيصة شاملة، وطريقة معيّنة تستخدم بطرائق شتى وفي أوضاع مختلفة⁽¹⁾، لغرض توصيل المعاني وتحقيق الإقناع، هذا الحدث الربّاني الذي يصف العناية الإلهية لنبي الله نوح عليه السلام ومن آمن معه في السفينة، وهي تعلو بهم قمم الجبال، ولا شك أنّ هذه الجبال من التضاريس الطبيعية التي تُعبّر عن ضخامة حسية تنتبه لها الأنظار، لوقعها في النفوس وعظمتها في العقول، وهي إشارة مباشرة لتسخير الله تعالى هذه العناصر في خدمة الإنسان وحفظه وعنايته، وهذه المشاهد كلّها أدلّة واضحة على عناية الله عزّ وجلّ لنوح عليه السلام، وإقامة الحجّة لمن بعده.

يقول ماريت شانلي كونجدين - أحد كبار علماء الطبيعة في العالم -: "إنّ جميع ما في الكون يشهد بوجود الله، ويدلّ على قدرته وعظمته، وعندما نقوم نحن العلماء بتحليل ظواهر هذا الكون ودراستها حتى استخدام الطريقة الاستدلالية، فإننا لا نفعل أكثر من ملاحظة آثار أيادي الله وعظمته"⁽²⁾.

أما معاني لفظة الموج فإنّها توحى بالحركة القويّة التي وصلت ألسنته عنان الجبال، فيتجلّى في هذه الصّورة مدى القوّة التي يتمتّع بها هذا الموج في منافسة الجبال في علوّها وشماختها، موصفا لنا قوّة الماء وطغيانه في مشهد مرعب يحمل من العظمة والرّهبة التي تهزّ النفوس؛ لأنّ " الجبال تصوّر للعين هذه الأمواج الضخمة، وتصورّ في الوقت نفسه، ما كان يحسّ به ركاب السفينة، وهم يشاهدون هذه الأمواج، من رهبة وجلاء معا، كما يحسّ بهما من يقف أمام شامخ الجبال"⁽³⁾، فهذه الصّورة تجمع بين العظمة والقوّة والرّهبة والعذاب.

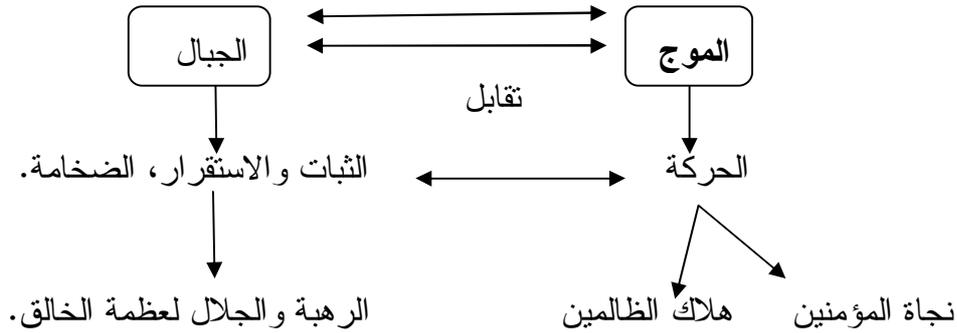
(1) - سيد قطب: التصوير الفني، ص 29.

(2) - قحطان عبد الرحمن الدّوري، رشدي محمد عليان: أصول الدين الإسلامي، دار الإمام الأعظم، النعمان بن ثابت، بيروت، لبنان، ط2، 2011، ص 84.

(3) - أحمد بدوي: بلاغة القرآن، ص 148 - 149.

أما بالنسبة إلى التقابل الثنائي بين الحركة التي يُمثّلها هيجان الموج، التي صدرت عن أشياء متحركة كالرياح العاتية أو المياه الطاغية عكس الثاني (الجال) الذي يدلّ على الثبات والاستقرار والشموخ والذي لا ينفعل جراء هذه الظواهر الطبيعية، فالآية ترسم لنا لوحةً حسية مرئية مشبعة بالمعاني التي تتفاعل في نفوس آدمية حيّة أو في مشاهد من الطبيعة تختلج عليها الحياة⁽¹⁾، بل تُعطي أكثر قناعة وتأثيراً في المشاهد، فهي إحساس شعوري تأثيري تبعد الغموض وتجلي الوضوح في هيئته الحقيقية، وتصور لنا الخوف والفرح لعظمة الربّ سبحانه وتعالى وتكشف لنا مدى الأثر النفسي الذي تتركه في نفسية القارئ، بأن لا مفرّ من الهلاك، ولهذا "من أراد أن يشبه حركة أو هيئة بغيرها فعليه أن يتطلب أمراً يشترك فيه الطرفان"⁽²⁾، ويمكن تمثيلها بالشكل المقابل:

المشابهة (العلو والارتفاع)



ومن أمثله أيضاً قوله تعالى: ﴿وَيَقَوْمٌ لَا يَجْرَمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا

أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لَوْطٍ مِنْكُمْ بَعِيدٍ﴾⁽³⁾.

يأتي المثل في هذه الآية لإقامة الحجّة والدليل على الذين ينكرون أي الله، ودفع الشبه ودحض أباطيل المشركين والمعاندين، وقد جاءت نصيحة النبي شعيب عليه السلام لقومه بالامتثال إلى دعوته محذراً إياهم من العذاب الذي أصاب الأمم السابقة، فقد "حصل لقوم

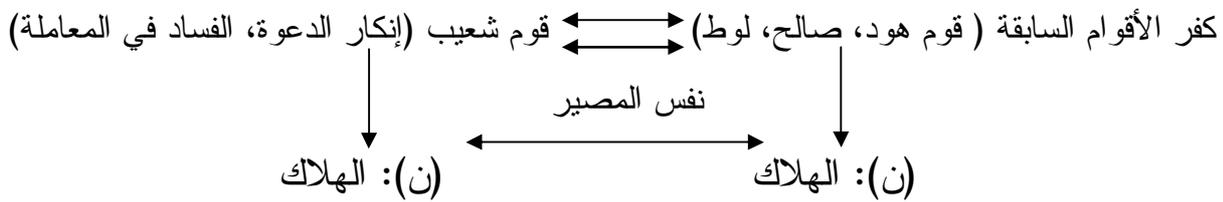
(1) - سيد قطب: التصوير الفني في القرآن الكريم، ص 38.

(2) - محمد عبد التواب: علوم البلاغة، ص 220.

(3) - سورة هود: الآية 89.

نوح عليه السلام من الغرق، ولقوم هود من الرِّيح العقيم، ولقوم صالح من الرِّجفة، ولقوم لوط من الخسف⁽¹⁾، الذين لم يكونوا بعيدين عنه في الزمن، وهذا من أجل حملهم على الإقناع والاتّاع بدروس الماضي، لأنّ "الحجّة التشبيهية كمعادلة بسيطة تتغاضى عن اختلاف السياقات، فتخدع الأذهان بمظهرها الصّارم؛ أو تُنشط الخيال بما تحمله من معلومات ملموسة⁽²⁾". وكان الردّ سريعاً من قومه فقد طعنوا في شخصه وأنهم يرونه ضعيفاً، ولا مكانة له بين القوم، ويكون تمثيل هذا الاستدلال بالشكل الآتي:

مشابهة في (الإنكار)



لقد طال التّحدي في مكّة مركز العرب وموطن اللّغة العربية وقوتها، فأعجزهم القرآن في عقر دارهم وهم أصحاب اللّسن البلغاء، وقد جمعوا كل ما يملكونه من ذرابة اللّسان من أجل تحديّ هذا القرآن، لكنهم عجزوا عن معارضته، فاتخذوا أسلوباً آخر وهو التّكذيب والافتراء على النبي محمد ﷺ، وعلى القرآن، قال الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ مَفْتَرَاتٍ﴾⁽³⁾.

ولا شكّ أنّ التّدرج في قيام الحجج من الله تعالى ألزمهم العجز عن الإتيان بمثله أو بعشر سور أو سورة واحدة، في نظمه وحسن بيانه، يقول ابن عطية: "وقع التّحدي في هذه الآية بعشر، لأنّه قيدها بالافتراء، فوسّع عليهم في القدر لتقوم الحجّة غاية القيام، إذ قد عجزهم في غير هذه الآية بسورة مثله دون تقييد،.. لغرض التّوسعة"⁽⁴⁾، وتظهر حجّته

(1) - الرازي: مفاتيح الغيب، ج18، ص48.

(2) - محمد طروس: النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، ص28-29.

(3) - سورة هود: الآية 13.

(4) - أبو حيان الأندلسي: تفسير البحر المحيط، دراسة وتحقيق، الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد عوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج5، ص209.

في قهر وإبطال عجزهم، وقد ذكر ذلك عبد الحميد هنداوي بقوله: "فمنها أنه يلزم من القول بذلك أنّ الإتيان بمثل كلام الله هو في مقدور البشر واستطاعتهم لو خُلي بينهم وبين معارضته لولا صرف الله تعالى لهم، وفي هذا من البطلان ما فيه من إبطال وجه من أهم وجوه الإعجاز بل لكل داع، ومن القول بإمكان مشابهة كلام المخلوق لكلام الخالق الذي هو صفة له، كما يلزم من ذلك أيضا القول بعجزه سبحانه أن يأتي بكلام معجز، لأنه على لازم كلامهم قد عجز عن أن يكون كلامه معجزا بنفسه، فأعجز الناس قهرا عن محاولة مشابهته ومعارضته"⁽¹⁾. ومن هذا الاستدلال يظهر أنّ القرآن من عند الله، ولعلّ هذا ما جعل بيرلمان يضع التشبيه ضمن الحجج شبه المنطقية، لأن جوهره - في نظره - عملية قياس "Mesure"⁽²⁾، ويأت توظيف هذا المثل بالقياس على النحو الآتي:

المقدمة الكبرى ← القرآن الكريم افتراه محمد صلى الله عليه وسلم.
 المقدمة الصغرى ← محمد ﷺ بشر مثلكم، وأنتم عجزتم عن الإتيان بمثله.
 النتيجة ← القرآن غير مفترى ومحمد ﷺ صادقاً .

أما الدليل الذي ادعاه أهل كفار قريش أنّ محمداً ﷺ تعلم هذا الكتاب من رجل أعجمي، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعَلَّمَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾⁽³⁾.

اتخذ المشركون ذريعة ثانية وهي افتراؤهم أنّ محمد ﷺ تعلم القرآن من رجل رومي يقرأ الإنجيل، ويريدون من ورائها التشكيك في نبوته، فاتخذوها مغالطة وتمويهها على العامة، وكانوا يظنون أنّ من ينلوا كلمات أو يكتب حروفاً يحسبونه على علم، وكان

(1) - عبد الحميد هنداوي: الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم، دار الثقافة للنشر، القاهرة، ط1، 2004، ص10.

(2) - كمال الزماني: حجاجية الصورة في الخطابة السياسية لدى الإمام علي رضي الله عنه، ص126.

(3) - سورة النحل: الآية 103.

النبي -صلى الله عليه وسلم- يجلس لهذا الغلام، فقالت قريش هذا يعلم محمداً ما يقوله⁽¹⁾، وقد ردّ الله على مزاعمهم وافتراءاتهم بأدلة تفضح أباطيلهم نذكر منها:⁽²⁾

1- أن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين وقد عجز أهل أساطين البلاغة وهم من يمتلكون لغة الشعر والنثر عن الإتياء بمثله، فكيف لبشر أعجمي أن يعلم عربياً، الذي تلقى أبلغ ما اهتدت إليه العرب من البيان.

2- إن افتراءهم على أن القرآن من وضع محمد ﷺ، هذا يستلزم كون البشر قادرين على تقليده ونظم ما يشابهه، إلا أن الله تعالى تحدّاهم بما لديهم من فصاحة وبلاغة، وهم بشر، منهم من يفوق - محمد صلى الله عليه وسلم- في ذلك، فتحدهم أن يأتوا بعشر آيات من مثله.

يُعدُّ التمثيل من الحجج الاتصالية التي ذكرها (بيرلمان) في مصنفه عن الحجاج، ويراه بنيتة قائمة على المشابهة، يذكره بقوله: "هو طريقة حجاجية تعلق قيمتها على مفهوم المشابهة، حيث لا يرتبط التمثيل بعلاقة المشابهة دائماً، وإنما يرتبط بتشابه العلاقة بين الأشياء ما كان لها أن تكون مترابطة"⁽³⁾، والقرآن الكريم حرص على بيان التمثيل ليعرض وظيفته الحجاجية على الخصم، وليقيم عليهم الحجّة، حيث لا يبقى لهم أي عذر، ومن أمثله قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾⁽⁴⁾.

يسلّط التمثيل الضوء في هذه الآية على طرفين في حالة محسوسة، فالطرف الأوّل يمثّل فريق الكافرين المنكرين لوحداية الله الذين تجلّت فيهم صفة العمى والصّم، وهو الإعراض عن آيات الله البيّنات، بينما الطرف الثّاني يمثّل فريق المؤمنين، المقرّين

(1) - ينظر: طاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج14، ص286.

(2) - ينظر: طه عبد الله محمد السبعواوي، أساليب الإقناع في المنظور الإسلامي، ص257.

(3) - عبد السلام عشير: عندما نتواصل نغير، ص97.

(4) - سورة هود: الآية24.

بوحداية الله، الذين تجلّت فيهم صفة السّمع والإبصار، فعلاقة المشابهة وقعت بين عنصرين أحدهما يخضع للإدراك العقلي المتمثّل في الفريقين الكافر والمؤمن، والصورة الثانية المحسوسة وتتمثّل في (العمى، الصمم) و(الإبصار، السمع).

يأتي تقديم الدليل "الحسي للمعنى في التمثيل يثبت المعنى ويستدلّ عليه بتقديم شاهد ملموس هو في منزلة شاهد العيان الذي لا يمكن التشكيك في شهادته"⁽¹⁾؛ لأنّه شاهد عيني لا يحويه الشكّ والريب، فالعمى لا يقصد بها افتقاد البصر، وإنما يومئ إلى عمى القلوب، كما جُمع بين السّمع والبصر، للدلالة على الهداية، وهذا دون شكّ أنّهما لا يستويان، لقوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾.

لقد ختم في آخر الآية باستفهام إنكاري؛ لأنّ " من يُبصر نور الحقّ ويستضيء بضياءه ليس كحال من يخطب في ظلمات الضلالة ولا يهتدي إلى سبيل السعادة... والغرض التّفريق بين أهل الطاعة والإيمان، وأهل الجحود والعصيان"⁽²⁾، فالصورة الحسيّة المرئية والمسموعة أكثر بياناً وحبّة للمخاطب، مثل قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولِمُ تُوْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾⁽³⁾، فالمشاهدة العينية تعمل على تحريك الأذهان، وتمكّن المعنى في قلب المتلقي فهي ممزوجة بين الإدراك العقلي والإدراك الحسيّ.

إنّ الله تعالى جمع بين صورتين متناقضتين وذلك لإثارة فكر المتلقي ليكتشف الفروق الواضحة بينهما، فصور حال الكفار المعرضين عن الحقّ، وهم يحملون صفة الصّم والعمى، لمعرفة مدى مقدار المعاناة والألم الذي يعاني به هؤلاء الكفار، فكأنّه يُراد بها تعذيباً نفسياً وتحذيراً ممّا ينتظرهم يوم الآخرة، بالإضافة أنّها تنبيه ويقظة للقلوب

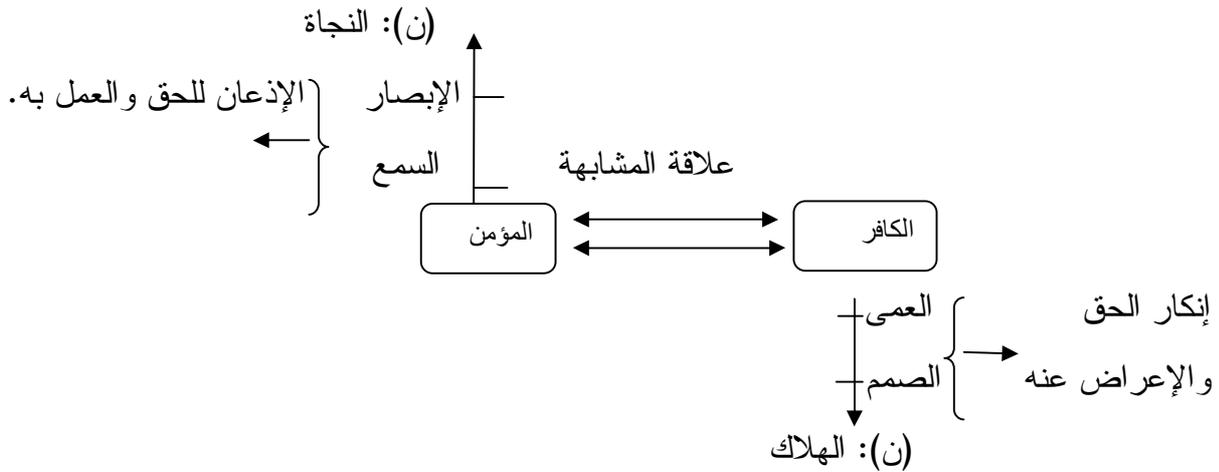
(1) - محمد مشبال: في بلاغة الحجاج، ص 102.

(2) - محمد علي الصابوني: صفوة التفاسير، ج 2، ص 14.

(3) - سورة البقرة: جزء من الآية 260.

الغافلة، أما الصّورة الثانية فهي ترغيب لأهل الإيمان وما ينتظرهم من نعيم في الدنيا والآخرة .

أما العلاقة القائمة بين الثنائيات (الكافر والمؤمن)، (البصير، الأعمى)، (السميع، الأصم) هو عدم الاستواء، وهي صورة حيّة لا ينتابها ريب في بيان الحجّة والدليل، لقوله تعالى: ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾.



لقد عالج الأسلوب القرآني عن طريق ضرب التشبيه والمثل في بيان مقاصد تخصّص العقيدة والتوحيد وأغراض أخرى، لأنّ "جمع التشبيهات الواقعة في التّنزيل لها مقاصد عظيمة ومطمئنة وأغراضا دقيقة يعقلها من كان في هذه الصناعة بأوفر حظّ وكان له فيها أدنى ذوق وحام تلك الدقائق بذهن صاف من كدرة البلادة"⁽¹⁾.

ب- الاستدلال بتقسيم الكل إلى أجزائه المكونة له (Argument de division):

ينتمي هذا النوع من الحجج إلي الاستدلال شبه المنطقي، حيث يتم فيه تقسيم الكل إلى الأجزاء المكونة له، وهذا لغايات جليّة، وهو بعدها عن التّعقيد الفلسفي، والوصول إلى إقناع المتلقي من خلال تعدّد الحجج الجزئية التي تستمد قوتها من الكل؛ أي "ذكر المرسل حجته كلياً في أول الأمر، ثم يعود إلى تعداد أجزائها فكلّ جزء منها بمثابة دليل على

(1) - يحيى بن حمزة العلوي البمني: كتاب الطراز، ج3، ص184.

دعواه⁽¹⁾، بمعنى أنّ المتكلم يعرض قضيته بشكل كليّ، ثم يبدأ بتفصيلها إلى جزئيات، بحيث يُعدّ كل جزء بمثابة حجة أو دليل يزيد من تثبيت القضية الكلية.

أما بيرلمان فيرى هذا التقسيم "شكل من أشكال الحجج تتناول فريضتين يستنتج أنه سواء وقع الاختيار على الأولى والثانية تصل إلى الفكرة نفسها والموقف ذاته . وذلك لإحدى الأساليب التالية، فإما تقودان إلى النتيجة ذاتها وإما تقودان إلى نفس القيمة الحجاجية"⁽²⁾، ويرى أيضا أنّ هذا النوع من الحجج كي يتسنى له النجاح، لا بدّ أن يحرص المتكلم على أن تكون أدلته الجزئية تخدم الجزء الكليّ الشامل، مستندا على مقولة كينتليان المشهورة: "إننا عندما نسقط أثناء تعدادنا للأجزاء فرضية واحدة من المكونات، فإنّ بناءنا الحجاجي كلّه سيتهاوى ونصبح أضحوكة للسامعين"⁽³⁾.

ويذهب ليونال بلنجي إلى أنّ بيان الحجة يتوقف على علاقة الكلّ بأجزائه، ومثله "بقطعة أثاث ذات أدرج ف "قطعة الأثاث هذه يمكن أن تكون مغرية ولكنها تفتقر إلى أدرج جيّدة كأن تكون غير كافية أو في غير مواضعها المناسبة فقيمة الكلّ إذن بعيدة فعلا عن أن يمثلها مجموع الأجزاء"⁽⁴⁾. ومن أمثله في كتاب الله قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٣٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۗ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٣٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۗ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوذٍ ﴿١٣٨﴾﴾⁽⁵⁾.

يأتي هذا النوع من الاستدلال ليكشف عاقبة كل فئة، "ولإقامة الدليل على صدق الأنبياء وصدق وعد الله في الآخرة، والترهيب من عصيان الله والكفر به، لئلا يكون

(1) - ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص414.

(2) - سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي، ص207.

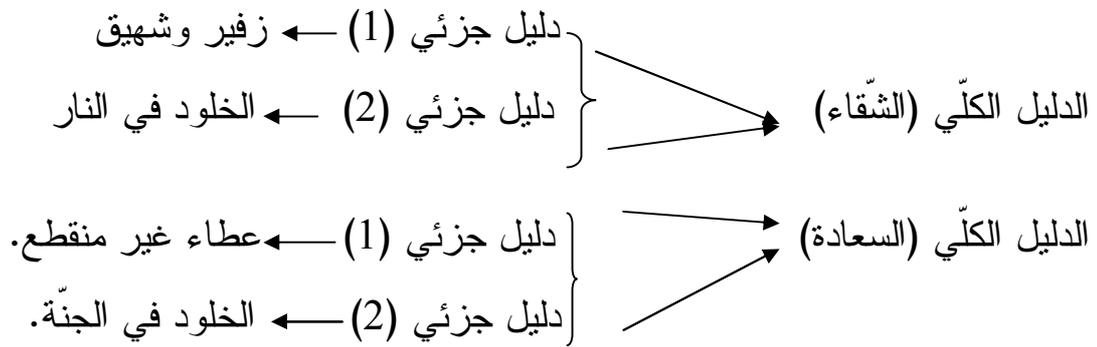
(3) - سالم الطلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص128.

(4) - سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، ص207.

(5) - سورة هود: الآية 105 - 108.

الإنسان من الأشقياء الذين يصلون النار، والترغيب بالإيمان وطاعة الله ليصير المؤمن الطائع مع السعداء الذين يتمتعون بالجنة⁽¹⁾، ويطالعنا السياق القرآني عن المشهد الذي يؤول إليه كل من المؤمنين والكفار، فالأدلة الجزئية التي تصحب الدليل العام (الشقاوة)، التي تعرض فيها مشاهد العذاب لأهل الكفر يوم القيامة، فهي بمثابة تهديد للمتلقي الكوني أن يحذر وينتبه من هول هذا اليوم العظيم، أما مشهد السعادة الذي يحظى به أصحاب الجنة، فهو ترغيب وعظة ولطف لمن خشي الله وعمل بأوامره ونواهيه.

فالمشاهد التي يعرضها القرآن لأحوال الآخرة سواء كانت نعيمًا أم شقاوة، تُضفي على المتلقين مزيدًا من الاقتناع على الرقابة الإلهية والخوف من عقابه جل شأنه، حتى يهيمن على ذلك على مشاعرهم وسلوكهم. وفي الأخير، إن هذه الأدلة التي تظهرها هذه المشاهد يمكن أن ننجزها بالتمثيل التخطيطي للأدلة على الشكل الآتي:



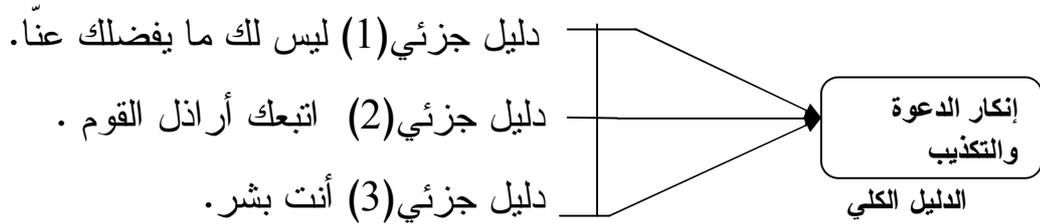
ومن أمثله أيضا، قوله تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشْرًا مَثَلًا وَمَا نَرَاكَ إِلَّا أَلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِي الرِّيِّ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾⁽²⁾.

لقد واجه قوم نوح عليه السلام دعوة نبيهم في غرض تهكمي فاضح، وهذا النوع من الخطابات نادى به تيار السوفسطائيين من قبل، "كممارسة جدلية على دفع المتلقي إلى

(1) - وهبة الزحيلي: التفسير المنير، ج12، ص472.

(2) - سورة هود: الآية 27.

السقوط في الهفوات، فتلجأ إلى سوء النية، واستعمال استدلالات مخطئة أو مغالطات، تبدو معقولة في السطح⁽¹⁾، وتأتي هذه الممارسة من أجل طمس حقيقة التوحيد وإبعاد صفة النبوة عن النبي نوح عليه السلام وزعزعة كيانه وكل من تبعه، وقالوا عنه: أنه بشر، وهذا دليل جزئي أول، ارتكزوا عليه، ثم انتقلوا إلى دليل أقوى وأعلى في الذم والتهم، أن من تبعك في هذه الدعوة هم فقراء وأراذل القوم لا مكانة مشرفة بيننا، وهذا دليل جزئي ثانٍ على إنكار دعوته، ثم ينتهي بهم الحكم إلى نتيجة عامة أننا منكرين لدعوتك وأنت من الكاذبين. ويمكن تمثيلها بالشكل الآتي:



فكل جزء من هذه الأدلة هو بمثابة حجة مدعمة إضافية للدليل الكلي.

3- الاستدلال بذكر العام بعد الخاص:

يأتي هذا النوع من الاستدلال لإثبات حكم والحرص على تأكيده بعد إظهار الأدلة الجزئية، لهذا يسعى هذا النوع من الاستدلال في الحكم إلى الجزئيات؛ تتبعها بالحكم الذي تريده جزئياً، حتى تستخلص النتيجة التي تريدها⁽²⁾، ومن أمثله قوله تعالى: ﴿وَالِإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا الْاِمِّيَّاتِ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرِيدُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَقْوِمُ أَوْفُوا الْمِيزَانَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾⁽³⁾.

(1) - محمد طرروس: النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، ص 39.

(2) - ينظر: محمد أبو زهرة، الخطابة أصولها وتاريخها في أزهى عصورها عند العرب، مطبعة العلوم، ط1، 1934، ص 29.

(3) - سورة هود: الآية 84-85.

إنَّ أوَّل ما واجه به النَّبيُّ شعيب عليه السلام قومه هو تقرير العبودية لله تعالى، ثمَّ انتقل بهم إلى المعاملات الأخلاقية السيئة التي اشتهر بها هؤلاء القوم، وهي التطفيف في الكيل والميزان، فهو لم يتوان عن نصيحة قومه، إذ لا يوجد لهم مبرر على التحايل والغش؛ لأنهم في سعة من الرزق، ثمَّ أمرهم بعدم بخرس أشياء النَّاس وهذا دليل أعمّ وأكمل من الكيل والميزان؛ لأنَّ البخرس هو الإنقاص "والأشياء أعمّ ممَّا يكال ويوزن فيدخل البخرس بتطفيف الكيل والوزن في هذا دخولا أوليا.

وأما الجزء الثاني من الآية قوله تعالى "وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ" فيشمل كلَّ ما يقع فيها من الإضرار بالنَّاس فيخلّ فيه ما في السِّياق من نقص المكيال والميزان، وكلَّ ما يؤدي إلى الظلم في المعاملات وغيرها (1).

لقد سلكت هذه الآية مبدأ التدرج في إظهار الحجّة في إفساد هذه المعاملة، وإبطال كلِّ المفاصد التي يقوم بها قومه، فكانت بداية نهيها "عن نوع من الفساد فاشٍ فيهم وهو التطفيف. ثم ارتقى فنهاهم عن جنس ذلك النوع وهو أكل أموال النَّاس. ثم ارتقى فنهاهم عن الجنس الأعلى للفساد الشامل لجميع أنواع المفاصد وهو الإفساد في الأرض كلّها. وهذا من أساليب الحكمة في تهيئة النفوس بقبول الإرشاد والكمال" (2).

إنَّ أوَّل ما بدأ به نهيها عن الإنقاص في الكيل والوزن، ثمَّ أمرهم بإيفاء الكيل أو لا والميزان ثانيا بالعدل، ثمَّ نهاهم عن البخرس والذي يعني "النقص، بخرسه حقه، ببخرسه بخرسا إذا أنقصه، والبخرس بمعنى الظالم، ولا تبخرسوا النَّاس: لا تظلموهم. والبخرس من الظلم أن تبخرس أخاك حقه فتنقصه كما ينقص الكيال مكياله فينقصه" (3)، ويُرَاد من ذلك الردع والتخويف لهذا الفعل الشنيع. ثمَّ يأتي التعميم وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ، تأكيدًا لما سبق من الأدلة الخاصة بعطف العام على الخاص، ولفظة "العتو كثرة الفساد، يقال

(1) - ينظر هبة الزحيلي: التفسير المنير، ج12، ص470.

(2) - طاهر بن عاشور: ج12، ص138.

(3) - لسان العرب، مادة (بخرس)، ص221.

ضبع عثواء، إذا كثر الشعر في وجهها، وتدلّ في هذا المقام عدم امتثال قوم شعيب للأوامر والنواهي، بعدما حصل النهي عن الأعمّ بعد النهي عن العام، وبه خمسة مؤكّدات: بالأمر بعد النهي عن الفساد الخاص، ثمّ بالتعميم بعد التخصيص، ثمّ بزيادة التعميم، ثمّ بتأكيد الأعمّ بتعميم المكان، ثمّ بتأكيد بالموكّد اللفظي⁽¹⁾، وهذا التكرار في أسلوب النهي والأوامر، وتكرار لفظتي الكيل والميزان "دليل على كثرة ما كانوا عليه من الفساد المتأصل في نفوسهم، وتفشييه في معاملاتهم، والزيغ في عاداتهم لا سيما البيع والشراء وغيرهما⁽²⁾، ولعلّ هذه الأدلّة تحمل المتلقي الكوني عن الإقلاع عن هذه الأفعال الشنيعة في العبادات والمعاملات.

4- الاستدلال على بيان دحض حجة منكري البعث:

يُعد الإيمان بالبعث ركنا أساسيا في عقيدة المسلم، في هذا اليوم يحيي الله تعالى فيه الخلائق بعد موتهم فيجمعهم في موقف واحد ليحاسبهم عن أعمالهم، لكن هذا الركن الإيماني ينكره أهل الشرك والكفر، ويقولون إنّ الحياة خلقت لنلهو فيها ونلعب وما يهلكنا إلا الدهر لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾⁽³⁾.

يأتي الاستدلال العقلي والوجداني ليجيب عن تساؤلات هؤلاء البشر، ويكشف لهم عن حقيقة البعث، الذي يتطلب الحجّة المفحمة التي توصل المتلقي المنكر إلى التسليم بها، وهذا ما يعرف بالاستدلال بالأولى (Raisonnement a fortiori)، ويعني الانتقال من قضية إلى أخرى، لاشتمال القضية الثانية على مرجع زائد على الأسباب المشتركة بين

(1) - الطاهر بن عاشور، ج12، ص138. أبو الهلال العسكري: الفروق الفردية، ص213.

(2) - ينظر: محمود السيد حسن مصطفى: الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ط1، 1981، ص292.

(3) - الجاثية: الآية 24.

القضيتين⁽¹⁾، وهذا النوع من القياس يتجلى بصور مختلفة في القرآن الكريم، ويتضمن قوة الدليل الذي به تفحم العقول قبل القلوب، وقد أكد عليها القرآن والسنة النبوية في مواطن كثيرة، يقول الشنقيطي⁽²⁾ - رحمه الله -: "ولأجل قوة دلالة هذا البرهان المذكور على البعث بين -جل وعلا- أن من أنكر البعث فهو ناس للإيجاد الأول، كقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾"⁽³⁾؛ إنه استدلال يبحث في إثبات الكمال المطلق لله عز وجل، بأنه وحده المتّصف بالعبودية، وكذلك تقرير بيوم البعث والميعاد، وهذه العناصر كلّها أساسية من أبواب الاعتقاد، ويكشف هذا البيان العقلي الذي ساقته الآية الكريمة، قوله تعالى: ﴿وَلَيْنِ قُلْتِ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾"⁽⁴⁾.

ما جاءت هذه الآية مؤكدة بهذه التوكيدات إلا لأمر عظيم سيحلّ يوم القيامة لا محالة، وهو يوم البعث الذي تنهض فيه الخلائق أمام الجبار ليحاسبهم فيه على ما اقترفوه في امتحانهم الدنيوي، وقد ردّ القرآن الكريم على هؤلاء المنكرين لهذا اليوم العظيم الذي نزلوه منزلة السحر، ويقولون ذلك على القطع والتوكيد، حتى كان لهم عليه برهاناً مبيناً، أو حجة بالغة⁽⁵⁾، ولهذا يُعدّ الاستدلال بالبعث من القضايا الهامة التي جادل فيها أهل الشرك النبي محمد ﷺ؛ لأنهم أشدّ حرصاً على الحياة الدنيا، لذا فهم منكرون للنشأة الأولى وكلّ ما له علاقة بالتوحيد، وهم بذلك ينكرون البعث واليوم الآخر.

لقد أنكروا وجود الله تعالى من قبل، وكذبوا الرسول محمد ﷺ وقالوا عنه ساحر ومجنون، وطعنوا في الكتاب الذي أنزل عليه، فكيف بهم يؤمنون بيوم البعث، بمعنى أنهم

(1) - ينظر: جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ص102.

(2) - سعود بن عبد العزيز بن محمد العريفي: الأدلة العقلية على أصول الاعتقاد، دار عالم الفوائد، المملكة العربية السعودية، ط1، رجب 1419هـ، ص564.

(3) - سورة يس، جزء من الآية78.

(4) - سورة هود: جزء من الآية07.

(5) - عبد الكريم الخطيب: التفسير القرآني للقرآن، ج12، ص1108.

طعنوا في الأصول ولم يؤمنوا بها، فكيف يؤمنون بالفروع، فقد جادلهم القرآن في شأن البعث، وقد عرض لهم أدلة ومشاهد الخلق الأولى منها الظاهرة والباطنة، ليقنعهم أنّ الذي بدأ الخلق الأوّل يستطيع أن يعيده قال تعالى: ﴿أَفَعَيَّبْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (1) وبسط لهم القرآن كيف بدأ الخلق الأوّل في صورة حسية تتماشى مع طابعهم الفطري قوله تعالى: ﴿قَتَلَ الْإِنسَانَ مَا أَكْفَرَهُ ۗ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۗ مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ ۗ فَقَدَرَهُ ۗ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ۗ ثُمَّ أَمَاتَهُ ۗ فَأَقْبَرَهُ ۗ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ۗ﴾ (2) هذه المشاهد العينية المحسوسة تشدّد الذهن والوجدان والشعور، فتجد طريقها إلى النفوس والعقول.

لقد أقام الله عليهم البيّنة الواضحة على وجود يوم البعث، يومئذ يخرجهم الله من قبورهم أحياء من جديد للحساب والجزاء يقول جلّ وعلا: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ﴾ (3)، فالله تعالى حمل على منكري البعث والمعاندين أن يتدبّروا في الخلق الأوّل، فهي أولى بالتمعن والتفكير، فلينظروا إلى أنفسهم كيف خلقوا أطواراً، من طين لازب ونفخ في هذا الجسد الطيني الروح، كيف يكون البعث والنشور أعسر فهذه حجة قويّة وبرهان على كل من أنكر هذا الركن، "فمن أوجدكم الإيجاد الأوّل وخلقكم من التراب، لا شك أنّه قادر على إيجادكم، وخلقكم مرة ثانية بعد أن بُليت عظامكم، واختلطت بالتراب؛ لأنّ الإعادة لا يمكن أن تكون أصعب من ابتداء الفعل، وهذا البرهان القاطع على القدرة على البعث الذي هو خلقه تعالى للخلائق المرة الأولى" (4)، ويكون تمثيلها استناداً على مقدّمات بالشكل الآتي:

(1) - سورة ق: الآية 15.

(2) - سورة عبس: من الآية 17 إلى 22.

(3) - سورة الحج: جزء من الآية 05.

(4) - محمد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار عالم الفوائد، المملكة العربية السعودية، ج5،

المقدمة الكبرى: الله خالق الكون وكل أثر دليل على آثار الخالق.

المقدمة الثانية: رؤيتهم لآثار الخلق في الوجود .

النتيجة: البعث من القبور أهون على الله تعالى من بداية الخلق .

وما زلنا في رحاب يوم البعث قوله تعالى أيضا: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (1).

هذه الآية موصولة بالآيات السابقة وزيادة في الاستدلال، لأنّ الجملة السابقة كانت أول حجة لهم في إخبارهم عن أحوال البعث، وتأتي الآيات القادمة لتزيد في إثبات قدرة الله وعلمه للغيب، وأنه هو المحيي والمميت، فالخطأ الذي وقع فيه هؤلاء الكفار والمشركون، أنهم أنكروا عقيدة التوحيد التي تعدّ رأس الأمر في بناء العقيدة الصحيحة، وهي الإيمان بالله الواحد الفرد الصمد، ولم يؤمنوا بالقرآن المنزل على قلب سيدنا محمد ﷺ فقد صمّوا آذانهم عن سماعه، ويريدون أن يعلّقوا إيمانهم على البعث واليوم الآخر، لكن الخطأ الذي سار عليه أهل الكفر، "إنما جاء من ناحية... منهج التفكير، وذلك أنهم أرادوا أن يناقشوا الجزئيات العقدية التي لا يمكن أن تأتي من عاقل أبدا" (2)، فالرسول ﷺ يريد أن يقنعهم بأنّ الإمامة والبعث والجزاء يوم القيامة هو بيد الله وحده، وسيق ذلك لغرض الإنذار والتحذير، وهي حجة يقينية أنّ الأمر كلّه بيد الله؛ لأنّ ما ينبغي أن يساق من الترغيب والترهيب وقع في ذهن السامع أنهم بعدما سمعوا مثل هذا المقال الذي تخرّ له صمّ الجبال هل قبلوه بالإقبال أم تمادوا فيما كانوا عليه من الإعراض والضلال فقليل مصدرًا بكلمة تنبيه إشعارًا بأنّ ما يعقبها من هنتاتهم أمر يجب أن يفهم ويتعجب منه" (3)، وهكذا تنتهي أدلة يوم البعث لتبرز معها بعض الحقائق أنّ هؤلاء الكفار كانوا حريصين كلّ الحرص على الحياة الدنّيا، مما عطّل الله عقولهم وقلوبهم عن بيان الحقّ.

(1) - سورة هود: الآية 04.

(2) - محمد متولي الشعراوي: البعث والميزان والجزاء، دار الندوة، الإسكندرية، (د- ط)، 1991، ص 29.

(3) - أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج 3، ص 07.

ثالثاً - الحجاج بسطة الهوية والقُدوة:

1- سلطنة هويّة الشخص وأعماله:

اهتم علماء النفس والاجتماع بالشخصية الإنسانية لما لها من الدور الأساس في استقرار المجتمعات، ويرون أنّ أكثر بؤرة في التوتر الاجتماعي للأمم يرجع إلى فقدان التوازن الطبيعي للتركيبية الفطرية للشخصية، لذا فالشخصية "تنظيم ديناميكي (حركي) داخلي لعوامل نفسية وفسولوجية تحقق تكيف الفرد مع بيئته. وهذا التنظيم الحركي يتضمّن الخلق والمزاج والذكاء والجسم"⁽¹⁾، دون أن ننسى الجانب المهم في شخصية الإنسان وهو الجانب الروحي.

لا شك أنّ الشخصية الطافحة لا يتحقق وجودها إلا بوجود السلطنة وهي "الصورة التي نكوّنها عن الشخص وأحكامنا المسبقة عليه تشكل - كما يقول بيرلمان - منطلقاً للتنبؤ بأعمال غير معروفة، أو تأويل أعمال معروفة، أو نقل الحكم من الشخص إلى الأعمال"⁽²⁾، وهذا ما أشار إليه بيرلمان أيضاً بقوله: "هناك اتفاق مسبق بين الخطيب والسامعين على أنّ هذا الشخص يمثل سلطة تؤول إما لكفائه أو لحظوته أو لمكانة يتميز بها في المجتمع أو الفريق أو العائلة أو القبيلة أو الجيل أو الحزب أو جماعة دينية أو عند الشخص نفسه"⁽³⁾.

أما الشخصية السوية في نظر الإسلام لها مميزات ومواصفات تنفرد عن الشخصيات المعادية "فهي التي تعنى بالبدن وصحته وقوته، وتُشبع حاجاته التي رسمها الشرع، والتي تتمسك في نفس الوقت بالإيمان بالله، وتؤدي العبادات، وتقوم بكل ما يرضى الله تعالى، وتجنب كل ما يبغضه"⁽⁴⁾، ومن الشروط التي يجب أن تتوفر في

(1) - نبيل محمد توفيق السمالوطي: بناء المجتمع الإنساني، دار الشروق، جدة، المملكة العربية السعودية، ط1، 1980، ص174.

(2) - محمد مشبال: في بلاغة الحجاج، ص143.

(3) - نفسه، ص147.

(4) - محمد عثمان نجاتي: القرآن وعلم النفس، دار الشروق، القاهرة، ط7، 2001، ص236.

شخصية المحاجج أو الخطيب بصفة عامة، أن يكون على دراية مسبقة عن المتلقين في طريقة تفكيرهم، ومكانتهم الاجتماعية والثقافية، وهذا من أجل بناء حجاجه على قواعد سليمة ناجحة، وكى "يستمد هذا الخطاب نفاذه المطلوب، عليه أن يضع في الحسبان مستوى العقول التي يهدف إلى إقناعها ثم توعيتها"⁽¹⁾.

لقد اصطفى الله سبحانه وتعالى صفوة الصفوة من خلقه، وهم "نماذج جيّدة في التحدث عن الله تعالى بألسنتهم، وكانوا -قبل ذلك وبعده- نماذج أجود في جذب الناس إلى الله بطيب أنفسهم، ونقاء معدنهم، وصفاء سيرتهم، ووصولهم في مدارج الكمال الإنساني إلى ذروة تزرع الإعجاب في القلوب وتذر الأتباع عشاقا لشمائلهم، فهم يضحون تحت أقدامهم بالنفس والنفيس عن رغبة عميقة وعن رضا كبير"⁽²⁾، فشخصية أبي الأنبياء نوح عليه السلام تمتاز بالصبر والأناة والحلم، والدليل على ذلك مدة مكوثه بين قومه وهو يدعوهم إلى التوحيد ونبذ الوثنية، رغم ذلك لم يؤمن به إلا شذمة من قومه. قال تعالى:

﴿وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾⁽³⁾.

ومن نماذج قوّة الشخصية وأعماله نجد شخصية موسى عليه السلام "نموذج للزعيم المندفع العصبي المزاج"⁽⁴⁾ الذي لم يتوان لحظة من لحظات حياته عن أداء رسالة ربه، فقد صبر على تهديد فرعون وبطشه للمؤمنين، كما تميّز بسرعة التوبة والإنابة والصبر، وتتجلى مظاهر شخصيته في كثير من المواطن من مساحة القرآن الكريم، وتعرض إلى نموذج من حياته، فهاهو يعود من ميقات ربه وفي يديه الألواح التي أوحى له الله فيها

﴿وَفِي نُحُوتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾⁽⁵⁾، ليقف على قومه وقد أشركوا

(1) - محمد سالم الطلبة: مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، مقال ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته، ج2، ص185.

(2) - محمد الغزالي: نظرات في القرآن الكريم، نهضة مصر للطباعة، القاهرة، ط6، 2003، ص76.

(3) - سورة هود: جزء من الآية40.

(4) - سيد قطب: التصوير الفني، ص200.

(5) - سورة الأعراف: الآية154.

بالله واتخذوا عجلا لها من دون الله، فثار غضبا ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَابَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ قَالَ ابْنُ أُمِّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تُشْمِتْ بِي الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾⁽¹⁾، فقد غضب غضبا شديدا، لما حلَّ بقومه من الشرك، حتى أنه عنف أخاه ووبّخه، فناشده أخوه هارون بصلة الرحم، وأنّ القوم استضعفوه وكادوا يقتلونه، فبرأ نفسه من كلّ التّهم التي نسبت إليه، فهو غير راض عن فعلهم، فرجع موسى عليه السّلام إلى ربّه وطلب منه المغفرة: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَادْخُلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾⁽²⁾، وما نخلّص إليه أنّ موسى ﷺ كانت غضبه وانفعاله لله تعالى، ووجّه حجاجه وانتقاده إلى السامري الذي كان السبب في تأليه العجل.

وفي مقابل شخصية موسى ﷺ نجد شخصية خليل الرحمن إبراهيم ﷺ، الذي مدحه الله عزّ وجلّ في كتابه ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾⁽³⁾، والأواه: الذي يذكر الله في الأرض القفر، ويكثر تلاوة كلام الله، المتضرّع الخاضع، الراجع عن كل ما يكرهه الله، وكلّها تفاسير ثابتة من المفسرين والصحابة والتابعين⁽⁴⁾، أما الحلیم فهو كثير الحلم الذي يصفح عن الذنوب ويصبر على الأذى⁽⁵⁾، أما موقفه وأعماله فنتعرّف عليها من خلال موقفه من أبيه وقومه، ومن عبادة الأصنام وإنكار عملهم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ عَازَرَ اتَّخِذْ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾⁽⁶⁾، فقد أنكر إبراهيم عليه السلام بفطرته السليمة ورشده المنفتح وقوة إيمانه ما رأى من قومه من

(1) - سورة الأعراف: الآية 150.

(2) - سورة الأعراف: الآية 151

(3) - سورة هود: الآية 75.

(4) - ينظر: الشوكاني، فتح القدير، ج2، ص581.

(5) - نفسه الصفحة نفسها.

(6) - سورة الأنعام: الآية 74.

عبادة دون الله ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحِبُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي﴾⁽¹⁾ فقد جاؤوا يجادلونه ليصدّوه عما اهتدى إليه من التوحيد، لكنه أفحمهم بالأدلة العقلية، لما حطم آهتهم ليظهر لهم الحجّة بأنّ هذه الأصنام لا تستطيع الدفاع عن نفسها، فكيف تستحق العبادة؟. وهناك موقف آخر يدلّ على حلم وعطف سيدنا إبراهيم عليه السلام، فقد كانت دعوته لأبيه أنه اختار أحب الألفاظ وأرقها على النفس حتى تجد منفذا لقلب الأب المشرك، فاستعمل لفظة "يا أبت" لما لها من الخنوع والرافة والرحمة، لكن أباه قابله بالاستنكار والتّهديد والوعيد، رغم ذلك لم يغضب ولم يفقد برّه وعطفه عليه، بل ﴿قَالَ سَلِمْتُ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾⁽²⁾.

وهكذا يتجلّى لنا سمات شخصيات الأنبياء وأعمالهم من خلال المواقف العظيمة مع أقوامهم، فهم حريصون كلّ الحرص على إيمانهم مستعملين كلّ الوسائل والأساليب الإقناعية.

2- حجّة القدوة والقُدوة المضادة:

تعدّ الحجّة بالقدوة من أساسيات بيان الخطاب، وهي مثال سامي يُحتذى به كلّ من تتوفر فيه الصّفة الأخلاقية أو النّقاوية أو كلّ ما يجعل المرء يتمتّع بمكانة خاصّة أو هامّة في مجتمعه، ولا نفتدي إلا بمن هم أهل لذلك؛ لأنّ "الحجاج بالقدوة، مثله مثل حجّة السّلطة، يفترض وجود سلطة تكون ضامنة للفعل المُزْمَع القيام به. لذلك ينبغي لمن يعي بكونه قدوة أن يراقب أفعاله وأقواله"⁽³⁾، إذ يمكن أن نقول أن حجّة القدوة هي حجّة تأثيرية لكونها تنظر إلى المرتبة التي يحظى بها شخص ما، التي يمتّنها المتلقون، فيتجلّى فيها القبول، وجاء ذكرها في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْهُمْ

(1) - سورة الأنعام: جزء من الآية 80.

(2) - سورة مريم: الآية 47.

(3) - هاشم (الحسين)، نظرية الحجاج عند شايم بيرلمان، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2014، ص 86.

أَقْتَدِهِ⁽¹⁾. فقول الله تعالى "فِيهِدْهُمْ أَقْتَدِهِ"⁽²⁾، فيه تعريض للمشركين بأن محمد ﷺ - ما جاء إلا على سنة الرسل كلهم، وأنه ما كان بدعاً من الرسل كلهم... يؤذن بأن الله زوى إليه كل فضيلة من فضائلهم التي اختص كل واحد بها سواء ما اتفق منه واتحد، أو اختلف وافترق، فإنما يقتدي بما أطلع الله عليه من فضائل الرسل وسيرهم، وهو الخلق الموصوف بالعظيم"⁽²⁾. وقال الله تعالى في موضع آخر يبين اقتداء الرسول صلى الله عليه وسلم بخليل الرحمن إبراهيم عليه السلام قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾⁽³⁾، فإبراهيم عليه السلام هو قدوة لرسول الله ﷺ في الصبر والثبات والجهاد في تبليغ رسالة ربه قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾⁽⁴⁾.

لقد جمع الله في شخصية النبي محمد ﷺ أهم وسائل الدعاية للإسلام، وخصه الله بالفضائل؛ لأن الشهرة بالفضائل كانت من أقوى المبررات والحجج للزعامة، وتتجلى في الهيئة الشديدة من غير تكبر ولا فظاظة، بل مع رحمة ورفقة لم يعرف لها الناس مثيلاً، هذه الهيئة التي يحس بها الناظر إليه فتملاً نفسه إكباراً وإجلالاً، ويحس بها البعيد عنه من أتباعه الحنين والشوق إليه، وتملاً قلوب أعدائه رعباً ورهبة وهم بعيدون عنه"⁽⁵⁾، وهذه الصفات يحملها إلا من عصمه الله ورعاه بحفظه.

لذا تعد السيرة النبوية شاملة كل الشمول، فصنفت في رحبة الله أنه أسوة حسنة لكل من يرجو لقاء الله وهو راض عنه، وأن إخوانه من الأنبياء عليهم أفضل الصلاة والتسليم، كانوا نماذج طيبة لجميع الخلق، وفي كل أمر من أمور حياتهم، لذا أوجب الله علينا تقبل

(1) - سورة الأنعام: الآية 90.

(2) - التحرير والتنوير، ج 7، ص 356.

(3) - سورة النحل: الآية 123.

(4) - سورة الأحقاف: جزء من الآية 35.

(5) - ينظر: عبد الحلیم حفني: أسلوب السخرية، ص 91

نصائحهم والأخذ برأيهم وطاعتهم وإتباع أوامرهم (1)، فالإنسان بغريزته الفطرية التي جُبِلَ عليها لا يمكن أن يستغني على من يقتدي بهم؛ لأنّ القدوة تتمثل عاملاً أساسياً في التربية الأخلاقية، فالاستقرار الاجتماعي - كما يقول بيرلمان - مرتبط بوجود نماذج رفيعة اجتماعياً وغيابها مؤشر على التدهور والاختفاء (2)، وهذا ما يتطلع إليه المؤمنون في قدوتهم للنبي محمد ﷺ، بل قدوة لكافة الناس، وما يحمله من الأخلاق والأفعال وذلك "أنا لم نر ولم نسمع لأحدٍ قطُّ كصبره، ولا كعلمه، ولا كوفائه، ولا كزهده، ولا كجوده، ولا كنجذته، ولا كصدق لهجته، وكرم عشيرته، ولا كتواضعه، ولا كعلمه، ولا كحفظه، ولا كصمته إذا صمت، ولا كقوله إذا قال، ولا كعجيب منشئه (3)".

وقد أقرّ به أهل الكفر أنفسهم برفعة أخلاقه وأمانته ما عرفوا عنه كذبا قطُّ "فلا يستطيع منافق ولا زنديق ولا دهري أن يحدث أن محمداً عليه السلام جال جولةً قطُّ، ولا فرّةً قطُّ، ولا خام عن غزوة، ولا هاب حرباً كآثره" (4)، فالرسول ﷺ هو قدوتنا وقدوة للبشرية جميعاً، حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

أ- قدوة أهل الضلال:

بعد ما عرفنا قدوة النبي ﷺ للمؤمنين، نحطّ الرحال على قدوة أهل الكفر والشرك، ونحتكم إلى شخصية بقي أثرها شاهداً على طغيانها، إنها شخصية فرعون الذي أسند الربوبية إلى نفسه ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ (5)، رغم المعجزات الحسيّة التي جاء بها النبي موسى عليه السلام أمام أعينه وإقامة الحجّة عليه، وتبعه قومه في تأييد الباطل عن الحق، لهذا يُعدّ بمثابة قدوة لهم في الكفر والإنكار، ويوم الآخرة "يتقدم فرعون كبير قومه وقائدهم إلى نار جهنم؛ لأنهم اتبعوه في الدنيا وكان مقدمهم ورئيسهم يوم القيامة إلى النار، فأوردتهم

(1) - ينظر: منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله، ص 17-18.

(2) - محمد مشبال: في بلاغة الحجاج، ص 149.

(3) - الجاحظ: رسائل الجاحظ، ج 2، ص 281.

(4) - نفسه، ج 3، ص 281.

(5) - النازعات: الآية 24.

الحظّ الأوفر من العذاب الأكبر⁽¹⁾، وقد أخبرنا الله بقصته قال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ فَأُورِدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾⁽²⁾ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ
بِئْسَ الرَّقْدُ الْمَرْفُودُ⁽²⁾.

إنّ القدوة التي يحظى بها هؤلاء الطّغاة عن بقية الخلق، أنّ لهم القدرة على التأثير
في الناس والترويج لكل ما يخدم مصالحهم مستغلين المال والجاه ووسائل الإعلام بأنواعها
في تضخيم الفرية والخطرسة، مع وجود من يدعمهم في ذلك ويقرّ بحقيقة ذلك افتراءً ومع
مرور الزّمن وتكرار المشهد السفسطائي وضخامة الدعاية، يصبح الحقّ مشوّهاً وتصبح
الفرية حقيقةً وأمراً مسلماً به بين الناس، وفي الأخير نخلص أنّ قدوة فرعون هي بمثابة
ترهيب ووعيد، وهي صورة حيّة لكلّ طاغية ظالم سوّلت له نفسه، أن يتخذ ملكه وسلطانه
وحاشيته في قهر الضعفاء.

3- الاحتجاج بالسلطة:

إنّ مصطلح السلطة لا يقصد به ذلك النظام السياسي الذي يتبنّى معنى الحكم، وإنّما
يقصد به "أن تكون للشخصية المتكلّمة -مُرسل الخطاب- قدم راسخة وباع طويل في
المجال الذي يتحدث فيه"⁽³⁾.

وتكون حجة السلطة أكثر دعماً لبيان الحقيقة؛ لأنّها حجة تُستثمر فيها هوية شخص
أو مجموعة من الأشخاص لدفع المخاطب إلى تبني دعوى ما. والسلطات التي يتمّ الإسناد
إليها في الحجاج متنوعة: قد تكون "الإجماع" أو "الرأي العام" تارة، وقد تكون فئات من
الناس تارة أخرى كالعلماء والفلاسفة ورجال الدّين والأنبياء... أو المذهب أو الكتب
المنزلة. كما يمكن أن يتعلّق الأمر بسلطات تُعيّن بالاسم⁽⁴⁾، فهي حجة تدفع إلى تصوّر

(1) - ينظر: هبة الزحيلي: التفسير المنير، ج12، ص462.

(2) - سورة هود: الآية 98-99.

(3) - محمد سالم الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص199.

(4) - بنو هاشم (الحسين)، نظرية الحجاج عند شامير بيرلمان، ص79.

جديد في دعم الخطاب الحجاجي، وقد تكون أكثر فعالية ونضجاً عندما تبرز أهم الاعتراضات والأغراض التي تحملها القضية الخطابية.

وقد قدم جون وودز ودوجلاس وولتون خمسة شروط في كيفية استخدام حجة السلطة:

1- ينبغي أن يكون الاستشهاد بسلطة ما على نحو صحيح؛ فإجراءات الحذف والزيادة أو أي تبديل لا ينبه عليه يُعد أمراً معيباً.

2- ينبغي للسلطة أن تمتلك كفاءة مميزة في مجال محدد، فالخطيب مثلاً تكون له دراية واسعة في جميع العلوم الدنيوية والأخروية.

3- نجاح حجة السلطة متعلق بمدى الكفاءة التي يحظى بها الايتوس في مجال اختصاصه.

4- يُعد الدليل الموضوعي أحد الأركان التي يعتمد عليها في تدعيم السلطة في المجال الخطابية⁽¹⁾.

وتتجلى أمثلتها في سورة هود، في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَنْفُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَعِنَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾⁽²⁾.

لقد نهى الله سبحانه وتعالى سيدنا نوح عليه السلام عن السؤال الذي ليس له علم به، ونصحه بالابتعاد عن ذلك، لأنها صفة من صفات الجهل (الذنب).

وقال سبحانه وتعالى أيضاً وهو يفرض سلطته مخاطباً الجمادات، وتنفذ هذه الأخيرة الأمر مباشرة أمام رهبة المتجلى دون روية أو انتظار، كما قال جلّ جلاله في

موضع آخر من القرآن الكريم: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا

طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾⁽³⁾. فالله تعالى يخاطب الأرض والسماء ويأمرهما بتنفيذ

(1) - ينظر: محمد مشبال، في بلاغة الحجاج، ص 140.

(2) - سورة هود: الآية 46.

(3) - سورة فصلت: الآية 11.

ما أمرا به مباشرة دون نظر أو انتظار، لذا استعمل الفعل الماضي للمجهول "قيل" لعلم الأمر وتعظيمه، ودنو الأمور وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْمَأُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ^١ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ^(١)﴾. ومن أمثلة حجة السلطة قوله تعالى: ﴿وَيَقَوْمٍ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ سَأَلُوا نُوحَ بْنَ نُوْحٍ ابْنَ نُوْحٍ أَنَّمَا آتَاكَ مِن قَبْلِهِ خُذْ صُلْحًا قُلْ هُوَ أَشَدُّ حَرًّا لَّو كُنْتُمْ عَاوِلِينَ^(٢)﴾.

بعدهما بين سيدنا نوح عليه السلام الحجج والبراهين التي تدلّ على أنه جاء برسالة التوحيد، وأبطل كل مظاهر الشرك والكفر، مستعملا معهم الأسلوب اللين والرفق لعلّ قلوبهم تنزع عنها غشاوة الإنكار والجحود، وبعدهما ردّ على كل الشبهات التي ادعوها، خرجوا إليه علانية متحدّين خالقهم ونبئهم، وهم يحسبون أنّ نوح عليه السلام ذا نفوذ وسلطة فطلبوا منه أن يعجل العذاب إن كان صادقا؛ لأنهم يئسوا من دعوته، ومن تجريحه لآلهتهم، قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ^(٢)﴾، ثم يظهر نوح عليه السلام حجّته بأنّه لا إرادة له في تلك السلطة ولا حقّ له في ذلك؛ لأنّ الله سبحانه هو المخوّل الوحيد لهذه السلطة، لأنّه هو خالقهم وعالم بمصائرهم، وما تخفي حواجز نفوسهم، إن شاء عفا عنهم وإن شاء عذبهم قال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ^(٣)﴾، لقد عزل النبي نوح نفسه من حجة السلطة، ودلّهم أنّ الله تعالى هو المخوّل الوحيد بهلاكهم أو الصّح عنهم .

4- الشاهد التاريخي:

إنّ التاريخ لسان الأمة وماضيها، ولا يختلف اثنان على أنه يعدّ الأب الشرعي للعلوم الإنسانية جميعها، وهو أقدم المجالات التي اشتغل عليها العقل البشري، فهو الشاهد

(1) - سورة هود: الآية 44.

(2) - سورة هود: 32.

(3) - سورة هود: 33.

الأول للفكر الإنساني، ويستمدُّ المثال التاريخي قوّته الإقناعية حسب روث أموسي، من سمات أو مواضع: (1)

أولاً- إنه واقعة تاريخية حدثت في الماضي؛ ولواقعة قيمة حجاجية متفق عليها.

ثانياً- إنه واقعة سابقة، وهذه الأسبقية قيمة حجاجية وسمة تجعله مفضلاً عند السامع يمتلك سلطة عليه، وإن كانت هذه السلطة نسبية.

لا شك أنّ وحي الطَّبِيعَةِ النَّاطِقَةِ من أكثر الأدلّة على وجود الله. ولا شك أنّ كلّ أمة لها شاهد على وجودها، وهذا ما دوّنه المؤرخون وعلماء الآثار للأجيال، فقد وقفوا على مدن بأكملها مدفونة، وأنّ ما حلّ بها إلا هلاك وعذاب إلهي، فبقيت آثارهم شاهدة عليهم وهي آية تتبّه الأجيال اللاحقة أن تحذر ما وقع لهؤلاء الأمم بسبب إنكارهم وبعدهم عن الله، فالآثار الباقية ترتبط بالطابع الحسيّ دون التجريد العقلي؛ لأنّ المشاهدة الحسيّة لها قدرة كبيرة على التأثير في النفوس.

لقد تطرق القرآن الكريم صراحة عند تناوله قصص الأنبياء، وما تركوه من آثار تبقى تذكرهم عبر الزمن قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ (2).

لقد أمر الله سبحانه وتعالى عباده أن يسيروا في الأرض، ليقفوا على حقائق هذه الأمم وما حلّ بهم ليستوعبوا المعاني والعبر، قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ (3)، وهذا دليل ظاهر للنبي محمد ﷺ أن يحذر قومه من سوء العاقبة التي حلّت بالأقوام السابقين.

(1) - محمد مشبال: في بلاغة الحجاج، ص 87.

(2) - سورة هود: الآية 100.

(3) - سورة الأنعام: الآية 11.

ويحضر معنا بعض الشواهد التي بقيت الأمم تذكرها، مثل ما حصل لمدينة عاد والتي يرجع الفضل في اكتشاف آثارها إلى عالم هاوٍ هو (نيكولاس كلاب)، وقد عثر في هذه المدينة المطمورة أعمدة ضخمة، والتي اعتبرها الدكتور (زارينز) الذي يُعد أحد أعضاء فريق البحث ومدير التنقيب، أنها دليل على المدينة المكتشفة وهي مدينة (ارم) التي ذكرها القرآن الكريم وأنّ السبب الذي أدى إلى غمر مدينة عاد، "فقد فسّرتة مجلة Am'interesse الفرنسية التي ذكرت أن مدينة ارم قد تعرّضت لعاصفة رملية عنيفة أدّت إلى غمر المدينة بطبقات من الرمال وصلت سماكها إلى حوالي 12 مترا. وهذا شاهد مادي على أن أرض قوم عاد تعرضت إلى قوّة تدميرية إلهية جراء المعصية الكبرى وهي الجهر بالشرك الأكبر وهو عدم توحيد الله تعالى، وهذا ما أخبرنا به الكتاب الحكيم⁽¹⁾ قال تعالى: ﴿إِرمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثُمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾﴾⁽²⁾. فالمكان باقٍ، والحدث والعذاب ذهب مع الإنسان.

وتذكر كتب التاريخ الإسلامي أن "مساكن عاد تقع في أرض (الأحقاف)، من جنوب شبه الجزيرة العربية. والأحقاف تقع في شمال حضر موت، ويقع في شمال الأحقاف الربع الخالي، وفي شرقها عُمان. وموضع بلادهم اليوم أرض قاحلة، لا أنيس فيها ولا ديار"⁽³⁾.

وبعد سرد الأدلة والحجج على عثور آثار ما يثبت وجود قوم عاد، والتي حق الله عليها العذاب، نستخلص مايلي:

(1) - ينظر: محمد شحرور، القصص القرآني، ج02، ص69.

(2) - سورة الفجر: الآية من 06 - 13

(3) - محمد شحرور، القصص القرآني، ج02، ص72.

إنَّ الله أهلك قوم عاد بريح صرصر عاتية، بعدما أنكروا وجوده، وكذبوا نبيهم هود عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادُ فَاهْلَكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾⁽¹⁾. وأما ثمود فنقح منازلهم بين الشام والحجاز. ولم تزل رسومهم باقية وشاهدة على حضارتها حتى يومنا هذا، فهي طريق الحجيج القادمين من الشام بالقرب من واد القرى، وأما المتأمل لبيوتهم المنحوتة في الصخر دلالة على قوة أجسادهم وهم ينحتون من الجبال بيوتا⁽²⁾. وقد أمر النبي محمد ﷺ المسلمين حين مرّوا بديار ثمود، وهم في طريقهم إلى تبوك - أمرهم أن يجدّوا في السّير وألا يلتفتوا إلى هذه المواطن، وأن يُخلقوا حواسهم عنها، حتى لا يدخل عليهم شيء منها... شأنهم في هذا شأن من يمرّ بجثث متعفنة، تهب منها ريحٌ خبيثة، فيسدّ أنفه، وينطلق مسرعا حتى يبرحها... وفي هذا درسٌ عمليٌّ للتشجيع على المنكر وأهله⁽³⁾.

أما ما يظهر حجة المشاهدة العينية لآثر قوم لوط عليه السلام، التي بقيت خالدة بخلود القرآن الكريم الذي أخبرنا عنها قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِالْإِيلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾⁽⁴⁾؛ أي أنّ قوافل أهل قريش عند سفرها إلى الشام تمرّ على آثار قوم لوط ولا شك أنّ مشاهدة آثارهم وأطلال قريبتهم الخالية حجة مادية شاهدة بصدق ما روى القرآن من أخبارهم. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِثْقَالَ عِلَّةٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾⁽⁵⁾. والتمتعن في حجة المشاهدة التي أقيمت لتعطي مشهدا تصويريا رهيبا لما نزل من عذاب وغضب الهي لما انحرفت هذه الأقوام عن منهج التوحيد، فجاءت هذه المشاهد مروّعة ومخيفة وهي دليل على قوة الإرادة النافذة والمطلقة للربّ سبحانه وتعالى، التي يعجز

(1) - سورة الحاقة: الآية 06

(2) - ينظر: أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ج2، ص33.

(3) - عبد الكريم الخطيب: التفسير القرآني للقرآن، ج12، ص1181 - 1182.

(4) - سورة الصافات: الآية 137 - 138.

(5) - سورة العنكبوت: الآية35.

اللسان عن التعبير عنها، فهذه مشاهد رهيبية تحمل من "البلاء المُعجّل، والإبادة الجماعية لبعض أقوام الرّسل بالطوفان، والعواصف، والصواعق، والخسف، والأخذ بالسّتين، ونحو ذلك مما يبثّ الرّعب في القلوب، والاعتقاد بفساد معظم البشر⁽¹⁾، وزيادة على ذلك أنّ كل مقومات الحجّة التاريخية متوفرة سواءً المكان أو الزمان بيد المتأمّل والمتدبّر، لأنها ضرورية في فهم الخطاب، فكلما توفّر المتلقي على معلومات عن هذه المكونات (المتكلم، الرسالة، الزمان والمكان، ونوع الرسالة) تكون له حظوظ قويّة لفهم الرسالة، وتأويلها أي وضعها في سياق معيّن من أجل أن يكون لديها معنى"⁽²⁾.

كما نجد المثال التاريخي في إخبار الله تعالى عن مصير الذي ادعى الربوبية في الأرض، فرعون الطاغية الذي اتخذ نفسه إلها من دون الله، فكان مصيره، الغرق هو وجنوده في اليمّ، فجعل بدنه آية وعبرة وحجّة ومشاهدة عينية لمن بعده للطغاة والظلمة، قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَفُلُونَ﴾⁽³⁾. فالأدلة المادية التي تعتمد على المشاهدة هي "عنصر محفز على ضرورة الاختيار الحسن وابتغاء الصلاح وانتهاج التفكير والتبصر سبيلا في الحياة"⁽⁴⁾.

إنّ المشاهدة العينية تترك أثارها في نفس المتلقي أكثر من السماع، لأنّ الرؤية البصرية أشدّ وقعًا واستدلالًا على السماع في تصديق هذه الأحداث، لهذا "كانت المشاهد أقوى في توجيه السلوك من الغائب. إنّ مجرد استحضار الشيء مقنع، فما هو حاضر ومائل أمام أعيننا جدير بأن يثير عنايتنا واهتمامنا، ويجعل تصرفاتنا تتأثر بهذا الحضور

(1) - التهامي نقرة: سيكولوجية القصة في القرآن الكريم، ص 450.

(2) - محمد خطابي: لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1991، ص 297.

(3) - سورة يونس: الآية 92.

(4) - محمد مشبال: بلاغة النص في التراثي، ص 137.

الفعال⁽¹⁾، وهذا القول يحيلنا إلى مثل صيني مأثور يقول: " إن رؤية الشيء مرّة، خير من سماعه ألف مرّة"⁽²⁾.

فالفضاء المكاني الذي يُعد دليلاً حقيقياً عينياً في بيان حجة المكان ليس له دور تزييني جمالي، فالمتلقي أو المتأمل لهذه القرى (المكان) يجتمع في نفسه الرهبة والخوف لما حلّ بهذه الأقوام، وفي نفس الوقت تظهر عظمة الله سبحانه وتعالى، بأن عذابه شديد، وما المكان سوى شاهد لآثار الدمار والهلاك الذي وقع للأمم، فهو فضاء محسوس يدركه المتلقي بمعية حواسه وويبقى حجة لمن تسول له نفسه إلى الطغيان والتعنّت.

(1) - محمد الولي: الاستعارة الحجاجية بين أرسطو وشايم بيرلمان، مجلة فكر ونقد، المغرب، العدد(61)، يناير، 2000م.

https://www.aljabriabed.net/n61_07alwali.htm

(2) - ريل كارينجي: التأثير في الجماهير عن طريق الخطابة، تر، رمزي يسي، وعزت فهيم صالح، دار الفكر العربي، ص64.

رابعا- التمثيل الحجاجي للقصاص القرآني:

قبل الغوص في دُرر القصاص القرآني يجدر بنا أن نعرِّج على معنى المثال في النمط السردى والحجاجي، وإن كنا قد تعرّفنا عليه عند التّعرض إلى معنى التشبيه أو المثل، إلا أن هناك فروقا فيما بينهم، ونزوح ذلك الغموض بالتعرّف على مقامات توظيفه والغرض الذي يشتغل عليه فقد "اعتمد أرسطو في تصنيفه لأنواع المثل التي يمكنها أن ترد في الخطابة، معيارا قائما على طبيعة الوقائع المذكورة؛ فقد تكون واقعية حدثت في الماضي، وهو ما يمنحنا (المثال التاريخي). وقد تكون مخترعة، وهو ما يترتب عليه نوعان من الأمثلة المخترعة: المثال القائم على المقارنة *parabole*، والمثال القائم على سرد حكاية مثلية على لسان الحيوان *fable* أو الخرافة والأمثلة باصطلاحات أخرى، وكل هذه الأنواع هدفها تبيين قاعدة عامة أو الاستدلال على دعوى ما"⁽¹⁾. ويحدد (روبريو) مجموعة من الخصائص العامة للتمثيل يمكن إجمالها في النقاط الآتية⁽²⁾:

1- يتأسس التمثيل على استدعاء صور تروي أحداثا من أجل نقل أفكار مرجعية تحمل قيمة رمزية.

2- تقوم العلاقة فيه على مماثلة تتحقق بين عناصر أو بنيات تنتمي إلى حقول مختلفة.

3- يستدعي معالجة دينامية وإبداعية، لأنه يتجاوز اللغة وحدود الواقع ويفهم عن طريق تحريك الذهن.

أما مصطلح السرد الذي يشكّل قاعدة في تحليل الخطاب، والذي يعني عرض "مواقف ووقائع وأفعال لأغراض حجاجية مختلفة دون أن يكون السرد مجرد تقنية جزئية تحتل مساحة محدودة في النص تعقب الاستهلال ويليه الإثبات والاستطراد والاختتام على نحو ما نجد في الخطابة القديمة⁽³⁾، وهذا القول يحيل لنا أن لا "تعارض بين السرد والحجاج ما

(1) - محمد مشبال: في بلاغة الحجاج، ص 86.

(2) - هاجر متقن: التمثيل الحجاجي في كتاب "كليّة ودمنة" لابن المقفع، مقارنة تداولية، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة.
<https://revues.univ-ouargla.dz>

(3) - محمد مشبال: خطاب الأخلاق والهوية في رسائل الجاحظ، ص 249.

داما يرومان تحقيق نتيجة واحدة وهي إثبات موقف السارد - المحاج... الذي يذهب فيه إلى أن السرد يسند إلى الوقائع صفات وتقويمات لأجل الإقناع والتأثير بتحريك أهواء المخاطب pathos⁽¹⁾، ولهذا لا يخرج التمثيل في القصّ القرآني عن الإطار الذي رسم في البناء الحكائي اليوناني، إلا أن الميزة التي ينفرد بها عن بقية الخطابات البشرية، أنه يسرد وقائع تاريخية حقيقية لا يشوبها افتراء أو تزيف، فهو يعدّ تمثيلاً حكائياً يعتمد الوقائع من أجل التأسيس للطرح المراد واستدعاء المواقف والسلوكات المطلوبة تحفيزاً أو توجيهاً أو تنفيراً⁽²⁾، وقد علّق رولان بارت عن البنية الاستبدالية لتحليل الخطاب وعلاقته بالابتكار (المحاجة)، ويغطي المصطلح الأول (استدعاء الأحاسيس) الاستهلال والخاتمة، يعني الجزأين الخارجيين للخطاب.

أما المصطلح الثاني (الدعوة إلى الحدث، إلى الدليل) فيغطي السرد (علاقة الأحداث) والإثبات (مؤسسة الأدلة أو طرق الإقناع)، ويعني الجزأين المتوسطين للخطاب. ولا يتبع النظام المركبي إذن النظام الاستبدالي، وهكذا نصير في علاقة مع عكس: يتمثل في فرعين ينتميان (للعاطفي) ويحيطان بحاجز برهاني كما في الخطاطة الآتية:⁽³⁾



ونحاول أن نعطي عرضاً يغطي أهم العناصر التي تتكئ عليها القصة القرآنية، فوظيفتها تثبيت وإقناع المتلقي لما يعرض عليه من أفكار وقيم بأسلوب لا يخلو من

(1) - محمد مشبال: في بلاغة الحجاج، ص 109.

(2) - عبد اللطيف عادل: الحجاج في الخطاب، مقارنة تطبيقية، مؤسسة آفاق للدراسات والنشر والاتصال، مراكش، المغرب، ط 1، 2017، ص 14.

(3) - رولان بارت: قراءة جديدة للبلاغة القديمة، ص 129. ينظر: محمد مشبال: خطاب الأخلاق والهوية في رسائل الجاحظ، ص 249.

عنصر المفاجأة والتشويق؛ لأنّ نفاذهما إلى القلوب والنفوس أسرع، فالقصة بمثابة جسر تواصل يربط بين الماضي والحاضر، في مفكرة تدوّن فيها الأفعال وظروف الأقسام المؤمنين والمنكرين بصورة حقيقية بعيدة عن التخييل والكذب .

1- براعة الاستهلال ودوره الإقناعي في القصة القرآنية:

تحدّث علماء البلاغة بإسهاب عن دور الاستهلال في الخطاب القصصي، وما يتركه من تأثير في المتلقي، ويُعد من مباحث البلاغة، فهو يعمل على " تنبيه السامعين إلى موضوع الخطبة، وترغيبهم في الاستماع، وإعداد أذهانهم للاقتناع، واستجلاب خواطرهم وتأليف قلوبهم حول الخطيب وما يريده منهم"⁽¹⁾، وهذا ما ذهب إليه أرسطو في بلاغته، حيث صنّفه إلى وظيفتين أساسيتين: فالأولى تدلّ على الغرض الذي يستهدفه الخطاب، حيث تكون الوظيفة واضحة بذاتها، أما الثانية فهي استمالة المتلقي وتهيئته واستدراجه ليقبل على الموضوع باهتمام"⁽²⁾، وهذا ما يسعى إليه الحجاج.

فالسارد يعمل على انتقاء الألفاظ والعبارات الموحية لقصد إيصال القناعة إلى النفوس والضّمائر الحيّة؛ لأنّ القصة تعرض المشاهد المؤثرة، والمواقف المشرفة، المصاحبة بالتشجيع العاطفي، لإثارة المتلقي واستدراج المتلقي على حضور ذهنه لما يسرد إليه من قصص، لذا نجد براعة الاستهلال في القرآن الكريم تركز على عنصر التشويق والإثارة لمسرح الأحداث، فيشتدّ انتباه المتلقي وتجعله يساير الأحداث بدقة، وقد يتغيّر موضع الاستهلال بحسب القصة ونوعها، وجاء بناؤها وفق العناصر الآتية:

- أن يبتدئ السارد بأغرب مشهد يلفت النظر، حتى ولو كان المشهد متأخرا في سلسلة الحوادث؛ لأنّ من شأنه أن يثير الانتباه أكثر من غيره حتى إذا تفتح الذهن وأقبل على القصة، عمد البيان إلى استدراك ما فات من المشاهد، وتحين المناسبة وعرضه بشكل متناسق ومنتساق مع جمال العرض وأداء الغرض. ومثالا على ذلك قصة موسى عليه

(1) - كمال الزماني: حجاجية الصورة في الخطابة السياسية لدى الإمام علي رضي الله عنه، ص153.

(2) - ينظر: عبد العالي قادا: بلاغة الإقناع، دراسة نظرية وتطبيقية، كنوز المعرفة، ط1، 2016، عمان، ص97.

السلام، حيث افتتحت بهذا المشهد ﴿وَهَلْ أَتَتْكَ حَدِيثُ مُوسَى ٢ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ
أَمْكُؤْا إِنِّي أَنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدَعٍ عَلَى النَّارِ هُدًى ٣﴾ (1).

وتتمثل براعة الاستهلال في سورة هود في قصة نوح عليه السلام، قال تعالى:
﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا
يَفْعَلُونَ ٣٦﴾ وَأَصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ
٣٧﴾ وَيَصْنَعِ الْفُلَكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا
نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ٣٨﴾ (2).

فالمشهد الذي تصوّره هذه الآية أنّ الله أخبر نبيه نوح عليه السلام أنّ قومه لن
يؤمنوا بدعوته، وهو يفقد الأمل في إيمانهم، ثمّ تضعنا القصة أمام مشهد جديد ومشوق،
وهو أنّ الله تعالى أمره أن يصنع سفينة النّجاة، وهذا المشهد يزيد المتلقي التشويق أكثر،
فيتساءل مانوعها؟ ما الشكل الذي تأخذه؟ ما حجمها؟ ماهي المواد المستعملة في انجازها
وشكلها الخارجي؟ فهذه الفراغات أو الفجوات تضع المتلقي في حيرة، ويسعى إلى البحث
عن أجوبة مقنعة لملء هذا الفراغ الخطابي، فيستغل المتلقي جانب التأويل والخيال
لتصوير هذه المشاهد، وقد طويت هذه المشاهد كي لا تفسد عرض القصة ويبقى سرّاً
مجهولاً يبحث القارئ عن تفسيره، وهذا النوع من الاستهلال يزيد المتلقي انجذاباً وتشوقاً
لمعرفة مضمونها والعبرة من سردها.

2- حجاجية التصوير والتشخيص في التعبير القصصي:

يأتي مفهوم الصّورة في المعاجم اللّغوية بمعنى "صورة كل مخلوق، والجمع
صُور، وهي هيئة خلقته" (3). أما في المعاجم الأدبية المعاصرة "هي ما ترسمه على نحو ما

(1) - سورة طه: الآية 9-10.

(2) - سورة هود: الآية 38.

(3) - ابن فارس: مقاييس اللغة، ج3، ص320.

لذهن المتلقي... بعد أن كانت في المنطق متمثلة في ذهن الكاتب، وتجسّدت... بفعل اللّغة وصياغتها التعبيرية وأساليبها التقنيّة⁽¹⁾، ويتعدّى عمل الصّورة إلى البعد النفسي، وتكاد تكون ملتصقة فيه التصاقاً؛ لأنها تنتج عاطفة قويّة في استقطاب الأدلّة والحجج التي تمكّنه من التعبير عن النّفس ومشاعرها...؛ إذ بكلّ باب من أبواب البيان، نلتمس الأثر النفسي رفضاً أو استجابة، من خلال رصد المثل لمهمته التعبيرية الملموسة⁽²⁾.

وإذا كانت الصّورة خير عون في كشف المعاني العميقة التي هي مدفونة بين صور الألفاظ، فالتّشخيص صفة أخرى تنفذ إلى عوالم الذهن فهو "إبراز الجماد أو المجرّد من الحياة، بشكل كائن متميّز بالشّعور والحركة والحياة، بمعنى إسناد صفة من يعقل، إلى ما لا يعقل من المحسوسات والمعنويات، بحيث تبدو وكأنّ لها حواس الإنسان ومشاعره، ومخاطبة ما لا يعقل وتقديمه في صورة معينة⁽³⁾، فالوقائع والأحداث والمشاهد التي تحملها قصص القرآن هي صوراً شاخصة تلقي مزيداً من الوضوح والحجج فهي تعبّر" بالصورة المحسّنة المتخيّلة عن المعنى الذّهني، والحالة النفسيّة وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجدّدة، فإذا المعنى الذّهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسيّة مجسّمة مرئية⁽⁴⁾، فتستسلم جوارح المتلقي ومشاعره لحسن التّرتيب والتّشخيص، وتكون بدورها نقطة ارتكاز يقوم عليها الحجاج.

فالقصّة القرآنيّة وما تسرده من مشاهد وحوارات وجدالات بين الأنبياء وأقوامهم ماهي إلا شواهد يقينيّة يذكرها الماضي، فهي ترسم لنا الحياة الإنسانيّة وتطوّرّها عبر مراحل التاريخ، ابتداءً من الخلق الأوّل، آدم عليه السلام ومن تبعه من صفوة البشر من الأنبياء والمرسلين وحملهم تبليغ رسالات ربهم، وما يطبعها من تأييد أو اعتراض

(1) - ميشال عاصي: المعجم المفصل في اللغة والأدب، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1987، ص774.

(2) - محمد طروس: النظرية الحجاجية، ص29.

(3) - ينظر: جبور عبد النور: المعجم الأدبي: دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ط2، 1984، ص67.

(4) - سيد قطب: التّصوير الفنّي في القرآن الكريم، ص71.

وتكذيب، وهذه المقامات الجدالية، تعطي حجة لمن بعدهم في بيان مواقف من البشر حسب حالتهم ومصالحهم، وهذا كله لخدمة الإنسانية .

ومن أمثلته التشخيص المعنوي قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَذْقَنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ ۖ وَلَيْنَ أَذْقَنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾

يتضح الأثر التشخيصي في هذه الآية الكريمة بإسناد إذاقة الرحمة، وإذاقة النعماء للإنسان، ونحن نعلم أنّ الإذاقة تكون خاصة بالطعام، وهنا تشخيص صورة محسوسة بصورة معنوية ونفسية في نفس الوقت، ويتجلى الوجه الحجاجي فيها أنها تعبر عن سلوكيات أهل الكفر من الإنكار للدعوة بعدما أذاقهم الله النعم، فهم جاحدون، وفي المقابل نجد نفس اللفظة "الإذاقة" استعملت لتعبر عن الصبر والمغفرة التي يحملها المؤمنون فهي تضي إلى نتيجة أن الله راض عنهم. وهذا ما يدلّ أنّ هذه اللفظة قد عبّرت عن الغرض الحجاجي لكلّ فئة، ولا يمكن أن تعبر عن غرضها لفظة أخرى.

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْمَأِ أَقْلَبِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾⁽¹⁾

جاءت الصورة التشخيصية المحسوسة مفعمة بعدة جوانب من التأثير النفسي، فسياق الآية يصور حقيقة الطوفان هذا الهول الذي أهلك الله به قوم نوح وهي صورة مشخصة مرسومة على وجه الحقيقة لا دخل للمجاز أو التخيل فيها، وقد وصفه الله وصفا دقيقا له وقع خاص في النفوس، بدءا من امتثال الجمادات لأوامر خالقها، فالصورة ترسم للمتلقى شدة الهول والعذاب الذي أغرق الله فيه أعداءه، فالصورة التشخيصية تضي على نفسية المتلقى مزيدا من الرهبة والقوة الإلهية فينشأ الإذعان والافتناع أنّ مسير هذا الكون إله واحد لا شريك له.

(1) - سورة هود: الآية 44.

3- الحوار وإنتاجه الحجاجي في القصة القرآنية:

يُعدُّ الحوار مبحثاً مهماً في السرد القصصي القرآني، حتى قال بعضهم "القرآن كتاب حوار"⁽¹⁾، فجاء ليجسد لنا صورة حسية لقصص الأولين وسائر المتقدمين، بأسلوب راق يعجز المخلوقين على صياغة خطّه، وعليه تأتي وظيفة الحوار "بتجسيد المعاني في صورة محسوسة، وهذا بدوره يثير اهتمام السامع بصورة أشد، كما أنّ له دوراً في ترسيخ المعاني وتثبيتها في النفوس، إذ من طبيعة النفوس ألا تقف طويلاً مع المعاني المجردة"⁽²⁾. إنّ القصة القرآنية من أهم المعجزات التي أبهرت العقول وألباب البلغاء لما فيها من وقع في القلوب والعقول، فكانت وسيلة من وسائل الهداية والتذكير والعبرة، والتذكير، والنصح والتسلية، فهي تعدّ "عنصراً مشوقاً، جذاباً محبباً، مرغوباً في التربية والتعليم وإثبات البراهين العقلية بالوقائع الحسية، وظيفتها غرس بذور العقيدة الصحيحة وإبطال كل ما يدعو إلى الشرك والمعصية، فهي مدرسة إلهية، أساتذتها الأنبياء، وواقعها الأقسام، وتاريخها قديم عريق، وموضوعها نجاة المؤمنين وإهلاك الظالمين"⁽³⁾. لذا أجمع أهل الأدب والنقد على أنّ القصص القرآني من أهم الأجناس الأدبية؛ لأنها تعبّر عن روح الأمم وكيانها، ولا مباحة أنّ العرب تميّزوا بالفكر الثاقب مما منحهم حظاً موفوراً من سعة الخيال ودقة التصوير.

3-1 الحوار الحجاجي بين نوح عليه السلام وقومه:

إنّ الحوار باعتباره آلية سردية، جاء لإبراز سمة الشخصية الإيجابية التي يتميز بها أبو الأنبياء نوح عليه السلام، حيث سلك سيدنا نوح عند حاجته قومه عدّة أساليب ووسائل منها أسلوب الاستعطاف أو التحبيب، وأسلوب الترهيب والترغيب وغيرها من الأساليب التي تدلّ على حرصه الشديد بالإيمان بدعوته .

(1) - محمد حسين فضل الله: الحوار في القرآن الكريم، دار الملاك، بيروت، لبنان، ط5، 1987، المقدمة.

(2) - نفسه.

(3) - ينظر: هبة الزحيلي، التفسير المنير، ج11، ص482.

تبدأ مرحلة العرض بمفاجآت وأسرار غامضة، فبدأ حوارهِ ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، فالأسلوب المنظم في هذه الآية أسلوب استعطف استخدمه سيدنا نوح -عليه السلام- إلى قومه لتوجيه أنظارهم ولمس وجدانهم وإثارة أحاسيسهم، وإدراك القيم الخفية، وبيان أمر الرسالة وتليين قلوبهم، وإقناعهم أنه بشر مثلهم أكرمه الله بالرسالة، ويقرر لهم أن المبدأ العظيم القويم، هو مبدأ الاختيار في العقيدة، والافتتاح بالنظر والتدبر، لا بالقهر والسلطان والاستعلاء⁽¹⁾، لأن الحوار هو تفاعل بين المتكلم والمتلقي في مقام مشترك ينتج عنه قوة حجاجية، بحيث يبرر كل طرف يعبر عن موقفه من قضية ما، ولاشك أن أول سجالات حوارية أُقيم في عالم الغيب والشهادة بين الذات الإلهية الله جلّ جلاله، وبين محور الفساد والشر إبليس، الذي رفض السجود لما خلقه الله، فالقصة القرآنية جاءت تحمل "التأييد الإلهي للرسول، وإظهار آيات الله ومعجزاته وحججه على الناس، مما يحمل على الإقناع بصحة الدعوة الإلهية، والإيمان بأصحابها الرسل"⁽²⁾.

لقد حرص النبي نوح عليه السلام على تحرير أرواح وعقول قومه من قبضة الوثنية المهلكة، لذا كان من الطبيعي تقديم حجج تكون مساندة لقضيته الإيمانية، مراعيًا فيها مستوى عقولهم ومشاعرهم للذود بهم إلى العقيدة الصحيحة، قال تعالى: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾⁽³⁾، وهذه إشارة إلى تقبل مجادلتهم، لأنهم أصحاب قوة ومكانة، وقد اتسمت دعوة النبي نوح عليه السلام بالاستمالة والنصح، وهذا مبدأ الحوار عند جميع الأنبياء؛ لأنه وسيلة أساسية في إبلاغ الدعوة، وأن نفوسهم جُبلت على الشرك والكفر، وكان لزامًا منه أن يستعمل معهم كل الطرق والأدلة التي تلزمهم الحجّة، فنجد كثيرًا ما يكون "جدال القرآن وأسلوبه مع المشركين جدل تخطئة وإلزام، لأنهم على علم، وأمّا المنافقون فتبدو سمات الشدة والقسوة مصحوبة بالتهديد والوعيد، وهكذا كل حسب حاله

(1) - ينظر: سيد قطب، في ضلال القرآن، ص 1873-1874.

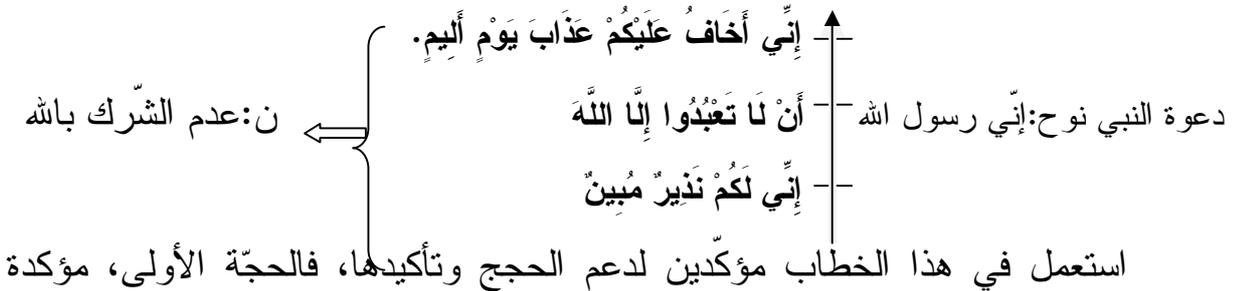
(2) - الزحيلي هبة: التفسير المنير، ج 11، ص 483،

(3) - سورة آل عمران: جزء من الآية 59.

ومقامه⁽¹⁾. فالنبي نوح عليه السلام عمد على هذا الأسلوب لترسيخ موقفه أمام تعنتهم، فيجعل الإنذار أنسب على دعوتهم بالإنذار بالعذاب الأليم لعلها تنهض فيهم غريزة الخوف والرهبة، لأنّ "غريزة الخوف تكاد تكون لا شعورية لاتّصالها بغرائز الدفاع عن الذات، وحب البقاء، وتجنّب المكروه فهي أبلغ أثرا في النفس، وخاصة عند توقعّ بلاء عاجل"⁽²⁾، فتدفعهم إلى تغيير موقفهم وسلوكهم، وهذه هي النتيجة التي ينتظرها نوح عليه السلام من قومه، لأنّ "الحجّة لا تكون حجّة بالنسبة إلى المتكلم إلا بإضافتها إلى النتيجة، مع الإشارة إلى النتيجة قد يصرّح بها، وقد تبقى ضمنية"⁽³⁾، والمتتبع لرتابة هذه الحجج التي أظهرها النبي نوح عليه السلام تشكّل سلماً حجاجياً، حيث انطلق من حجّة الإنذار إلى أقوى حجّة وهي التخويف لعلها تجد سبيلاً لتقبّل دعوته، "فكل الحجج يمكن إدراجها ضمن فئة حجاجية واحدة لأنها تقبل الحضور في ملفوظ واحد بوصفها حججا تتّجه لمساندة النتيجة نفسها"⁽⁴⁾، والنبي نوح عليه السلام حملهم على الاقتناع بأمر ثلاث:

- عبادة الله وحده لا شريك له والتسليم لأوامره ونواهيه ونبذ الشرك والكفر.
- التصديق بنبوته والإيمان برسالته.
- الخوف من عقابه.

ويمكن تمثيلها بالرسم الآتي:



بحرف (إني) المرتبطة بالضمير المتكلم، مما يؤكد نبوته لهم، وأنه بشر مثلهم أرسل إليهم

(1) - طه السباعوي: أساليب الإقناع في المنظور الإسلامي، ص 11.

(2) - التهامي نقرة: سيكولوجية القصة في القرآن الكريم، ص 451.

(3) - شكري المبخوت: نظرية الحجاج في اللغة، ص 363.

(4) - رشيد الراضي: المظاهر اللغوية للحجاج، ص 109.

لينذرهم ويظهر لهم طريق الحق. ثم تأتي الحجّة القولية الثانية أقوى ملفوظاً ومسانداً للحجّة الأولى، يتبعه الرابط الثاني (إني) الذي يظهر حجّة الفصل باعتبارها أقوى الحجج في إسناد النتيجة (عدم الشرك بالله) .

أ- الحجاج بالمغالطة:

لقد كان ردّ قوم نوح عليه السلام قاسياً، فقد واجهوا دعوته بالاستهزاء والسخرية والتجريح الشخصي له ولمن تبعه من المؤمنين، واستدلّوا بحجج من المغالطات الباطلة، التي أوصلتهم إلى نتيجة مفادها الجزم بنفي رسالة النبوة عن نوح -عليه السلام- وهذه المفاهيم:

- ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾. استهزاء به وعناداً للحق وجهلاً بما جاء به، والتّمويه عن الحجّة البيّنة. يقول الجرجاني: "جعلوا الرسل كأنهم بادعائهم النبوة قد أخرجوا أنفسهم عن أن يكونوا بشراً مثلهم، وادعوا أمراً لا يجوز أن يكون لمن هو بشر. ولما كان الأمر كذلك، أخرج اللفظ مخرجه حيث يراد إثبات أمر يدفعه المخاطب ويدعي خلافه"⁽¹⁾.

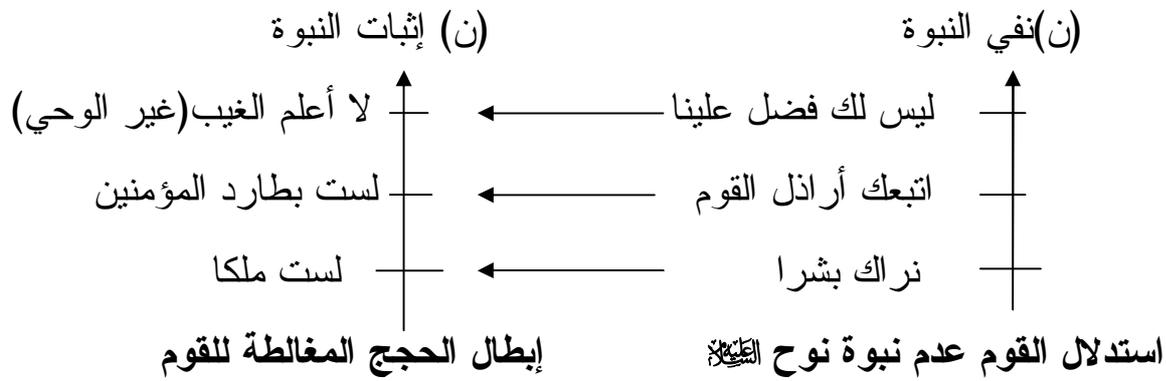
- ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَن كُفُّوا عَنَّا﴾؛ أي لم يتبعك أشرف القوم وخاصتهم، بل آمن بك وبدعوتك أراذل القوم وأصحاب الصنائع الخسيسة، قدرتهم على التّحدي، فلو كان أصحاب الدعوة من أصحاب المهابة والسلطان لما تجرأ أحد على أن يهين سمعتهم، وينظرون إليهم أنهم نظروا إلى دعوتك نظرة سطحية دون تأمل ولا عمق في التفكير ولو كانت نبوتك صادقة لآمن أشرف القوم، فهؤلاء الكفرة من قوم نوح، لما "قصرّوا عن إدراك أسباب الكمال نظروا إلى نوح- عليه السلام - وأتباعه فلم يروه من جنس غير البشر وتأمّلوا وأتباعه فلم يروا من أجسامهم ما يميّزهم عن الناس وربّما كان في عموم الأمة من هم أجمل وجوها وأطول أجساماً"⁽²⁾.

(1) - الجرجاني دلائل الإعجاز، ص333.

(2) - الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج19، ص13.

- ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾؛ أي ليس لك مزية تخصك عنا، سواء في العقل أم في الغنى وقوة الجدل .

وهذه الحجج تُضفي إلى نتيجة مضمرة بأنهم أحق بالنبوة منه، واستدلوا على نفي نبوته، تحت طائل من الحجج الجزئية التي أوصلتهم إلى النتيجة، وأن الله لو أراد أن يجعلها في أحد لجعلها فيهم، وتمثيل إبطال حجج نوح — عليه السلام — من قبل قومه الممثلة بالسلم الحجاجي المقابل.



بعد أن أبطل سيدنا نوح ﷺ حجج قومه ونفى عن نفسه كل حجة فاسدة، كرهوا من مجادلته وطلبوا منه العذاب وهدّوه بالرجم وهي كناية عن التهديد بالقتل؛ لأنهم استنفذوا فيها قومه كلّ الحجج لإبطال دعوة التوحيد بعدما قابلوا الحجّة بالحجة واستعلوا وتكبروا وأنكروا حجج النبي نوح عليه السلام بعد ما نصّحهم وحذّرهم من عقاب الله تعالى، وتكمن " القيمة الحجاجية لقول ما، ليست هي حصيلة المعلومات التي يقدّمها فحسب، بل إنّ الجملة بإمكانها أن تشمل على مورفييمات وتعابير أو صيغ، بالإضافة إلى محتواها الإخباري، فهي تصلح لإعطاء توجيه حجاجي للقول، وتوجيه المتلقي في هذا الاتجاه أو ذلك" (1)، لذا قرروا ثني بساط الجدال "وأرادوا إفحامه بأن طلبوا تعجيل ما توعدّهم من عذاب ينزل بهم" (2)، وأوحى الله تعالى إلى نبيّه أنه لن يؤمن بدعوتك إلا من

(1) - الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص 105.

(2) - الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، ج 11، ص 60.

قد آمن، ويضفي عليهم النبي نوح عليه السلام حجة أقوى من الحجج السابقة وهي حجة السلطة التي هي ملك للذات الإلهية، وأنكم تحت رحمته.

ثم طالبوه بالعذاب ﴿قَالُوا يَنْوُحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾⁽¹⁾.

إنّ الأقوال الصادرة من قوم نوح تفيد الشك في رسالة نوح عليه السلام وهي وسيلة حجاجية تعمل على حمل المخاطب بتغيير سلوكه، وتبرير القضايا وإبطالها في مضمونها، فاستعمال القوم مصطلح التعريض بأنهم أحق بالنبوة منه، واستدلوا على نفي نبوته، تحت طائل من الحجج الجزئية التي أوصلتهم إلى نتيجة وهي نفي النبوة عن النبي نوح عليه السلام، وأن الله لو أراد أن يجعلها في أحد لجعلها فيهم. ويلجأ المتكلم إلى صيغة التعريض في خطابه متى كان متيقنا إلى استجابة فورية لمقصده وغرضه.

فالتلميح بالفعل غير مباشر يأتي به للمخاطب رغبة في الظفر بحاجته، دون أن يؤثر على نفسية المتلقي⁽²⁾، لهذا فقوم نوح استعملوا الاستدلال المغالط، القصد منه التشكيك في نبوة النبي نوح عليه السلام وتصريف القوم على الإيمان بدعوته، وهذا يدل على وجود قصور في التفكير، لكن نوح عليه السلام لم يستسلم لسفسطة أدلتهم، بل واجه حججهم بأنه بلغ ما أمر به، وأن دعوته بيّنة.

ب- حجة الترغيب والترهيب:

إنّ أسلوب الترغيب والترغيب من الوسائل الفعالة في استمالة المتلقي والتأثير فيه، فالله تعالى اختار ألفاظا تكون لها وقع خاص في السامع، فتَهزّ كيانه، وتلمس مشاعر وجدانه، فتَهَيئ في الأجواء النفسية سواء كانت ترهيبا أو ترغيبا، فالله تعالى يصور لنا مشاهد حال المعاندين المنكرين له وهم في نار جهنم وما يلاقونه من العذاب، في المقابل

(1) - سورة هود: الآية 32.

(2) - ينظر: ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 335.

نجد منحة الترغيب التي يصف فيها الله جلّ جلاله حال المؤمنين الذين شملتهم رحمته، وهم يتمتعون بنعيم الجنة.

لقد جمع الله بين صورتين متناقضتين في مشهد واحد، ليس لغرض جمالي فحسب، بل لإثارة فكر المتلقي الكوني حتى يتبين له الحق، ويعصم نفسه من الوقوع في المحذور، فالصورة الترهيبية تنقل آلام العذاب نفسياً فيتأثر، وتكون مدعاة إلى الإيمان، بينما الصورة الترغيبية تكون حافزاً مثيراً للفوز بهذا النعيم، فسيدنا نوح عليه السلام تعامل مع قومه بأسلوب لين ينتابه الصبر والأناة ودقة الحجة، ووضع الأمور في نصابها رغبة منه في الوصول إلى إقناعهم وإيصال الإيمان إلى عقولهم وقلوبهم، كي لا يتجرعوا سوء العاقبة لكنهم واجهوا دعوته بالعناد والجحود والاستكبار قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي

دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٥٦﴾⁽¹⁾، فهذا المشهد يصور لنا جهاد نوح -عليه السلام - وهو يجتهد في دعوة قومه إلى منهج التوحيد ليلاً ونهاراً، لا يمل ولا ييأس ولا يفتر طرفة عين، كما يصور الله تعالى فرار القوم من هذا النبي الذي يدعوهم إلى النجاة، بل قابله بسدّ آذانهم بأصابعهم كلّها، وهذا نوع من المبالغة في الإعراض عن سماع دعوته، يقول الله تعالى: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أُصْغُرَهُمْ فِيْءِ آذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٥٧﴾⁽²⁾، واستعملت صورة الطباق بين الليل والنهار "لتأكيد الشيء بما يشبه ضده، وهو هنا تأكيد إعراضهم المشبه بالابتعاد بصورة تشبه ضد الإعراض"⁽³⁾، والطباق تحبزه العرب في كلامها؛ لأنه يعمل على تقريب المعاني للنفوس وتعظمه العرب، لما له من قدرة التأثير العاطفي في قلوب المتلقين

(1) - سورة نوح: الآية 05 - - 06 .

(2) - سورة نوح: الآية 07 .

(3) - الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، ج29، ص194.

و"السامع يرتقب معرفة ماذا أجاب قوم نوح دعوته فكان في هذه الجملة بيان ما يترقبه السامع مع زيادة مراجعة نوح ربه تعالى"⁽¹⁾.

دعوة نوح عليه السلام قومه ليلا ونهارا ← حرصه الشديد على نجاتهم

زادهم فرارا (تعريض عن الإعراض)

(ن) تمسكهم بالشرك

ولم تتوقف الدعوة في الكيفية عند الليل والنهار، بل دعاهم علانية وسراً، وقد رغبهم بنعم دنيوية، وأظهر لهم أنّ الله يتصف بالرحمة والحنوّ على عباده، وأنه سبب حصول النعم به يحصل الغيث ونمو الأموال وجلب البنوة الصالحة، وحصول النعم في الدنيا والآخرة، لذا يمتزج عامل الترغيب والترهيب في القرآن لما له أثر في النفس البشرية، لأنّ "استخدام الترغيب وحده قد يؤدي إلى طغيان الرّهبة على النّفس، فتتأس من رحمة الله، واستخدام الترغيب وحده قد يؤدي إلى استيلاء الأمل في رحمة الله على النّفس مما قد يوكلها إلى الدّعة والتّهاون والغفلة، فتنمى على الله ما ليس لها"⁽²⁾.

بعد الجدال العقيم الذي لم يقتنع به هؤلاء القوم، يتوجه النبي ﷺ إلى ربه يبيث شكواه يشكو فيها عصيان قومه، بعد أن بسط لهم من الحجج والأدلة التي تبرر دعوته العادلة، قال تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَأَتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا﴾⁽³⁾، فهؤلاء القوم الكفرة، لم يكفهم مكرهم وضلالتهم، بل جمعوا من يناصرهم، وحرّضوا الناس على تقليد آبائهم لإثارة حمية الجاهلية، وهذا بعدما "يسوا من مناهضة الحجّة

(1) - الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، ج29، ص193.

(2) - محمد عثمان نجاتي، القرآن وعلم النفس، ص170.

(3) - سورة نوح: الآية 21.

بالحجة، فإذا هم - على عادة طبقتهم - قد أخذتهم العزّة بالإثم، واستكبروا أن تغلبهم الحجّة، وأن يذعنوا للبرهان العقلي والفطري⁽¹⁾.

ويأتي الترهيب في هذا المقام، فقد أوحى الله إلى سيدنا نوح عليه السلام بأن القوم قد حقّ عليهم العذاب، لأنّ الحقّ لن ينفذ إلى قلوبهم، ولم يتوسم فيهم النبي نوح عليه السلام الرشد والفتنة والفراسة، فقلوبهم غلف قد طبع الله عليها، فلا جدال معهم فهم قوم لا يؤمنون، وقد انحازوا إلى تقليد آبائهم، لذا أمر الله سيدنا نوح بصنع سفينة النجاة، لكنهم لم يتوقفوا عن جدالهم للنبي بل جاءوا بصورة حجاجية جديدة وهي حجة السخرية والاستهزاء عند مشاهدته وهو يصنع الفلك في فلاة في أرض يابسة فردّ بحجة معاكسة سيسخر منهم كما يسخرون.

وهي تُعد ذات قيمة حجاجية معاكسة كما يراها مارلينا بريستر (Marlena Bruester)، حيث "يتم التوكيد على أن ماهو جوهرى في حالة السخرية هو مستوى القيم الحجاجية فعند هذا المستوى يندرج مفهوم النقيض الذي لا يعني البتّة الضدّ (Antonyme)، بل يعني قيمة حجاجية معاكسة"⁽²⁾، فالحجاج الحوارى الذى دار بين النبي نوح عليه السلام وقومه انتهت ملامحه الجدالية، وهي عدم الاطمئنان لرسالة نوح عليه السلام.

3-2 الإثارة الحجاجية لأهواء الأبوة:

يكشف لنا هذا الجدل الأسرى بين نوح عليه السلام وفلذة كبده ابنه العاصى لأمر الله، فناده ببناء الرحمة والشفقة، لأنها "عاطفة لا يشعر بها إلا في جملة من الأمور وبنى في ضوء تلك الاعتقادات عددا من الأحكام"⁽³⁾، ينصبّ من ورائها الفعل الحجاجى وهو نجاة ابنه، فوراء هذه الشفقة غريزة الأبوة التى تحرك كوامن المشاعر ودوافع الانفعالات فتلقى ثقلها على نفسية النبي نوح عليه السلام؛ لأنّ الخطاب البليغ المتشبع بالأثر النفسى هو الذى يعمل

(1) - سيد قطب: في ضلال القرآن، ص 1875.

(2) - عبد النبي ذاك: العين الساخرة، أفنعتها وقناعتها في الرحلة العربية، ص 21.

(3) - حاتم عبيد: منزلة العواطف في نظريات الحجاج، مجلة عالم الفكر، العدد 02، المجلد 40، أكتوبر - ديسمبر،

2011، الكويت، ص 243.

على استمالة القلوب وجذب النفوس، فيثير المتلقي أحاسيسه ويهزّ وجدانه ويحاول إقناعه من خلال اجتماع هذه العناصر؛ لأنّ العواطف أو الانفعالات ماهي إلا حركة ذهنية يلجأ إليها المخاطب قصد التأثير في المتلقي مُبدِياً الشفقة والودّ على ضوء الاعتقادات التي توصل إليها. فنوح عليه السلام استعمل أسلوب النداء قصد نجاة ابنه من الهلاك، قال تعالى على لسان نوح عليه السلام.

- نوح: ﴿يَبْنَىٰٓ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾ (1)

استعمل نوح عليه السلام أسلوباً جذاباً طيباً لعل ابنه يكون من أصحاب الإيمان ف(بنيّ) تصغير (ابن) وجاء التصغير يحمل استعطافاً وشفقة وحنواً بحيث تجعل المتلقي (ابن نوح) محلّ جذب الانتباه إلى الأب والإنصات لما يقوله . وهذا ما يدعو إليه الحجاج، " فوراء كل عاطفة أحكام ومعتقدات عليها ينصبّ الفعل الحجاجي، وعنهما يدافع المتكلم إذا أراد أن يبرّر العاطفة التي يشعر بها، وإليها يصبّ نقده حين يروم تقويض مشروعية غيره" (2)

ثم يأمر أن يركب السفينة "لأعلامه بأنّ إعراضه عن الركوب يجعله في صف الكفار إذ لا يكون إعراضه عن الركوب إلا أثراً لتكذيبه بوقوع الطوفان، وهي كناية عن دعوته إلى الإيمان بطريقة العرض والتحذير" (3)، لكن الكفر ملّة واحدة، فالابن كُتب عند الله من أصحاب النار فكان رده:

- الابن: ﴿قَالَ سَأُوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾

- نوح عليه السلام: ﴿قَالَ سَأُوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا

مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ (4).

(1) - سورة هود: جزء من الآية 42.

(2) - حاتم عبيد: منزلة العواطف في نظريات الحجاج، ص 244.

(3) - التحرير والتوير، ج 12، ص 76.

(4) - سورة هود: الآية 43.

- مقدمة كبرى ← ابن نوح عليه السلام يستعصم بالجبل.
مقدمة صغرى ← كل من يستعصم بغير الله فهو هالك لا محالة
- النتيجة ← ابن نوح هالك لا محالة (مضمرة)

3- نظرية الاستلزام الحواري L'implicitation conversationnelle:

يُعد الاستلزام الحواري أهم الجوانب التي يركز عليها الدرس التداولي، إذ يرجع نشأة البحث فيه إلى الفيلسوف الإنجليزي "بول غرايس Paul Grice" (1913-1988) الذي قدم فيه تصور لهذا الجانب في بحث يحمل عنوان: المنطق والحوار Logique et conversation، ويرى أن الناس في حواراتهم قد يقولون ما يقصدون، وقد يقصدون أكثر مما يقولون، وقد يقصدون عكس ما يقولون، فحاول أن يبيّن الاختلاف بين ما يُقال وما يُقصد. فما يُقال هو ما تعنيه الكلمات بقيمتها اللغوية، وما يُقصد هو ما يريد المتكلم إيلاغه على نحو غير مباشر، وهذا المعبر الذي حاول إقامته بين ما يحمله القول من معنى صريح، وما يحمله من معنى متضمن وهذه هي الفكرة التي قامت عليها نظرية الاستلزام الحواري⁽¹⁾.

وتشتغل نظرية الاستلزام الحواري على كيفية الاستعمال اللغوي، فهي تقود سير التخاطب والحوار -في اللغات الطبيعية- مجموعة من الافتراضات والتقديرات Assumptions الكامنة في كفاية المتخاطبين، والناجئة عن اعتبارات عقلية أساسية Basic rational، مهمتها أنها توجه الاستعمال اللغوي الحواري الفعّال، نحو تحقيق أهدافه التعاونية Cooperative ends⁽²⁾

(1) - ينظر: محمد أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص32.

(2) - بنعيسى عسو أزيبط: الخطاب اللساني العربي، ج2، ص281.

ويصنّف غرايس نوعين من الاستلزام، فالأول عرفي قائم على ما تعارف عليه أصحاب اللّغة من استلزام بعض الألفاظ دلالاتٍ بعينها لا تتغيّر بتغيّر التراكيب والسيّاقات. أما الثاني استلزام حواري متغيّر بتغيّر السياقات التي يرد فيها⁽¹⁾.

أ- مبدأ التعاون *principe de coopération*

تنبّه غرايس إلى شيء مهم في التّواصل الحواري، وهو كيف يقول المتكلم شيئاً ويقصد شيئاً آخر؟ وكيف يستقبل المخاطب قولاً ويفهم شيئاً آخر، فاهتدى إلى حلّ هذه الإشكالية فيما أسماه مبدأ التّعاون، والذي يُعدُّ العمود الفقري لنظريته الاستلزامية، والتي ينهي بها كل العقبات التي تحول إلى فشل الحواريين المتخاطبين، وهذا مرتبط بقوانين وقواعد وأسس تخاطبية، لنجاح المحاورة .

ويقوم هذا المبدأ التّعاوني الحواري كما يقول غرايس: "أن تكون مساهمتك الحوارية بمقدار ما يطلب منك في مجال يتوسّل إليه بهذه المساهمة، تحدوك غاية الحديث المتبادل، أو اتجاهه، أنت ملزم بأحدهما في لحظة معينة"⁽²⁾، بمعنى أن يلتزم المتحاورون هذا المبدأ من أجل تسهيل الخطاب التّواصلي ونجاحه، ويتفرّع هذا المبدأ إلى قوانين فرعية حصرها غرايس في أربعة:

- **قانون الكم Quantity** أن تحتوي مساهمتك على مقدار من المعلومات المطلوبة منك، وفق أهداف التبادل الحواري الراهن.

ألا تتوفر مساهمتك على أكثر مما هو مطلوب منك.

- **قانون الكيف Quality**: حاول أن تكون مساهمتك (الحوارية) صادقة؛ أي لا تقدّم معلومات خاطئة، أو معلومات لا تستطيع البرهنة عليها.
وهناك قاعدتان فرعيتان تتميزان بالخصوصية:

(1) - ينظر: محمد أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص33.

(2) - بنعيسى عسو أزيبيط: الخطاب اللساني العربي، ج2، ص282.

- لا تقل ما تعتقده خطأ.
- لا تقل ما تراه يحتاج إلى دليل.
- قانون الملازمة Relation أن تكون مساهمتك ملائمة للحوار، بمعنى لا تخرج عن الموضوع المتحاور فيه.
- قانون الصيغة أو الطريقة: Manner
- كن واضحا
- ابتعد عن الإبهام، تجنب الغموض.
- كن موجزا .
- كن منهجيا، منظما⁽¹⁾.

وعموما فإنّ وظيفة مبادئ التعاون في المجادلة الحوارية أننا "تجعل التّواصل سهلا. ويعطي خرق أحد هذه المبادئ استنزاما (Implicature) عند المتكلم بصدد ما يقصده. وهذا الاستنزام نحتاجه لفهم السبب في تلفظ المتكلم بهذا القول أو ذاك، أو لفهم الكيفية التي أنتج بها المتكلم قوله"⁽²⁾. لكن هذه المبادئ لم تخلو من انتقادات وُجّهت مباشرة إلى مبدأ التعاون رغم ما قدّمه للدرس التداولي الحواري بشكل خاص، ومن بين الانتقادات هو استبعاد غرايس من "قواعد الحوار الجانب المادي والاجتماعي والتهديبي لما له علاقة مباشرة بالأفراد ومن ثمّ التّواصل اليومي المتداول، وغيرها من الجوانب التي تمّ إغفالها بصفة كلية، أو تمّ منحها مكانة ثانوية، رغم الدور الذي تؤديه في كل عملية تخاطبية"⁽³⁾، وأما نظرة الاستنزام عند الأصوليين فهم "يفرقون بين منطوق الجملة ومفهومها؛ ومنطوقها هو ما يتبادر إلى ذهن السّامع مباشرة من السّماع لهذه الجملة، ومفهومها ما تستعمل له هذه العبارة بطريقة غير مباشرة وقالوا مفهوم المخالفة ومفهوم الموافقة، ويفيد تماما ما

(1) - ينظر: بنعيسى عسو أزييط، الخطاب اللساني العربي، ج2، ص282-283.

(2) - عبد المجيد جحفة: مدخل إلى الدلالة الحديثة، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2000، ص27.

(3) - ينظر: نفسه، ص31.

يقصده غرايس⁽¹⁾. ومن الأمثلة التي تدل على انتهاك مبادئ قانون الكيف، ذلك الحوار الذي كان بين نوح عليه السلام مع الملائكة من قومه حول عقيدة التوحيد، في قوله تعالى: ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَِّّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ أَلِيمٍ﴾ ﴿٦٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّى الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٦٧﴾ ⁽²⁾.

لا شك أن النبي نوح أول ما بدأ به هو إخبارهم بأنه رسول من رب العالمين جاء بشيرا ونذيرا، "يخبر بشرًا لم يأت وقته بعد، حتى يستعد السامع لملاقاته، والسياق هنا مستمر، وفي الوقت نفسه بشير يخبر بخبر قادم بنفس مطمئنة"⁽³⁾، فالملاحظ في هذا الخطاب، هناك انتهاك لمبدأ الكيف Quality من قبل قوم سيدنا نوح عليه السلام، لأنهم لم يأتوا بدليل مقنع لإبطال دعوة نبيهم، فقد أنكروا دعوته إنكارا شديدا، وكذلك خطاب نوح عليه السلام ليس له أية علاقة مع الإجابة التي تقدم بها الملائكة، وهذا يدل على عدم احترامهم لقانون الملاءمة، وبها ينتج حلقة مفقودة بين الخطابين، وهذا رغم احترام النبي نوح عليه السلام قاعدة الكيف، فهو لم يقل إلا ما يعلم فهو متيقن من صحة الرسالة التي أسند لتبليغها.

ومن الأمثلة التي تبين انتهاك مبدأ التعاون، باستخدام الفعل الانجازي التعجزي قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٤٠﴾ ⁽⁴⁾. تأتي فكرة التحدي والتعجيز من الإنسان الذي يدعي أنه قادر على إثبات بغير مألوف عند عامة الناس، والآية تشير إلى هذه الأصناف من البشر، فهي تبين أن أهل الشرك والوثنية الذين يحملون راية الفصاحة

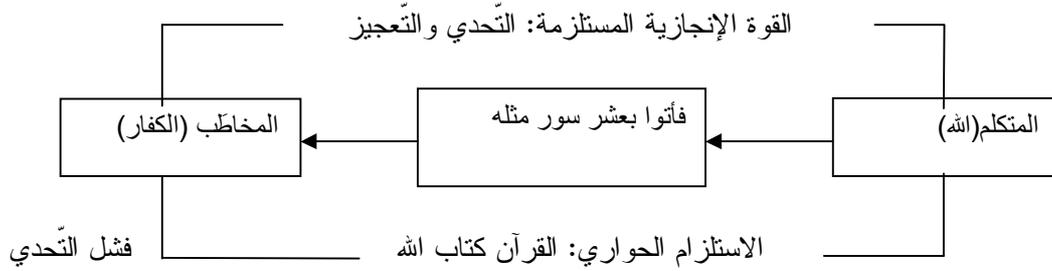
(1) - ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص 429-430.

(2) - سورة هود: الآية 26-27.

(3) - ينظر: محمد متولي الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج 3، ص 158.

(4) - سورة هود: الآية 13.

والبلاغة، يدعون أن القرآن ما هو إلا كلام البشر، وهذا يظهر لنا اختراقهم لقاعدة الكيف "لا تقل ما تعتقد أنه كاذب"، فالمتكلم هنا "يخلّ عن قصد بقواعد الحوار وقوانينه، أو كما يعبر عن ذلك "كرايس" عندما يستخف (Flaut) المتكلم بهذه القواعد. وعليه يمكن وصف هذا النوع من الاستلزام بالاستلزام الناتج عن الإخلال بالقواعد"⁽¹⁾، فيأتي التحدي من الله بفعل طلبي إنجازي ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ﴾ من هذا الكتاب، وهذا تحدّ فاضح لعقولهم ولنفسهم المريضة، فالله سبحانه وتعالى يريد من خلالها أن يقيم عليهم الحجّة، ويبيّن أن هذا القرآن هو كلام الله الذي يسعى إلى تغيير نمطية التفكير وبيان الحقائق لتكون أقرب منا لا من المتلقي، ويمكن أن نوضح ذلك بالترسيمة الآتية:



ب- عناصر التأدب ودورها الإقناعي:

إنّ من صفات الأخ أن يكون رحيماً بصلة رحمه، فهو يحمل شحنة عاطفية تساعد على تبرير موقفه من الدعوة، والتأثير في موقف قومه والنفاذ إلى خبايا نفوسهم فهو بذلك يستميلهم بأواصر الأخوة والقربى وإظهار مدى خوفه الشديد على نجاتهم؛ لأنّه يعلم يقيناً ما تعنيه الأخوة التي تتطع إلى حبّ الآخرين والخوف عليهم من العذاب، وهذه القواعد تُعدّ قواعد هامة في الحكم على جودة الخطاب، وأطلقت عليهما "روبين لا كوف" بقواعد الكفاءة التداولية، والتي تنادي بقاعدة التعفّف، وقاعدة التخيير، وأخيراً قاعدة التودّد⁽²⁾.

(1) - العياشي أدراري: الاستلزام الحواري في التداول اللساني، دار الأمان، الرباط، ط1، 2011م، ص113.

(2) - ينظر "ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص335.

استعمل سيدنا نوح -عليه السلام- قاعدة التعفّف ويكمن مقتضاها أنه لم يفرض نفسه على قومه، بل دعاهم إلى رسالة التوحيد دون إكراه أو سلطة تجبرهم على الإيمان بالقوة، بل أعطى لهم سلطة اتخاذ القرار.

وأما قاعدة التّخيير والتي مقتضاها إعطاء الحرية الكاملة في اتخاذ قراراتهم، سواء بالإيجاب أم بالسلب، أما قرار التودّد الذي نادى به "روبين لأكوف" والذي هو إظهار الود للمرسل، فالنبي هود عليه السلام أظهر ذلك بتكراره للنداء "يا قوم" لاستعطافهم وجلب انتباههم، "فنتطلب قاعدة التودّد من المرسل أن يعامل المرسل إليه وكأنه مكافئ له في المرتبة، ولا يتحقّق هذا إلا إذا كان المرسل يعطو المرسل إليه درجة، أو مساويا له، الأمر الذي يجعل التودّد ذا مردود إيجابي على سير العلاقة بينهما وعلى النتائج المترتبة على الخطاب ذاته"⁽¹⁾، فإبراز سمة الشخصية الإيجابية التي يتميز بها نوح عليه السلام أمام قومه تعطيه دفعا قويا في الاستجابة إلى ما يدعو إليه، لهذا كان إظهار الأخوة مسلكا مهما في استمالة قلوبهم.

ومن أمثله أيضا في المدونة قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِن كُنتم مِّنْ الْمُفْتَرِينَ﴾⁽²⁾.

هذا خطاب موجّه من النبي هود عليه السلام إلى قومه في النسب، وهو نفس الخطاب الذي وجّهه سيّدنا نوح إلى قومه، وهذا دليل أن دعوة الأنبياء تخرج من مشكاة واحدة وهو الإسلام، فاستفتح خطابه عليه السلام بالنداء، (يا قوم)، ويريد من ورائه أن يعلمهم بأنه أخوهم وحريص على نجاتهم من العذاب، فاستعمل معهم أسلوب الاستعطاف واللين في القول، و"بتحنينهم ومؤانستهم بالمرسل إليهم، فيُخبرهم أنه أخوهم، ولا يمكن للأخ أن يريد لهم العنت، بل هو ناصح، مأمون عليهم، وعلى ما يبلغهم به"⁽³⁾، فهو يدعوهم

(1) - ينظر: "ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص335.

(2) - سورة هود: الآية 50.

(3) - محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي، المجلد 10، ص6492 - 6493.

إلى عبادة الله وحدة المنقرّد للعبادة، كما يدعوهم إلى نبذ الشرك وعدم اتخاذ إله غير الله، فقدم لهم حجة أخرى لعلّها تخيفهم وتقربهم إلا الله تعالى .

4- حجية المكان والزمان في القصة القرآنية:

لا يمكن الاستغناء عن دور المكان والزمان في بناء السرد القصصي، فهما الفضاء الذي يعطي للقصة قيمتها الجمالية والحجاجية، ومن أمثله في سورة هود، قوله تعالى:

﴿وَيَقَوْمٌ لَا يَجْرَمُكُمْ سُقَاتٍ أَنْ يَصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾⁽¹⁾ .

أقام النبي شعيب عليه السلام الحجّة على قومه من خلال جغرافية المكان والزمان بالإشارة إلى قوم لوط عليه السلام الذين لم يكونوا ببعيد، وهذا ما أشار إليه أيضا الإمام ابن كثير في قوله: "كان أهل مدين قوما عربا، يسكنون مدينتهم (مدين)، التي هي قريبة من أرض معان، من أطراف الشام، مما يلي الحجاز، قريبا من بحيرة قوم لوط، وكانوا بعدهم بمدة قريبة"⁽²⁾، لأنّ دلالة القرب في المكان وفي الزمان "يفيد زيادة المعرفة وكمال الوقوف على الأحوال فكأنّه يقول اعتبروا أحوالهم وأذروا من مخالفة الله تعالى ومنازعته حتى لا ينزل بكم مثل ذلك العذاب"⁽³⁾، مستشهد لما لاقاه قوم لوط من العذاب، قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَوْمٌ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾⁽⁴⁾، فسيّدنا شعيب أضمر النتيجة التي سيؤول إليها قومه، وهي أنّ مصيرهم سيؤول إلى مصير قوم لوط وهو الهلاك.

كما وقفنا على تسلسل قصص القرآن الكريم حسب ترتيبها الزمني بدأ من نوح عليه السلام ثم هود، ثم قوم صالح، ثم قوم إبراهيم وبعدها شعيب ثم موسى عليهم السلام... وغيرهم من الصفوة " ولم يكن التزام القرآن لهذا الترتيب متابعة لمنطق التاريخ

(1) - سورة هود: الآية 89.

(2) - ابن كثير: قصص الأنبياء، ص 185 - 186.

(3) - الرازي: مفاتيح الغيب، ج 18، ص 48.

(4) - سورة هود: الآية 89.

في تسجيل الأحداث، وإنما لغاية أبعد من هذا وأعمق... هي ما ينكشف من تسلسل الأحداث على هذا الترتيب، من تطوّر الإنسانية، وانتقالها من طور الطفولة إلى أطوار الصبا، والمراهقة، والشباب..حتى تبلغ تمامها عند التقائها بالرسالة الإسلامية على خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم" (1)، ويُعد هذا التسلسل الزمني بمثابة حجة على الخلق من بعد هؤلاء الأنبياء والرسول، وهذا بمثابة "قيمة حجاجية أخرى تتمثل في سمة الاستباق وإمكانية الحدوث مرة أخرى؛ فمبدأ التكرار يمنحه القوة الإقناعية" (2)، وهذه من صور الترغيب والترهيب التي استعملها الأنبياء مع أقوامهم.

5- خاتمة القصص وطابعها الحجاجي:

تُعد الخاتمة آخر ما ينتهي إليه السارد القصصي، فهي صورة موجزة ومقصد من سرد هذه القصص، وللخاتمة وظيفتان "أولاهما هي تثبيت درجة اليقين وذلك بفضل التناسب بين السرد [أي العرض] والاستنتاج، وبفضل التكرار بشكل مختصر للحجج التي تم الإدلاء بها في الحجج. وثانيهما هي إثارة عواطف مساندة" (3)، فهي إيجاز للتعبير السردية، والوقوف على أهم المشاهد المؤثرة في مسرح الأحداث، ففي كتاب الله نجد "جميع خواتم السور الفرقانية في غاية الحسن ونهاية الكمال، لأنها بين أدعية ووصايا وفرائض، وتحميد وتهليل، إلى غير ذلك من الخواتيم التي لا يبقى في النفوس بعده تطلّع ولا تشوّف إلى ما يقال" (4)، فتبقى منقوشة في الذاكرة وتلتصق في نفوس المتلقين تستثار حيناً بعد حين.

ولا شك أنّ قصص الأنبياء والمرسلين مع أقوامهم، هي جدار إسناد للنبي محمد ﷺ، أمام من كذبوه وأنكروا دعوته، وقد بسط الله أدلة تثبت صدق رسالته وذلك بإخباره عن أخبار الأقسام السابقين، ويثبت كذلك صدق الكتاب أو الوحي فقد "وضع هذا المغيب

(1) - عبد الكريم الخطيب: التفسير القرآني للقرآن، ج12، ص1191.

(2) - محمد مشبال: في بلاغة الحجاج، ص87.

(3) - محمد الولي: الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية، دار الأمان، الرباط، ط1، 2005، ص64.

(4) - ابن الإصبع المصري: تحرير التحبير، ص620.

المكشوف تحت نظر النبي ما يشبه المقياس الذي يتيح له أن يفصل ما هو شخصي بالنسبة له، كأفكاره ومكاشفاته العادية عما لا يتصل بشخصه، فهو صادر من وحي⁽¹⁾، وهذا ما يدل على أنه نبي مرسل، وصدق الكتاب الذي أنزل عليه، وهو الذي لم يقرأ ولم يكتب ولم يتعلم عن أهل الكتاب، وقد أوجز الله هذه القصص في قوله تعالى: ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَشِئْتُ بِهِمْ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٦﴾ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿١٣٧﴾ وَانظُرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهَا فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾⁽²⁾.

والمأمل لسلطان السورة في خاتمتها، تتجلى له فيها عبر تُلقى على كاهل السامع أو المتلقي كثيرا من التأثير، وهذا التناسق والانسجام بين مفتاح السورة وما تدعو إليه في بدايتها الذي له علاقة مباشرة بما يناسبها في أواخرها، وهذا ما ذكره أبو حيان الأندلسي بقوله: "وقد تتبعت أوائل السور المطولة فوجدتها يناسبها أواخرها بحيث لا يكاد ينخرم منها شيء، وذلك من أبداع الفصاحة حيث يتلاقى الكلام المفرط في الطول بأوله"⁽³⁾، وتتجلى حجج ومقاصد خواتيم هذه السورة على النحو الآتي:

أ- تعظيم الله سبحانه وتعالى من خلال التسبيح والتحميد.

ب- خُتمت السورة بالوعد والوعيد.

6- التمثيل الحجاجي العام للسورة:

جاءت هذه السورة تُظهر "موقف قريش منها، وآثار هذا الموقف في نفس رسول الله ﷺ والقلّة المسلمة معه، والعلاج الرباني لهذه الآثار"⁽⁴⁾، فالقرآن الكريم ما يقدّمه من قصص

(1) - مالك بن نبي، مشكلات الحضارة، الظاهرة القرآنية، ص 146.

(2) - سورة هود: الآية 120 - 123.

(3) - أبو حيان الأندلسي: النهر الماد من البحر المحيط، ج 2، ص 363-364.

(4) - سيد قطب: في ضلال القرآن، ج 4، ص 1839.

هو بمثابة حجة للنبي محمد ﷺ، قال تعالى ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾⁽¹⁾، توحى هذه الآية بأسلوب يراد به التحريك من همة النبي صلى الله عليه وسلم، وإلهاب همته وذلك لدفع الفتور عنه، وتبليغ ما أمر به، وتحذيره من التأثر بعنادهم وتكذيبهم⁽¹⁾، فضرب الله لنبيه مثلاً وهو صبر إخوانه من الأنبياء والمرسلين من قبل، قال تعالى: ﴿فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾⁽²⁾، كما تُعد هذه القصص موعظة للنبي وتنبيها له على الحق، قال تعالى: ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾⁽³⁾، ونخلص في الأخير إلى أنّ هذه القصص تلزم قومه الحجة على صدق نبوته كما تلزمهم الحجة على صدق أخبار الأمم السابقة وما أصابها من التهديد والوعيد.

ومن هنا يمكن أن نقول أن القصص القرآني تهدف إلى غرس القيم النبيلة في نفوس المتلقين لتمثلها في حياتهم اليومية والسلوكية، فهي رسالة إعلامية إخبارية تواصلية تسعى إلى خدمة هذا الكائن الإنساني وتغيير نمطية التفكير⁽³⁾، ويمكن أن نستخلص طبيعة التمثيل الحجاجي للقصص في سورة هود من خلال الجدول الآتي:

(1) - ينظر: التحرير والتنوير، ج12، ص16.

(2) - سورة الأحقاف: جزء من الآية 35.

(3) - جميل حمداوي: بلاغة السرد، أو الصورة البلاغية الموسعة، شبكة الألوكة.

الفصل الرابع: الاستدلال الحجاجي في الخطاب القرآني

القصة	طبيعة التمثيل الحجاجي للقصص في سورة هود	مواقف القوم ومصيرهم.
<p>قصة نوح عليه السلام من الآية ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ... فَأَصْرَبَ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٥١)</p>	<p>- حجة أخوة النسب، قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ... إِنَّ لَكُمْ ذِكْرًا مُّبِينًا﴾ - حجة هوية السلطة، قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾</p>	<p>- التكذيب والتحدي والسخرية مثل قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَنْوُحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾ (٣٥) - العذاب، قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ﴾ (٣٧)</p>
<p>قصة هود عليه السلام ﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا... أَلَدُّنَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَّا... إِنْ عَادَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بَعْدًا لِعَادِ قَوْمِ هُودٍ﴾ (٦١)</p>	<p>الترغيب والترهيب، قوله تعالى: ﴿وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾</p>	<p>- الإنكار والتكذيب، قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَلْهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ - العذاب، قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بَجِيتَنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾</p>
<p>قصة صالح عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا... أَلا بَعْدًا لَثَمُودَ﴾ (٦٨)</p>	<p>- الإلزام والمجادلة، قوله تعالى: ﴿قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَعَاتَنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَضُرُّنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ وَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾</p>	<p>- التكذيب والمكر، قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾، وقوله أيضا: ﴿أَلَا إِنْ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ (٦٨) - العذاب، قال تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثْمِينَ﴾</p>

<p>- الإنكار قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَمَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ ﴿٧٦﴾</p> <p>العذاب، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾</p>	<p>- البشارة، قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ ﴿٧٦﴾</p> <p>- المجادلة، قوله تعالى: ﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾</p>	<p>قصة إبراهيم ونوط وعليهما السلام، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلَنَا إِبرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى... وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ ﴿٨٧﴾</p>
<p>- الإنكار والسخرية، قال تعالى: ﴿قَالُوا يَدَّشَعِبِ أَصْلَوْتِكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الخَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾</p> <p>- العذاب قوله تعالى: ﴿وَأَخَذتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جاثِمِينَ﴾</p>	<p>- التهديد والوعيد، قال الله تعالى: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكثَّرَكُمْ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾</p>	<p>قصة شعيب عليه السلام قال تعالى: ﴿وإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا... أَلَا بَعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعَدَتِ ثَمُودُ﴾</p>
<p>- التكذيب، قوله تعالى: ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾</p> <p>- العذاب قوله تعالى ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾</p> <p>وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾</p>	<p>حجة القدوة: قال الله تعالى: ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾</p>	<p>قصة موسى عليه السلام وفرعون، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِعَايَتِنَا... بِسِسِّ الرِّفْدِ الْمَرْفُودِ﴾</p>

خلاصة:

نخلص مما سبق ذكره في ثنايا هذا الفصل أنّ مصطلح الاستدلال الطبيعي له دور مهم في تطويع المنطق وجعله يتناسب مع لغة التواصل اليومي، وهذا من خلال توظيف حجج شبه منطقية، بعيدة عن المنطق الشكلي الخالص، وقد قمنا بتطبيق بعض آليات الاستدلال القياسي الذي تجعل المقدمات منطلقا لها للوصول إلى نتيجة تثبت الفرضية وتقريرها أو دحضها، ويتجلى هذا في القياس الإضماري والقياس بالخلف، وهذا ما تشهد عليه بعض الآيات من سجال عنيف بين الأنبياء والمرسلين وأهل الزيغ والكفر في إثبات يوم البعث وحقيقة القرآن الكريم، وعليه فإنّ المستدلّ بهكذا قياسات أن يجتهد أكثر في حشد حججه الذهنية والكفاية النفسية لإلزام المتلقي الدليل.

كما شهد هذا الفصل توظيف طرق أخرى للاستدلالات كالأستدلال بالمثل والتمثيل باعتبارهما وسيلة هامة من وسائل الإقناع القائمة على المشابهة والعلاقات التي يحملها بُنى الخطاب.

أما في المبحث الأخير فتطرقتنا إلى فنّ القصص القرآني لما له دور في ترسيخ صورة العقيدة الإيمانية الصحيحة، لأنّه ينقل لنا تجارب الماضي الإنساني بكلّ أمانة، وهو يصوّر مشاهد وأحداث تجعل المتلقي عنصرا مهماً في هذه المشاهد، كما تهدف إلى ترغيب السامعين إلى تقبل ما يلقي إليهم من مشاهد وعبر، فتجبرهم على الاقتحام في مسارها السردي، واستتطاق الحوارات بين الأنبياء وأقوامهم، وهي عنصر أساسي في التنظيم الإنساني، فهي تحمل عبر وقيم وأفكار تقنعنا بها فتحملنا إلى برّ الأمان، بل تدعونا إلى تحقيقها في وجداننا ومشاعرنا وسلوكياتنا، وإلى اعتناقها والأخذ بها كلّما احتجنا إليها في حياتنا اليومية، كما يستخلص أيضا أنّ العناية الإلهية باقية لبقاء هذا الكون، لا تتغيّر ولا تميل ولا تتأثر منذ وجد هذا الكائن الإنساني، لهذا عني القرآن الكريم بالقصص أيّما عناية لأنها تشريع ربّاني مؤثّر في النفوس قبل العقول، لذا أدرجنا لها مبحثا خاصا في الفصل لما تقدّمه من آثار نفسية وتربوية في المجتمع الإنساني.

خاتمة

إنّ ما يمثّله الخطاب البلاغي في بعده الحجاجي في النصّ القرآني هو اجتلاب العقل في بيان حقيقة الإيمان، والشيء الذي وقفنا عليه في البحث هو تنوع الآليات والوسائل الحجاجية في دراستنا للمدونة، وقد أسفر هذا العمل البحثي في مجال الحجاج البلاغي على عدد من النتائج والحقائق نوجزها في العناصر الآتية:

- لا تختلف ماهية الحجاج عند كلّ من العرب والغرب، فكلّ منهما يبحث في كيفية التأثير في المتلقي سواء من خلال شعرية الخطاب وجماليته أو الإقناع بالأدلة العقلية والوجدانية، كما أنّ الحجاج -في أغلب الأحوال- يرتبط باللّغة الطبيعية بعيدا عن اللّغة الصناعية، ويستخدم فيه كلّ طرق التفكير والإقناع من أجل التأثير في المتلقي.

- الحجاج البلاغي يتقاطع مع جميع العلوم المعرفية والإنسانية فله صلة رحم مع الفلسفة واللّغة والمنطق وعلم النفس وغيرها، وهذا ما استرعى اهتمامنا عند النظر في سورة هود. والحجاج البلاغي فيما نحسب يشمل كلّ أشكال التّواصل، فهو يجمع بين التّبرير العقلي والقلبي، وقد أضحي ضرورة من ضروريات الحياة اليومية، باعتباره ديناميكية حيوية، يروم إلى التأثير العملي للمتلقين، بعيدا عن بلاغة الأدب التي تقوم على وصف الخطابات.

- أفرزت دراسة المفردة في القرآن الكريم بعدا حجاجيا، يتمثل في سرّ اختيار المفردة والعدول عن اختيار غيرها من المفردات التي ترادفها، فانتقاء هذه الألفاظ تعطي بعدا حجاجيا؛ لأنها تعانق أذهان المتلقين، فتؤثر في عقولهم وأنفسهم بسبب ما تحمله من مقتضيات وأغراضٍ مقصدية، فدلالة الألفاظ وحجاجيتها في القرآن الكريم تُعدّ ركيزة أساسية في فهم معاني ومقاصد آياته، وهذا المبحث يجعلنا نقرّ بصعوبته، لأنّه يرتبط مباشرة بقضية الإعجاز في القرآن الكريم.

- البلاغة الجديدة لا تنظر إلى البنية الشكلية للّغة في بعدها النحوي التعليمي، بل أصبحت تنظر إلى وظيفتها العملية والآثار التي تحدثها في المتلقي، وهذا ما كشفته الآليات اللغوية، كالتهجئة والتأخير وبلاغة الصّمت وغيرها.

- أما من ناحية التصور التداولي من خلال الأفعال الإنجازية والمتمثلة في الإخباريات والتوجهيات، فإننا ألفينا هيمنة النداء الذي يكمن دوره في إثارة أذهان المخاطبين ونفوسهم؛ لأنّ الخطاب في المدونة هو خطاب دعوي لتعدّد القصص، شمل قدرا واسعا من بلاغة الاستفهام التي تتجاوز المعنى الحرفي إلى المعنى المضمر؛ لأنّ الغرض منه هو التّقرير أو الإنكار والتوبيخ والتعجب، وهذا من أجل حمل أقوام الأنبياء عليهم السلام على الإقناع بالوحدانية .

- الصّورة البلاغية في المدونة جاءت أبلغ حجّة وأحسن وسيلة لنقل الفكرة والمشاعر إلى المتلقي، فهي تمثّل أعلى درجات البيان في الخطاب القرآني؛ لأنها تلقي بالفكر والخيال انسجاما بيانياً من الدقّة في تصوير الحقائق اليقينية، وحضورها ملفت للنظر في السورة، وهذا يُدلل على سموّ لغة القرآن ودقّة تصويره للمشاهد، فكلما كان معنى الصّورة أبعد وأعمق وأغرب كانت أبلغ للحجّة وأعجب وأذ للنفس، ولهذا تُعدّ الصّورة بكلّ أطيافها -سواء كانت استعارة أو تمثيل أو سخرية- آلية حجاجية إقناعية؛ لأنها تقوم بتصوير الحقائق اليقينية التي لا تبعث إلى السامة أو الملل الذي تنفر منه النفوس، وهذا من أجل تقريب الحقائق إما ترغيباً أو ترهيباً .

- الصّورة الساخرة مجاز مغالطي يحمل من الإثارة والانفعال، ويراد منه زعزعة المتلقي والنيل من شخصيته، فتشوّشه وتهزّ من معنوياته، وحظي هذا النوع بحضور في المدونة، فاستعمله أهل الكفر والشرك من أجل إحباط دعاوى الأنبياء والحثّ من شخصياتهم.

- جاء تمثيل الحجاج في أسلوب الكناية والتعريض، ليقدم أطروحات تدعو العقول إلى الإذعان والتدبر المبني على الموضوعية والفكر الناضج والواعي، وهذه الآليات الإقناعية تعمل على استقطاب النفوس وتحريك المشاعر بغية تقريب المعنى وإظهاره في أجمل صورة للحصول على مقصدية الخطاب .

- الإيقاع الموسيقي والدلالي الذي يتركه نظام الفواصل في القرآن الكريم مؤثر وهذا بسبب التنظيم المنتسق والمنسجم للحروف والألفاظ والعبارات، وهذه من الوسائل والأساليب التي تضع المتلقي في حالة من الشعور النفسي والوجداني ليستسلم لا إراديا إلى سلطة الخطاب وقوة حجته .

- الاستدلال الحجاجي في القرآن الكريم لم يبن حججه على المنطق الفلسفي الصوري الأرسطي، بل جاء مبنيا على مقدمات يقينية تحرك آلة العقل والوجدان لحصول الإقناع والتأثير، وسورة هود أغلب آياتها مكيّة تخاطب العقل قبل العاطفة، لأنها تخاطب العقول المشركة من خلال بسطها الأدلة والبراهين العقلية، خصوصا قضية التوحيد والإيمان بيوم البعث وغيرها .

- القياس آية من الحجاج الخطابي ينطلق من مقدمات ظنية أو احتمالية ليصل إلى نتيجة محددة إما صحيحة أو خاطئة، بينما الخطاب القرآني يقيني النتائج .

- القياس الاستدلالي في القرآن الكريم جاء يخاطب الجانب العقدي للمتلقي؛ لأنّ الإنسان يولد على الفطرة، فكان التّغيب في الإيمان أوّل الأبعاد الحجاجية.

- إنّ الدرس البلاغي العربي القديم يُعدّ مظهرا من مظاهر البعد التداولي؛ لأنه يهتم بمقاصد المتكلمين وأغراضهم دون الإغفال بالمقام وشروط الخطيب، فالفكرة مبنية على (كل مقام مقال).

- إنّ الشيء الذي استوقفنا هو تأثير الأسلوب الجمالي الفني للقرآن، الذي يُعدّ رافدا مهما للإقناع؛ وذلك لغلبة الطابع النفسي على آياته، وما يحمله من انسجام محكم في معانيه، وقدرة تحكمه في انتقاء الألفاظ التي تعبّر عن أحوال النفوس المشحونة بالحدق والكبر والازدراء والرهبّة والخوف في تصوير ربّاني بديع.

- لا شك أنّ القصة القرآنية لم تأت لتسليّة النبي محمد صلى الله عليه وسلم فحسب، بل أعمق بكثير، لأنّ لجوء القرآن إلى الأسلوب القصصي دليل واضح على عمق أثرها في العقول والنفوس، لذا تُعدّ القصة تقنية حجاجية مثلى بها تعالج أغراض ومقاصد الناس.

وفي الأخير ننتهي إلى أنّ ما يميّز به القرآن الكريم هو تنوع الآليات والوسائل الحجاجية سواء كانت منطقية أم لغوية أم بلاغية وتداولية، وهذا من أجل الظفر بخطاب إقناعي مميّز لا يترك أي محلّ شاغر للمتلقّي عسى أن يجد استجابة وتسلّماً بدعوته. لقد تبلورت في ذهن الدارسين المعاصرين إعادة قراءة الفكر البلاغي الكلاسيكي سواء كان الموروث يونانيا أم عربيا وهو خيار حتمي تفرضه مستجدات العصر، وهذا لما تحمله من ثراء فكري لا يُستهان به، يسعى الدارسون إلى تطعيمها بما يناسب تطلعات الفكر اللساني الحديث.

انتهى

الطالب: بختي العياشي



قائمة

المصادر والمراجع

✚ - مصحف المدينة المنورة للنشر الحاسوبي: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، 1436هـ.

✚ - مصدر الحديث النبوي الشريف:

البخاري أبو عبد الله محمد بن إسماعيل: صحيح البخاري، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط1.
مسلم بن الحجاج أبو حسن: صحيح مسلم، تحقيق، أبو قتيبة نظر بن محمد الفاريابي، دار طيبة للنشر، الرياض 2006.

✚ المصادر والمراجع:

- 1- ابن أبي الإصبع: تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تحقيق، حفني محمد شرق، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، الجمهورية العربية المتحدة، (د-ت)
- 2- ابن الأثير الحلبي النجم الدين أحمد بن إسماعيل: جوهر الكنز، تحقيق، محمد سلام زغلول، منشأة المعارف، الإسكندرية، (د-ط)، (د-ت).
- 3- ابن الأثير ضياء الدين: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق، بدوي طبانة، أحمد حوفي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، (د-ت).
- 4- ابن القيم الجوزية: كتاب الفوائد ((المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان))، صححه، محمد بدر الدين النعساني، مطبعة السعادة، مصر، ط1، 1327هـ .
- 5- ابن جني: الخصائص، تحقيق، محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، (د-ت)
- 6- ابن خلدون أبو زيد عبد الرحمن بن محمد: المقدمة، دار ابن الجوزي، جمهورية مصر العربية، القاهرة، ط1، 2009 .
- 7- ابن كثير أبو الفداء إسماعيل: قصص الأنبياء، مكتبة الشركة الجزائرية، الجزائر، (د-ط)، 1981.
- 8- ابن هشام: السنة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، دار الفني للنشر والتوزيع، ط1، 1999.
- 9- ابن وهب: البرهان في وجوه البيان: تحقيق، حفني شرف، دار الكتب العلمية، بيروت، (د-ط)، 1982.
- 10- أبو السعود الحنفي: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، تحقيق، عبد القادر أحمد عطا، مطبعة السعادة، الرياض.

- 11- أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد: كتاب فصل المقال، وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال، قدم له وعلق عليه: ألبير نصري نادر، دار المشرق، بيروت، لبنان، ط2، (د-ت).
- 12- أبو حيان الأندلسي: تفسير البحر المحيط، دراسة وتحقيق، الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد عوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- 13- أبو حيان الأندلسي: النهر الماد من البحر المحيط، تح، عمر الأسعد، دار الجيل، بيروت، 1995م.
- 14- أبو شادي مصطفى عبد السلام: الحذف البلاغي في القرآن الكريم، مكتبة القرآن للطبع والنشر، القاهرة، (د-ت).
- 15- أدراري العياشي: الاستلزام الحواري في التداول اللساني، دار الأمان، الرباط، ط1، 2011م.
- 16- إدريس يوسف: التخيل والشعر، حفريات في الفلسفة العربية الإسلامية، دار الأمان، الرباط، ط1، 2012م.
- 17- أرسطو: دعوة إلى الفلسفة، كتاب مفقود لأرسطو، علق عليه وشرحه، عبد الغفار مكاوي، دار التنوير، بيروت.
- 18- أزابيط بنعيسى عسو: الخطاب اللساني العربي، هندسة التواصل الإضماري، (من التجريد إلى التوليد)، مستويات البنية الإضمارية وإشكالاتها الأساسية، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2012.
- 19- الألويسي أبو الفضل شهاب الدين: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، صححه ونشره، محمود شكري الألويسي، دار التراث العربي، بيروت، لبنان، (د-ط).
- 20- أوكان عمر: اللغة والخطاب، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2011م.
- 21- الباجي أبو الوليد: المنهاج في ترتيب الحجاج، تح، عبد المجيد التركي، دار المغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1987م.
- 22- باطاهر بن عيسى: أساليب الإقناع في القرآن الكريم، دار الضياء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2006م.
- 23- الباقلاني أبو بكر محمد بن الطيب: إعجاز القرآن، المطبعة السلفية - ومكتبتها، القاهرة، 1349هـ.
- 24- البخاري أبو الطيب صديق بن حسين بن علي: فتح البيان في مقاصد القرآن، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، (د-ط)، 1992.

- 25- بدوي أحمد أحمد: من بلاغة القرآن، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، (د-ط)، 2005.
- 26- بشرى موسى صالح: نظرية التلقي أصول، وتطبيقات، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2001 م .
- 27- البقاعي إبراهيم بن عمر بن حسن، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، (د-ط) .
- 28- بوقرة نعمان: لسانيات الخطاب، مباحث في التأسيس والإجراء، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2012.
- 29- البيضاوي ناصر الدين أبي الخير الشيرازي الشافعي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، (د-ت).
- 30- التركي إبراهيم بن منصور: البحث البلاغي عند ابن تيمية دراسة وتقويما، دار كنوز اشبيليا للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط2، 2018م.
- تمام حسان:
- 31- _____: الأصول، دراسة ابستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، النحو، فقه اللغة، البلاغة، عالم الكتب، القاهرة، 2000م.
- 32- _____: اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، (د-ط)، 1994.
- 33- التهامي نقرة: سيكولوجية القصة في القرآن، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ط1، 1974م.
- 34- الثعالبي أبو منصور: الكناية والتعريض، تحقيق، عائشة حسين فريد، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998م.
- 35- جابر عصفور: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، المركز الثقافي، بيروت، ط3، 1992.
- 36- الجابري محمد عابد: بنية العقل العربي دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية.
- الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر:
- 37- _____: الحيوان، تحقيق، عبد السلام محمد هارون، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط2، 1965.
- 38- _____: البيان والتبيين، تحقيق، ع السلام محمد هارون، القاهرة، 1948.
- 39- _____: البخلاء، تحقيق، طه الحاجري، دار المعارف، القاهرة، ط5، (د-ت).

- 40-_____: رسائل الجاحظ، تحقيق، عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ط1، 1991م.
- 41-جحفة عبد المجيد: مدخل إلى الدلالة الحديثة، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2000.
- الجرجاني عبد القاهر:
- 42-_____: أسرار البلاغة، تحقيق، محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط1، 1991.
- 43-_____: دلائل الإعجاز، تح: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط5، 2004م.
- 44-الجزري أبو الخير شمس الدين محمد: كفاية للألمعي، تحقيق، نشيد حميد سعيد بن محمود، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ط1، 2003م.
- 45-جميل عبد المجيد: البلاغة والاتصال، دار غريب، القاهرة، (د-ط)، 2000م .
- 46-الجويني مصطفى الصاوي: البلاغة العربية تأصيل وتجديد، دار المعارف، الإسكندرية، مصر، (د-ط)
- 47-حازم القرطاجني أبو الحسن: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق، محمد الحبيب بن الخوجة، دار المغرب الإسلامي، (د-ط).
- 48-حامد صادق قنبيبي: المشاهد في القرآن، دراسة تحليلية وصفية، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، ط1، 1984م.
- حسان الباهي:
- 49-_____: الحوار ومنهجية التفكير النقدي، أفريقيا الشرق، المغرب، ط1، 2013.
- 50-_____: اللغة والمنطق، دار الأمان، الرباط، ط1، 2000م.
- 51-حسن فضل عباس: قصص القرآن الكريم، دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن، ط3، 2010.
- 52-حسن المودن: بلاغة الخطاب الإقناعي، نحو تصوّر نسقي لبلاغة الخطاب، دار كنوز المعرفة، العلمية للنشر والتوزيع، الأردن، عمان، ط1، 2014م.
- 53-حسن فضل الله: الحوار في القرآن الكريم، قواعده، أساليبه، معطياته، دار الملاك، بيروت، لبنان، ط5، 1996.
- 54-حسنين محمد مخلوف: كلمات القرآن، تفسير وبيان، دار ابن حزم للنشر والطباعة، بيروت، لبنان.
- 55-الحسين بنو هاشم: نظرية الحجاج عند شايم بيرلمان، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2014م.

- 56- الحسيني السيد جعفر باقر: أساليب البيان في القرآن، بوستان كتاب، أصفهان، ط1، (د-ت).
- 57- حمّادي صمّود: التفكير البلاغي عند العرب، أسسه تطوّره إلى القرن السّادس، منشورات الجامعة التونسية، 1981.
- 58- حمد عبد الله خضر: العدول في الجملة القرآنية، دار القلم للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، (د-ط).
- 59- الحمصي نعيّمي: فكرة الإعجاز القرآن من البعثة النبوية إلى عصرنا الحاضر، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط2، 1980.
- 60- حمودة عبد الوهاب: القرآن وعلم النفس، دار الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، (د-ط) 1968م.
- حنفي عبد الحليم:
- 61- _____: التصوير الساخر، الهيئة المصرية للكتاب، 1992 .
- 62- _____: أسلوب السخرية في القرآن الكريم، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1978م.
- 63- خالد ميلاد: الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة دراسة نحوية تداولية، المؤسسة العربية للتوزيع، تونس، ط1، 2001م.
- 64- الخالدي صلاح عبد الفتاح: نظرية التصوير عند سيد قطب، دار الشهاب، باتنة، الجزائر، 1988م.
- 65- خطّابي محمد: لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1991م.
- 66- الخطّابي: بيان إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق، محمد خلف الله، محمود زغلول، دار المعارف، مصر، ط3 .
- الخطيب عبد الكريم:
- 67- _____: التفسير القرآني للقرآن، دار الفكر العربي، القاهرة، (د-ط).
- 68- _____: القصص القرآني منطوقه ومفهومه، دراسة تطبيقية لقصتي آدم، ويوسف، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط2، 1975م.
- 69- الخفاجي ابن سنان: سرّ الفصاحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1982م.
- 70- خلف عبد الوهاب: علم أصول الفقه، مكتبة الدعوة الإسلامية شباب الأزهر، مصر، ط8، (د-ت).

- 71- خولة طالب الإبراهيمي: مبادئ في اللسانيات، دار القصة للنشر، حيدرة، الجزائر، ط2، 2006م.
- 72- الدريدي سامية: الحجاج في الشعر العربي، بنيته وأساليبه، عالم الكتب الحديث، الأردن، عمان، ط2، 2007م.
- 73- الدليمي عدنان مهدي: الإعجاز البلاغي في القصة القرآنية، دراسة في سور الطواسين، دار غيداء، عمان، الأردن، ط1، 2013م.
- 74- الدهري أمينة: كتابة الصمت، مجلة البلاغة والنقد الأدبي، العدد رقم 1، يوليو، 2014، المغرب.
- 75- الدوري قحطان عبد الرحمن، رشدي محمد عليان: أصول الدين الإسلامي، دار الإمام الأعظم، النعمان بن ثابت، بيروت، لبنان، ط2، 2011م.
- 76- ت. ج. دي بور: تاريخ الفلسفة في الإسلام، تحقيق، محمد عبد الهادي أبو ريده، دار النهضة العربية، بيروت.
- 77- ذاكر عبد النبي: العين الساخرة، أقنعتها وقناعاتها في الرحلة العربية، المركز المغربي للتوثيق والبحث في لأدب الرحلة، ط1، مارس، 2000م.
- 78- الرازي محمد فخر الدين: مفاتيح الغيب، دار الفكر، لبنان، بيروت، ط1، 1981م.
- 79- الراضي رشيد: المظاهر اللغوية للحجاج، مدخل إلى الحجاجيات اللسانية، المركز الثقافي العربي، الدر البيضاء، المغرب، ط1، 2014م.
- 80- الرماني أبو الحسن: النكت في إعجاز القرآن، (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله، ومحمد زغلول، دار المعارف، مصر، (د-ط).
- 81- الزجاج أبو إسحاق إبراهيم بن السري: معاني القرآن وإعرابه، تحقيق: عبد الجليل عبه شلبي، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1988.
- 82- الزرقاني محمد عبد العظيم: مناهل العرفان في علوم القرآن، تحقيق، فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1995.
- 83- الزركشي بدر الدين: البرهان في علوم القرآن، تح، يوسف عبد الرحمن المرعشلي وآخرون، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- الزماني كمال:
- 84- _____: حجاجية الأسلوب في الخطابة السياسية لدى الإمام علي رضي الله عنه، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2016م.

- 85-_____ : حاجية الصورة في الخطابة السياسية لدى الامام علي رضي الله عنه، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2012م.
- 86- الزمخشري أبو القاسم: الكشف، عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، علق عليه، خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط3، 2009.
- 87- الزيات أحمد حسن: دفاع عن البلاغة، عالم الكتب، القاهرة، ط2، 1967.
- 88- السامرائي فاضل صالح: التعبير القرآني، دار عمار، عمان، الأردن، ط4، 2006.
- 89- بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، العاتك لصناعة الكتاب، القاهرة، ط2، 2006.
- 90- السبعوي طه عبد الله محمد: أساليب الإقناع في المنظور الإسلامي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د-ط)، (د-ت)
- 91- السجل ماسي أبو محمد القاسم: المنزع البديعي في تجنيس أساليب البديع، تحقيق، علال الغازي، مكتبة المعارف، الرباط، المغرب، 1980م.
- 92- السكاكي أبو يعقوب: مفتاح العلوم، تح، عبد الحميد هندراوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2000 .
- 93- السّمّالوطي نبيل محمد توفيق: بناء المجتمع الإنساني، دار الشروق، جدة، المملكة العربية السعودية، ط1، 1980.
- سيد قطب:
- 94-_____ : في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، المجلد الخامس، ط2، 2003
- 95-_____ : التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط7، 2004.
- 96-_____ : مشاهد القيامة في القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط6، 2006م.
- السيوطي جلال الدين:
- 97-_____ : معترك الأقران في إعجاز القرآن، ضبطه وصححه، أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1988م.
- 98-_____ : الإتيقان في علوم القرآن، تح، محمد أبو الفضل إبراهيم، من إصدارات وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، (د-ط).
- 99- الشاطبي أبو إسحاق: الموافقات، ضبط نصّه وعلق عليه، أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار بن عفان للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط1، 1997.

- 100- الشحات محمد أبو ستيت: دراسات منهجية في علم البديع، ط1، 1994، (د-ت).
- 101- شحور محمد: القصص القرآني في قراءة معاصرة، دار الساقى، ط1، 2012، بيروت، لبنان.
- 102- الشريف الرضى: تلخيص البيان في مجازات القرآن، تحقيق، محمد عبد الغني حسن، دار إحياء الكتب العلمية، القاهرة، ط1، 1955م.
- الشعراوي محمد متولي:
- 103- _____: البعث والميزان والجزاء، دار الندوة، الإسكندرية، مصر، (د-ط)، 1991م .
- 104- _____: تفسير الشعراوي، دار أخبار اليوم، القاهرة، (د-ت)، (د-ط).
- 105- الشنقيطي محمد الأمين: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار عالم الفوائد، المملكة العربية السعودية.
- 106- الشهري عبد الهادي بن ظافر: استراتيجيات الخطاب (مقارنة لغوية تداولية)، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2004م.
- 107- الشوكاني محمد بن علي: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، تحقيق، عبد الرحمن عميرة، دار الوفاء، الإسكندرية.
- 108- صابر حباشة: التداولية والحجاج مداخل ونصوص، صفحات للدراسات والنشر، دمشق، الإصدار الأول، 2008م.
- 109- الصابوني محمد علي: صفوة التفاسير، دار القرآن الكريم، بيروت، ط4، 1981م.
- 110- صبحي الصالح: مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين، بيروت، ط10، 1977م.
- 111- صحراوي مسعود: التداولية عند العلماء العرب، دار الطليعة، ط1، بيروت، 2005.
- 112- الصراف علي محمود حجي: في البراجماتية، الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة، دراسة دلالية ومعجم سياقي، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط1، 2010م.
- 113- الصفدي صلاح الدين: جنان الجناس في علم البديع، مطبعة الجوائب، قسطينية، 1299هـ .
- 114- صلاح الدين عبد التواب: الصورة الأدبية في القرآن الكريم، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، القاهرة، ط1، 1995.
- 115- صولة عبد الله: في نظرية الحجاج، دراسات وتطبيقات، مسكيلاني للنشر، تونس، ط1، 2011.
- 116- الحجاج في القرآن، من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفرابي، بيروت، لبنان، ط2، 2007م.

- 117- شوقي ضيف: البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، القاهرة، ط7، (د-ت).
- 118- الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984.
- 119- طبانة بدوي: البيان العربي: دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية، مطبعة الرسالة، القاهرة، ط 2، 1958.
- 120- الطبري أبو جعفر محمد بن جرير: تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق، عبد الله المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر، القاهرة، ط1، 2001.
- 121- طروس محمد: النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2005م.
- 122- الطلبة محمد سالم محمد الأمين: الحجاج في البلاغة المعاصرة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2008.
- 123- طه حسين: من حديث الشعر والنثر، دار المعارف، مصر، ط1، (د-ت).
- طه عبد الرحمن:
- 124- _____: أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 2، 2000م.
- 125- _____: الحق العربي في الاختلاف الفلسفي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط2، 2008م.
- 126- _____: اللسان والميزان، أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1.
- عادل عبد الطيف:
- 127- _____: بلاغة الإقناع في المناظرة، دار الأمان، الرباط، ط1، 2013.
- 128- _____: الحجاج في الخطاب، مقارنة تطبيقية، مؤسسة آفاق للدراسات والنشر والاتصال، مراكش، المغرب، ط1، 2017.
- 129- عباس فضل حسان: البلاغة وفنونها وأفنانها (علم المعاني)، دار الفرقان للنشر والتوزيع، اليرموك، الأردن، ط2، 1998.
- 130- العريفي سعود بن عبد العزيز: الأدلة العقلية على أصول الاعتقاد، دار عالم الفوائد، المملكة العربية السعودية، ط1، رجب 1419هـ.

- 131- العزاوي أبو بكر: اللّغة والحجاج، العمدة في الطبع، الدار البيضاء، ط1، 2006م.
- 132- عز الدين علي السيّد: التكرير بين المثير والتأثير، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط2، 1986م.
- العسكري أبو الهلال العسكري:
- 133- _____: الفروق اللغوية، تحقيق، محمد ابراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، (د-ط)، (د-ت)،
- 134- _____: الصناعتين في الكتابة والشعر، تحقيق، علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، دمشق، ط1، 1952.
- 135- العشرراوي عبد الجليل: آليات الحجاج القرآني، دراسة في نصوص الترغيب والترهيب، عالم الكتب الحديث، الأردن ط1، 2016.
- 136- عشير عبد السلام: عندما نتواصل نغيّر (مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج)، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، (د-ط)، 2006م.
- 137- العلوي يحي بن حمزة: الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، تحقيق، عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، (د-ط).
- 138- عمر بلخير: مقالات في التداولية والخطاب: الأمل للطباعة والنشر، المدينة الجديدة، تيزي وزو، الجزائر.
- العمري محمد:
- 139- _____ في بلاغة الخطاب الإقناعي، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، إفريقيا الشرق، بيروت، لبنان، ط2، 2002.
- 140- _____: البلاغة الجديدة، بين التخييل والتداول، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط2، 2012.
- 141- _____: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، أفريقيا الشرق، المغرب، (د-ط)، 1999.
- 142- _____: دائرة الحوار ومزالق العنف، كشف أساليب الإغانات والمغالطة، مساهمة في تخليق الخطاب، مكتبة الأدب المغربي، إفريقيا الشرق، المغرب، (د-ط)، 2002.
- 143- عياشي منذر: الأسلوبية وتحليل الخطاب، مركز الإنماء الحضاري، حلب، سوريا، ط1، 2002.
- الغزالي أبو حامد:
- 144- _____: منطق تهافت الفلاسفة (معيار العلم)، تح، سليمان دنيا، دار المعارف، مصر، 1961.

- 145- _____: إحياء علوم الدين، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 2005.
- الغزالي أبو حامد:
- 146- _____: المستصفى، من علم الأصول، اعتناء ناجي السويد، ج2، (د-ط).
- 147- _____: إجماع العوام عن علم الكلام، تحقيق، مشهد العلاف، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د-ط)، (د-ت).
- 148- الغزالي محمد: نظرات في القرآن الكريم، نهضة مصر للطباعة، القاهرة، ط6، 2003م.
- 149- الفارابي أبو نصر، كتاب في المنطق، الخطابة، تحقيق، محمد سليم سالم، مطبعة دار الكتب، 1976م.
- 150- فتحي عبد القادر فريد: فنون البلاغة بين القرآن وكلام العرب، دار اللواء، الرياض.
- 151- فتوح، شعيب محيي الدين سليمان: الأدب في العصر العباسي خصائص الأسلوب في الشعر ابن الرومي، دار الوفاء، القاهرة.
- 152- فريد عوض حيدر: علم الدلالة، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2005م.
- 153- فضل الله محمد حسين: الحوار في القرآن الكريم، دار المعارف، ط5، 1987، المقدمة
- 154- الفيروز آبادي مجد الدين محمد بن يعقوب: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق محمد علي النجار، مؤسسة الأهرام، مصر، القاهرة، 1992، (د-ط).
- 155- قادا عبد العالي: بلاغة الإقناع، دراسة نظرية وتطبيقية، كنوز المعرفة، ط1، 2016، عمان، الأردن.
- 156- القارصي محمد علي: البلاغة و الحجاج من خلال نظرية المساءلة، ضمن (أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم)، كلية الآداب منوبة، تونس.
- 157- قدامة بن جعفر: كتاب نقد النثر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1980م.
- 158- قدور أحمد محمد: مبادئ اللسانيات، دار الفكر، دمشق، طبعة منقحة، 2008.
- 159- قدور عمران: البعد التداولي والحجاجي في الخطاب القرآني الموجه إلى بني إسرائيل، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2012م.
- 160- القزويني الخطيب: الإيضاح في علوم البلاغة (المعاني والبيان والبديع)، وضع حواشيه، إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2003م.

- 161- كاصد ياسر حسين: الجرس والإيقاع في التعبير القرآني، مجلة آداب الرافدين، العراق، ط9، (د-ت).
- لاشين عبد الفتاح:
- 162- _____: ابن القيم وحسّه البلاغي في تفسير القرآن، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1982م.
- 163- _____: البديع في ضوء أساليب القرآن، دار الفكر، القاهرة، 1999.
- 164- الماوردي علي بن محمد بن حبيب: الأمثال والحكم، تحقيق، فؤاد عبد المنعم أحمد، دار الوطن للنشر، ط1، 1999، الرياض، المملكة العربية السعودية.
- 165- المبارك محمد: دراسة أدبية لنصوص من القرآن، دار الفكر، بيروت، ط4، 1973.
- المبخوت شكري:
- 166- _____: الاستدلال البلاغي، دار الكتاب الجديدة، بيروت، لبنان، ط2، 2010 م.
- 167- _____: دائرة الأعمال اللغوية مراجعات ومقترحات، دار الكتاب الجديد، ط1، 2010م.
- محمد أبو زهرة:
- 168- _____: الخطابة العربية أصولها، تاريخها في أزهر عصورها، مطبعة العلوم بشارع الخليج، السعودية، الرياض، ط1، 1934م.
- 169- _____: المعجزة الكبرى القرآن، دار الفكر العربي، القاهرة.
- 170- محمد أبو موسى: الإعجاز البلاغي، دراسة تحليلية لتراث أهل العلم، مكتبة وهبة، القاهرة، ط2، 1997م.
- 171- محمد العبد: المفارقة القرآنية دراسة في بنية الدلالة، دار الفكر العربي، ط1، 1994.
- 172- محمد عبد الباسط: في حجاج النص الشعري، أفريقيا الشرق، المغرب، ط1، 2013م.
- محمد مشبال:
- 173- _____: خطاب الأخلاق والهوية في رسائل الجاحظ، مقارنة بلاغية حجاجية، دار كنوز المعرفة، عمان، ط1، 2015م.
- 174- _____: بلاغة الخطاب الديني، دار الأمان، الرباط، ط1، 2015م.
- 175- _____: بلاغة النص التراثي مقارنة حجاجية بلاغية حجاجية، دار العين للنشر، الإسكندرية، 2013 م.

- 176- _____: في بلاغة الحجاج، نحو مقارنة حجاجية لتحليل الخطاب، كنوز المعرفة، عمان، ط1، 2017م.
- 177- محمود السيد حسن مصطفى: الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ط1، 1981م.
- 178- المراغي أحمد مصطفى: علوم البلاغة، البيان والمعاني والبيدع، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 1993م.
- 179- المرتضى الشريف: أمالي المرتضى، غرر الفوائد ودرر القلائد، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ج2، ط1، 1954م.
- 180- المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسين بن علي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1، 2005م.
- 181- المظفر محمد رضا: المنطق، دار التعارف للمطبوعات، لبنان، بيروت، ط3، 2006م.
- 182- المغماسي أمال يوسف: الحجاج في الحديث النبوي، دراسة تداولية، الدار المتوسطة للنشر، تونس، ط1، 2016.
- 183- مناع القطان: مباحث في القرآن، مكتبة وهبة، القاهرة، (د-ط)، (د-ت).
- 184- المناعي عائشة يوسف: الجدل في القرآن عند نجم الدين الطوفي، جامعة قطر، (د-ط)، (د-ت)
- 185- موسى سلامة، البلاغة العصرية واللغة العربية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، القاهرة، (د-ط).
- 186- نازك الملائكة: قضايا الشعر المعاصر، منشورات مكتبة النهضة، القاهرة، ط3، 1967م.
- 187- ناصر عمارة: الفلسفة والبلاغة، مقارنة حجاجية للخطاب الفلسفي، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، 2009.
- 188- ناصف مصطفى: دراسة الأدب العربي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، (د-ت)، (د-ط).
- 189- ناصيف نصّار: منطق السلطة، مدخل إلى فلسفة الأمر، دار أمواج، بيروت، لبنان، ط2، 2001.
- 190- نجاتي محمد عثمان: القرآن وعلم النفس، دار الشروق، القاهرة، ط7، 2001.
- 191- نحلة محمود أحمد: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، (د-ط)، 2002م.

- 192- هلال ماهر مهدي: جرس الألفاظ ودلالاتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1990م.
- 193- هندأوي عبد الحميد: الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم، دار الثقافة للنشر، القاهرة، ط1، 2004م.
- 194- الواحدي: أبو الحسن علي بن أحمد: أسباب النزول، تخريج، عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح، دمام، المملكة العربية السعودية، ط2، 1992م.
- 195- وغليسي يوسف: إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2009م.
- 196- الولي محمد: الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية، دار الأمان، الرباط، ط1، 2005م.

المعاجم العربية:

- 197- ابن فارس حمد: معجم مقاييس اللغة، تحقيق، عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، 1979.
- 198- ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط1، 1990.
- 199- الأصفهاني الراغب: مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق، صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، ط4، 2009.
- 200- التهناوي محمد علي: موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تحقيق، علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 1996م.
- 201- جبور عبد النور: المعجم الأدبي: دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ط2، 1984.
- 202- الجرجاني، أبي الحسن علي بن محمد: التعريفات، دار الفضيحة، التونسية للنشر، تونس، 1971.
- 203- الرازي بن أبي بكر، مختار الصحاح، تحقيق، يوسف محمد الشيخ، الدار النموذجية، ط5، بيروت.
- 204- صليبا جميل: المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، (د-ط)، 1982م.
- 205- عاصي ميشال: المعجم المفصل في اللغة والأدب، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1987.
- 206- علوش سعيد: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1985.
- 207- مطلوب أحمد: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان.

208- وهبة مجدي وكامل المهندس: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان.

المقالات والدوريات

- 209- أحمد يوسف، البلاغة السفسطائية وفتحة الحجاج، (مقال) ضمن، الحجاج مفهومه ومجالاته، ج2، عالم الكتاب الحديث، الأردن، 2010.
- 210- أعراب حبيب: الحجاج والاستدلال الحجاجي، ضمن مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، المجلد 30، العدد 01، يوليو -سبتمبر، 2001.
- 211- ابن أعراب زهرة: دور الأساليب والروابط اللغوية في العملية الحجاجية، مجلة الخطاب، تيزي وزو، العدد 06، يناير 2010.
- 212- حاتم عبيد: منزلة العواطف في نظريات الحجاج، مجلة عالم الفكر، العدد 02، المجلد 40، أكتوبر -ديسمبر، 2011، الكويت .
- 213- الحسين بنو هاشم: آليات الحجاج في كشف ماهو في الحقيقة لجاج، ضمن مجلة عالم الفكر، العدد 02، المجلد 40، أكتوبر 2011.
- 214- حمو النقاري: حول التقنين الأرسطي لطرق الإقناع ومسالكه، مقال، ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته، ج3 الحجاج وحوار التخصصات، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2010 .
- 215- الداودي زاهر بن مرهون بن خصيف: خصائص البنية الحجاجية للخطاب الأشعاري" الوسائط الإعلامية المرئية الثابتة نموذجاً"، جامعة السلطان قابوس: سلطنة عمان، عن مجلة علمية متخصصة في الدراسات الأدبية والنقدية واللغوية، نصف شهرية تصدرها كلية الآداب واللغات، جامعة الجزائر 02، العدد 12 سبتمبر 2015، ص 125 المصدر الرسمي عيد بلبلع: أسلوبية السؤال، رؤية في التنظير البلاغي، ط1، دار الوفاء، القاهرة، 1999.
- 216- الريفي هشام: الحجاج عند أرسطو، ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمادي صمود، سلسلة آداب مجلد 39، كلية الآداب، منوبة، (د-ت).
- الحجاج عند أرسطو، ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمادي صمود، سلسلة آداب، مجلد 39، كلية الآداب، منونة، (د-ت) .
- 217- سامية إدريس: أنماط اشتغال الاستعارة في البلاغة الجديدة، مجلة الخطاب، العدد 19 جانفي 2015، جامعة تيزي وزو، الجزائر.

- 218-الطلبة محمد سالم: مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، مقال، ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته، ج2، عالم الكتاب الحديث، الأردن، 2010
- 219-طه عبد الرحمن: الاستعارة بين حساب المنطق ونظرية الحجاج، مجلة المناظرة، العدد 04، 2ماي 1991.
- 220-عايد جدوع حنون: العوامل الحجاجية في آيات الأحكام، جامعة المثني، كلية التربية للعلوم الإنسانية، مجلة أروك، المجلد التاسع، العدد الرابع، 2016 .
- 221-عبد السلام إسماعيلي علوي: ما التداوليات؟، مقال، ضمن التداوليات علم استعمال اللغة، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط2، 2014.
- 222-العبد محمد: النص الحجاجي العربي، مقال ضمن مجلة جذور، ع 21، 01 ديسمبر 2005، السعودية.
- 223-عز الدين خطابي: إدريس كثير: بلاغة السؤال وسؤال البلاغة، مجلة علامات في النقد، السعودية، العدد 28، يونيو، 1998.
- 224-العزاوي أبو بكر: نحو مقارنة حجاجية للاستعارة، بحث منشور في مجلة المناظرة، العدد (4)، لسنة 1991.
- 225-العوري حسين: الخطاب الشعري ووظائف التخييل عند حازم القرطاجني، مقال، ضمن حوليات الجامعة التونسية، كلية الآداب منوبة، تونس، العدد 57، 2012.
- 226-فريد أمغزشو: البلاغة، مجلة البلاغة والنقد الأدبي، العدد واحد، يوليو، 2014م.
- 227-القارصي محمد علي: البلاغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة، ضمن، (أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم)، كلية الآداب منوبة، تونس.
- 228-المبخوت شكري: نظرية الحجاج في اللغة، ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم.. كلية الآداب منوبة، تونس.
- 229- محمد أحمد علي: التكرار وعلامات الأسلوب في قصيدة (نشيد الحياة) للشابي"دراسة أسلوبية إحصائية" مجلة جامعة دمشق، المجلد 26، العدد الأول/الثاني، 2010.
- 230-محمد سبيلا: الايدولوجيا والبلاغة، مقال، ضمن مجلة المناظرة، العدد رقم 4، 1991، المغرب.
- 231-محمد مشبال: البلاغة العربية وإستراتيجية الإيتوس في النص القرآني، مقال ضمن، بلاغة الخطاب الديني، دار الأمان، الرباط، ط 1، 2015.

232- مسعود صحراوي: تداولية الخطاب القرآني عند الأصوليين، مجلة الخطاب، العدد 08، أبريل، 2011.

233- معتصم با بكر مصطفى: من أساليب الإقناع في القرآن، كتاب الأمة، سلسلة دورية تصدر عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، العدد 95، ط1، جمادي الأولى، 1424هـ.

المراجع المترجمة:

234- أرسطو: السياسيات، نقله عن الأصل اليوناني وعلق عليه الأب أوغسطس بربرارة البولسي، بيروت، 1957 للجنة الدولية لترجمة الروائع الإنسانية .

235- أرسطوطاليس: فن الشعر، ترجمة عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، (د- ط)، 1953،

236- أوستين جون لا نكشو: نظرية أفعال الكلام العامة (كيف ننجز الأشياء بالكلام)، تر، عبد القادر قنيني، دار أفريقيا الشرق، المغرب، 1991.

237- بول ريكور: البلاغة والشعرية والهرمينوطيقا، تر، مصطفى النحال، ضمن، مجلة الفكر ونقد، عدد 16 فبراير، الرباط.

238- توماس أسلوان: موسوعة البلاغة، ترجمة نخبة، مراجعة وتقديم، عماد عبد اللطيف، مصطفى لبيب، طبع بالهيئة العامة للشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ط1، ج2، 2016م.

239- ج فندريس: اللغة، ترجمة عبد الحميد الدواخلي، محمد القصاص، طبع بالهيئة العامة للشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ط1، 2014.

240- جاك موشلار آن ربول: التداولية اليوم علم جديد في التواصل، تر، سيف الدين دغفوس، محمد الشيباني، دار الطليعة للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1.

241- جان كوهن: بنية اللغة الشعرية، تر، محمد الولي، محمد العمري، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب.

242- د.هدسون: علم اللغة الاجتماعي، تر، محمود عياد، عالم الكتب، القاهرة، ط2، 1990.

243- دومينيك مانغونو: المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، تر، محمد يحياتن، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 2008م.

244- روبير بلانشي: الاستدلال، تر، محمود يعقوبي، دار الكتاب الحديث، ط1، 2009.

- 245- رولان بارت: نظرية النص، تر، محمد خير البقاعي، مجلة العرب والفكر العلمي، بيروت، العدد3، 1988.
- 246- رولان بارت: قراءة جديدة للبلاغة القديمة، تر: عمر أوكان، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2011.
- 247- ريل كارينجي: التأثير في الجماهير عن طريق الخطابة، تر، رمزي يسي، وعزت فهيم صالح، دار الفكر العربي.
- 248- سيسيل دي لويس: الصورة الشعرية، تر، أحمد نصيف الجنابي، مالك ميري، سلمان حسن إبراهيم، دار الرشيد للنشر، بغداد، 1982.
- 249- العزاوي أبو بكر: الحجاج في اللغة، مقال ضمن مؤلف الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، ج1، 2012.
- 250- فان دايك: النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، تر، عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، بيروت، لبنان، (د-ط)، 2000م.
- 251- فرانسوا مولاو، البلاغة المدخل لدراسة الصور البيانية، تر، محمد العمري، جريز عائشة، إفريقيا الشرق، المغرب، ط2، 2003 م .
- 252- فيليب بروتون، جيل جوتيه: تاريخ نظريات الحجاج، تر، محمد صالح ناحي الغامدي، مركز النشر العلمي، المملكة العربية السعودية، ط1، 2011.
- 253- مالك بن نبي: مشكلات الحضارة، الظاهرة القرآنية، تر، عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، سورية، ط4، 1987.

المراجع باللغة الأجنبية:

- 254- *petit larousse, Dictionnaire encyclopédique pour tous, Librairie Larousse, Paris 1980,p62.-*
- 255- *Philippe Bretom: L'argumentation dans la communication, 3^{ème} édition, La découverte, Paris, 2003, P 16-17.*
- 256- *-Mariana Tutescu, L'argumentation: Introduction à l'étude de discours, Université de Bucarest, Romain, 1998, p 256.*

المواقع الإلكترونية:

- 257- جميل حمداوي: بلاغة السرد، أو الصورة البلاغية الموسعة

<https://www.alukah.net>

258- العمري محمد: البلاغة العامة والبلاغات المعممة، مجلة فكر ونقد، المغرب، العدد(25)، يناير.

https://www.aljabriabed.net/n24_05omari.htm م2004

259- مدقن هاجر: التمثيل الحجاجي في كتاب "كليلة ودمنة" لابن المقفع، مقارنة تداولية، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة.

<https://revues.univ-ouargla.dz>.

260- مصطفىاوي جلال: قراءة في تلقي البلاغيين العرب للبلاغة الجديدة في العصر الحديث (حمادي صمود، ومحمد العمري) نموذجا.

<https://platform.almanhal.com>

261- الولي محمد: الاستعارة الحجاجية بين أرسطو وشايم بيرلمان، مجلة فكر ونقد، المغرب، العدد(61)، يناير، 2000م.

https://www.aljabriabed.net/n61_07alwali.htm .

الرسائل الجامعية:

262- إبراهيم محمود علان: البديع في القرآن، أنواعه ووظائفه، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الآداب، إصدارات دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2002.

263- أحمد غالب النوري الخرشنة: أسلوبية الانزياح في النص القرآني، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في النقد والبلاغة، جامعة مؤتة، الأردن.

264- أمينة رقيق: بلاغة الخطاب المكتوب، دراسة تقنيات الحرف واللون والصورة في خطاب الدعاية التجارية، أطروحة دكتوراه، علوم، إشراف محمد خان، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، 2013-2014.

265- نور الدين بوزناشة: الحجاج بين درس البلاغي العربي والدرس اللساني الغربي، دراسة تقابلية مقارنة، أطروحة دكتوراه علوم، إشراف خليفة بوجادي، كلية الآداب واللغات، جامعة سطيف، 2015-2016.

266- واضح أحمد: الخطاب التداولي في الموروث البلاغي العربي من القرن الهجري إلى القرن السابع الهجري، أطروحة دكتوراه علوم، إشراف لزعر مختار، كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة وهران، 2011-2012.

فهرس

الآيات القرآنية

الصفحة	رقم الآية	السورة	الآية
128	05	الفاتحة	﴿إِيَّاكَ تَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾
25	258	البقرة	﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْحَقُّ وَأُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾
116	129	البقرة	﴿رَبَّنَا وَأَنْبِئْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾
117	06	البقرة	﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾
117	89	البقرة	﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾
119	28	البقرة	﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾
123	25	البقرة	﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾
222	138	البقرة	﴿صَبَّغَهُ اللَّهُ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صَبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾
196	235	البقرة	﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ﴾
266	260	البقرة	﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُنحِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِكَ نَفْسٌ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ بَأْسٌ وَلَا لَكِنِّي لِيُظْمِنُ قَلْبِي﴾
114	156	آل عمران	﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾
123	21	آل عمران	﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾
210	40	النساء	﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظُنُّهُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾
119	65	المائدة	﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دَخَلْنَا لَهُمْ جَنَّةَ النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾﴾
124	58	المائدة	﴿اتَّخَذُواهَا هُزُوعًا وَلَعِبًا﴾
280	90	الأنعام	﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْيِهِمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرًا لِلْعَالَمِينَ﴾
285	11	الأنعام	﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ﴾
278	74	الأنعام	﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ إِذْ أَرَّأْتُمْ اتَّخَذُوا صَنَامًا ءَالِهَةً إِيَّكَ رَبِّ فَصَلِّ لِيُؤْتِيَنِي مِنْهُ﴾
279	80	الأنعام	﴿وَوَجَّاهُ قَوْمَهُ قَالَ اتَّخَذُوا فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي﴾
28	71	الأعراف	﴿اتَّخَذُوا لِي سُمُومًا سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَإِبَائُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾

67	179	الأعراف	﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾
228	182	الأعراف	﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ ﴾
254	70	الأعراف	﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾
278	151	الأعراف	﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾
277	154	الأعراف	﴿ وَفِي نُحُوتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْتَهِبُونَ ﴾
278	150	الأعراف	﴿ وَاللّٰقِيَ الْاَلْوٰحِ وَاَحَدَ بِرَاسِ اَخِيهِ يَجْرُهُ اِلَيْهِ قَالَ ابْنَ اُمَّ اِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوْا يَقْتُلُوْنِي فَاَلَا نُنشِئُ بِتِ الْاَعْدَاءِ وَلَا تَجْعَلُنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِيْنَ ﴾
101	23-22	الأنفال	﴿ اِنَّ سَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللّٰهِ الضُّمُّ الْبِكْرُ الَّذِيْنَ لَا يَعْقِلُوْنَ ﴿٢٣﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللّٰهُ فِيْهِمْ خَيْرًا لَّاسْمَعَهُمْ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ اَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُوْنَ ﴿٢٤﴾ ﴾
189	35	الأنفال	﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾
61	38	يونس	﴿ اَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ قَاتُوا بِسُوْرَةِ مِّثْلِهِ ﴾
224	22	يونس	﴿ كُنْتُمْ فِي الْفَلَاحِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ ﴾
288	92	يونس	﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُوْنَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَاِنَّ كَثِيْرًا مِّنَ النَّاسِ عَنِ اٰيَاتِنَا لَعٰفِلُوْنَ ﴾
28	96	هود	﴿ وَلَقَدْ اَرْسَلْنَا مُوسٰى بِآيَاتِنَا وَسُلْطٰنٍ مُّبِيْنٍ ﴾
256,61 309,263	13	هود	﴿ اَمْ يَقُولُوْنَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ قَاتُوْا بِعَشْرِ سُوْرِ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ ﴾
103	118	هود	﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ اُمَّةً وَّاحِدَةً وَّلَا يَزَالُوْنَ مُخْتَلِفِيْنَ ﴾
131,102	120	هود	﴿ وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ اَنْبِآءِ الرُّسُلِ مَا نُنشِئُ بِهٖ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَّذِكْرٰى لِّلْمُؤْمِنِيْنَ ﴾
160,103	49	هود	﴿ تِلْكَ مِنْ اَنْبِآءِ الْغَيْبِ نُوْحِيْهَا اِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا اَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هٰذَا فَاَصْبِرْ اِنَّ الْعَقِيْبَةَ لِّلْمُتَّقِيْنَ ﴾
212,109	114	هود	﴿ وَاَقِمِ الصَّلٰوةَ طَرَفِي النِّهَارِ وَرُلُقًا مِّنَ اللَّيْلِ اِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِنُ بِهِنَّ السَّيِّئَاتِ ذٰلِكَ ذِكْرٰى لِّلذٰكِرِيْنَ ﴾

311،137	50	هود	﴿ وَإِلَىٰ عَادِٰ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ إِن أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾
137	61	هود	: ﴿ وَإِلَىٰ نَمُودَٰ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾
162،138، 168، 185،219، 284	44	هود	﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلُغِي مَاءَكَ وَيَسْمَأْهِ أَقْلِي وَيَغِيصِ الْمَاءَ وَفِيصِ الْأَمْرِ وَأَسْتَوْتِ عَلَىٰ الْجُودِيِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾
139	93	هود	﴿ وَيَقَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَن هُوَ كَذِبٌ ۖ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾
139، 199،161 260،242	43-42	هود	﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ ۖ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ قَالَ سَاوِيَ إِلَىٰ جِبَلٍ يَّعِصْمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِن أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۗ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُعْرَفِينَ ﴾
141	80	هود	﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَىٰ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾
178،143	06	هود	﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَىٰ اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾
151،143 211،193	05	هود	﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَبْتَنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُبْسِرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۗ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾
164،145 270	85-84	هود	﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا الْمَكِّيَالَ وَالْمِيزَانَ ۖ إِنِّي أُرِيكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٥﴾ وَيَقَوْمِ ۖ أَوْفُوا بِالْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾
146	23	هود	﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾
147	37	هود	﴿ وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾
170،155	12	هود	﴿ فَلَمَّا كُنَّا تَارِكًا بَعْضُ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَهُ مَعَهُ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾
150	08	هود	﴿ وَلَٰئِن أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسٌ مَّصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٨﴾

151	60	هود	﴿ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بَعْدَ لِعَادٍ قَوْمٍ هُودٍ ۗ ﴾
129	02	هود	﴿ أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۗ إِنَّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۗ ﴾
240،163	70	هود	﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۗ قَالُوا لَا تَخَفْ ۗ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ لُّوطٍ ۗ ﴾
165،167 252،201	46	هود	﴿ قَالَ يَتُوحُّ إِلَهُهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۗ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ۗ فَلَا تَسْتَأْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۗ إِنِّي أَعْطَكُم مَّا تَكُونُ مِنَ الْجَاهِلِينَ ۗ ﴾
177،166 200	45	هود	﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ۗ ﴾
171	63	هود	﴿ قَالَ يَقْتُومُ آرَاءَ بَيْتِمُ إِنَّ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْتِهِ مِنْ رَبِّي وَعَآتِنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ ۗ إِنَّ عَصِيئَهُ فَمَا تَزِيدُونِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ۗ ﴾
172	81	هود	﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ۗ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ۗ ﴾
229	55	هود	﴿ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظَرُونَ ۗ ﴾
173،176 312،262	89	هود	﴿ وَيَقْتُومُ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي ۗ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ۗ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ۗ ﴾
243،173	87	هود	﴿ قَالُوا يَدْعَعِيبُ أَصَلَوْنَاكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ۗ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ۗ ﴾
175	72	هود	﴿ قَالَتْ يَوٰىلَتِي ۗ أَيْدِي وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا ۗ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ۗ ﴾
175	73	هود	﴿ قَالُوا أَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۗ رَحِمَتْ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ ۗ أَهْلَ الْبَيْتِ ۗ إِنَّهُ حَمِيدٌ ۗ ﴾
197،152،	27-26	هود	﴿ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۗ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْبِيعِ ۗ ﴿٦٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَىٰ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرَىٰكَ أَتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بُادِيَ الرَّأْيِ وَمَا تَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ۗ ﴾
137	50	هود	﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقْتُومُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۗ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ۗ ﴾
183	52	هود	﴿ وَيَقْتُومُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ۗ ﴾
184	59	هود	﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَمِيدٍ ۗ ﴾

192،171 231،235	28	هود	﴿ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كِرِهُونَ ﴾
195	58	هود	﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَا هُمْ مِنْ عَذَابٍ عَلِيمٍ ﴾
269،197 309	27	هود	﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشْرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِآدَاءِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾
235،197 235	29	هود	﴿ وَيَقَوْمٍ لَا سَمْعُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَّا إِنْ أَجْرَىٰ إِلَّا عَلَىٰ اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلَقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ ﴾
198	31	هود	﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾
301،284	33-32	هود	﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾
204،61 ،236،223 293	38	هود	﴿ وَصَنَعَ الْفُلَّكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾
205	87	هود	﴿ قَالُوا يَدَّعِيِبِ أَصْلُوْنَاكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرِكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشْتَوِي إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾
252،206	91	هود	﴿ قَالُوا يَدَّعِيِبِ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَا نَرَاهُكَ لَرَجْمَنَّكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾
212	10	هود	﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ ۝١٠ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَّتهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾
242،212	82	هود	﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنصُوبٍ ﴾
265،213	24	هود	﴿ مِثْلُ الْقَرِيْقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْبَرَ وَالْبَصِيرَ وَالسَّمِيعَ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مِثْلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾
216	35	هود	﴿: أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا يُجْرِمُونَ ﴾
-218 285	100-98	هود	﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَرْوُودُ ۝٩٨ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ۝٩٩ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقَّصْنَاهُ عَلَيْكَ ﴾

221	122-121	هود	﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَأَنْتُمْ لَا تُؤْمِنُونَ ﴾
254-225	54-53	هود	﴿ قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٤﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْرَابًا مِّمَّا بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾
226,179	03	هود	﴿ وَإِنْ أَسْتَعْتَفُوا رَبَّكُمْ فَرُّوا إِلَيْهِ يَمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴿١٧٩﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾
227	83	هود	﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ﴿٨٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾
228	90	هود	﴿ وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾
231	113	هود	﴿ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾
268	108-105	هود	﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ سَفَّوْا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٨﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَّجْدُودٍ ﴾
275	04	هود	﴿ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾
278	75	هود	﴿ إِنْ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴾
277	40	هود	﴿ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾
134	82	يوسف	﴿ وَسَقِلِ الْقَرْيَةَ ﴾
230	52	يوسف	﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ ﴾
105	111	يوسف	﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾
28	22	إبراهيم	﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾
115	04	إبراهيم	﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾
115	47	الحجر	﴿ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾
164	52	الحجر	﴿ قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴾

123	58	النحل	﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾
146	91	النحل	﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾
259	74	النحل	﴿ فَلَا تَصْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ﴾
264	103	النحل	﴿ وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجِبُكُمْ وَهَذَا لِسَانُ عَرَبِيٍّ مُّبِينٌ ﴾
280	123	النحل	﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾
61	88	الإسراء	﴿ قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ
126	13	الإسراء	﴿ وَكُلٌّ فِيهِمُ النَّارُ سَازِجَةٌ وَهُمْ فِيهَا كَارِبُونَ ﴾
27	22	الكهف	﴿ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِبَادَتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾
119	56	الكهف	﴿ وَيَجِدِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾
228	47	مريم	﴿ قَالَ سَلِّمْ عَلَيْنَا سَلَامًا وَسْتَغْفِرْ لَنَا رَبِّي إِنَّهُ كَانَ فِي حَفِيًّا ﴾
125	41	الأنبياء	﴿ وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتَ بُرْسِلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾
196، 125	63-62	الأنبياء	﴿ قَالُوا ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِعَالِيَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَتَعَلَوْهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْظُرُونَ ﴾
293	10- 9	طه	﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿٩﴾ إِذْ رَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ ﴾
67	46	الحج	﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ
274	05	الحج	﴿ يَتَّبِعُونَ النَّاسَ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ﴾
209	45	الفرقان	﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴾
67	194-193	الشعراء	﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾
192	111	الشعراء	﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴾
118	14	النمل	﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾
122	44	النمل	﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسَأْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

215	12	النمل	﴿وَأَدْحِلْ بَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْجُجَ بَيْضَةً مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾
190	76	القصص	﴿...إِنِ اتَّخَذَ اللَّهُ لِيُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾
120	13	لقمان	﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾
61	19	الأحزاب	﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْحَافِرُ سَلَفُكُمْ بِالْأَسِنَّةِ حِدَادٍ﴾
120	32	فاطر	﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾
229	22	يس	﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾
273	78	يس	﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾
287	137-138	الصفافات	﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُونَ عَلَيْهِمْ مُّصْطَجِبِينَ ﴿٣٧﴾ وَبِأَيْلِ أَفْلا تَعْقِلُونَ﴾
105	78	غافر	﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْضُصْ عَلَيْكَ﴾
144	57	غافر	﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾
109	15	فصلت	﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾
157	26	فصلت	﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾
283	11	فصلت	﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾
259، 120	42	الشورى	﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾
100	49	الدخان	﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾
272	24	الجاثية	﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا مَوْتٌ وَنَحْنَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾
124	13	الجاثية	﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾
208	09	الأحقاف	﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ﴾
280	35	الأحقاف	﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَرْشِ مِنَ الرُّسُلِ﴾
103	13	الحجرات	﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾

114	10	الحجرات	﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾
115	12	الحجرات	﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾
148	23-22	الذاريات	﴿ فِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٣﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴾
241	28	الذاريات	﴿ فَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحْفَظُوا وَيَسْتَرْوُهُ بِعُلَمِ عَلَيْهِ ﴿٢٨﴾ ﴾
150	08- 07	الطور	﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴾
97	21	الحشر	﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَشِيعًا مُتَصِدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾
302	6 - 5	نوح	﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴾
302	07	نوح	﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْدِقِيهِمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾
303	21	نوح	﴿ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مِنْ لَّدُنِّي دُجًى إِلَّا حَسَارًا ﴾
144	30-27	النازعات	﴿ وَأَنْتُمْ أَشَدُّ حَقًّا أَوْ السَّمَاءُ بَدَلَهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيَهَا ﴿٢٨﴾ وَأَعْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾
281	24	النازعات	﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾
274	22 - 17	عبس	﴿ قَتَلَ الْبَإْسَانَ مَا أُكْفِرَهُ (17) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (18) مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ (19) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ (20) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (21) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ﴾
287	06	الحاقة	﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَاهْتَكَمُوا بُرْجَ صَاصِرٍ عَاتِيَةٍ ﴾
286	12-06	الفجر	﴿ إِرْمِ ذَاتَ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَعَنُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْتَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ ﴾



فهرس الموضوعات

إهداء

كلمة شكر

مقدمة: 01

مدخل

التطور المفهومي لمصطلحي الحجاج والبلاغة

- 07 - توطئة
- 08 أولاً: في ماهية الحجاج والبلاغة
- 08 1- الحجاج عند الغرب
- 10 2- الحجاج عند العرب
- 11 3- هوية البلاغة عند الغرب والعرب
- 16 4- ما معنى الحجاج البلاغي؟
- 19 ثانياً- تعالق الحجاج مع بعض المصطلحات الخطابية
- 19 1- الحجاج والحوار
- 20 2- الحجاج والأسلوب
- 21 3- الحجاج والبرهان
- 22 4- الحجاج والجدل
- 22 1-4 الجدل في منطق الفكر الغربي
- 24 2-4 الجدل وأنواعه في المنطوق القرآني

الفصل الأول

مظاهر الحجاج البلاغي بين الإمتاع والاقتناع

- 31 أولاً- معالم التفكير البلاغي الكلاسيكي في السياق اليوناني
- 31 1- البلاغة السفسطائية بين هباء التأويل وحبّ الذات
- 33 2- الخطابة عند أفلاطون

- 3- معالم الدرّس البلاغي الأرسطي 33
- 4- شهادة وفاة البلاغة الكلاسيكية 35
- ثانيا- الميلاد الجديد للبلاغة عند منظري الغرب 36
- 1- الآفاق التحديثية للبلاغة عند شايم بيرلمان (Shaiem perlman) 36
- 1-1 الحجاج جوهر العملية "التخاطبية" 38
- 1-2 تصنيفات الحجج في منظور (بيرلمان) 39
- 2- فلسفة السؤال عند ميشال مايير (Michel Meyer) 40
- 3- نظرة الحجاج عند تولمين (stephen Toulimin) 43
- 4- الحجاج عند أرفالد ديكر (Oswald Ducrot) 45
- 1-4 السلم الحجاجي وقوانينه 45
- 2-4 دور الروابط والعوامل في بناء الأسلوب الحجاجي 47
- 3-4 مظاهر القيم والمواضع في الخطاب الحجاجي 48
- ثالثا- التحليل التداولي للخطاب البلاغي 50
- 1- التداولية: نظرات في المفهوم 50
- 2- نظرية أفعال الكلام 52
- 1-2 الفعل الكلامي عند أوستين 52
- 2-2 الفعل الكلامي عند سيرل 57
- رابعاً- المسار التاريخي في تشكّل الدرّس البلاغي عند العرب 60
- 1- موقف التّحدي في بلاغة القرآن وإعجازه 60
- 2- دور المعتزلة في نهضة البلاغة وتطورها 62
- 3- اتجاهات الدارسين في بيان إعجاز القرآن 65
- 1-3 عند أبو الحسن بن عيسى الرمانى (296هـ-386هـ) 65
- 2-3 الإعجاز البلاغي عند الخطابي (ت 388هـ) 68

- 3-3 الإعجاز البلاغي عند أبو بكر الباقلاني (338هـ-402هـ)..... 70
- 4- شعرية البيان ودورها الإقناعي عند البلاغيين 71
- 1-4 موقع الجاحظ في درس البلاغي والإقناعي (255هـ)..... 71
- 2-4 الجرجاني ونظراته البلاغية (471هـ)..... 76
- 3-4 الاستدلال البياني عند السكاكي (626هـ)..... 80
- 4-4 البلاغة بين التخييل والإقناع عند حازم القرطاجني (684هـ)..... 84
- 5- آية الحجة وملاح تأثيرها في الخطاب البلاغي..... 87
- 1-5 القياس الخطابي..... 87
- 2-5 الاستعارة..... 88
- 3-5 التمثيل..... 91
- 4-5 جمال الأسلوب..... 92
- 5-5 الاستشهاد..... 93
- 6-5 الشاهد..... 93
- 6- الفعالية النفسية للمخاطب والمتلقي..... 93
- 7- سلطة السياق وتجلياته في درس البلاغي..... 97
- خامسا- الأسلوب الحجاجي للقصص القرآني بين الترغيب والترهيب..... 102
- 1- الغرض الحجاجي من أسلوب القصة في القرآن الكريم..... 103

الفصل الثاني

التوظيف الحجاجي في درس اللغوي والتداولي في سورة هود

- توطئة..... 108
- التعريف بالمدونة القرآنية..... 109
- أولا- حجاجية المفردة القرآنية وعدولها في الخطاب القرآني..... 111
- 1- المقتضى المعجمي للفظة الأخ..... 114

- 117.....2- المقتضى المعجمي للفظه الكفر
- 120.....3- المقتضى المعجمي للفظه الظلم
- 122.....4- المقتضى المعجمي للفظه البشارة
- 124.....5- المقتضى المعجمي للفظه السخرية
- 126.....6- المقتضى المعجمي للفظه أنلزمكموها
- 127.....ثانيا- العدول التركيبى وأثره الحجاجى فى السىاق القرآنى
- 128.....1- التّقديم والتّأخير
- 131.....2- بلاغة الصمت والإضمار
- 141.....3- العدول الكمي وطابعه الحجاجى
- 146.....4- التّوكيد وقيمه الحجاجية
- 152.....5- الروابط والعوامل ودورهما فى بناء الأسلوب الحجاجى
- 152.....1-5 الرابط بل
- 153.....2-5 الرابط لكن
- 155.....3-5 العامل إنّما
- 156.....ثالثا: الأفعال الإنجازية فى سورة هود
- 156.....1- الإخباريات
- 157.....1-1 وصف القرآن الكريم وتحدّيه
- 158.....2-1 وصف أدلة التوحيد
- 158.....2- التوجيهات
- 159.....1-2 الأمر
- 163.....2-2 النهى
- 165.....3-2 النداء
- 168.....4-2 الاستفهام

- 176..... 5-2 التعبريات
- 178..... 6-2 الالترامات

الفصل الثالث الحجاج البلاغي وآلياته الإقناعية

- 181..... - توطئة
- 182..... أولاً: من سلطة اللغة إلى تجليات الصورة في الخطاب القرآني
- 182..... 1- المجاز المرسل
- 184..... 2- حجاجية الاستعارة
- 195..... 3- البعد الحجاجي لأسلوب الكناية والتعريض
- 203..... 4- القوة الحجاجية للصورة الساخرة
- 208..... ثانياً- البديع بين جرس الألفاظ وتداعيات المعاني
- 209..... 1- الطباق
- 212..... 2- المقابلة
- 217..... 3- الجناس
- 222..... 4- المشاكلة
- 224..... 5- حركة الالتفات وقيمه الحجاجية
- 228..... 6- الحجاج بالاستدراج
- 232..... 7- التكرار وغرضه الحجاجي
- 233..... 1-7 تكرار القصص
- 235..... 2-7 حجية تكرار النداء
- 236..... 3-7 التكرار الاشتقائي
- 238..... 8- آفاق التناسق الموسيقي وحجاجيته في القرآن الكريم
- 239..... 1-8 إيقاع اللفظ وأثره في المتلقي

242 2-8 تناسق إيقاع الفواصل مع السّياق

245 خلاصة

الفصل الرابع

الاستدلال الحجاجي في الخطاب القرآني

247..... أولاً- الاستدلال القياسي وأثره في إظهار الدليل

247..... 1- الاستدلال الطّبيعي

249..... 2- آليات الاستدلال القياسي في القرآن الكريم

250..... 1-2 القياس المضمّر وأبعاده الحجاجية

253..... 2-2 قياس الخُلف

258..... ثانياً- طرق أخرى للاستدلال الحجاجي:

258..... 1- الاستدلال بالمثل والتمثيل

267..... 2- الاستدلال بتقسيم الكل إلى أجزاءه المكونة له (Argument de division)

270..... 3- الاستدلال بذكر العام بعد الخاص

272..... 4- الاستدلال على بيان دحض حجّة منكري البعث

276..... ثالثاً- الحجاج بسلطة الهوية والقُدوة

276..... 1- سلطة هوية الشخص وأعماله

279..... 2- حجّة القدوة والقُدوة المضادة

282..... 3- الاحتجاج بالسلطة

284..... 4- الشّاهد التاريخي

290..... رابعاً- التمثيل الحجاجي للقصة القرآنية

292..... 1- براعة الاستهلال ودوره الإقناعي

293..... 2- حجاجية التّصوير والتّشخيص في التّعبير القصصي

296..... 3- الحوار وإنتاجه الحجاجي في القصة القرآنية

296	1-3 الحوار الحجاجي بين نوح عليه السلام وقومه
304	2-3 الإثارة الحجاجية لأهواء الأبوة
306	3-3 نظرية الاستلزام الحواري
310	4-3 عناصر التأذب ودورها الحجاجي
312	4- حجية المكان والزمان في القصص القرآني
313	5- خاتمة القصص وطابعها الحجاجي
314	6- التمثيل الحجاجي العام للسورة
318	خلاصة
319	خاتمة
324	قائمة المصادر والمراجع
343	فهرس الآيات
355	فهرس الموضوعات
	ملخص الدراسة

ملخص البحث

الملخص باللغة العربية:

الخطاب القرآني: قيمة مادية على أرض الواقع، تفرض سَطوة على العقل البشري، وتنتزع منه ما علق به من انتقاص، وتتوسل بكل الوسائل والأساليب الفاعلة والمؤثرة لبناء الإنسان، وتخليصه من الهشاشة العاطفية والهامشية، وتبعده عن العنف والتطرف .

وقد أضحى الحجاج البلاغي ضرورة في التخاطب اليومي، إذ لا يمكن الاستغناء عنه في بناء شخصية الفرد وتسوية سلوكه وفكره وثقافته، مُدعماً في ذلك بكل الآليات والوسائل البلاغية، كالقياس الخطابي والآليات اللغوية، والصور البيانية، والمحسنات البديعية وهذا الأسلوب تنهضُ عليه علاقتنا بالمتلقي الذي يكون بالنهاية ضحية لما نقدم من حُجج وبراهين، والأسلوب من هذه الناحية تحديداً هو الصوت الذي يُحرك أشجان المتلقي، فتعطف نفسه لقوة حُجته وتأثير بيانه.

لذلك فإنّ الحجاج البلاغي رافد مهم في عملية التواصل، التي تجمع بين حُجة العقل وعوالم التأثير الوجداني والعاطفي، فتدفع بالمتلقي إلى الإبداع والنمو والتطور. وواضح أنّ هذا العصر يدعونا بقوة إلى الاهتمام بكلّ أطياف البلاغة الحجاجية؛ لأنها تسهم في صناعة فكر جديد، يتعاطى مع تطلّعات المتلقي ورغباته.

الملخص باللغة الفرنسية:

Résumé :

Le discours coranique vient pour enlever le voile de l'ignorance, des esprits aveuglés, de redonner l'ouïe pour les sourds, et enlever de l'esprit humain les idoles païennes. Cela est fait en utilisant tous les outils et les moyens stylistiques efficaces et efficientes, dans le but ultime est de construire un être humain droit en dehors de l'extrémisme et la violence.

La rhétorique de l'argumentation devient une nécessité de conversation quotidienne. Elle ne pourrait pas être mise à l'écart dans la construction de la personnalité de l'individu et surtout pour assainir son comportement, sa pensée et sa culture. Pour ce faire, on se base sur les mécanismes et les moyens rhétoriques et linguistiques, la démonstration discursive et les figures de style, en ajoutant le style qui a un rôle important de mobiliser les passions du destinataire qui s'incline de tendresse, et est influencé par sa force argumentative et son pouvoir démonstratif.

A la fin, nous pouvons dire que la rhétorique de l'argumentation est un secteur primordial dans l'entente sociale. Puisqu'elle conjugue la démonstration rationnelle avec les conceptions émotionnelles et passionnelles de. Cela pousse le destinataire à devenir créatif et évolutif. En effet, l'époque contemporaine nous interpelle à mieux intéresser de tous les types de la rhétorique de l'argumentation car elle contribue à la construction pensée contemporaine qui va avec les désirs et l'attente du destinataire.